





محمد علي ديفيد بونيور توماس كامبل ابريل زوشيت صغير طاهر احمد زويل

پول فندلي



لا سكوت بعد اليوم

مواجهة الصور المزيّفة عن الإسلام في أميركا








آغا سعيد سلام المراياطي عبد الرحمن العامودي ريما نشاشيبي يحيى باشا نهاد عوض



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

پول فندلي

لا سكوت بعد اليوم

مواجهة الصور المزيّفة عن الإسلام في أميركا

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص. ب.: ٨٣٧٥ - بيروت لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ - ٧٥٠٨٧٢ - ٣٤٤٢٣٦ ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الخامسة ٢٠١٠

ISBN: 978-9953-88-425-7

الإخراج الفني: زاهية عاصي

المحتويات

إلـــــى

كل من يُجِلّون الحرية، لكل الناس، في كل مكان

«إن دفاعنا هو الروح التي تقدّر الحرية بوصفها تراث كل البشر في كل مكان. فإذا دمرت هذه الروح، فإنك تزرع بذور الطغيان حول أبوابك»

ابراهام لنكولن

من خطاب في ادواردزفيل، بولاية إيلينوي

١١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٥٨



شكر

هذا هو كتابي الخامس، وهو الأكثر تحدّياً وتعقيداً وسحراً. وقد ساعدني في تأليفه معظم الأشخاص المذكورين في الكتاب، والذين زوّدوني بحكايات وتجارب شخصية وعِبَر، فيها من التبصّر ما لا يقدّر بثمن. وقد فعلوا ذلك بحماسة، آملين أن يساعد هذا العمل، بصيغته النهائية، على إزالة الالتباس في فهم الإسلام.

وعلى مستوى التحرير، كانت شيرلي كلويز على رأس الذين قدّموا لي يد العون. فقد حرّرت، في السنوات الماضية، كتابين وضعتهما عن العلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل؛ وهي تساعد، الآن، على تخفيف المعاناة الإنسانية الناجمة عن النزاع الأهلي في كوسوفو. وساعد في التحرير المفصّل العلامة الدكتور نور نصيري، وزوجته زينب البرّي؛ وأندرو باترسن، المدرّس واللغوي؛ والدكتور ولف فوهريغ، الأستاذ المتقاعد في العلوم السياسية، وهو جارٌ لي.

وتولّت لوسيل، زوجتي، وهي أفضل نقّادي، توضيح ما هو مشوّش، أثناء تصحيح التجارب الطباعية. ولا ريب في أن تكليفها قراءة عدة مسوّدات للفصول نفسها قد أسهم في أن يرى هذا الكتاب النور؛ وقد ساعد كل من ولدينا، كريغ وديان، على تحسين النص. وينعم كريغ وديان، مثلما أنعم أنا وزوجتي، بصداقات مع أناس ذوي ثقافات وأديان متعددة. أما موظفو دار أمانا للنشر، فقد كان تعاونهم وصبرهم سخيين.

وإنني أشعر بشيء من الأسى فيما تغادر هذه المخطوطة يديّ، وقد ضُغطت في قرص مُدمّج صغير. إذ إن إعدادي لها عمّق احترامي للإسلام، وأغنى حياتي بصداقات مع عدد من المسلمين. ومع القرص، أرغب في أن تبقى هذه الصداقات.



مقدمة الطبعة العربية

أتوجَّه، في هذا الكتاب، إلى قرّاء العربية، بقدر ما أتوجه إلى قرّاء الإنجليزية. إنه كتاب عن المسلمين الأميركيين، لكنَّ ما أرمي به إليه إنما هو مخاطبة جميع الناس أينما وُجدوا. فأنا مواطن من مواطني الولايات المتحدة الأميركية، أعتنق المسيحية، وأومن بأن الشعوب في أرجاء العالم تكون مهدَّدة عندما تخطئ القوة العظمى الوحيدة في هذا العالم، فتنظر إلى المسلمين، الذين يشكِّلون نسبة كبيرة من سكانها، نظرتها إلى راديكاليين خطرين، يعبدون إلهاً توّاقاً إلى الانتقام، ولا يتسامحون حيال معتنقي الديانات الأخرى.

إن هذه الأفكار الخاطئة هي من الأسباب الرئيسية، التي جعلت الإدارات الأميركية المتعاقبة، منذ عهد الرئيس دوايت أيزنهاور، تُبدي انحيازها الشديد إلى إسرائيل ضد العرب. والواقع: أَن إسرائيل، منذ نشوئها، كانت في حالة حرب مع جيرانها العرب، وما تزال. وكان الحكم في الولايات المتحدة، منذ ستينات القرن العشرين، حليفاً لإسرائيل في أزمنة الحروب، وأواصر التحالف معها كانت تشتد باطِّراد، ومعظم الأميركيين، حتى يومنا هذا، غافلون، إلى حد بعيد، عن هذا التحالف، جاهلون لِمَدى عمقه وحجم ما يرتِّبه عليهم من تكاليف.

وفيما أنا منكبّ على كتابة هذه الكلمات، تُطلق نيران الدبابات والطائرات

وغيرها من الأسلحة التي منحتها الولايات المتحدة لإسرائيل، في أعمال حربية تُشَنّ على الفلسطينيين، المجرَّدين في غالبيتهم من السلاح، الذين يناضلون بلا جدوى، لمنع إسرائيل من الاستيلاء على المزيد من أراضيهم، ومنعها من تدمير بيوتهم وسُبُل عيشهم، ومسِّ كرامتهم، وحرمانهم حقوقهم الإنسانية. وإذا كان الجنود الإسرائيليون يضغطون على زناد أسلحتهم، فإن تواطؤ الحكم الأميركي معهم هو الذي يجعلهم قادرين على شنّ هجماتهم المميتة.

إن انتشار الأفكار النمطية المزيّفة عن الإسلام في أميركا أوسع من انتشارها في أي مكان آخر من العالم. وبعض هذه الأفكار تتغذّى من الجهل، ولكنها كلّها تُخصَّب بجرعات مركّزة من الحقد. وهي عامل مساعد للعدوان الإسرائيلي، وتشكّل دعامة من دعائم الشراكة الأميركية ـ الإسرائيلية. ذلك أن إسرائيل، عندما تهبّ للدفاع عن تعاملها المُخْزي مع الفلسطينيين، والدفاع عن مطالبتها بالمزيد من المساعدات الأميركية، فإنها تَدَّعي أن «الإرهابيين المسلمين» يهدّدونها في وجودها نفسه. وهذه الحجج التي تَسُوقها إسرائيل تجد سبيلها إلى الإقناع بفعل الأفكار النمطية المزيّفة عن المسلمين. ولو تسنّى للشعب الأميركي أن يدرك حقيقة الإسلام، لانتهى هذا التواطؤ المميت على نحو غير متوقع.

هذا يعني أن النضال الأساسي، من أجل العدالة في الشرق الأوسط، معركة يجب كسبها في الولايات المتحدة، وإن كان بوسع الآخرين، في غيرها من البلدان، مَدَّ يد المساعدة. فالشعب الأميركي لا يتوانى عن مساعدة المضطَّهَدين عندما يعلم باضطهادهم، ومن شأن هذا العلم أن يوقظ فيه الرغبة في المساعدة. وقراء هذا الكتاب قادرون على المساعدة في إعلام هذا الشعب، وحثّه على التحرك. والخطوة الأساسية الأولى، في هذا الاتجاه، هي العمل لمحو الأفكار الخاطئة عن الإسلام في أميركا. في وُسْعكم، أيها القراء، أن تُساعِدوا في ذلك، بإرسال نسخ من هذه الطبعة العربية إلى المواطنين في الولايات المتحدة، الذين يرتاحون إلى القراءة بالعربية أكثر مما يرتاحون إلى

القراءة بالإنجليزية، وهناك الآلاف من أمثال هؤلاء. فواجبكم أن تَحثُّوهم على المشاركة في النظام السياسي الأميركي من أجل تصحيح الأفكار الخاطئة: لأن هذا التصحيح هو الأساس الذي تقوم عليه السياسات الأميركية في الشرق الأوسط. وإذا كنتم لا تربطكم معرفة بأمثال هؤلاء الأميركيين، ففي وسعي تزويدكم بالأسماء والعناوين.

إن نضالنا هذا من أجل العدالة يتطلّب مساعدة الناس الطيّبين أينما وجدوا. والسيد تحسين خياط في بيروت: واحد من هؤلاء الطيّبين، وأنا، منذ سنين طِوال، تشدني إليه صداقة كانت لي مصدر إلهام. وقد تولّى هو إصدار كتابي هذا بالعربية، مثلما تولّى، في الماضي، إصدار كتابين آخرين تناولتُ فيهما موضوع النزاع العربي ـ الإسرائيلي: كتاب **من يجرؤ على الكلام**، وكتاب **الخِداع**.

پول فندلي
٤ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١

1040 West College Avenue
FINDLEY
Jacksonville, IL 62650, USA



مقدمة

رحلة غير متوقعة

لا أكاد، في هذه الأيام، أصدّق أن استكشافي غير المخطّط لعالم الإسلام قد بدأ قبل ربع قرن، في بلد ناءٍ وصغير، لم يقم بزيارته أي مسؤول أميركي منذ سنين طويلة. ذهبت إلى هناك في مهمة إنقاذ، لا صلة لها بالإسلام، غير أنها متصلة تماماً بمحنة إيد فرانكلين، وهو ناخب في ولاية إيلينوي سجن بتهمة تجسّس ملفّقة. ففي عام ١٩٧٤، منتصف فترة عملي التي استمرت ٢٢ سنة، كنت فيها عضواً في مجلس النواب الأميركي، وجدت نفسي أسافر بمفردي إلى أعماق عالم غير مألوف هو الشرق الأوسط العربي، لأسعى إلى إطلاق سراح فرانكلين.

كان المكان، الذي قصدته، هو عدن، عاصمة الجمهورية اليمنية الديمقراطية الشعبية، وكانت، آنذاك، دولة ماركسية، تقع على بعد ثلث المسافة حول العالم في الطرف الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية. ولم تعد هذه الدولة على الخرائط الحالية، لأن حكومتها انهارت، وتوحّدت هي، في عام ١٩٩٠، مع جمهورية اليمن العربية، لتشكيل جمهورية اليمن.

عندما شرعت في رحلتي من أجل إطلاق سراح فرانكلين، كان قد قضى ستة عشر شهراً في السجن الانفرادي، متحمّلاً، في تصوّري، ظروفاً بدائية قاسية. وكان أبواه القلقان، اللذان يسكنان قرب منزلي في إيلينوي الغربية، والواثقان أن ابنهما قد أدين ظلماً، قد طلبا مني المساعدة في إطلاق سراحه. وكان فرانكلين قد أوضح، في رسالة بعثها من السجن، أن الطائرة التجارية التي

كانت تقلّه إلى مقرّ عمله، كمدرّس في الكويت، قد أصيبت بعطل في المحرك، واضطرت للهبوط في عدن. وأثناء انتظار إصلاح الطائرة، التقط فرانكلين صوراً للمطار والمرفأ القريب، دون أن يدرك أن ذلك ينتهك الأنظمة الأمنية. فأوقفه رجال الشرطة المحلّيون الذين ساورتهم الشكوك باحتمال أن يكون البريطانيون يخططون لتنفيذ عملية كوماندوس، مثل العملية التي نفذوها قبل ذلك بستة أعوام. وبعد استجواب استمر عدة أسابيع، أصدرت المحكمة قراراً بسجنه خمسة أعوام.

وكنت مثل معظم الأميركيين، حينذاك، أحمل عن الشرق الأوسط صورة كئيبة، ولم تفعل الحكومة الأميركية شيئاً لتبديد هواجسي. فقد اعتبرت وزارة الخارجية الأميركية الحكومة في عدن الحكومة الأكثر تطرّفاً بين كلّ الأنظمة في العالم العربي. ولم يكن أي مسؤول أميركي قد دخل البلاد منذ الحرب العربية ـ الإسرائيلية في حزيران (يونيو) ١٩٦٧. وهذا يعني أنني سأحرم من حماية الحكومة الأميركية والمساعدة الدبلوماسية لدى وصولي. وبينما كنت أحاول اتّخاذ قرار بشأن الرحلة، سألت دبلوماسيّاً كبيراً عمّا ستفعله وزارة الخارجية إذا أودعني النظام اليمني الجنوبي السجن، فكان جوابه الذي يبعث على القلق: "سنحاول إيجاد عضو آخر في الكونغرس مستعدّ للذهاب إلى هناك، ليحاول إخراجك من السجن".

وأقنعتني اتصالاتي بوزارة الخارجية البريطانية، التي كانت لها سفارة في عدن، إنني أمثّل لإيد فرانكلين الأمل الوحيد في إطلاق سراحه. لذا، على الرغم من التخوّف الشديد، أقلّتني الطائرة من واشنطن إلى نيويورك، ثم سافرت مباشرة الى بيروت في لبنان، ومنها توجّهت إلى عدن. وراودتني، أثناء اقتراب الطائرة من عدن، تساؤلات عمّا ينتظرني: ربما عواقب مؤسفة تحلّ بي وبالعائلة التي تركتها ورائي، وحتى نتائج سلبية للسياسة الخارجية الأميركية. ماذا أفعل لو لم يقابلني أحد في المطار؟

وكم كانت دهشتي كبيرة، عندما رحّب وفد من مسؤولي حكومة عدن بوصولي، واصطُحبت إلى دار ضيافة رسمية، وزُوّدت بسيارة وسائق أثناء

إقامتي. وبعد ثلاثة أيام من المناقشات مع مسؤولين حكوميين، والتجوّل لمشاهدة معالم العاصمة، والانتظار المشوب بالقلق، قابلت الرئيس سالم ربيع علي؛ وصادف ذلك مساء اليوم السابق لمغادرتي. تحدّث الرئيس بالتفصيل عن شكاوى عدن بشأن السياسة الأميركية في الشرق الأوسط. ثم أعلن خبراً طيّباً، أن الناخب في دائرتي الانتخابية، الذي كان الرئيس علي يشير إليه بعبارة "السجين"، سيطلق سراحه، ويُعهد به إليّ تلك الليلة، ويُسمح له بمرافقتي لدى رحيلي في صباح اليوم التالي.

كانت رحلة إطلاق فرانكلين من السجن أكثر من مجرّد مثال غير عادي على خدمة الناخبين. لقد برهنت أنها مَعْلَم مهمّ في حياتي. إنني إذ أتذكّر، أدرك أن عدن كانت أول محطة لي في استكشاف العالم الإسلامي. وفي المحطات التالية التي توقفتُ فيها، فتحت عينيّ على ثقافة مستندة إلى الشرف والكرامة وقيمة كل إنسان، علاوة على التسامح وطلب العلم؛ وهي معايير، عرفت، فيما بعد، أنها متأصّلة عميقاً في الدين الإسلامي. إنها أهداف كانت ستلقى استحسان أجدادي المسيحيين.

وفي ذلك البلد النائي تعرّفت، لأول مرة، إلى ديانة يؤمن بها أكثر من مليار نسمة يشغلون أنحاء العالم كافة. إنهم جماعة دينية لا يفوقها عدداً سوى المسيحيين الذين يبلغ تعدادهم ما يزيد على ملياري نسمة. لم أكن أدرك، في حينه، أنهم كانوا في طور أن يصبحوا أقلّية كبيرة ومتنامية في أميركا. كما لم أدرك أن بينهم قادة في مجالات الأعمال والتجارة والعلوم والفنون والجامعات والمهن والرياضة. كما أنني لم أكن واعياً لحقيقة فحواها أن الصور النمطية الشائعة الانتشار قد شوهت كثيراً تصوّرات الناس عن المسلمين، على الرغم من مساهماتهم المثيرة للإعجاب في المجتمع الأميركي؛ وجعلت طاقتهم الكامنة الكبيرة، المسخّرة للخدمة العامة، طاقة غير معترف بها، ولا يستفاد منها إلا لماماً.

دافع عنّي عدة زملاء يهود ديمقراطيين وجمهوريين؛ وقفوا ضدّ ما اتّهمت به. إلا أن الوصمة كانت قد انتشرت على نطاق واسع، إلى حدّ جعلني أستنتج

أنه يستحيل محوها. وحتى هذا اليوم عندما أقابل يهودياً، أول مرة، أتساءل إن كان قد حكم عليّ مقدّماً على أساس صفة التعصّب المقيتة. لقد جعلتني هذه التجربة الشخصية مع الصور النمطية أصمّم بحزم على الاحتجاج، عندما يعاني آخرون تُلصق بهم صفات مضلّلة؛ وكانت أحد العوامل التي دفعتني الى تأليف هذا الكتاب.

لم يحدث اكتشافي للإسلام عبر إلهام مفاجئ، مثل اكتشاف صندوق كنوز في الزاوية المظلمة في العلّية، بل كان فهمي له كالدرر تتبدّى الواحدة بعد الأخرى بمرور الزمن. وكان كلّ اكتشاف يثير فضولاً وأسئلة جديدة. لم تشتمل رحلتي على شكليات التعليم في غرفة الصف، أو الاطّلاع على الأدلّة الدراسية والقوائم بأسماء كتب للمطالعة، أو حتى، مع استثناءات قليلة، مناقشات مع علماء مسلمين معروفين. عرفت ما عرفته عن الإسلام من عشرات المسلمين العاديين الذين يعملون في مهن مختلفة، ويقطنون في أنحاء مختلفة من الولايات المتحدة وخارجها. إنني أقدّم الإسلام، في هذا الكتاب، كما يفهمه ويمارسه أولئك المسلمون العاديون. وفي حين أنني أعرض فيه نقاط اختلافهم بشأن بعض مسائل العقيدة والممارسة، أعرض وحدتهم حول المبادئ الأساسية التي تتقدّم على كل ما عداها.

كنت، قبل بدء رحلتي، أحمل هموماً متّسمة بالتشاؤم بشأن صراع وشيك بين الحضارات، صراع بين الحضارات الشرقية والحضارات الغربية. سمعت الكثير عن الأخلاق اليهودية المسيحية؛ بيد أن أحداً لم يتحدّث عن الأخلاق اليهودية ـ المسيحية ـ الإسلامية. لقد أصبح الإسلام، في عملية الاستبعاد هذه، شيئاً غريباً وبعيداً ومثيراً للقلق في ذهني. وبسبب إحجام المسلمين، أو غيرهم، عن تصحيح هذا التصوّر، اعتقدت أن المسيحية واليهودية مرتبطتان معاً، وتشكّلان جبهة الغرب المتمدّن والتقدّمي، على الخط الفاصل العظيم الذي يقف على جبهته الأخرى الإسلام، الذي اعتبرته، خطأً، القوة المتخلّفة والخطرة في الشرق العربي. لقد انتشرت هذه الصور النمطية في الحياة اليومية في أميركا؛ وشكّلت نظرة إلى العالم أدرك، حالياً، أنها غير صحيحة وأنّها مضلّلة.

هذا لا يعني أنني، الآن، أنظر إلى كلّ المسلمين نظرتي إلى شخص كامل الصفات. فسوء تصرّف بعض المسلمين، شأنه شأن سوء تصرف بعض المسيحيين واليهود، ينتهك التزاماتهم الدينية. إنه نفاق ويستحقّ الشجب، وفقاً لأيّ مقياس. بيد أنني أجد معظم المسلمين أناساً طيّبين أرحّب بهم كجيران. إن الإسلام ليس شرقيّاً محضاً، كما أنه ليس عربيّاً في أغلبه. ويفوق عدد المسلمين، في الولايات المتحدة اليوم، عدد اليهود. وهذا يعني أنه ينبغي اعتبار المسلمين، في المعنى الديمغرافي، أميركيين، شأنهم شأن اليهود.

لقد اكتشفت، أثناء زيارتي لعدن، أن للإسلام واليهودية والمسيحية جذوراً مشتركة تتّصل بالنبي إبراهيم (ع)؛ وأن هذه الديانات تشترك في معتقدات وتقاليد ومعايير سلوك مهمة.

وتعلّمت، في مراحل لاحقة من مسيرتي، أن الإسلام، مثل المسيحية واليهودية، متأصّل في السلام والانسجام والمسؤولية العائلية واحترام الأديان والتواضع والعدل لكلّ البشر، تحت رحمة إله واحد. إن الإسلام دين عالمي متعدّد الثقافات، ومتعدّد الأعراق، يدعو إلى الأخوّة والمساواة بين الناس جميعاً، بغضّ النظر عن العرق أو الجنسية أو العقيدة الدينية.

ومع هذه المعتقدات الأساسية والمشتركة، يواجه المسلمون مصاعب يومية في مجتمع أميركا المسيحيّ في غالبيته. إن معظم الأميركيين لا يعرفون أيّ مسلم؛ وما زالوا غافلين عن وجود المسلمين المتنامي بوتيرة سريعة في الولايات المتحدة. ولم يناقشوا يوماً الإسلام مع أي شخص مطّلع على هذا الدين. ولم يقرأوا يوماً آية واحدة من القرآن الكريم. وتنبع أغلب تصوّراتهم عن الإسلام من الصور السلبية المزيّفة التي تظهرها التقارير الإخبارية، والأفلام والمسلسلات التلفزيونية، والحوارات في الإذاعة والتلفزيون.

كما أن معظم الأميركيين لا يتعمّدون تجاهل المسلمين، أو حمل آراء معادية لممارساتهم الدينية وعاداتهم. إلا أن التحدّيات التي يواجهها المسلمون تماثل، في حدّها الأدنى، قساوة التمييز الذي لقيه اليهود في الولايات المتحدة، في الماضي القريب.

وإنني أهدف من تأليف هذا الكتاب إلى التفاهم والتسامح والتعاون بين الأديان. أنا لست مبشّراً يحاول أن يهدي الكفّار إلى الدين الإسلامي. كما أنني لست حجّةَ في الإسلام، ولا أسعى إلاّ إلى تعزيز فهم الدين فهماً صحيحاً، وهو هدف يتطلّب قيادة كفوءة ومثابرة، ولا سيما من جانب المسلمين. وينبغي أن تتوفّر القيادة على كلّ مستوى في المجتمع ممثّلاً بالأسرة والمحلّة والمدرسة ووسائل الإعلام؛ والأهمّ من كلّ شيء في ميدان العمل السياسي. ولا بدّ أن يصبح المسلمون، بأعداد متزايدة، مشاركين فاعلين في الحلبة السياسية الأميركية.

ثمة بداية واعدة. فأثناء جمع المواد لهذا الكتاب، لفتني عدد المسلمين الذين يتولّون مواقع قيادية في مجتمعاتهم، حيث يعملون بأقلّ قدر من الضجيج من أجل الانسجام بين الأديان، وغيره من أهداف الارتقاء بالشأن المواطني. ويشارك بعضهم في الحملات الانتخابية الحزبية. وهذه، في رأيي، نشاطات موازية ومكمّلة تعد بحياة أفضل للمواطنين كافة.

لقد قضيت معظم حياتي في ممارسة السياسة. ولهذا السبب لا يبتعد الجهاد السياسي عن أفكاري. كانت انطلاقتي مبكرة: ففي العام ١٩٣٥، وكنت في الرابعة عشرة من العمر، اشتريت جهاز استنساخ مستعمل بخمسة دولارات. كان جهازاً متواضعاً ساعدني على كسب دخل من طبع البرامج والنشرات، وأغراني لكي أصبح مؤلّفَ وناشرَ كراريس، على نطاق صغير طبعاً. كنت أوزّع، على رفاقي في المدرسة والجيران، سلسلة من التعليقات الصبيانية. وبعد عام واحد، أي في خريف عام ١٩٣٦، رحت أعزف على البوق مع زملائي الطلبة، في شوارع بلدتي، حيث كنا، وبالضبط، ننفخ البوق تأييداً لمرشح الرئاسة الجمهوري، حاكم كانساس آلف لاندون، الذي فشل، على الرغم من ذلك، في إحباط أول مسعى للرئيس فرانكلن روزفلت من أجل إعادة انتخابه رئيساً. وقد خسر لاندن كل الولايات باستثناء ولايتَيْ ماين وفيرمونت.

غير أن هزيمة لاندن نشّطت اهتمامي بالسياسة. ومنذ ذلك الحين، وأنا أتابع العالم السياسي باهتمام شديد. وفيما عدا فترة أداء الخدمة العسكرية في الحرب

العالمية الثانية، تولّيت دوراً في كلّ الانتخابات الدورية العامة التي تجرى كل سنتين. وإنني أعرف، من التجربة الشخصية، ماذا يعني أن يخسر المرء أو يفوز. ففي أول مسعى لي لتولّي منصب عامّ سنة ١٩٥٢، فشلت في نيل ترشيح الحزب الجمهوري لعضوية مجلس شيوخ الولاية. ولكنني انتخبت، سنة ١٩٦٠، عضواً في مجلس النواب الأميركي. وورد اسمي في أوراق الاقتراع اثنتين وعشرين مرة. وفزت في إحدى عشرة حملة انتخابات عامة من أصل اثنتي عشرة. وخسرت الحملة الأخيرة بفارق ضئيل. لقد واجهت، في ترشّحي للانتخابات الاثنتي عشرة كلّها، منافسة شديدة من الديمقراطيين. وتحدّاني مرشحون جمهوريون في ثلاث من أصل ثلاث عشرة حملة انتخابات أولية. وربحت في حملات الانتخابات الأولية جميعاً، باستثناء الحملة الأولى. وفضلاً عن هذه المنافسات الشخصية، عملت كثيراً من أجل مرشّحين آخرين. وساندت، في الفترات الفاصلة بين الانتخابات، قضايا عامة متنوّعة. وتمثّلت مساندتي بإلقاء الخطب، والتجوّل في الأحياء التماساً لأصوات الناخبين، وكتابة المقالات، وتأليف الكتب.

لقد خبرت الرضى الشخصي الذي كثيراً ما يحسّ به الناشطون، حتى عندما يفشلون في تحقيق أهدافهم المباشرة في يوم الانتخابات. فالحملتان الانتخابيتان، اللتان منيت فيهما بالخسارة، شرّعتا أمامي الأبواب لتحدّيات مهمّة أخرى. فعلى سبيل المثال، أدّى فشل حملتي الانتخابية لعضوية مجلس شيوخ الولاية إلى إقامة صداقات، وزوّدني بتجارب ساعدتني على الفوز في انتخابات الكونغرس، بعد ثمانية أعوام. وقد اعتبرت فشلي في الفوز بعضوية الكونغرس للمرة الثانية عشرة، عام ١٩٨٢، غمامة سوداء ما لبثت أن كشفت عن جانب مشرق. فلو أنني فزت بإعادة انتخابي في تلك السنة لما استطعت، على الأرجح، استكشاف الإسلام، أو تأليف هذا الكتاب، أو تأليف كتابين عن العلاقات الأميركية ـ الإسرائيلية.

إنّ ما بذلته من مساعٍ طويلة الأمد من أجل حقوق الإنسان كانت مستلهمة من تجارب الطفولة في بلدة صغيرة في وسط إيلينوي، حيث شهدتُ العنصرية،

التي كانت ما تزال ظاهرة للعيان بعد سبعين عاماً من توقيع إبراهام لنكولن إعلان إلغاء الرقّ. كنت شاهداً على رفض خدمة الأميركيين ـ الأفارقة في المطاعم والفنادق وصالونات الحلاقة، وإلزامهم بالجلوس في ركن الشرفة في دار السينما المحلية. وكان ذلك كلّه في بلد لنكولن!

زرت واشنطن العاصمة كمراهق؛ ووجدت العنصرية متفشّية على مسافة بضعة مبانٍ من قبة الكابيتول. وفي عصر يومٍ من أيّام تلك الزيارة، أقلّتني حافلة انتقلت بي عبر الجسر التذكاري. وعندما وصلت الحافلة إلى الجهة الأخرى، حيث تقع فرجينيا، توقّف السائق، ورفض مواصلة الرحلة إلاّ بعد انتقال الركاب الأميركيين ـ الأفارقة إلى المقاعد الخلفية في الحافلة. شعرت بالانزعاج من هذا السلوك الذي كان من الآثار المهينة للعبودية.

وأثناء أداء الخدمة العسكرية في الحرب العالمية الثانية، اكتشفت العنصرية المتأصّلة عميقاً في البحرية الأميركية. كان الأميركيون ـ الأفارقة يُعزلون عن الآخرين، ويكلفون عادة مهامّ وضيعة. وكان الضباط جميعاً من البيض. وحيال ذلك، قرّرت أن أضع مسألة الارتقاء بحقوق الإنسان في جدول أعمالي بعد الحرب. وصمّمت على حتميّة اجتثاث العنصرية.

وفي عام ١٩٤٤، اشتركت كتيبة سيبي، التي كنت أخدم فيها، في الغزو الضخم الذي حرّر جزيرة غوام من اليابانيين. وبعد خمسة عشر شهراً، وعقب استسلام اليابان، اشتركت كتيبتي في احتلالها. وبُعيدَ الإنزال، قدت سيارة جيب إلى مدينة ناغاساكي المجاورة، حيث قَتلت قنبلة ذرية أميركية واحدة أكثر من ستين ألف مدني قبل وصولي ببضعة أسابيع؛ وأرغمت اليابان على إنهاء الأعمال الحربية. استكشفت دائرة الركام، التي بلغ قطرها أكثر من ميلين، وكانت هي كل ما بقي من تلك المدينة الصناعية الكبيرة، بعد انفجار القنبلة. وتأمّلت في القوة المخيفة للذرّة.

وقد أقنعتني زيارتي لناغاساكي أنه، إذا نشبت حرب ذرية في المستقبل، فقد تؤدّي إلى تدمير البشرية كافة. وارتأيت أن هؤلاء الذين كافحوا منّا بنجاح ضد

قوات أدولف هتلر والطغمة العسكرية اليابانية، ملزمون أخلاقيّاً باستثمار النهج المتواصل نفسه من أجل نظام دولي جديد يضمن السلام العالمي الدائم. وتذكّرت أن الحرب العالمية الأولى كانت تسمى أحياناً "الحرب لإنهاء الحروب كافة". إلا أنها بدلاً من ذلك كانت مقدّمة لحرب أخرى أكثر تدميراً. وخشيت أن تكون الحرب التالية أسوأ؛ فأضفت، إلى جدول أعمالي لما بعد الحرب، هدفاً آخر، هو وجوب ذهاب الحرب، أيضاً، إلى غير رجعة.

اقتنعت بأن من الممكن تجنّب حرب أخرى، لو شكّلت الدول الديمقراطية المتمرّسة اتّحاداً فدراليّاً، كالذي اقترحه كلارنس ستريت، مراسل صحيفة نيويورك تايمز للشؤون الخارجية، في كتابه "الاتحاد الآن". فقد اقترح ستريت تشكيل حكومة جديدة عظمى، تحوّل الدول الصناعية المستقلّة الرئيسة، هي الولايات المتحدة وأربع عشرة دولة ديمقراطية أخرى، إلى اتّحاد كبير يبلغ من القوّة ما يكفي، في رأي ستريت، لردع العدوان في أيّ مكان من العالم. وفي الوقت نفسه، يصون الحريات الفردية الأساسية في كل مكان. كنت أتبادل الرسائل مع ستريت أثناء السنوات التي قضيتُها في البحرية؛ وساعدته، عقب الحرب، على إصدار مجلّة شهرية في العاصمة واشنطن بعنوان (الحرية والاتحاد)؛ إلا أنها لم تعمّر طويلاً.

وبعد ثمانية عشر شهراً من ذلك، اتّخذت الخطوة التي مهّدت لي، في النهاية، الطريق إلى تولّي مناصبي التمثيلية، من طريق الانتخابات؛ إذ أصبحت محرّراً وشريكاً في ملكية صحيفة أسبوعية صغيرة في ريف إيلينوي. فقد زوّدني هذا المنصب بوسيلة كانت متنفّساً لآرائي السياسية؛ كما ساعدني على إقامة أواصر متينة مع معارف لي في أنحاء غربي إيلينوي الوسطى، أثبتت أنها رصيد مهم جدّاً، عندما خضت حملة انتخابية ناجحة لعضوية الكونغرس في عام ١٩٦٠.

وعندما أقسمت اليمين، بصفتي عضواً في مجلس النواب الأميركي في كانون الثاني (يناير) ١٩٦١، لم تكن أي من المسائل التي شعرت بضرورة الاهتمام بها، تخصّ المسلمين أو الشرق الأوسط. إذ لم تكن لديّ، في حينه،

أية فكرة عمّا تعنيه كلمتا الإسلام والمسلمين. ولو أن أحداً طلب مني أن أُسمّي أقطار الشرق الأوسط حينذاك، لما استطعت ذكر سوى أقطار قليلة. لم أكن أعي المسائل المعقّدة والمصالح الضخمة التي تتركز في تلك المنطقة. وكانت انطباعاتي القليلة عن الإسلام والشرق الأوسط غير دقيقة. وكنت في ذلك شريكاً لمعظم زملائي في مبنى الكابيتول الذين كانوا على مستوى مشابه من الجهل واللامبالاة بالعالم الإسلامي.

بيد أن أهدافي نشأت من نزعة مثالية على نطاق كبير. أردت المساعدة في سن قوانين ترتقي بحقوق الإنسان، ولا سيما حقوق الأميركيين ـ الأفارقة، وتشجّع على قيام مؤسّسة دولية جديدة تمنع الحرب. وعملت بحماسة لسنّ قوانين الحقوق المدنية في الستينات، على الرغم من علمي أنني كنت أصوّت تأييداً لمقترحات مرفوضة من عامّة الناس في المنطقة التي أمثّلها. وعندما أتذكّر تلك الحقبة، يبرز اقتراعي، تأييداً لتلك التشريعات، بوصفه الإنجاز الأكثر بعثاً على الرضى في مسيرتي في الكونغرس.

شرعتُ، عام ١٩٦٣، في العمل على تحسين علاقات الولايات المتحدة المتوتّرة مع فرنسا، الحليف الرئيسي في منظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو). وقد تسبّبت في إثارة عاصفة صغيرة، عام ١٩٦٥، في مبنى الكابيتول، وفي منطقتي، عندما قدت مجموعة صغيرة من الزملاء الجمهوريين في بعثة إلى باريس لتقصّي الحقائق، استغرقت أسبوعاً واحداً، وكانت مثيرة للجدل. كما تسببتُ في احتجاج أوسع عام ١٩٦٦، عندما دعوت، في خطاب ألقيته في جامعة هارفرد، إلى تطبيع العلاقات مع جمهورية الصين الشعبية.

وفي عام ١٩٦٧، أثناء سنتي السابعة في الكونغرس، عيّنت عضواً في لجنة الشؤون الخارجية. وفي وقت لاحق من تلك السنة، وبمساعدة تحالف مؤقت بين الحزبين، شهدت تقدّماً في ما يتعلق بمشروع قرار تشكيل الاتحاد الأطلسي، المُستلهم من اقتراح كلارنس ستريت. وعلى الرغم من أن مشروع القرار هذا، قد أدين بوصفه مناقضاً للمصالح الأميركية، أدانته مجموعات سمّيتها المواطنين المضللين، إلا أنه أُقرّ في لجنتَيْ الشؤون الخارجية والقوانين،

في مجلس النواب. ومع التأييد القوي الذي ناله في المناظرات، ومع مصادقة عضوي الكونغرس جون أندرسن عن ولاية إيلينوي، وموريس أودال، عن ولاية أريزونا اللذين ترشّحا فيما بعد لمنصب الرئاسة، فإن مشروع القرار هُزِم بفارق ١٨ صوتاً.

ولا بد أن أنوّه بمناقب أودال واندرسن الفذّة: فهما يتحلّيان بالشجاعة وروح الدعابة المبهجة والبصيرة السياسية. فبعد سنوات، وتحديداً في ربيع عام ١٩٧٦، أثار أودال عاصفة من الضحك، عندما عقّب على فشله في نيل ترشيح الحزب الديمقراطي له للرئاسة، بقوله للصحفيين: "لقد نطق الناس، الأوغاد الأغبياء".

ولا شك في أن ردة فعله كانت مماثلة قبل سبعة أعوام من ذلك، أي عام ١٩٧٣، عندما قرّرت مجموعتنا، التي ضمت أعضاء من الحزبين، أن تضع حلم الاتحاد على الرف. فعلى الرغم من الدعم الإضافي الذي قدّمه پول سايمون، عضو الكونغرس عن إيلينوي، والذي بدوره ترشّح فيما بعد لمنصب الرئاسة، فإن "الوطنيين المضلّلين" قد نجحوا في إضعاف قاعدة دعمنا للمشروع، فأسقط بفارق أكبر من السابق.

ربما جعلتني الخلافات، التي أحاطت بتلك المبادرات التشريعية المبكرة، في وضع مهيّأ للتحديات التي واجهتني، عندما سعيت من أجل تبنّي سياسة أميركية متوازنة في الشرق الأوسط، تنصف العرب والإسرائيليين. أصبحت عضواً في لجنة الشؤون الخارجية قبل بضعة أشهر من نشوب الحرب العربية ـ الإسرائيلية في حزيران (يونيو) ١٩٦٧. ولم تكن لديّ صلة معروفة بأيّ مسلم في ذلك الوقت. ولم يحصل ذلك إلا بعد ثلاثة أعوام، وحتى هذا لم يكن سوى تجربة عابرة.

وأثناء محادثة مع السفير المصري أشرف غربال، الذي نمت بيني وبينه صداقة متينة، سألته عرَضاً إن كان مسلماً؛ فرمقني بنظرة تنم عن الدهشة؛ إلا أنه أكّد ذلك بودّ. كنت آنذاك، في الحادية والخمسين من العمر. وحتى ذلك

الوقت لم يكن للمسلمين أي وجود في حياتي. ولم يكن هناك مسلمون في بلدتي، إيلينوي. ولم يكن هناك أي مسلم بين الطلبة أو الأساتذة في الكلية التي درست فيها. وأثناء سنواتي الثلاث التي قضيتها في البحرية أخوض غمار الحرب العالمية الثانية، وفي الأعوام الثلاثة عشر التي عملت أثناءها رئيساً لتحرير صحيفة أسبوعية، لم أصادف، حسب علمي، مسلماً واحداً.

وفي عام ١٩٧٢، وجّه إلينا غربال دعوة لزيارة مصر، شملت دعوته زوجتي لوسيل وولدينا ديان وكريغ. لبّينا الدعوة في تموز (يوليو) ١٩٧٢، وقضينا أسبوعاً مثيراً هناك، شاهدنا خلاله آثار مصر الرائعة، واستوقفتنا مشاكلها الأمنية الراهنة. وقوبلنا بالترحاب في البيوت والمكاتب، وقابلنا عدداً من المسلمين. غير أن الأحاديث كافة تمحورت، بلا شك، حول الحياة السياسية وخطر نشوب الحرب، ولم تتناول الدين.

في ذلك الوقت، كانت تنتشر في القاهرة معالم تذكّر بالحرب العربية ـ الإسرائيلية التي نشبت عام ١٩٦٧، وتكبّدت مصر فيها خسائر جسيمة. فما انتشر في أنحاء المدينة من مبانٍ حيوية، فضلاً عن كافة كنوز المتاحف، وضعت عنده الحكومة المصرية أكياس الرمل الواقية تخوّفاً من احتمال استئناف إسرائيل غاراتها الجوية. لم تكن قد أعيدت العلاقات الدبلوماسية الكاملة بين مصر والولايات المتحدة، بعد أن قطعت بسبب الحرب الحاصلة قبل خمسة أعوام. وكانت القوات الإسرائيلية ما تزال تحتل شبه جزيرة سيناء، وهي تاريخيّاً جزء من مصر.

وفي زيارة قصيرة لمدينة السويس، التي تقع على الضفة الغربية للقناة، والمدمّرة من جراء الحرب، تسنّى لنا أن نلمح جنوداً إسرائيليين يقومون بدوريات على الضفة الشرقية. وبسبب التحذير من وجود ألغام أرضية، لم نلاحظ إلا القليل ممّا يدلّ على وجود حياة بشرية، كأن رأينا ملابس معلّقة تجف وسط الركام الذي كان في وقت ما منتجعاً مصريّاً كبيراً يعج بالنشاط. وشاهدنا في مكان مجاور بقايا مصفاة للنفط، كانت في وقت من الأوقات تُعدّ نموذجاً لتقدّم مصر الاقتصادي. لم ندرك في حينه أن التدمير كان حصيلة مروّعة لحرب حفّزها، عموماً، التعصّب الديني.

وبعد خمسة عشر شهراً من الزيارة، أي في ٢١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣، اندلع الصراع العربي ـ الإسرائيلي مرّة أخرى. شكّل القتال خطراً على إسرائيل، في البداية، إذ واجهت قوّاتها، التي كانت بحاجة إلى المعدّات والذخائر، احتمال الاندحار. إلا أن التيار ما لبث ان انقلب ضد مصر، عندما اقتربت القوات الإسرائيلية من القاهرة، بعد أن زوّدتها الولايات المتحدة بالإمدادات.

دفعتني آثار كارثة الحرب إلى الشروع بالتحدّث جهاراً. فأعربت عن الأسف لإهمال محنة الفلسطينيين المشرّدين. وقد أدّت هذه التصريحات إلى وضعي في قلب جدل حادّ ومثير للاهتمام، بحيث كان لا بد من تأجيل دراسة الإسلام.

لم أكن أفكر بالإسلام، الدين الذي يعتنقه معظم الفلسطينيين، ولم يكن زملائي يناقشون الجانب الإسلامي للصراع العربي ـ الإسرائيلي. كان موضوع الإسلام، عموماً، موضع تجاهل في مبنى الكابيتول لعدّة أسباب، منها أنه لم يسبق لمسلم أن خدم في الكونغرس. ولا أتذكر أيّ مناسبة عرضت فيها وجهات نظر إسلامية أمام لجنة من لجان الكونغرس. وعندما أتأمّل في عقد السبعينات، أشك في أن أحداً كان يمكنه أن يجد ولو مسلماً واحداً بين ما يزيد على ستة آلاف موظف كانوا، تلك الفترة، في عداد الهيئات العاملة في مبنى الكابيتول.

وبحسب ما أعلم، لم يكن أي مسلم يقطن في دائرتي الانتخابية التي تضم ٤٥٠ ألف نسمة. كان جهلي للإسلام مرعباً. فعلى الرغم من اهتمامي الشديد بالحلف الأطلسي، فإنني ما كنت لأتصور أن تركيا، العضو الرئيسي في الحلف، هي دولة مسلمة. وربما عاد ذلك إلى افتراضي، آنذاك، أن الإسلام يقتصر على العالم العربي.

اشتملت مهمة الإنقاذ، التي قادتني إلى الجمهورية اليمنية الديمقراطية الشعبية في عام ١٩٧٤، على التوقف في محطتين، تمثّلتا ببلدين إسلاميين آخرين، هما لبنان وسوريا. وفي المناقشات التي أجريتها في بيروت ودمشق،

وكذلك في عدن، تسنّى لي، وللمرة الأولى، أن أطّلع على حقيقة الشكاوى العربية من السياسة الأميركية، وتوسّع فهمي للصراع العربي ـ الإسرائيلي[1].

تلت هذه التجربة الطويلة والقاسية، على خط النار السياسي للشرق الأوسط، سنتان من البحث المجهد، جمعتُ خلالهما المعلومات، وألّفت كتاباً بعنوان "من يجرؤ على الكلام". وكان مثار دهشة لي ما لقيه الكتاب من رواج واسع فور صدوره؛ فقد تجاوزت المبيعات ٣٠٠ ألف نسخة. وتدفقت من القرّاء رسائل متّسمة بالحماسة. كذلك تلقيت أكثر من تسعمِئة رسالة خلال الأشهر القليلة الأولى من صدوره. وأجريت معي، ابتداء من صيف عام ١٩٨٥، أكثر من أربعين مقابلة، أجْرتها وسائل الإعلام، على الساحلين الشرقي والغربي وفي المدن الكبيرة الواقعة بينهما. ولبّيت، خلال فترة ثلاثة أعوام، دعوات كثيرة لإلقاء محاضرات في الكلّيات والجامعات الأميركية، نظّمتها مجموعات طلابية عربية. كما أنني، في مناسبات شتى، حاضرت في كندا واليمن والأردن والإمارات العربية المتّحدة والمملكة العربية السعودية والعراق وإنكلترا ومصر. ومن جرّاء هذه المحاضرات، شاركت في تجمّعات كثيرة كبيرة وصغيرة. وقد استمعت، خلال المناقشات غير الرسمية التي أجريتها في عدة مدن، إلى مواطنين من أصل عربي، شرحوا لي المشاكل الاجتماعية والسياسية التي يواجهونها في الحياة اليومية.

لقد أحدث الكتاب تغييرات عميقة في حياتي، وفتح أمامي أبواباً جديدة مثيرة. ذلك أنه أسهم في مجيء المسلمين إليّ، وذهابي إليهم. وفي عام ١٩٨٩، شكّلت الحماسة لفكرة كتابي حافزاً لمجموعة من الرجال والنساء، اندفعوا إلى مساعدتي على تأسيس مجلس المصالح القومية (CNI)، وهو منظّمة مقرّها في واشنطن، وتضم زهاء خمسة آلاف أميركي يسعون إلى تبنّي سياسات أميركية متوازنة في الشرق الأوسط. وساعد عدد من المسلمين، إضافة إلى مسيحيين ويهود، على عقد الاجتماع التنظيمي للمجلس. وما زالوا أعضاء بارزين في

---

(١) *They Dare to Speak Out*, pp.1-12.

قيادته. كما وفّروا الدعم له. ويترأس المجلس جين بيرد، وهو من قدامى موظّفي وزارة الخارجية الأميركية.

وفي وقت لاحق من تلك السنة، أرسل طالب مسلم شريط فيديو، يضمّ محاضرة ألقيتها في جامعة ولاية كنساس، إلى مركز الانتشار الإسلامي الدولي في مدينة دوربان بجنوب إفريقيا، وهو منظمة توزّع وثائق وأشرطة فيديو إسلامية في أنحاء العالم.

وفي أيار (مايو) ١٩٨٩، وصلتني رسالة من أحمد ديدات، رئيس المركز، دعاني فيها، مع زوجتي لوسيل، لزيارة كيب تاون، حيث أراد مني أن أشاركه في مخاطبة تجمّع عام.

قبلنا الدعوة، وقطعنا نصف الطريق حول العالم إلى جنوب إفريقيا. وكانت تلك الرحلة واحدة من رحلات عديدة شاركتني فيها لوسيل، على طريق استكشاف الإسلام. وهذه تجربة أثرَت حياتنا، أكثر ممّا أثراه زواجنا المختلط؛ وقد عقدنا خلالها صداقات مع أناس ينتمون إلى أديان أخرى. فلوسيل نشأت كاثوليكية، كما نشأ والدها من أجداد فرنسيين، وكما نشأت والدتها من أسلاف إيرلنديين. أما جذوري المشيخية (البروتستانتية)، فتعود إلى اسكتلندا. بيد أن الصداقات الوثيقة، التي عقدناها في السنوات الأخيرة مع جيران لنا من الهندوس هم عائلة برابهاكار وعائلة أياغاري، قد ساهمت في توسيع أفقنا الديني أكثر من ذي قبل، وجعلتنا نشعر بالارتياح بصحبة أناس من عقائد دينية أخرى، ونعزف عن الادعاء بأننا، في ديانتنا، أقوم أخلاقاً من الآخرين.

دفعتني تلك التجارب إلى الاحتجاج على التحيّز ضد العرب في السياسة الأميركية في الشرق الأوسط، عندما عدت إلى مبنى الكابيتول من اليمن. فانتقدت فشل حكومتنا في إعادة العلاقات الدبلوماسية مع حكومة عدن وعدّة دول عربية أخرى، كانت قد قطعت علاقاتها مع واشنطن إبّان حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧. وطالبت الحكومة الأميركية بإلحاح، بوقف تقديم المساعدات كافّة إلى إسرائيل، حتى تكفّ عن انتهاك حقوق الإنسان الفلسطيني، وتوقف

الهجمات العسكرية ضد لبنان. وكانت حجتي أن الانحياز ضد العرب، في المدى البعيد، محفوف بالمخاطر، ويلحق الضرر بمصالح الولايات المتحدة ومصالح إسرائيل أيضاً.

استغرقت حملة الاحتجاج ضد هذا التحيّز ثمانية أعوام، واجهت خلالها معارضة متصاعدة. كنت وحدي الذي يناصر اتّباع سياسة متوازنة، وهو موقف كان يلقى معارضة قوية في مبنى الكابيتول، وفي ولاية إيلينوي. وأصبحت الحملة، في النهاية عاملاً رئيسياً من العوامل التي أدّت إلى هزيمتي يوم الانتخابات في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٢.

كانت لقاءاتي مع ديدات ومساعديه تجربة في المعرفة، اكتسبت جانباً كبيراً من الأهمية. وكنت، خلال محاضرات ومناسبات نُظّمت من أجل الترويج للكتاب، قد تحدثت مع عدد من المسلمين في الولايات المتحدة. إلا أنني، حتى إجراء مناقشاتي في جنوب إفريقيا، لم أكن أدرك مدى زيف الصور النمطية عن الإسلام. كما أنني لم أكن أعي النمو السريع للسكان المسلمين في الولايات المتحدة. فعلى الرغم من استغراقي العميق والمتواصل في السياسة العربية ـ الأميركية وسياسة الشرق الأوسط، فإنني أغفلت هذه التطوّرات.

لقد كان الحوار في دربان متّصلاً بالممارسات الإسلامية والمبادئ الإسلامية أيضاً. وأثناء مناقشة من المناقشات، بذل أحد مساعدي ديدات جهده لتصحيح طريقة لفظي لكلمة مسلم. ومنذ ذلك الحين، وأنا أشجّع الآخرين على لفظ الكلمة لفظاً صحيحاً. قد يبدو هذا الأمر تافهاً؛ ولكنني تعلمت، منذ زمن طويل، أن اللفظ الصحيح للأسماء يوحي بالاحترام لهوية الشخص، ويستتبع ذلك وجوب احترام هوية المرء الدينية ولفظها لفظاً صحيحاً.

تركّزت معظم المناقشات، في جنوب إفريقيا، على ما لدى المسيحيين من أفكار خاطئة عن الإسلام. ومن الصور النمطية العديدة التي جرى تناولها، برزت خمسٌ اعتُبرت العائق الأكبر أمام الانسجام والتعاون بين الديانات والثقافات. فهي تربط الإسلام بالإرهاب والتعصّب واستعباد المرأة وانعدام التسامح تجاه غير المسلمين والعداء للديمقراطية وعبادة إله غريب وانتقامي.

وسوف أوضح في الصفحات التالية هذه الصور النمطية، المأخوذة بمعظمها، من تجاربي الشخصية. وأقدّم لمحة، مجرّد لمحة، عمّا يجري عمله لتعزيز الفهم الدقيق للإسلام. فهذا الكتاب، في ناحية من نواحيه، مفكّرة لرحلتي الاستكشافية التي صحّحت، خلالها، صوراً نمطية حملتها طويلاً. ولكنه أكثر من ذلك: إنه سجّل جهود متواصلة بذلها مسلمون ومسيحيون ويهود أيضاً، هم رواد شجعان يشكّلون الطليعة في قضية هامة، ولكنّها مُهملة منذ وقت طويل. وأنا واثق بأن هناك الآلاف غيري من الذين لهم في هذا المجال أعمال مهمّة، إلا أنني لم أعلم بها.

إن أتباع الديانة الإسلامية، بما يمتلكون من معرفة وتجارب وحوافز، هم الأقدر على الدفع قدماً بعملية التصحيح. ولحسن الحظ، كان انهماك المسلمين المباشر في هذه القضية انهماكاً مهمّاً ومتنامياً. ولكن من المؤسف ألا يشارك معظم المسلمين فيها. وبإمكاننا أن نفهم تردّدهم، إذ إن العديد من المهاجرين قادمون من بلدان ينعدم فيها النشاط السياسي، أو ينحصر في حدود ضيقة. وهم يتردّدون في ولوج مجال يبدو لهم بلا قواعد ولا ضوابط، وينذر بسوء العواقب، وغالباً ما يورِّط المرشحين في عمليات الرشق بالتهم والتهمِ المضادة.

ثمة حقيقة أخرى مثبطة للهمم، هي الجانب القذر والجانب الأسوأ وغير الجذّاب للسياسة والسياسيين، الذي يسود التقارير الإخبارية في الولايات المتحدة. وأعرف، من خبرة سنوات طويلة في الحياة السياسية، أن معظم المسؤولين المنتخبين أناس صادقون مجتهدون في عملهم؛ غير أن وسائل الإعلام تركّز على الذنوب ولو كانت نادرة. ويبدو الفساد، على الدوام، كامناً عند حافة السياسة؛ وأحياناً، مندسّاً في وسطها. ولكن هذه الحقائق الكئيبة ينبغي ألا تثبط همم الطيبين من الناس، خصوصاً أولئك الذين تدعوهم عقيدتهم الدينية إلى الحياة القويمة؛ وألاّ تثنيهم عن الانضمام إلى الروّاد. عليهم أن يقبلوا مسؤولية المشاركة في العملية التي تقرّر في النهاية ماهية السياسات التي سينتهجها الحكم، ومن سينفّذها.

إن الانخراط في النشاط السياسي ينطوي، في رأيي، على ضمانٍ بالفوز

لكل من يشارك فيه. فعندما يشارك فيه المسلمون، فإنهم سيوسّعون نطاق التعارف بين الأديان ويعزّزون احترامها. وعندما ينضمّ غير المسلمين إلى هذه النشاطات، فإن قضيتهم المشتركة ولقاءاتهم الشخصية مع معتنقي الإسلام، ستبدّد الأفكار الخاطئة التي تشوّه الرؤية الأميركية لهذه العقيدة الدينية، وتخفّف من كرب المسلمين، وهو الحصيلة المحتومة لتكوين الصور والأفكار النمطية. وستعزّز هذه الجهود، مع الوقت، نوعية حياة المسلمين في بلادهم وخارجها. وتعزّز، في الوقت نفسه، سجلّ أميركا، بصفتها بلاد العدل والتسامح.

أصبح دوري، كعامل تغيير في هذه العملية، موضوعاً لمناقشة جرت بعد أن ألقيت، في أيلول (سبتمبر) ١٩٩٩، محاضرة أمام تجمّع إسلامي في بومونا بكاليفورنيا. فقد سمعت ملاحظاتي طبيبة الأسنان الشابة، نازحق، التي تقدّم خدماتها في مستوصف قريب ساعدت على تأسيسه للأطفال الفقراء؛ فجاءتني لتطرح عليّ هذا السؤال: "بصفتي مسلمة، أرغب في معرفة السبب الذي دفعك كمسيحي أن تصبح شديد الاهتمام بالانطباعات الخاطئة عن الإسلام. هل هو شخص أم حدث معيّن؟".

لم يسبق أن وجّه إلي أحد هذا السؤال. توقفت برهة لكي أستجمع أفكاري، ثم قلت لها إن السبب كان عملية تراكمية؛ فقد اقتنعت، بمرور السنين، بأن تصحيح هذه الأفكار الخاطئة خطوة مهمّة نحو سلام عادل في الشرق الأوسط، بل خطوة جوهرية. ولم يكن من الصعب أن أفهم لماذا استجابت لهذا التصريح المدوّي بنظرة متّسمة بالحيرة.

ولحسن الحظ، منحتني بعض الوقت لأشرح أن الصور النمطية عن الإسلام مؤذية، في رأيي، للأميركيين جميعاً، وليس للمسلمين وحدهم. فهي تشكّل، في نطاق الأحياء السكنية، عقبة في وجه التسامح والانسجام بين الأديان، إذ تسبب الانزعاج والارتياب والقلق وحتى الخوف، وتؤدّي إلى العنف أحياناً. أما في واشنطن، فإنها تخلق مناخاً غير ملائم، تُسنّ فيه القوانين التي تلحق الضرر بالحريات المدنية، مثل القانون الذي يسمح بتبنّي الأدلّة السرية في المحاكمات التي تنظر في قضايا طرد الأجانب. وعلى مستوى أعلى، تقوّي هذه الصور

النمطية عن الإسلام الانحياز في السياسة الخارجية؛ وتلحق الأذى بسمعة أميركا، وتعيق، على نحو خطير، قدرة بلدنا على النهوض بأعباء القيادة الدولية الفعّالة لحقوق الإنسان، وليس لحقوق المسلمين وحدهم.

وقبل أن أغادر القاعة، خاطبت نازحق لكي أضيف بعض الأفكار. قلت لها إنني لست راضياً عن الجواب الذي أعطيته، لأنني أغفلت شرح كيفية إزالة الصور النمطية بأسرع طريقة ممكنة. فإزالتها تتطلّب العمل السياسي، أي السياسة بمعناها الأوسع. والأميركيون جميعاً، من مسيحيين مثلي ومسلمين، يتحمّلون مسؤولية العمل. وقد أقررت لها بأن عملها يساعد الأطفال الفقراء. لكنني طلبت منها بإلحاحٍ تولّي مسؤولية كبيرة في الميدان السياسي. فالصور النمطية عن المسلمين ينبغي إزالتها، وإزالتها بسرعة. وقلت إن قبول المسؤولية في هذه القضية ينبغي ألا يؤثّر على خدماتها للأطفال. فأداء دور بنّاء في الميدان السياسي هو، في الواقع، خدمة للأميركيين من الأعمار كافة.

قالت مبتسمة: "سأفكّر في الأمر".

وربما فعل القارئ أيضاً الشيء نفسه.

پول فندلي
١٠٤٠ ويست كولج
جاكسونفيل، إيلينوي. ٦٢٦٥٠
٢٠ آذار (مارس) ٢٠٠١



الفصل الأول

النسب الخفي

يمكن للصور النمطية المزيّفة أن تخفي الحقيقة عن الناس، مهما تكن أعمارهم. أما أنا، فقد كانت بداية تعرّفي إلى الإسلام بداية سيئة. ذلك أنني ضُلّلت بشأن المسلمين والدين الإسلامي، عندما كنت أداوم في مدرسة الأحد المشيخية في مدينة جاكسونفيل في ولاية إيلينوي. واستقرّ هذا التضليل في ذهني حتى بلغتُ خريف العمر.

قالت لنا معلمتنا، وهي متطوّعة عطوفة عملت بإخلاص سنوات طويلة، إن شعباً أمّيّاً وبدائيّاً وميّالاً إلى العنف يعيش في مناطق صحراوية في الأراضي المقدسة، ويعبد "إلهاً غريباً". وما زلت أذكر، من طفولتي المبكّرة، أنها كانت تسمّيهم "محمّديين"؛ وتواظب على تكرار قولها "إنهم ليسوا مثلنا". وكنّا، أثناء حديثها، نلهو في صندوق رمل كبير نغرس، في مواقع مختلفة منه، أشكالاً مصغّرة لأشجار النخيل والجِمال والخِيم والبدو.

لقد انغرزت تعليقاتها في ذاكرتي. وبقيت معظم حياتي أحمل صورة عن المحمّديين كأناس غرباء جهلة، ويضمرون الأذى للآخرين. كانت معلّمتي، مثلها مثل العديد من الأميركيين اليوم، تكرّر ببراءة، الأضاليل التي اكتسبتها من أناس آخرين يفتقرون إلى المعرفة الوافية. فقد كانت تردّد في صفّنا ما كانت تعتقد أنه الحقيقة، بما في ذلك التسمية المغلوطة "المحمديون". لا أظنّها تعمدت تقديم معلومات مضلّلة، أو الافتراء على الإسلام. كانت، بكل بساطة، تفتقر إلى الحقائق، شأنها شأن المعلّمات الأخريات والقس الذي ترأّس أبرشيتنا. ولقد

أصدرت المكاتب القومية للكنيسة المشيخية في الولايات المتحدة، منذ ذلك الحين، وثائق تنطوي على معرفة واسعة للإسلام، وتتحدّث عن ضرورة التفاهم بين الأديان. غير أن إصلاح ضرر الأزمنة الغابرة ما زال في بدايته.

وحتى الترتيلة المفضّلة "إلى الفرسان في الأيام الخوالي"، أدامت الصور المزيفة. وما زلت أذكر، بعد سبعين عاماً، أنها تقع في الصفحة ٢١٩ من كتاب التراتيل؛ كما أذكر لحنها وكلماتها. فقد كانت المراسم الافتتاحية تتضمّن، على الدوام، إنشاداً جماعيّاً. وكنا ننشد الترتيلة ٢١٩ بحماس، إذ كانت أنشودة مرحة تحتفي بالصليبيين المسيحيين في الأراضي المقدّسة: "إلى الفرسان في الأيام الخوالي الذين يحرسون المرتفعات الجبلية، جاء طيف الكأس المقدّسة وصوت عبر الليل المنتظر منادياً: اتّبعوا، اتّبعوا الضوء، الرايات المرفوعة في العالم أجمع؛ اتّبعوا، اتبعوا، وميض كأس القربان، إنه الكأس المقدسة".

تنقل هذه الترتيلة نظرة مشوّهة إلى الإسلام، ما زال يقبلها. كنظرة تتسم بالدقّة، العديد من المسيحيين، وربما غالبيتهم. فكلماتها، التي تصوّر الفرسان أبطالاً، لا تلمّح إلى إقدامهم، في الواقع، على ذبح آلاف المسلمين الأبرياء، واستمتاعهم بارتكاب المجزرة. لقد تجاهل الصليبيون، الذين سمّوا أنفسهم مسيحيين، التزام دينهم التسامح والرحمة والعدل. وسلكوا، بدلاً من ذلك، سلوك المتوحشين التوّاقين إلى الانتقام، والمتعطّشين للدماء.

كانت الترتيلة ستفقد كل جاذبيتها، لو عرفت ما كتبه أحد الصليبيين، في ١٥ تموز (يوليو) ١٠٩٩، عن المشهد الدموي في القدس: "طاف رجالنا شاهري السيوف في أرجاء المدينة؛ لم يبقوا على أحد، حتى أولئك الذين التمسوا الرحمة. وخاضت الخيول في الدماء حتى ركبها، بل حتى اللجام. كان ذلك حكماً عادلاً ورائعاً من الله"(١). ولم تقتصر المجزرة على القدس؛ فقد أقدم الصليبيون، وهم يبحثون عن الوثنيين والملحدين، على قتل مسلمينَ ويهود، وحتى مسيحيينَ آخرين في أنحاء الشرق الأوسط، ولا سيما في أنطاكية

(١) Hassan Hathout, *Reading the Muslim Mind*, p.38-39.

والقسطنطينية. وبالمقابل، لم تسفك أي دماء في الفترات الثلاث المنفصلة التي سيطر فيها المسلمون على القدس.

لم أفقه سبب اعتراض المسلمين الشديد على التسمية المغلوطة "محمّديّ" إلا في العام ١٩٩٨، عندما بلغت سن السابعة والسبعين. وقد شرح هذا السبب أندرو باترسن، الكاتب الذي اعتنق الإسلام، قائلاً: "إنها تشي بسوء فهم عميق للإسلام، وتوحي بأن المسلمين يعبدون النبي محمداً كإله. إنهم يبجّلون محمداً ويجلّونه كآخر رسل الله، غير أنهم لا يعبدونه. وفي الحقيقة أن الإيمان بإله واحد يحتل المرتبة العليا من "أركان الإسلام الخمسة". وقال إن "الأركان" الأخرى هي أداء الصلاة خمس مرات يوميّاً، ودفع الزكاة مساعدة للمعوزين، وصيام شهر رمضان، وتأدية الحج إلى مكة المكرمة مرّة واحدة على الأقل في الحياة إذا سمحت بذلك حالة المرء الصحية والمالية. ويُعتبر المسلمون، الذين يؤدون هذه الفرائض الخمس، مسلمين أتقياء أو ملتزمين.

وقد يبقى مصطلح "محمدي" المغلوط متداولاً، إلى حدّ ما، لأن معظم المسيحيين، على الرغم من اعتناقهم ديناً معترفاً به عالمياً كدين توحيدي، فإنهم يؤمنون بالثالوث الأقدس: الله الآب والله الابن والله الروح القدس. وقد يفترضُ بعض المسيحيين خطأً أن الله موجود في ثلاثة أشخاص في الإسلام. في حين أن الإيمان بالثالوث الأقدس قد ينشأ، بالنسبة إلى آخرين، عن تجارب الطفولة الشبيهة بتجاربي.

إن الصور المزيّفة عن الإسلام، التي حملتها من مرحلة الطفولة، قد استمرت طويلاً في تجربتي إلى حدٍّ يجعلني لا أفاجأ بوجود أميركيين آخرين يحملون أفكاراً خاطئة مماثلة. وثمة ما يثير الإحساس بحراجة الحال، لدى التأمّل بهذا الكم الهائل من الصور النمطية المضلّلة عن الإسلام، الذي تدفّق، عاماً بعد آخر، من صفوف مدارس الأحد في أنحاء أميركا، من دون أن يواجه الطعن. إذ إن الملايين من الشباب القابلين للتأثّر ربما تقبّلوا هذه التضليلات كحقيقة؛ ونقلوها، على مرّ السنين، كما هي، بلا تصحيح، إلى ملايين آخرين من الناس.

بدأت معرفتي للإسلام أثناء مهمة الإنقاذ التي تولّيتها، عام ١٩٧٤، في عدن، عندما تحدثت إلى موظّف المراسم صالح عبد الله، الشاب الأنيق والوسيم والمفعم بالحيوية، الذي عمل طوال خمسة أيام مرافقاً لي، وعلّمني الكثير عن الإسلام. كان التجوّل لمشاهدة معالم البلد محدوداً؛ وكانت البرامج الإذاعية بالعربية، اللغة التي لا أفهمها. ولحسن الحظ، كان عبد الله يتكلّم الإنكليزية بطلاقة. وبما أن البثّ التلفزيوني يكاد يكون معدوماً، رحنا نراجع، أثناء الساعات الطويلة التي قضيناها معاً، سياسات الشرق الأوسط. غير أن حديثنا غالباً ما بدا ينشدّ إلى الإسلام. ولعلّ الموضوع استهواني، لأنني أحسست بعزلة اليمن الجنوبي، وافتقاره إلى الأخبار من العالم الخارجي، وغياب الحشود، وازدحام حركة المرور، وسكون الصحراء، وخلو الشواطئ المتلألئة، واتساع خليج عدن. كانت تلك أول مرة ناقشت فيها، مع شخص ما، إيمان المسلمين.

ذات يوم، ونحن نتجوّل في المدينة، أشار عبد الله إلى مبنى مطليّ بالجير، قائلاً إنه مسجد، وإنه واحد من عدّة مساجد في المدينة. حضّتني ملاحظته على السؤال إن كان السوفييت، المعروفون بالإلحاد والحكم الاستبدادي، قد تدخّلوا في التقاليد الدينية المحلية وأغلقوا المساجد.

أجاب بمبالغة مفهومة: "كلا، لا بدّ أن نفهم أن حكومتنا مستقلّة تماماً عن النفوذ الأجنبي. نحن نعتزّ باستقلالنا اعتزازاً عالياً جدّاً. وأنا واثق أن السوفييت، الذين ساعدوا بلادي بطرق كثيرة، لم يحاولوا التدخّل في الدين. ولن يفيدهم ذلك إذا حاولوا".

ذكرت له أنني مسيحي الانتماء. وسألته إن كانت حكومته متسامحة مع الأديان الأخرى. فأجاب قائلاً: "أجل، المسيحيون أحرار في ممارسة عقيدتهم. فحكومتنا تضمن حرية الأديان. وفي الواقع، توجد أمامنا إلى اليسار كنيسة مسيحية، أفراد رعيتها قلائل، إلا أنها كانت تزدحم بالمصلّين عندما كانت عدن تحت السيطرة البريطانية. وأعتقد أن شعبنا بأجمعه شديد التعلّق بالإسلام. ويتلقّى الشباب تثقيفاً شاملاً في الدين، وتُفرض عليهم دراسة القرآن الكريم. وكلّنا

نواظب على درسه، كباراً وصغاراً. وهناك العديد من اليمنيين، ربما بلغوا الآلاف في عدن، حفظوا القرآن عن ظهر قلب، من أوّله إلى آخره، حتى إنهم يستطيعون تلاوته كلمة كلمة".

لم أُجب عمّا قال، ولكنني وجدت العبارة الأخيرة مثيرة للإعجاب. إذ يستطيع بعض المسيحيين من معارفي تلاوة أجزاء من الكتاب المقدس، إلا أن أحداً، بحسب علمي، لا يستطيع تلاوته كلّه، أو حتى تلاوة أحد أسفاره. لقد افترضت أن نسبة صغيرة من المسلمين تستطيع تلاوة القرآن بأكمله. إلا أنهم جميعاً، على ما يبدو، قد حفظوا، عن ظهر قلب، أجزاء كبيرة منه. ومنذ ذلك الحين، وبتأثير الفترة التي قضيتها مع عبد الله، تعوّدت سؤال المسلمين عن الإسلام. وكنت، بصورة شبه دائمة، أحصل منهم على إجابات تتضمّن الاقتباس المناسب من القرآن.

قال عبد الله إن موعد جولة مشاهدة المعالم في ذلك اليوم قد حُدّد، عمداً، يوم الجمعة، لأنه يوم عطلة، و"المواعيد مع المسؤولين الحكوميين لا تتيسّر في مثل هذا اليوم، ولذا فإنه الوقت المثالي للقيام بجولة في أرجاء عدن. فمعظم الدوائر والمصالح الحكومية تكون مغلقة يوم الجمعة، وهو يوم خاص يكرّسه المسلمون لإقامة صلاة الجمعة في الجامع".

وعندما قلت إن المسيحيين يعيّنون يوم الأحد يوماً خاصّاً للصلاة، قاطعني قائلاً: "إن كل يوم هو يوم لأداء الصلوات بالنسبة إلى المسلمين. فإيماننا يدعونا إلى أداء الصلاة خمس مرات في اليوم. ولكن صلاة الجمعة، لا تصحّ، في الأصل، إلاّ في الجامع". لم يسعني سوى أن أجيب: "آمل ألاّ تضيق ذرعاً إن وجّهت إليك سؤالاً شخصيّاً. لقد قضينا، يوميّاً، ساعات طويلة معاً، ولم أشاهدك بعد تسجد لأداء الصلاة. ألأنك معي؟". لم ينزعج عبد الله، وقال: "كلّ ما في الأمر أنك لم تلاحظ. فالبرنامج يسمح لي بأداء الصلاة في الأوقات المحدّدة بينما أنت مشغول بأمور أخرى. ولا تستغرق الصلاة سوى بضع دقائق. وكما تعلم، كنا نستريح على انفراد عندما تصل حرارة النهار إلى ذروتها. ولقد واظبت على أداء الصلاة في مواعيدها. فالشريعة الإسلامية لا

تسمح لنا بتخطي موعد من مواعيد الصلاة؛ بيد أننا نستطيع تأجيلها فقط بسبب سوء الأحوال الجوية، أو أثناء السفر".

في تلك اللحظة، أوقف السائق، الذي لا يتكلّم الإنكليزية، السيارة، وهي قديمة من طراز شيڤروليه، أمام مبنى خفيض ومنبسط. وقال عبدالله موضحاً: "هذا هو المتحف الحربي. إنه يغلق عادة أيام الجمعة؛ لكنه فُتح من أجلك. هل تريد أن تشاهد المعدّات العسكرية التي استولت عليها قواتنا أثناء القتال الحدودي الذي نشب مؤخّراً، مع السعودية وعُمان؟ ستجد أنّها كلّها موسومة بعبارة «صنع في الولايات المتحدة".

كانت دليلة المتحف فريدة الداير فتاة في الثامنة عشرة، رشيقة ترتدي ملابس غربية جذّابة؛ وكانت كعبد الله تتكلم الإنكليزية بطلاقة. كانت تكمل الخدمة الحكومية المقرّرة لمدة سنة، قبل أن تشرع في دراسة الصيدلة. وفي كلمة ترحيب قصيرة، عبّرت عن اعتزازها ببلدها وحماستها للإسلام. وأضافت: "للمرأة حقوق مساوية لحقوق الرجل في بلادنا. كل الوظائف مفتوحة أمامنا؛ ونحن نتمتّع بالحقوق السياسية نفسها مثل الرجال. وهذه، كما تعرف على الأرجح، هي الطريقة الإسلامية".

لم أكن أعرف ذلك. وعلمت، فيما بعد، أن المرأة، في بعض الدول الإسلامية، لا تتمتّع بالحقوق السياسية وحقوق العمل نفسها، كالرجل. وكنت أتصوّر، قبل أن أصل إلى عدن، أن النساء المسلمات ملزمات بالبقاء في البيت، وأنهنّ يتعرّضن للتمييز. وما إن غادرنا المتحف، حتى قال عبد الله: "إذا كان لدينا وقت لزيارة القرى في الصحراء، فسوف تجد أن معظم النساء هناك يتّبعن تقليداً قديماً بارتداء الملابس السود من الرأس إلى أخمص القدمين؛ ويضعن النقاب على وجوههن، في حين أن العديد من النساء في عدن، مثل فريدة، يرتدين اللباس الغربي".

لم تكن المناقشات عن الإسلام مع عبد الله سوى بداية ثقافتي التي استمرت عبر السنين التالية، ولم تكن غير منظّمة أودورية أو رسمية أو مخططة، أو بغرف تدريس وواجبات وامتحانات.

تعلّمت عن الإسلام من طريق المراسلات، وبواسطة أحاديث امتدّت أكثر من خمسة وعشرين عاماً، مع مسلمين يعيشون في لوس أنجلس وشيكاغو وناشفيل وواشنطن العاصمة ونيويورك وهيوستن وسانت لويس وأونتاريو الغربية والقاهرة وجدة وعمّان وبينانغ في ماليزيا. وفي المحكمة، كما يقال، يعتدّ بالمعلومات الشخصية، وليس بتلك التي نسمعها من الآخرين.

لقد مررت بتجربة لن تنسى في مسجد بنيوجيرسي. فقد شاهدت، لأول مرة، المسلمين يؤدّون الصلاة. كان المتعبّدون، من أجناس وأعراق مختلفة، يؤدّون الشعائر، وهم وقوف كتفاً لكتف. وبعد الصلاة، قالت لي زائرة شقراء من لندن: "لقد اعتنقت الإسلام في سن الأربعين، ووجدت في ذلك تجربة مرضية جدّاً". وفي لوس أنجلس، اكتسبت نظرة أوسع عن المسلمين في أميركا. فقد قمت بجولة على المركز الإسلامي لكاليفورنيا الجنوبية في هذه المدينة، رافقني فيها سلام المراياطي، وهو ابن لمهاجرين عراقيين أصبح، فيما بعد، مديراً لمجلس الشؤون الإسلامية في لوس أنجلس الجنوبية. وهذا المركز، مثله مثل مراكز عديدة أخرى كثيرة في أميركا، يوفّر مكاناً للعبادة، ويقدّم منهاجاً للدراسة لتلامذة المرحلة الابتدائية، بالإضافة إلى قاعات اجتماعات ومكتبة كبيرة لبيع الكتب.

كانت لسلام المراياطي رحلته الخاصة للاكتشاف الديني. وقد روى، في صحيفة لوس أنجلس هيرالد ـ اكزامينر، اليقظة الدينية التي خبرها عقب دخول الكلية: "شعر قلبي بالخواء. كنت منشغلاً بمسائل إرضاء الذات التي تشكّل نقطة ضعف شائعة عند الأميركيين. استنتجت أن هدفي على هذه الأرض لا يقتصر على بناء عشّ في النظام البيئي، ولا يقتصر على التكاثر ثم الموت. وقادني طموحي إلى القرآن الكريم، وهو ملاذ عظيم للفهم الإنساني، حيث تعلّمت المزيد عن عالمنا وتاريخنا وأنفسنا وخالقنا"[١].

اكتسب المراياطي فهماً وافياً جديداً للزواج والأبوّة في الإسلام، عندما

---

(١) *LA Herald Examinder*, 2-26-1989, p.F-11.

شاركت زوجته الطبيبة ليلى، الرئيسة السابقة لرابطة المرأة المسلمة، في مؤتمر دولي عن المرأة عُقد في العاصمة الصينية بيجينغ. فقد تولى رعاية ابنيهما الصغيرين أثناء غيابها. وكتب بعدها، عن تلك التجربة، ليقول "إنها ساعدته أن يفهم لماذا تقول الشريعة الإسلامية إن المرأة تستطيع الاحتفاظ باسم أسرتها بعد زواجها، وإن الزوج لا يستطيع التصرّف بدخلها الشخصي، [ولماذا] ينبغي أن يشارك الزوج في أعمال المنزل، أو يأتي بمدبّرة منزل تساعد زوجته". وقال إن ذلك جعله يعيّن "الانسجام والمحبة والعدل والحرية" بوصفها "أهداف الإسلام الاجتماعية الرئيسة"(١).

وقد مررت، في عام ١٩٨٨، بتجارب أخرى ساعدتني على فهم الإسلام، عندما قمت برحلتي الأولى إلى الشرق الأوسط، بعد مغادرتي الكونغرس. فذات يوم، وبينما كنت ماراً في سيارة بالقرب من الرياض في المملكة العربية السعودية، شاهدت راعياً يركع بمفرده مؤدّياً صلاة الظهر. وبينما كنت ماراً بالقرب من ورشة بناء داخل العاصمة، شاهدت رجلاً يؤدّي صلاة العصر بمفرده. ثمّ لفتني أداء الصلاة مرّة أخرى، أثناء زيارة منزل على الشاطئ بالقرب من جدة. فقد استأذنني مضيفي، التاجر المرموق حامد باغفار، وهمّ بدخول غرفة مجاورة؛ لكنه توقّف برهة، عندما لاحظ نظرة الحيرة على وجهي، وقال: "حان وقت الصلاة. سأغيب عشر دقائق فقط". ثم أضاف: "الصلاة تذكّرنا بالله". وعندما زرت رجل أعمال في جدّة، جلست قرب مكتبه، وانتظرته ليكمل أداء صلاة الظهر، فكان يركع على سجادة الصلاة ويلامسها بجبينه، على مسافة بضع أقدام مني.

وفي وقت لاحق من السنة نفسها، وبعد عودتي إلى أميركا، قابلت مسلمين اثنين، هما زينب البري، التي تعمل ممثلة الخدمات المالية في شركة ميت لايف في مدينة ناشفيل، وزوجها الدكتور نور النصيري، وهو اقتصادي وباحث في الإسلام من مواليد المغرب، شغل والده في وقت من الأوقات منصب وزير

(١) *Los Angeles Times*, 3-8-1996 p.A15.

الشؤون الإسلامية في عهد ملك المغرب الراحل الحسن الثاني. وبعد أن قرأت زينب البرّي، المصرية المولد، كتابي "من يجرؤ على الكلام"، رتّبت لي موعداً لإلقاء محاضرة في المدينة. ثم أصبحت، بناء على طلبي، أول عضو مسلم في الهيئة الإدارية لمجلس المصالح الوطنية. لقد كان التزامها حقوق الإنسان وحماستها للإسلام، فضلاً عن استعداد النصيري مشاطرتي معرفته المفصّلة بالإسلام وتاريخه، من العوامل التي جعلت ثقافتي الإسلامية تتقدم باطّراد في الأعوام اللاحقة.

إن زينب البرّي سفيرة ناجحة للنيّات الطيبة، تنشط لمصلحة المسلمين والعرب الأميركيين في منطقة ناشفيل. فهي من قادة "اللجنة الدولية" المحلّية، وغيرها من المجموعات المدنية المتخصّصة في مشاريع التعاون بين الأديان والأعراق. وقد وصفتها صحيفة "ناشفيل تنيسيان" مرة، بأنها "سفارة من شخص واحد". وتعمل زينب في الحملات الحزبية لمساعدة المرشحين للمناصب العامة. وقد أدّت دوراً مهمّاً كرئيسة مجموعة "النساء من أجل غور" في حملة الانتخابات الرئاسية للعام ٢٠٠٠، التي خاضها نائب الرئيس آل غور. وفضلاً عن جمع التبرّعات، كانت زينب تزوّد مقر حملته القومي في ناشفيل بكميات وافرة من المعجّنات، حتى إنها أحرزت لقب "سيدة الفطيرة" في التلفزيون القومي.

وقد اتّسعت دائرة معارفي من المسلمين، خلال رحلات عديدة قمت بها إلى المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة. ففي العام ١٩٨٨، قمت بجولة في متحف للتقنية العالية نظّمته شركة أرامكو في الإقليم الشرقي بالسعودية، حيث تستعرض محطات الكومبيوتر إسهامات الإسلام في الحضارة الإنسانية. واقترحت على مدير المتحف تركيب مجموعة من المحطّات في معهد سميثونيان في واشنطن، ليتسنّى لعامة الناس مشاهدة هذه العروض، بما يساعد على تصحيح الأفكار النمطية عن الإسلام في الولايات المتحدة.

وبعد عامين، عَقدتُ أول اجتماع في سلسلة اجتماعات مع رجل الأعمال أحمد صلاح جمجوم، المسؤول الحكومي السابق الذي يقود عدّة منظمات

إسلامية، وكان آنذاك المدير العام لصحيفة "المدينة" اليومية التي تصدر في جدة. وفي دبي، أصبح عيسى صلاح الكورك مستشاراً وصديقاً حميماً لي.

وفي بينانغ بماليزيا، تسنّى لي، في أيلول (سبتمبر) ١٩٩٣، أن أطّلع، بصورة أكثر شمولاً من ذي قبل، على حقيقة الأفكار الخاطئة العامة عن الإسلام. كان ذلك في حلقة دراسية استغرقت أسبوعاً كاملاً، وخصّصت للبحث في الصور النمطية المعادية للمسلمين. وكان لأندرو باترسن، ابن إيلينوي الذي يدرّس الإنكليزية حالياً في إحدى جامعات الصين، التأثير الأبقى. وقد واظبنا على تبادل الرسائل لسنوات طويلة.

وقد أحرزت تقدّماً سريعاً في رحلتي، التي قمت بها عام ١٩٨٩، عندما أرسل لي محمد شريف بسيوني، الأستاذ في شيكاغو، نسخة من كتابه المزخرف البديع "مقدمة إلى الإسلام". كنت قد قابلت بسيوني لأوّل مرة عام ١٩٧٤، عندما زارني في مبنى الكابيتول، بعد أن قرأ عن مهمة الإنقاذ التي قمت بها في عدن. كان خبيراً في القانون الدولي، وكان يُنظر، حينذاك، في مسألة تعيينه مستشاراً قانونياً لوزير الخارجية الأميركي.

إن كتابه، الذي عرض فيه للإسلام، هو من أفضل ما قرأت، سواء بإيجازه أو بتفاصيله الحيّة الجذّابة. فهو يعرّف القرآن بقوله: "إنّه، بكل بساطة، آخر الرسالات السماوية التي تصل إلى البشرية، عبر النبي محمد ﷺ الذي اختاره الخالق ليحمل الوحي الأخير والشامل. وهذا ما يفسّر سبب وجود صلة وثيقة بين الإسلام والمسيحية واليهودية". ثم يورد بسيوني صلات أخرى تربط بين الأديان.

يقول: "إن القرآن يشير إلى المسيحيين واليهود، بأنهم "أهل الكتاب"، لأنهم تلقّوا الرسائل من الخالق، من طريق موسى وأنبياء العهد القديم، وصولاً إلى المسيح الذي يعدّه الإسلام ثمرة ولادة معجزة لمريم العذراء المباركة"[١].

---

(١) M. Cherif Bassiouni, *Introduction to Islam*, p.28.

لقد أُنزل القرآن بعد العهدين القديم والجديد بعدة قرون. وهو يتضمّن إشارات متكرّرة إلى أنبياء الكتاب المقدّس الأوائل، ومنهم إبراهيم ونوح وداود وإسحق ويعقوب وموسى. وهو يكنّ إجلالاً خاصّاً للمسيح؛ فيذكره بالاسم ثلاثاً وثلاثين مرّة؛ وللعذراء، التي يذكرها أربعاً وثلاثين مرّة؛ وهي المرأة الوحيدة المذكورة بالاسم في القرآن[١].

تقول الآية ٨٤ من سورة آل عمران: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

وتتضمن الآية ٤٥ من سورة آل عمران تعبيراً من تعابير الإجلال لأم يسوع المسيح: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

ويصف بسيوني صلات الإسلام بالمسيحية بأنها "جوهرية"، مشيراً إلى أن المسلمين، شأنهم شأن المسيحيين واليهود، يعبدون إلهاً واحداً هو خالق الكون. ويشير، أيضاً، إلى أهمية الكلمات العربية التي يستخدمها المسلمون كافة، مهما تكن لغاتهم الأصلية. إذ إن لفظة الله العربية، على سبيل المثال، هي المرادف العربي، ويستخدمها العرب من مسلمين ومسيحيين. وتظهر لفظة "الله" في مقدّمة كتاب جدعون في العهد القديم؛ ويتكرر اسم يوحنا (٣:١٦) في الإنجيل في عدة لغات مختلفة. كما أن لفظة هللويا، الشائع استخدامها في التراتيل المسيحية، مشتقّة من لفظة "الله". وفي اللغة العربية، تعني كلمة الإسلام التسليم السلمي لإرادة الله. والمسلم هو من يُسّلم. وفي هذا المعنى، يستطيع المسيحيّون، باعتقادي، اعتبار أنفسهم "مسلمين"، لأنهم هم، أيضاً، يتعهّدون بالتسليم. والمسلمون، مثلهم مثل المسيحيين واليهود، نذروا على أنفسهم السلام، بوصفهم ورثة إبراهيم الروحيين.

يشرح بسيوني أن كلمة "قرآن" عربية؛ وأنها تعني القراءة أو التلاوة؛ وأن

---

(١) Bill Baker, *More in Common Than You Think*, p.43.

القرآن هو تلاوة بالعربية لكلام الله، كما أوحي به إلى النبي محمد عبر فترة دامت ثلاثاً وعشرين سنة. فقد بدأ الوحي في مكة عام ٦١٠م، واختُتم في المدينة المنورة عام ٦٣٢، وهو العام الذي توفي فيه النبي محمّد؛ وكان النبي محمد يتلو الآيات على الكتبة الذين كانوا يدوّنونها على قطع من القماش، وعلى عظام، وعلى صفائح من المواد المتينة. وجُمعت قبل وفاته في شكل كتاب بالعربية مكوّن من ١١٤ سورة، بقيت بلا تغيير، ولا يطعن المسلمون في دقّتها حتى يومنا هذا.

أما الحديث، وهو عبارة عن سجلات لأقوال النبي ومآثره، فإنه يفسّر القرآن ويكمّله، ويرشد المسلمين في حياتهم اليومية، ويحدّد الطرق لحسم النزاعات بين الأفراد، وبين الأفراد والدولة. غير أن بسيوني ينبّه إلى "أنه لا ينبغي أن ينظر إلى نفوذ الإسلام بالمفهوم القانوني الضيّق، بل بوصفه يقدم إطاراً يضمن للجميع الإنصاف والعدل الأساسيين. فالتوبة والرحمة من موضوعات الإسلام العظيمة"[(١)].

وعلى الرغم من الأمور المشتركة الكثيرة التي تجمع المسيحيين والمسلمين، فإن ثمة فروقاً، على سبيل المثال، في علاقتهم بالله، إذ إنها، بالنسبة للمسلمين، علاقة مباشرة وشخصية على الدوام. وليس في الإسلام ما هو مرادف لرجال الدين الرسميين الذين يرشدون المسيحية واليهودية. فللمسلمين أئمة؛ ولكنّ أحداً منهم لا يُرسم لمرتبة معيّنة، أو يُمنح أي سلطة دينية على المسلمين الآخرين. ويبيّن بسيوني أن الإمام يؤدّي دور المرشد في صلاة الجمعة، وهو "عادة شخص درس الإسلام، أو أنه أحد أفراد الجماعة، ويكون أكثر معرفة وأكبر سنّاً، أو يُقرّ الآخرون بأنه شديد التقوى". أما المفتي، فهو عالم يصدر تفسيرات للقرآن.

ويضيف بسيوني أن النبي حدّد عَدَد مرات الصلاة وطريقة أدائها، مستلهماً القرآن: "إن اصطفاف المصلّين الكتف إلى الكتف، بصرف النظر عن المكانة

---

(١) Bassiouni, *An Introduction to Islam*, p.42-44.

في الحياة، يرمز إلى المساواة أمام الله. ويسجد المسلم واضعاً جبهته على الأرض في كلّ ركعة، رمزاً للمساواة بين البشر كافة، والتواضع وعبادة الخالق، ورمزاً لحقيقة أننا خلقنا من الأرض وإليها نعود. ويولّي المصلّون المسلمون وجوههم جميعاً صوب مكة؛ ممّا يعني الوحدة والتماثل بين المسلمين كافة. وعلى المسلمين الوضوء قبل الصلاة، ويتضمّن الوضوء غسل الوجه واليدين والساعدين والقدمين، في شعائر فرضها القرآن والنبي. وهذا ليس لغرض الطهارة فحسب، بل للانقطاع عن نشاط سابق". وأثناء صلاة الجمعة ليس ثمة فرق إطلاقاً، بين المصّلين، على أساس العرق أو الثروة أو السلطة أو الجاه[١].

وقد أعطى النبي محمد، من ضمن شعائر الصلاة، تعليمات حول المحافظة على الصحة الشخصية، فضلاً عن التقوى. فالمشقّات في أداء شعائر الصلاة تشكّل برنامجاً ممتازاً للتمارين البدنية. وكما علمت من جار مسلم، فإن شرط الطهارة دقيق وقاس.

كنّا ذات يوم ننطلق في سيارة على الطرقات الترابية في الريف اليمني، عندما نظر مرافقنا الأستاذ اليمني إلى ساعته، وقال: "حان موعد الصلاة، ولكن ليس ثمة مكان أتوضّأ فيه، ولذا لا بد أن أؤجّل الصلاة، فأنا لست نظيفاً على نحو كافٍ لكي أصلّي".

وعندما ذكرت تعليقه مؤخّراً أمام الدكتور محمد بشار دوست، صديقي منذ كنت عضواً في الكونغرس، قال إن مرافقي كان بوسعه أداء الصلاة دون وضوء. وأوضح أن المسلم يستطيع، عند الضرورة، تلبية شرط الطهارة بأن يلجأ إلى الرمز، فيمسح الكفّين على رمل أو حجر نظيف، أو حتى أن يضغط اليدين على جدار، ثم يمسحهما على الوجه والذراعين.

لقد تسنّى لنا أن نتزوّد من بشار دوست وعائلته، اللاجئين من أفغانستان، بلمحات عن الدين الإسلامي، عندما أصبحوا جيراننا في إحدى ضواحي واشنطن في أواخر عهدي في الكونغرس. وقد ساعدت عائلتي بشار دوست

(١) Bassiouni, *An Introduction to Islam*, p.32.

وزوجته وأطفاله الأربعة على إكمال تكيّفهم مع الحياة الأميركية. ووسّعوا، بدورهم، معرفتنا للإسلام. وأثناء وجبة عامرة بمناسبة عيد الفطر، التي يحتفل فيها بانتهاء شهر رمضان، شرحوا لنا فريضة الصوم في الإسلام، التي تقضي بالامتناع، طوال الشهر، عن تناول الطعام أو الشراب خلال ساعات النهار.

وفي وقت لاحق، وبعد ظهر يوم حار، علمتُ بمسألة الاحتشام في الملابس. فقد تجمّع عدد من سيدات الجوار للتمتّع بحمام شمس في الفناء الخلفي. وفيما كنت أتحدث مع الدكتور بشار دوست عن السياج الفاصل، أكّدت له أن زوجته ستلقى الترحيب، إذا انضمّت إلى النساء اللاتي يرتدين ملابس لا تكاد تستر الجسم.

فأوضح أنها لن تفعل ذلك، لأن حمام الشمس العلني ينتهك القاعدة الإسلامية التي تدعو إلى الاحتشام في الملابس، وهي قاعدة تنطبق على الرجال والنساء معاً.

وعرفت، فيما بعد، أن فريضة الصوم تسبّبت بإرباك طفل في لوس أنجلس: لقد بدأ سلام المراياطي يؤدّي فريضة الصوم عندما كان في الصف الرابع؛ إلا أنه وجد صعوبة في شرح ذلك لزملائه غير المسلمين في الصف. وقد وصف حيرته بعد سنوات، قائلاً: "لمّا لم أستطع شرح فكرة الصوم لأصدقائي، قلت لهم إن والديّ يفرضان عليّ ذلك. وهذا، بالطبع، نمّى لدى زملائي مشاعر بغيضة نحو أمي وأبي؛ ولكنني، ولله الحمد، استجمعت شجاعتي فيما بعد، وشرحت لهم درس الصوم بأنه يعلّم قوة الإرادة والعناية بالجانب الروحي لأجسادنا. وبعدما اطّلع أصدقائي في المدرسة الثانوية على هذا الجانب من أسلوب حياتي وفهموه، باتوا يحترمون أبويّ ويحترمونني، لأدائنا فريضة الصيام. والأهم أنهم بدأوا يكنّون الاحترام للإسلام"[1].

إن قلّة من المسيحيين تتقيّد بفرائض دينية صارمة، كالفرائض التي يقبلها المسلمون. كنّا في عائلتنا نحني رؤوسنا لتلاوة صلاة قصيرة قبل الوجبات؛

(١) *Herald Examiner*, 2-26-1989 p.F-1.L

ونذهب إلى الكنيسة، دائماً، صباح يوم الأحد. فالذهاب إلى الكنيسة كان واجباً لا يتحدّث عنه أحد؛ ولكنه كان صارماً وجزءاً من حياتنا، كالأكل والنوم والتنفّس. وكان بعض حرمان النفس أمراً متوقّعاً في الأيام التي تسبق أحد الفصح. فالكاثوليك كانوا يمتنعون عن تناول اللحم يوم الجمعة. إلا أن بعض هذه الممارسات ما لبثت أن تلاشت أو اختفت. ولكنها، حتى في ذروتها، تبدو بسيطة، مقارنة بممارسات الدين الإسلامي.

ويَصفَ عدّة مسلمين، أدّوا فريضة الحج إلى مكة، هذه الفريضة بأنها من أعظم تجارب الحياة. وهي، أيضاً، تجربة في المساواة، إذ يرتدي الأمراء والفقراء الملابس نفسها. وفي صباح ذات يوم قبل سنوات طويلة، حدث أنني كنت أنتظر، في بهو أحد فنادق جدّة بالمملكة العربية السعودية، عندما شاهدت الحجّاج يصعدون إلى الحافلات للتوجّه إلى مكة القريبة. كانوا جميعاً يرتدون ملابس الإحرام البيض البسيطة. ولم أستطع التمييز بين الغنيّ والفقير، أو بين النبيل والعاميّ. وفي صيف عام ١٩٩٩، كلّمني، هاتفيّاً، شاب أردني يُدعى ضيف الله الهنداوي، التقيته لأول مرة عندما كان يدرس في جامعة أميركية. كان الهنداوي يهاتفني من مكان عمله في دبي بعد عودته من مكة المكرمة. لم يكن الهنداوي ميّالاً، بطبعه، إلى إطلاق العنان لحماسته؛ لكنّه قدّم لي تقريراً ينمّ عن بهجته، إذ قال: "كانت أعمق تجارب حياتي. لقد صلّينا من أجل البشر جميعاً، وليس من أجل أنفسنا وحدنا، وليس من أجل المسلمين وحدهم"[١].

ويُفرض على المسلمين، علاوة على فرائض الصلاة والصوم والزكاة، التزام عفّة اللسان والتسامح واحترام الأديان الأخرى.

وقد تبدّى لي هذا التحفّظ في انتقاد الآخرين، أثناء مقابلة أجريتها مع نثانيال هام، المسلم الأفرو ـ أميركي البارز في نشاط الحزب الجمهوري في مدينة نيويورك. فقد سألته، حينذاك، عن رأيه في لويس فاراخان، الزعيم المثير للجدل لمنظمة أمة الإسلام، الأفرو ـ أميركية، التي طعن التيّار المسلم السائد،

(١) Letter, 8-1-2000.

آنذاك، بتفسيرها للقرآن. ولما كانت الملاحظات التي دوّنتها أثناء المقابلة غير مكتملة، فقد اتّصلت به هاتفيّاً للاستيضاح. قلت له: "عندما تحدثت إليك في المركز الإسلامي في كوينز، انتقدت لويس فاراخان. وأردت بهذا الاتصال، أن أتأكّد من صحة اقتباسي لانتقادك". فأجابني نثانيال، قائلاً: "أنا مسرور جدّاً لأنك اتّصلت. إذ لم تكن ملاحظتي انتقاداً شخصيّاً للسيد فاراخان. أنا أهتمّ دائماً بتحاشي الانتقاد الشخصي لأيّ يكن".

قد يكون المسلمون متقدّمين كثيراً على المسيحيين، في دراسة الكتب الدينية. فما زلت أذكر، من تجربتي في مدرسة الأحد، كيف كان الأولاد، في الصفوف الابتدائية، يحفظون، عن ظهر قلب، بعض المقاطع والمزامير من الكتاب المقدس. وكانت، من أسعد لحظات فتوّتي، تلك اللحظة من فترة المراسم التي كنا نستهلّ بها يومنا، عندما كنت أقف أمام ما كان يبدو لي حشداً ضخماً، لأتلو من الذاكرة أسماء أناجيل الكتاب المقدس. كنت أسرع في تلاوة الأسماء إلى درجة أن التلاوة لا تكاد تتجاوز الدقيقة الواحدة. لكنّني، حالما أنتهي، كنت أتصوّر أنني قد تسلّقت جبلاً. ومقارنة بمنجزات المسلمين الذين يحفظون القرآن بأكمله عن ظهر قلب، كان أدائي متواضعاً حقّاً.

ربما كان للمسلمين ميزة على بعض المسيحيين في قبولهم الحرفي لنص كتابهم المقدس. ففي اجتماع بين ممثّلي الأديان المختلفة، عقده زعماء دينيون قبل بضعة أعوام في كلكتا، طُلب من القس مونكيور كونوي، وهو مسيحي من الطائفة التوحيدية، أن يعلّق على ميلاد المسيح العجائبي، كما يُروى في الكتاب المقدس. فردّ كونوي مقدّماً للمجتمعين وصفاً لميلاد المسيح، باعتباره "قصة ذات أهمية أسطورية وشعرية، ولا ينبغي اعتبارها تاريخية". وعندما طُلب من المسلمين الحاضرين ذوي المكانة المرموقة، وكان عددهم اثني عشر شخصاً أو أكثر، أن يبدوا وجهة نظرهم، تشاوروا فيما بينهم. ثم قال ناطق باسمهم إنهم جميعاً يشعرون بأنهم "ملزمون بقبول القصة تماماً، كما هي في العهد الجديد".

وهذا ما دفع كونوي إلى الاستنتاج، ممتعضاً، أن المسلمين هم وحدهم، المسيحيّون الأرثوذوكس حقّاً بين الحاضرين في الاجتماع. وقد كتب، فيما بعد،

يقول: "المسلمون ليسوا مسيحيين إلا (أنهم) الوحيدون في الشرق الذين يؤكّدون، حرفيّاً، صحّة المعجزات كافة التي تنسب إلى المسيح في الأناجيل، أو في فقرات من الكتاب المقدس لها صلة بميلاده. ومن النادر أن تجد متشكّكاً بينهم"(١).

والنسب المسيحي ـ الإسلامي يمتدّ عميقاً في التاريخ. فكلتا الديانتين، المسيحية والإسلام، تمجّد الكتب المقدّسة الأساسية، باعتبارها كلام الله. إنه الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) لدى المسيحيين، والقرآن لدى المسلمين. كما أن لدى الديانتين أدبيات ثانوية يعتقد عنايت لالاني، وهو طبيب في تكساس، أن تقبّلها تعاظم، ثم تضاءل عبر السنين. وأسهم، أحياناً، في إحداث نكسات في كلتا الطائفتين. يقول في رسالة له: "تشمل هذه الأدبيات، لدى المسيحيين، مؤلفات أوغسطين وأكويناس ودانتي ولوثر وكالفن وميلانتشون. وتشمل لدى المسلمين الحديث (روايات عن النبي محمد وأقواله ومآثره)؛ والسنّة، وهي عادات النبي وتقاليده؛ والشريعة، أي القوانين الإسلامية المُستَمدة من القرآن والسنّة".

ويلاحظ لالاني حالات مدّ وجزر، عبر التاريخ، في التزام كلّ من المسيحية والإسلام بحقوق الإنسان. ولكنه يعتقد أن الخطوات، التي خطتها إلى الأمام كلتا الطائفتين، قد تغلّبت على الإخفاقات الدورية: "الإنسان يتقدّم بلا ريب". وهو يعتقد أن كلتا الطائفتين الدينيتين قد قطعت خطوات واسعة في مسار الارتقاء بحقوق الإنسان. ولكنّ المسارين لم يكونا "متقاربين". ويضيف: "اعترف المسلمون بحقوق الإنسان وعزّزوها قبل أن تصبح قاعدة السلوك في الغرب. وقد أحرز المجتمع العربي ـ الإسلامي، تحت تأثير الإسلام، تقدّماً كبيراً على العالم المسيحي خلال عصر الإسلام الذهبي بين القرنين الثامن والخامس عشر. فالعالم المسيحي بدأ مسيرة تقدّمه في القرن الثالث عشر، قبل أن يبدأ المجتمع العربي ـ الإسلامي بالنكوص. وكان للدين دورٌ كبيرٌ جدّاً في ذلك كله".

---

(١) Ralph Braibanti, *The Nature and Structure of the Islamic World*, p.76.

يعتقد العالم والمؤلّف البارز، الدكتور رالف بريبانتي، أن الإسلام يشهد، حاليّاً، تزايد الإقرار به، والموافقة عليه، على النطاق العالمي، في حين أن المسيحية تبدو في حالة تراجع ببعض النواحي. "فنظام القيم الإسلامي يبدو أكثر تحفّظاً بنقائه الأصلي، وأسلم من المعتقدات المسيحية التي تتراجع باطّراد، إلى عالم الأسطورة أو التعصّب... أما الإسلام، فإنه، من ناحية أخرى، في مرحلة نموّ دينامية، مفعمة بالحماسة والنشاط".

ويحذّر بريبانتي، وهو عضو في الكنيسة الأسقفية البروتستانتية، من أن الإسلام لا يصل إلى تحقيق كامل طاقته الكامنة إلا إذا أولى المسلمون صورة الإسلام لدى العامة من الناس اهتماماً كبيراً، فضلاً عن اهتمامهم بسلوك المسلمين كأفرادٍ أيضاً: "نجد في هذه اللحظة من التاريخ، أن للقوى المحركة في الإسلام وقيمه المحدّدة بوضوح، إمكانية انتشال العالم الغربي من حالته المرضية. ولا يمكن أن يتحقّق ذلك، إلاّ إذا كانت الصورة، التي يعرضها الإسلام على الشاشة الكونية، وأداء المسلمين على المسرح العالمي، متساوقين مع مبادئ الإسلام، في السلام والعدل واحترام الحياة"[١].

ويلحظ لالاني، من وجهة نظر متعارضة نوعاً ما، مشكلة متفاقمة. فهو يشعر بالقلق لإخفاق بعض القادة المسلمين في إدراك مرونة القرآن وميزة خلوّه من الدوغماتية، وهما الصفتان اللتان تنسب إليهما رعاية ما حقّقه الإسلام من تقدّم في أوائل تاريخه. وهو يقول:

«نجد القرآن، مقارنةً بالأدبيات القويمة لليهودية والمسيحية، وثيقة تخلو، على نحو لافت، من الدوغماتية. فالآيات في القرآن تبدأ الواحدة بعد الأخرى، بإعلان ما يبدو أنه أمر دوغماتي متصلّب. وبالوتيرة نفسها، تتوقّف على نحو مفاجئ، في منتصف الجملة، وتترك المرء أن يتأمّل في رحمة الله، في الله العليم بكل شيء، والله القدير على كلّ شيء، لتخفيف شدة حكمه.

"ولمّا كانت شؤون البشر بالغة التعقيد، مع وجود عوامل كثيرة تخفّف آثامهم، ولمّا كان ينبغي أن يُعطى الإنسان المجال للتقدم، حتى بما يتجاوز

(١) Ralph Braibanti, *The Nature and Structure of the Islamic World*, p.86.

أعلى معايير السلوك المناسبة للعصر الذي أنزل فيه القرآن، فإن مثل هذه الالتباسات ملائمة تماماً لله، أو هكذا يبدو لي. فالله لم يكن يريد أن يوقف الإنسان فجأة أثناء مسيرته نحو قمم الكمال الأعلى، على الدوام".

يتابع لالاني: "فلنقارن تلك المرونة بيقين بولس وأوغسطين، اللذين تبدو مكانتهما، في الحياة اليومية للعالم المسيحي اليوم، في حالة تراجع، وفي خطر التبرّؤ منهما كلّيةً. وحتى الكنائس البروتستانية السائدة، مثل الكنيسة اللوثرية والكنيسة الكالفنية المُصْلِحة، تنحّي، بكياسة، معتقدي القضاء والقدر والتبرئة الإلهية، من خلال الإيمان وحده والنعمة الإلهية. وفي رأيي، كانت حماسة الحركة الإصلاحية البروتستانتية للنقاء مجرّد إعادة صياغة لمبادئ بولس وأوغسطين. وقد استوحيت من واقع فساد البابوية، واستحثّها المسلمون بسخريتهم المهينة. ولكن، باستثناء كتابات توما الأكويني وإيرازموس، فإن الحركة الإصلاحية البروتستانتية، في القرن السادس عشر، قد قصرت عن إدراك الغاية الأساسية من تعاليم المسيح.

و"مع ذلك يبدو المجتمع العربي ـ الإسلامي اليوم، في خطر التقصير عن إدراك الغاية الأساسية في ما يتعلق بالقرآن، وفقدان تمالك النفس الجدير بالإطراء، الذي أظهره القادة المسلمون خلال عصر الإسلام الذهبي. إنني أشير إلى النزعة المتنامية للارتقاء بآراء الصحابة والفقهاء والمفسّرين، إلى منزلة القرآن نفسها تقريباً. إنه اتّجاه مؤسف، لأنّ العديد من نصوص هؤلاء هي محاولات واضحة لتشويه عمل النبي محمد، وبعث ظلمة الجاهلية في ما يخصّ مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي.

"إنني آبَى مقارنة الأديان. إذ إن الأديان كلّها حسنة، والله خيِّر. ومع ذلك يبدو أن الكتب المقدسة اليهودية ـ المسيحية تتعرّض للتحريف أكثر ممّا تتعرض له الأحاديث النبوية. وكان تأثير ما أسمّيه بالنصوص الثانوية على الفكر المسيحي حتى القرن الثامن عشر، أكبر بكثير من تأثير النصوص الإسلامية، المشار إليها، على المجتمع الإسلامي في الأزمنة الحديثة"[١].

---

(١) Letter, 5-27-2000.

ويُبدي القس جون كاي، راعي أبرشية الكنيسة المشيخية الأولى في مدينة جاكسونفيل بولاية إيلينوي التي أنتمي إليها، الملاحظة التالية: "إن الله على درجة عالية من التسامح إزاء الالتباس".

إن المرونة، التي يجدها لالاني في القرآن، ينبغي أن تشجّع غير المسلمين على رفض الصور النمطية الواسعة الانتشار التي تعرض الإسلام ديناً متّصفاً بالدوغماتية والتصلّب والانتقامية والقساوة.

والتسامح هو من المبادئ الأولى في المسيحية والإسلام؛ غير أنه يُفتَقد في بعض الأزمنة والأماكن؛ ويصبح إدراك صلة القربى بين الديانتين غير ممكن.

وإنني أعتقد، بصورة عامة، أن المسلمين أكثر اعترافاً من المسيحيين بصلة القربى بين الأديان. وهذا واضح في حقيقة أن الإسلام يقبل المسيحية واليهودية كديانتين تقومان على أساس الوحي الإلهي. وعندما يصبح المسيحيون أكثر إدراكاً لهذه العلاقة، فسوف يشرعون بالتحدّث عن التراث اليهودي ـ المسيحي ـ الإسلامي، وهو مصطلح أدقّ من تعبير اليهودي ـ المسيحي المستخدم في أغلب الأحيان[1].

إن ظهور الأدلّة القوية على وجود صلة قربى وثيقة بين المسيحية والإسلام، ولا سيما في الآثار الأساسية المدونة، كان هو الأكثر مدعاة للذهول والرضى، ممّا تكشّف لي في رحلتي الإسلامية. إنه كشف مذهل، لأنه، بالضبط، نقيض لمعظم ما يؤمن به المسيحيّون الأميركيون. وهو أمر يبعث على الرضى، بسبب ما يتيحه من ضمان لقيام تعاون عظيم بين الأديان، ما إن يعرف كلٌّ من المسيحيين والمسلمين الحقيقة عن أنفسهم. وهو يطعن بما كانت تردّده، تكراراً، المعلّمة في مدرسة الأحد، من أن المسلمين، الذين كانت تخطئ في تسميتهم بـ "المحمّديين" "ليسوا مثلنا".

إن معظم معارفي من المسلمين مواظبون على أداء فرائض الإسلام الخمس. وهذه نسبة قياسية تميّزهم كمسلمين ملتزمين التعاليم، أو مسلمين بالممارسة.

---

(١) Letter, p.16.

ولكنّ هناك آخرين جاهروا، من دون تردّد، بعدم تقيّدهم الدائم بأداء فريضتَيْ الصلاة والزكاة. ومع أنّهم يقرّون بتقصيراتهم، إلا أنهم يعدّون أنفسهم مسلمين. وفي هذا الاعتراف، ما يذكّر بممارسة موازية لمسيحيين كثيرين لا يذهبون إلى الكنيسة، إلاّ لحضور الاحتفالات الدينية في عيدي الفصح والميلاد، هذا إذا فعلوا؛ ولكنّهم، مع ذلك، يعدّون أنفسهم مسيحيين. إن حضور الاحتفالات الدينية في الكنيسة لا يثبت بالضرورة التقوى أو الإخلاص للمبادئ المسيحية. لكن من الجدير بالملاحظة أن نحو نصف المسجّلين في قوائم عضوية الكنائس المسيحية نادراً ما تجدهم يتعبّدون على مقاعد الكنيسة.

لا أستطيع أن أستشهد بتقديرات منشورة عن عدد المسلمين الذين لا يدخلون في عداد الملتزمين بالفرائض الدينية. إلا أن عدداً من المسلمين، من معارفي، يعتقدون أن ما لا يقلّ عن نصف الذين يعدّون أنفسهم مسلمين ينتمون إلى هذه الفئة. وهناك آخرون ممّن يقدّرون أن نسبة هؤلاء تراوح بين ٧٠٪ و٨٠٪ من المسلمين. ولكن المعلومات الدقيقة ليست حقيقية، وإن بدت كذلك. فأداء الصلاة في المسجد ليس من أركان الإسلام الخمسة، وإن كان هذا الأداء هو المستحب. وثمة عامل آخر هو التقليد الإسلامي الذي يحظّر التحري عن خطايا مسلم آخر، أو نقائصه الشخصية.

ويعتقد الأمير تشارلز، وريث العرش البريطاني الذي يجعله منصبه هذا رئيساً فخرياً لكنيسة إنكلترا، أنّ بوسع المسيحيين تعلّم أمور كثيرة من المسلمين.

وفي خطاب متلفز ألقاه، عام ١٩٩٣ في جامعة أوكسفورد، لحظ تشارلز مآثر الإسلام للحضارة الغربية، حين قال: "يمكن للإسلام أن يعلّمنا اليوم طريقة للفهم والعيش في عالم كانت المسيحية هي الخاسرة عندما فقدته. ذلك أنّنا نجد في جوهر الإسلام محافظته على نظرة متكاملة إلى الكون. فهو يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة، وبين الدين والعلوم، وبين العقل والمادة. وقد حافظ على نظرة ميتافيزيقية وموحّدة عن أنفسنا، وعن العالم من حولنا"[(١)].

---

(١) Letter, p.38.

وعبّر إبراهيم أبو ربيع، المدير المشارك لمركز دنكان بلاك مكدونالد لدراسة الإسلام والعلاقات المسيحية ـ الإسلامية، عن وجهة نظر موازية، في محاضرة ألقاها في نيسان (أبريل) ١٩٩٩، في معهد هارتفورد اللاهوتي بولاية كونيكتيكت. فقد أعرب عن اعتقاده أن الإسلام يسعى إلى بقاء "الوعي بالمقدسات" سليماً. وأضاف قائلاً: "تأمّلوا برهة في موسم الحج الكبير، عندما يتوجّه الرجال والنساء، من شرائح المجتمع كافّة: أغنياء وفقراء، عرباً وغير عرب، إلى مكّة المكرمة، يسجدون لربّ العالمين، ويلتمسون الرحمة والشفقة".

ودعا أبو ربيع إلى التعاون بين الأديان، قائلاً: "من المهمّ التركيز على بناء صلات لاهوتية وفكرية جديدة بين تقاليدنا الثلاثة، أي اليهودية والمسيحية والإسلام؛ وهي صلات ضاعت، على ما يبدو، في مراحل معيّنة من التاريخ البشري... ذلك أننا، لن نتمكّن، إلا بإعادة اكتشاف ذلك المَعِين الهائل لدعامتنا الروحية، من إحياء تلك الصلات من أجلنا ومن أجل أبنائنا"[١].

(١) Hartford Seminary, *Praxis*, April 1999, p.3.

الفصل الثاني

غرباء في وسطنا

لما أبلغت جاري أن أحدث مشاريعي تأليف كتاب عن المسلمين الأميركيين، قال مذهولاً: "ماذا تفعل؟!". وصدرت ردود فعل مشابهة عن أصدقاء آخرين في جاكسونفيل بولاية "إيلينوي" وهي مدينة جامعية يبلغ تعداد سكانها ٢٥ ألف نسمة ونقطن نحن فيها منذ عام ١٩٨٤. لقد أصيبوا بالحيرة. إلا أنّ أحداً منهم لم يتابع الموضوع، وربما كان ذلك لأنهم لا يعرفون أحداً من المسلمين، وكانوا يفضلون الحديث عن موضوعات اعتبروا أنها مناسبة أكثر صلة بحياتهم اليومية.

ربما لم يدركوا حقّاً مدى قرب المسلمين الأميركيين منهم. وإذا كان هناك مسلمون كثيرون يعيشون في مدينة سانت لويس القريبة بولاية شيكاغو وفي مدينة سبرنغفيلد، إلا أن عدد المسلمين الذين يقطنون منهم في مقاطعتنا لا يزيد على اثني عشر مسلماً. إنهم المحامي ألن ياو وزوجته رشا المتخصّصة في الاقتصاد وابنهما الصغير، وسليم محمود، وهو طبيب، مع زوجته وولديهما، وشاهناز راو وهي طبيبة وزوجها عليم وابنهما الصغير، وجيل فوربك، وهي زوجة فلاح وبستاني، ودان كلارك، وهو يملك شركة خدمات لأجهزة الترشيح. وثلاثة منهم، ألين ياو وفوربك وكلارك، اعتنقوا الإسلام، في حين أن السيد ياو تولى هو وزوجته إدارة مناقشات عن الإسلام في عدة كنائس محلية.

منذ أجيال وأميركا موطن مئات الآلاف من المسلمين. وفي حين أن العدد الدقيق غير معروف، إلاّ أن التقديرات في الدراسات الإحصائية الحديثة تقول إن

المجموع يزيد على ستة ملايين في عام ١٩٩٩، وتتكهن بأن يبلغ سبعة ملايين في عام ٢٠٠٠. وحدّدت منشورات المجلس الإسلامي الأميركي مجموع عددهم بخمسة ملايين في عام ١٩٩٢، وسبعة ملايين في عام ١٩٩٦، وثمانية ملايين في عام ١٩٩٩[١]، في حين أن تقريراً لوكالة "أسوشيتد برس" نُشر في صحيفة "شيكاغو تربيون" في ١٧ آذار (مارس) ٢٠٠٠ قدّر مجموع عددهم بعشرة ملايين نسمة.

إن الرقم الإجمالي الدقيق لا يمكن ضبطه لثلاثة أسباب رئيسة هي: لا يُحتفظ بسجلات في مصدر واحد[٢]، ولا يُسمح لمكتب إحصاء السكان الأميركي أن يَطْلب من المواطنين تحديد انتمائهم الديني، ولا يحتفظ المسؤولون في المساجد عادة بسجلات عن المتعبدين.

يصعب تحديد عدد المسلمين الأميركيين، لأن أغلبيتهم الكبيرة لا ترتبط بأي منظمات إسلامية. ويقدّر عبد الرحمن العمودي، مدير مؤسسة المجلس الإسلامي الأميركي في واشنطن العاصمة، أن الثلثين على الأقل، لا ينتسبون إلى أي تنظيم[٣]. وتقدّر "موسوعة أوكسفورد للعالم الإسلامي الحديث"، التي حررها الدكتور جون ل. إسبوسيتو ونشرت في عام ١٩٩٥، النسبة بـ٩٠٪[٤].

يفسّر البروفسور سليمان نيانغ من جامعة "هوارد"، ورئيس مركز البحوث والمعلومات الإسلامي الأميركي في نيويورك، هذه الظاهرة بقوله: "المسلمون الأميركيون، مثل أقرانهم من الديانات الأخرى في المجتمع الأكبر، ينقسمون إلى فئتين واسعتين: تضم الأولى ممارِسي العقيدة الدينية الذين يَؤُمّون المساجد، وتضم الثانية الذين لا يترددون على المراكز الدينية، فيغفل القائمون بالتعداد في المؤسسة الإسلامية إحصاءهم أو يفوتهم ذلك[٥]. ويخمّن أن من يحجمون عن

---

(١) AMC. *Our First Five Years*, p.8.

(٢) Ibid., p.12.

(٣) Abdurahman Alamoudi interview, 1-18-2000.

(٤) *The Oxford Encyclopedia of the Modern Islamic World*, vol.. 4, p.278.

(٥) CAMRI, *Muslim Population in the U.S.A.*, 1998, p.7-8.

الذهاب إلى المساجد هم أكثرية كبيرة. ويرى بعض الباحثين أن ١٠٪ من المسلمين يواظبون على الذهاب إلى المساجد(١).

قَبِل قادة المنظمات الإسلامية رقم الستة ملايين كتقدير معتدل للعام ١٩٩٩. غير أن الدكتور موسى قطب، رئيس مركز المعلومات الإسلامي لأميركا في شيكاغو، يعتبر الرقم متدنّياً جدّاً. وقد كتب قائلاً: "أعتقد أن المجموع ربما وصل إلى ١٧ مليوناً، وهو رقم اطّلعت عليه عدّة مرات في صحيفة "شيكاغو تربيون" وفي التلفزيون(٢). وقدرت طبعة ٢٠٠٠ من "وورلد ألماناك"(٣) مجموع المسلمين في الولايات المتحدة بخمسة ملايين ونصف مقابل ثلاثة ملايين و٣٣٢ ألفاً في عام ١٩٩٩(٤). وخمّنت "موسوعة أوكسفورد"، الصادرة في عام ١٩٩٥، أن العدد يبلغ نحو ثلاثة إلى أربعة ملايين..."(٥).

وبعد تحليل البيانات المتاحة واستعمال تقديرات معتدلة، توصّل الباحثان إلياس بايونس من جامعة كورتلاند في نيويورك، وم. معين صِدِّيقي من جامعة إيست ـــ وست في شيكاغو، إلى أن مجموع المسلمين بلغ خمسة ملايين في عام ١٩٩٠، وستة ملايين في عام ١٩٩٥، وسبعة ملايين في عام ٢٠٠٠. وقدّرا العدد بـــ ٦٧١٢٩٦٠ مسلماً في كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٠. والباحثان هما مؤلفا كتاب "تقرير عن السكان المسلمين في الولايات المتحدة الأميركية"، الذي نشره في تموز (يوليو) ١٩٩٨ مركز البحوث والمعلومات الإسلامية الأميركية في مدينة نيويورك. ويقدم كتاب "مسلمو إيلينوي: تقرير ديمغرافيّ"، الذي ألفه بايونس ونشرته جامعة إيست ـ وست في شيكاغو، بيانات تؤيد تقرير العدد بسبعة ملايين نسمة.

وحددت تقديرات حصلت في عام ١٩٩٣ عدد المساجد بثمانمائة؛ وبعد

---

(١) Interview, Sulayman Nyang on 1-19-2000.

(٢) Dr. Musa Qutub e-mail, 3-22-1999.

(٣) Page 692.

(٤) Page 684.

(٥) *The Oxford Encyclopedia of the Modern Islamic World*, vol.. 3, p.277.

ستة أعوام، ارتفع العدد بحسب أحد التقديرات إلى ألفين. ويرى آخرون أن المجموع الفعلي يفوق ذلك بكثير. وقد أوردت دراسة للجمعية الإسلامية لأميركا الشمالية أن في شيكاغو وحدها أربعمئة مكان لصلاة الجمعة معترف بها، وبعضها قاعات صغيرة تستعمل لأغراض غير دينية في بقية أيام الأسبوع. ويقدّر مركز البحوث في مجلس العلاقات الإسلامية الأميركية (CAIR) أن مجموع المنظمات الإسلامية بما فيها المساجد يبلغ ستة آلاف.

وعلى الرغم من وجود اتجاه ملموس بانتقال المسلمين الأميركيين إلى المجتمعات الريفية، فإن معظمهم يعيشون في مدن كبيرة في الولايات الصناعية. ويعيش أكثر من مليون مسلم في كاليفورنيا فيما يعيش عدد أدنى من ذلك بقليل في ولاية نيويورك. وتشمل التقديرات الأخرى زهاء ٤٠٠ ألف في ولاية إيلينوي وزهاء ٤٠٠ ألف في كل من ولايات نيوجيرسي وميتشيغان وإنديانا. وتوجد تجمعات أصغر في فيرجينيا وتكساس وأوهايو وميرلاند[١]. وبين المناطق الحضرية تحتضن مدينة نيويورك العدد الأكبر من المسلمين تليها لوس انجلس وشيكاغو وسان فرنسيسكو وديترويت وبوسطن وسانت لويس وهيوستن وميامي. وقد أظهر إحصاء صادر عن المجلس الإسلامي الأميركي أجرته مؤسسة "زغبي إنترناشونال" تشتّت المسلمين الأميركيين على نحو مثير للدهشة: فهناك ٣٢,٢ ٪ في الشرق، ٢٥,٣ ٪ في الجنوب، و٢٤,٣ ٪ في منطقة البحيرات الكبرى و١٨,٢ ٪ في الغرب.

قَدِمَ معظم المسلمين الأوائل إلى أميركا مكبَّلين بالسلاسل. كانوا سوداً بيعوا كأرقاء ابتداءً من عام ١٥٣٠ في غرب إفريقيا إلى تجّار بيض، وشُحِنُوا عبر المحيط إلى البرازيل ثم إلى منطقة الكاريبي، وبعدئذٍ إلى المستعمرات البريطانية التي أصبحت فيما بعد الولايات المتحدة. ويُقدَّر أنه، عبر السنين وفي أحد أسوأ الفصول المخزية في تاريخنا، استُرِقَّ على نحو دائم في الولايات المتحدة ما يقرب من عشرة ملايين إنسان، كان زهاء ٢٥ ٪ منهم من المسلمين، أرغموا

(١) CAMRI, Muslim *Population in the U.S.A.*, p.19, and AMC, *Muslim Population in the United States*, p.15.

على التخلّي عن دينهم. لقد اشترطت إحدى مواد الدستور الأميركي إنهاء استيراد الرقيق بحلول عام ١٨٠٨، إلا أنَّ الرقَّ نفسه لم ينته إلا في نهاية عام ١٨٦٥، أي بعد ٢٦ عاماً من تحريم البريطانيين ممارسة الرق(١).

وقَدِم المسلمون الآخرون إلى شواطئنا طواعية، وكان بعضهم بين أوائل النازلين بأميركا الشمالية. وتشير وثيقة قديمة إلى أن البحّارة المسلمين قَدِموا إلى أميركا الشمالية في عام ١١٧٨، أي قبل ثلاثة قرون من رحلة كولمبوس الأولى. وكان بعض أولئك البحّارة من الصين وآخرون من غرب أفريقيا(٢). وفي عام ١٣١٢، كان مسلمون من منطقة مالي في افريقيا، أوّل من استكشفوا المناطق الداخلية التي أصبحت، فيما بعد، الولايات المتحدة، مستخدمين نهر المسيسبي طريق مرورٍ لهم. وفي عام ١٤٩٢، كان عدة بحارة مسلمين بين بحارة كريستوفر كولمبوس أثناء رحلته الناجحة إلى العالم الجديد. وحمل معه أيضاً وثيقة يشير فيها العالِمُ العربي الإدريسي إلى أن ثمانية مستكشفين مسلمين قد اكتشفوا قارة جديدة قبل ذلك بعدة سنوات(٣).

كان بين المهاجرين المتأخرين مسلمون من إسبانيا وشمال أفريقيا هربوا من محاكم التفتيش الكاثوليكية بالانضمام إلى المستكشفين الإسبان. واستقر بعضهم في فلوريدا وجنوب غربي الولايات المتحدة. وكان ثمة مسلمون بين الصينيين الذين ساعدوا على بناء شبكة السكك الحديدية عبر القارة. وبدأت أضخم هجرة للمسلمين في أواخر ستينات القرن العشرين أغلبها من جنوب آسيا والدول العربية. وكانت هجرات المسلمين الرئيسية قد بدأت عقب الحرب الأهلية الأميركية، وتزامنت الزيادات الأخرى مع الحروب وفترات الركود الاقتصادي(٤). وبحلول عام ١٩٩٥ أصبح بالإمكان تقسيم المسلمين الأميركيين بالتساوي بين مهاجرين ومولودين، ممثلين في خمسين مجموعة إثنية مختلفة.

---

(١) CAMRI, *Muslim Population in the U.S.A.*, p.16.

(٢) AMC, *The Muslim Population in the United States*, p.19, 1992.

(٣) Amir Nashid Ali Muhammad, *Muslims in America* (Amana Publications), p.3.

(٤) CAMRI, *Muslim Population in the U.S.A.*, p.18.

كان الأميركيون الأفارقة، ولوقت طويل، يمثلون أكبر مجموعة اثنية بين المسلمين، إذ كانوا يشكلون ثلث المجموع الإجمالي[١]. واستنتج بايونس وصدِّيقي، قبل خمسة أعوام أن مسلمي الولايات المتحدة المنحدرين من أصل عربي يمثلون ٣٢ ٪ من مجموع المسلمين الأميركيين؛ في حين أن الأميركيين الأفارقة ومن هم من أصل آسيوي جنوبي يمثلون ٢٩ ٪. أما من هم من أصل تركي فتبلغ نسبتهم ٥ ٪. وتبلغ نسبة من هم من أصل إيراني ٣ ٪. وأظهرت دراسات أخرى نسبة مئوية أعلى لمن هم من أصل آسيوي جنوبي ونسبة أقل للسود، ولمن هم من أصل عربي[٢]. وذكرت دراسة في عام ١٩٩٢ أن السود يمثلون ٤٢ ٪[٣]. وقبل ذلك بثمانية أعوام، قدّر عدد السكان المسلمين في البلاد، المنحدرين من أصل إفريقي بمليون نسمة، وعدد السكان القادمين من أقطار عربية في الشرق الأوسط بـــ ٩٠٠ ألف نسمة، ومن باكستان والهند ٤٥٠ ألفاً، والبقية من: البلقان وألبانيا وتركيا وإيران وشمال إفريقيا[٤]. واستنتج تحليل شمل بليوناً ومئتي ألف مليون مسلم في العالم، أن العرب ومن هم من أصل عربي يمثّلون زهاء ١٠ ٪ من المجموع، بخلاف نسبتهم المئوية الأعلى في أميركا. وأظهر إحصاء أجرته "مؤسسة زغبي إنترناشونال" في آب (أغسطس) ٢٠٠٠ النسب المئوية التالية بحسب الأصل: عرب الشرق الأوسط ٢٦،٢ ٪، وجنوب آسيا ٢٤،٧ ٪، والأميركيون الأفارقة ٢٣،٨ ٪، والشرق الأوسط غير العربي ١٠،٣ ٪، وشرق آسيا ٦،٤ ٪، والمناطق الأخرى ١١،٦ ٪.

وعلى الرغم من أن الأميركيين الأفارقة يمثلون حالياً ٢٥ ٪ فقط من مجموع السكان المسلمين في الولايات المتحدة، إلا أنهم يبقون جزءاً مهمّاً من هذه الجماعة الدينية. وبين المسلمين الأميركيين الأفارقة الذين يبرزون من طريق

(١) AMC, *Our First Five Years*, p.8.

(٢) CAMRI, *Muslim Population in the U.S.A.*, p.13.

(٣) AMC, *Muslim Population in the United States*, p.13.

(٤) *A Profile of Islam* (Melbourne: Islamic Publications), p.95.

الإنجازات الرياضية، عزَّز اثنان مكانتهما بالتحدث صراحة عن مسائل غير رياضية.

يعد محمد علي أشهر المسلمين الأحياء في العالم وأكثرهم حظوة بالإعجاب. فقد احتل بطل الملاكمة الأسبق الذي منحته مجلة "يو إس أي توداي" لقب "رياضي القرن"، مرتبة متقدمة في قائمة اختيارات القرن للإنجاز الرياضي. غير أنه يشتهر أكثر من ذلك بشجاعته الهادئة في ظل الضغط السياسي. يلقى محمد علي تقديراً كبيراً لصراحته المتَّسمة بالشجاعة، عندما يتحدث في المسائل العامة؛ ولتمسكه بقناعاته، وقد كلفه ذلك غالياً في مهنته كرياضي.

اعتنق محمد علي الإسلام في البداية من طريق منظمة أمة الإسلام، غير أنه أصبح مسلماً معتدلاً، يرفض العقائد الانفصالية العنصرية التي كانت تدعو إليها حينذاك منظمة أمة الإسلام. واعتزل حلبة الملاكمة منذ زمن بعيد. وهو يقضي معظم وقته وينفق معظم دخله في دعم قضايا تعزز حقوق الإنسان والسلام العالمي. ويُعتبر أنه يمتلك أفضل اسم ووجه يميِّزانه بين الأميركيين كافة في أنحاء العالم، سواء في الماضي أو في الحاضر؛ وله مكانة فريدة كبطل ثقافي للناس في أرجاء العالم الثالث، خصوصاً بين الأميركيين الأفارقة.

أعلن كاتب السِّيَر ماكس والاس في صحيفة "نيويورك تايمز" أن محمد علي "غيّر فعليّاً عالم الرياضة إلى الأبد" عندما وضع حدّاً لـ "التسامح المتّسم بحسّ التفوّق نحو السود" في عالم الرياضة، وهو ممارسة عنصرية شاعت في أيام بطل الملاكمة الأميركي الأفريقي الأسبق جو لويس. فقد كان لويس يحظى بإطراء الكتّاب الرياضيين بوصفه "مفخرة لبني جنسه"، لأنه حافظ، في العلن، على مسلك يتّسم بالطواعية والاستكانة والتواضع. يقول والاس: "كان محمد علي، أيضاً، مصمِّماً على أن يكون مفخرة بني جنسه. إلاّ أن لتلك الكلمات مغزًى مختلفاً جدّاً عمّا كانت تعنيه لجو لويس". ويقول عالم الاجتماع الرياضي هاري إدواردز: "قبْل محمد علي كان الرياضيون السود مجرد مقاتلين في القرن العشرين سخَّروا أنفسهم لخدمة المجتمع الأبيض".

في شباط (فبراير) ١٩٦٤، وفي اليوم الذي أعقب فوزه الأول ببطولة الوزن الثقيل، أذهل محمد علي عالم الرياضة بإعلان اعتناقه الإسلام. وردَّ في مؤتمر صحفي على أسئلة عدائية بتصريح غالباً ما يُستشهد به: "لا يتوجب عليّ أن أكون ما تريدني أن أكون". وغيَّر، بعدها بفترة قصيرة، اسمه من كاسيوس كلاي، الذي وصفه بأنّه "اسم عبد"، إلى محمد علي. إلاَّ أنّ كتَّاباً رياضيين كثيرين، أزعجهم أن يجرؤ ملاكم على الإدلاء بتصريحات سياسية، ورفضوا الاعتراف بتغيير اسمه عدة أشهر.

وفي عام ١٩٦٧، كان محمد علي معارضاً بقوة لحرب فييتنام. رفض الالتحاق بالجيش، على الرغم من أن وزارة الدفاع أكَّدت له أنه، مثل جو لويس في الحرب العالمية الثانية، لن يقترب من ميدان معركة، ويستطيع مثل جو لويس في الحرب السابقة، الاحتفاظ بلقب بطل الوزن الثقيل، وتقديم عروض في الملاكمة للترفيه عن الجنود.

رفض كلاي مفسِّراً: "سأكون مذنباً مثل الذين يقترفون أعمال القتل". ويشير والاس الى أن لجنة الملاكمة في نيويورك جرَّدت محمد علي من لقبه، على الرغم من أنها منحت الرخص إلى أكثر من مئتي مجرم محكوم على مر السنين، "في حين أن أخطر إثم ارتكبه محمد علي كان مخالفة مرور قبل عامين". وقد أدين بتهمة التهرّب من الخدمة العسكرية، غير أنه لم يَشْكُ يوماً أثناء المعركة القضائية التي كلَّفته مبالغ طائلة، واستمرت أربعة أعوام، وانتهت عندما نقضت الحكمَ المحكمةُ العليا في الولايات المتحدة. وقد قال: "مبادئي أهم من المال أو من لقبي... كنت أعرف أنني على صواب. كان لا بد أن أتخذ موقفاً".

وها هو يعلن عقيدته الدينية، إذ قال لـ "مجلة بلاي بوي" عام ١٩٧٥: "لو لم أعتنق الإسلام لما أصبحت ما أنا عليه اليوم". وأضاف أنه يود أن يتذكَّره الناس بوصفه "رجلاً حاول أن يوحِّد شعبه من طريق عقيدة الإسلام". أما رامزي كلارك، الذي كان يشغل منصب وزير العدل عندما قاضى موظفوه محمد علي بتهمة التهرّب من الخدمة العسكرية، فإنه يعتبره الآن منار أمل على نطاق عالمي. "إنه يعني للجميع أنك تستطيع أن تكون وديعاً وقوياً في آن...

فعلى الرغم من قوّته البدنية، فإنه يثير الرقّة والحبّ دائماً. وأهم شيء ينقله إلى الآخرين هو حبّه ورغبته في عمل الخير".

باستثناء الملاحظات المهينة، التي كان يوجّهها عادة إلى خصومه في الملاكمة، وهي تعليقات لا يعتبرها سوى "مبالغة دعائية" لبيع تذاكر المباريات، فإن محمد علي يتجنّب انتقاد الآخرين استجابةً للمعايير الإسلامية. ويقول الصحفي الرياضي جون ساراسينو: "بمرور الزمن استغل كثيرون طبيعة محمد علي المتّسمة بالمحبة. لقد خدعوه وسرقوه وأساءوا إليه ولا يزالون كذلك حتى يومنا هذا. إن محمد علي يعرف من هم، إلاّ أنه لن يتفوّه أبداً بكلمة بذيئة بحقهم"(١).

واختير أسطورة كرة السلة كريم عبد الجبار، وهو مسلم أميركي أفريقي آخر غيرُ نجم كرة القدم الذي يحمل الاسم نفسه، ليحتلّ مكاناً في قصر الشهرة (Hall of Fame) عام ١٩٩٥، باعتباره أحد أعظم لاعبي كرة السلة في التاريخ. عندما كان عبد الجبار طالباً في المدرسة الثانوية، وطوله سبعة أقدام وبوصتان، قاد فريقه إلى الفوز بـــــ ٩٥ مباراة مقابل ٦ هزائم فقط. وفي جامعة كاليفورنيا في لوس انجلس، قاد فريقها إلى ٨٨ انتصاراً مقابل خسارتين في ثلاث سنوات.

وخلال احتراف كريم عبد الجبار لعبة كرة السلة طوال عشرين عاماً، اختير كأثمن لاعب في كل من المرّات الست التي حقّق فيها فريقه البطولة الوطنية. وعندما اعتزل اللعبة في عام ١٩٨٩ كان قد سجّل أرقاماً قياسية جديدة في ٩ فئات إحصائية في "اتحاد كرة السلة الوطني". وأضاف عبد الجبار في عام ١٩٩٦ شهرة جديدة إلى اسمه، عندما ألّف كتاباً بعنوان "صور جانبية سوداء في الشجاعة" كان من الكتب الرائجة، وعزّز احترام الأميركيين الأفارقة الذاتي لأنه تناول، أيضاً، منجزات بطولية حققها السود في مجالات تتجاوز عالم الرياضة. وفي أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٠، أصبح شريف عبد الرحيم، وهو مسلم أميركي

(١) *USA Today*, 12-10-99, pp.A1-2 and C11, 13; and *New York Times*, 4-3-2000, p.9.

أفريقي آخر وأحد ألمع نجوم اتحاد كرة السلة الوطني (NBA)، محسناً، عندما تبرّع بمئة ألف دولار لمدارس المسلمين في أتلانتا[١].

يقود لويس فرقان أمّة الإسلام، وهي منظمة للأميركيين الأفارقة تبنَّت سابقاً النزعة الانفصالية، وكانت لها، حتى وقت قريب، اختلافات عقائدية مع الإسلام المعتدل. ويزيد عدد أتباع المنظمة على خمسين ألفاً. وهي تدير أكثر من مئة وخمسين مسجداً وخمسين مؤسسة، باسم مدارس الأخت كلارا محمد[٢].

وعلى الرغم من أنّ أتباع فرقان يمثلون مجموعة صغيرة نسبيّاً من الأميركيين الأفارقة الذين يعتنقون الإسلام، إلا أن شهرته على المستوى القومي شهرة واسعة، وكذلك نفوذه. فهو شخصية تلفزيونية تتميّز بالبلاغة. ويعزى إليه الفضل في منح الشباب الأميركي الأفريقي ثقتهم بأنفسهم. وكسب الإطراء في عام ١٩٩٥، بتنظيمه مسيرة المليون شخص إلى واشنطن، التي اجتذبت أكثر من مليون مواطن أميركي أفريقي. وفي عام ٢٠٠٠، رعى مسيرة العائلة التي اجتذبت زهاء نصف مليون شخص، بمن فيهم كثيرون من غير السود، إلى عاصمة البلاد.

وحتى وقت قريب، عارض فرقان الدمج العنصري. وناضل من أجل أهداف كانت، على وجه الحصر، تخصّ الأميركيين الأفارقة. وعبَّر أحياناً عن نقد شديد لليهود والمسيحيين، وعن أفكار يعتبرها المسلمون المعتدلون انتهاكات لعالمية المعتقدات الإسلامية ولتسامح الإسلام الذي لا يعترف بالفروق العرقية.

وفي شباط (فبراير) ٢٠٠٠، وأثناء الصلاة العامة السنوية لأمة الإسلام في شيكاغو، وحَّد فرقان موقفه مع الإمام دين محمد، وهو زعيم الجمعية الأميركية الإسلامية المعتدلة الذي يلقى احتراماً واسعاً. وأعلن ليونارد محمد، رئيس أركان فرقان، أمام المصلّين، أن أتباع منظمة أمة الإسلام كافة متمسكون بالعقيدة الإسلامية: "لا إله إلا الله محمد رسول الله".

---

(١) *Muslim Journal*, 9-29-2000, p.1.

(٢) Amber Haque, *Muslims and Islamization*, (Beltsville, Amana Publications), 274.

أقيمت الصلاة في الذكرى الخامسة والعشرين لموت إلايجا محمد، الذي قاد أمة الإسلام سنوات كثيرة. وبعد وفاته، قاد ابنه دين محمد عملية انسحاب واسعة من المنظمة، وأصبح زعيماً من زعماء التيار الإسلامي المعتدل. تضمّ منظمته زهاء سبعين ألف عضو، لهم مساجد في مراكز المدن المهمَّة. وله أتباع خارج نطاق العضوية الرسمية في المنظمة. ويشير أحد التقديرات إلى أن عددهم يتجاوز المئتي ألف[1]. ومن منجزاته أنه أول مسلم يؤدي الصلاة أثناء انعقاد دورة مجلس الشيوخ الأميركي.

وقد وجّه المسلم المعتدل البارز سيّد م. سعيد، أمين عام الجمعية الإسلامية لأميركا الشمالية، تحية لفرقان على التصريح الذي أدلى به في اجتماع شيكاغو، وقال: "كانت تلك مناسبة تاريخية. لقد انتظرنا حلول هذه اللحظة أكثر من سبعين عاماً. إنها خطوة كبيرة نحو الوحدة الإسلامية...". إنه يعتقد أن قرار فرقان سيضع حدّاً لنقطة خلاف طويل ومربك بين المسلمين. ويوسّع في الوقت نفسه جماعة المسلمين المعتدلين، التي يمثل الأميركيون الأفارقة ربع مجموع أعضائها[2].

تدلّ دراسات جمعها بايونس وصدّيقي أنه، خلافاً للأفكار النمطية الشائعة، تتكوّن الجماعة الإسلامية في الولايات المتحدة من أناس ينتمون إلى أعراق وقوميات مختلفة، على مستوى ثقافي جيّد، وهم مجتهدون في عملهم وناجحون ومطيعون للقانون.

وقد حقَّق المسلمون منجزات بارزة في التعليم العالي. ويلخّص بايونس دراسة غير منشورة، تظهر أنَّ معدّل سنوات الدراسة الجامعية يبلغ ثلاث سنوات، أي أكثر بسنتين من المعدل على الصعيد القطري، بين المسلمين العاملين في الفئة العمرية بين عشرين وأربعين عاماً؛ وأنّ معدل الدخل الشخصي

---

(١) *USA Today*, 2-28-00, p.3A; AP2-28-2000, p.5, *Journal-Courier*, Jacksonville, LL., and *Chicago Tribune*, 9-3-2000, p.34.

(٢) Sayyid M. Syeed interview, 3-1-2000.

السنوي لهذه المجموعة يراوح بين الفئة المتوسطة والفئة العليا؛ وأن المتوسط يبلغ ٣٩٧٠٠ دولار، وهو معدل وسطي مرتفع بالنسبة إلى مجموعة تضم مهاجرين كثراً، وصلوا حديثاً. وتعكس هذه التقديرات جزئيّاً آثار السياسات الأميركية التي تفضّل المهاجرين حاملي الشهادات الجامعية. بالمقابل، يعيش غالبية المسلمين خارج الولايات المتحدة في فقر.

وأظهرت دراسات عينيّة في عام ١٩٩٤ أن معدل البطالة بين المسلمين لا يزيد على ٢٪، أي نصف المعدل القومي[1]. وأما نسبة الجرائم فهي متدنِّية أيضاً. وتدلّ دراسة غير منشورة، أجراها بايونس في مدينة نيويورك عام ١٩٩٥، أن نسبة المراهقين من المسلمين المحليين الذين اعتقلوا نسبة ضئيلة، فقد بلَغت ١٠٠,٠ ٪ من مجموع الأحداث، أي أقل كثيراً من المعدل القومي البالغ ١٥٪.

ويتوصل بايونس وصدّيقي إلى الاستنتاج التالي: "لا شك في أن المسلمين في أميركا الشمالية لا يشبهون، في أي حال، الصورة التقليدية لأقلية فقيرة، مدقعة، غير متعلمة وغير مستقرة، يعاني الأميركيون الكوابيس بسببها"[2].

ويبرز المسلمون الأميركيون، أيضاً، في الهندسة وإدارة الأعمال والطب والتمويل والشؤون المالية، والمحاسبة والهندسة الإلكترونية والعلوم والتعليم، فضلاً عن مؤسسات البيع بالمفرَّق.

وأذكر من هؤلاء الأستاذ في معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا في لوس أنجلس، أحمد زويل المصري المولد، البالغ من العمر ٥٣ عاماً، والذي نال جائزة نوبل في الكيمياء عام ١٩٩٩ لتطويره آلة تصوير فائقة السرعة، تستطيع رصد التفاعلات الكيميائية في كسر واحد من كوادرليون من الثانية وتسجّل حركة الذرات؛ وقد فتح إنجازه آفاقاً تكنولوجية جديدة. وزويل أستاذ في معهد كاليفورنيا للثقافة في لوس أنجلس.

---

(١) CAMRI, *Muslim Population in the U.S.A.*, p.34.

(٢) Ibid., p.35.

وأذكر أيضاً، من المسؤولين التنفيذيين المسلمين في الصناعات الرئيسية، صافي قرشي من شركة آ.س. ت. كمبيوترز، وراي إيراني من شركة "أوكسدنتال" النفطية، وفاروق كاثواري من شركة "إيثان ألِنْ" للأثاث.

وبين مشاهير الأميركيين المسلمين ستة أساتذة هم: علي أ. مازروي المولود في كينيا، والمتخصص في العلوم السياسية وذو الشهرة الدولية؛ وآلبرت شفايتزر، الأستاذ في العلوم الإنسانية ومدير معهد الدراسات الثقافية العالمية في جامعة بنغهامبتون في نيويورك؛ وإبراهيم أبو لُغُدْ، رئيس دائرة العلوم السياسية في جامعة "نورث ويسترن" في إيفانستون بولاية إيلينوي؛ وشريف بسيوني من جامعة دي بول في شيكاغو؛ ورشيد الخالدي الأستاذ في جامعة شيكاغو، وهشام شرابي من جامعة جورجتاون ومدير مركز تحليل السياسات في واشنطن العاصمة؛ وم.ق صدّيقي من كلية الطب بجامعة ولاية نيويورك. ومن المسلمين الآخرين الذين حقّقوا مكانة بارزة على الصعيد القومي، مصطفى العقّاد وأسعد قلادة، مخرجا الأفلام السينمائية والتلفزيونية، وإمام و. دين محمد، والشاعر أمير بركة أو ليروي جونز سابقاً، والموسيقيان أحمد جمال ويوسف لطيف؛ فضلاً عن الراحل آرت بليكي وآخرين كثيرين.

وبرز المسلمون في القوات المسلحة الأميركية بعد فترة قصيرة من حرب الخليج عام ١٩٩١. وتشير الإعلانات الشخصية عن الانتماء الديني إلى أن زهاء ألفي مسلم كانوا يخدمون في القوات المسلحة الأميركية في عام ١٩٩٢[١]. وقدّر الإمام يحيى الهندي أن المجموع قد بلغ، عام ١٩٩٩، سبعة آلاف[٢]. وفُتح أول مسجد في قاعدة بحرية في نورفولك بولاية فيرجينيا عام ٢٠٠٠.

وبسبب الهجرة المتواصلة ومعدّل الولادة الذي يبلغ ٣،٥ ٪، وهو أكثر من ضعف المعدل القومي، يُعتبر المسلمون الجماعة الدينية الأسرع نموّاً في أميركا.

---

(١) AMC, *Our First Five Years*, p.17.

(٢) Interview, 5-19-1999.

وإذا استمرت معدلات الهجرة والولادة الحالية، فإن مجموع السكان المسلمين في الولايات المتحدة سيتضاعف بحلول عام ٢٠٢٧[١].

إنَّ معدل الولادة، الذي يفوق المعدَّل الوسطي، عامل مهم في هذا الاتجاه، لأنَّ الانتماء الديني لدى معظم الناس تحدده مصادفة الولادة، وليس نتيجة الدراسة المقارنة للأديان. ومثل المسيحيين واليهود والهندوس والبوذيين وأتباع الديانات الأخرى، يرث معظم المسلمين هويّتهم الدينية. لقد أصبحتُ مسيحياً مشيخيّاً، وأصبحت زوجتي لوسيل كاثوليكية في الطفولة، بسبب انتماء الأبوين إلى هاتين العقيدتين. ولا يتعمد سوى قلّة من الأميركيين اختيار دينهم، حيث يفضّلون ديناً على الأديان الأخرى، بعد تمحيص دقيق. والدراسة المقارنة تحصل عادةً في الأعوام التي تلي مرحلة الدراسة الثانوية، وبعد مرور وقت طويل على انتماء الشخص إلى ديانة معينة. ونادراً ما تؤدي مثل هذه الدراسة إلى تغيير الانتماء الديني؛ لكن توجد استثناءات.

كما أن حالات التحوُّل إلى الإسلام، الذي يدعوه المسلمون في أغلب الأحيان، «اهتداءً»، كثيرة ومتزايدة، ولكن لا تتوافر لديّ إحصائيات. غير أن خبرتي مع المسلمين، في السنوات الخمس والعشرين الماضية، تدعوني للاعتقاد أن العدد كبير. وقد تخلّى بعض الأميركيين الأفارقة عن انتمائهم المسيحي، واختاروا اعتناق الإسلام الواسع الانتشار بين أجدادهم المجلوبين من غرب إفريقيا الذين أرغموا على حياة العبودية. وفي هذه العملية، اختار بعضهم، مثل محمد علي، أسماء عربية، وتخلَّوا عن أسماء الرقيق التي أطلقها السادة البيض على أجدادهم. إلا أنَّ عمليات اعتناق الدين الإسلامي هذه في رأيي لا تمثّل سوى جزء صغير من المجموع.

وقبل بضعة أعوام، انتقل كلنتون سايبس من موقع إلى نقيضه. إذ نبذ حياة الإجرام والعضوية النشيطة في منظمة "كو كلوكس كلان" واعتنق الإسلام. قال سايبس: "كنت داعية متحمّساً لنشر الكراهية، أحمل بطاقة عضوية، ومتورطاً

(١) CAMRI, *Muslim Population in the U.S.A.*, p.35.

بعمق في عمليات إحراق الصلبان التي تقوم بها المنظمة. كما كنت أظهر في وسائل الإعلام، وأشارك في الهجمات وانتهاك حرمة الأملاك". وقد اعتنق الإسلام أثناء وجوده في السجن تنفيذاً لآخر الأحكام الصادرة بحقه. فقد قامت علاقة صداقة بينه وبين محكوم آخر مسلم من الأميركيين الأفارقة، ساعده على اعتناق الإسلام[1].

أقابل أثناء أسفاري مسلمين أميركيين يتحدّرون من أصل أنكلو ـــ سكسوني، أو من أجداد من أوروبا الشرقية، وأيضاً من شمال آسيا والشرق الأوسط وإفريقيا. وعندما أزور حرم الجامعات غالباً ما ألتقي طلبة مسلمين (معظمهم من الذكور) من جنوب آسيا أو الأقطار العربية تزوّجوا نساء اعتنقن الإسلام حديثاً، وهنّ من إثنيات أوروبية.

بيد أن قصص الحب، الناشئة بين شخصين من دينين مختلفين، والتي تؤدي إلى الزواج، لا تقود دائماً إلى اعتناق الإسلام. ومن معارفي، نائلة عسلي المسيحية، رئيسة مجلس لجنة مناهضة التمييز العربية الأميركية، المتزوجة من الطبيب المسلم زياد عسلي، رئيس اللجنة الأميركية للقدس، وأحد الشخصيات القيادية في عدة منظمات أميركية عربية. وقد اعتنق توماس آبركرومبي الإسلام وتخلّى عن الدين المسيحي في سن الثلاثين، قبل أن يبرز كعضوٍ في هيئة تحرير مجلة "ناشونال جيوغرافيك"، واحتفظت زوجته لين بدينها المسيحي. كما كانت غيل، زوجة الدكتور هشام شرابي الراحلة، مسيحية.

إن الحب ليس عاملاً في حالات اعتناق الإسلام كافة. فإبريل زوشيت تبلغ الثلاثين، وهي غير متزوجة ومتطوّعة في فيلق السلام. لم ألتقها؛ ولكن بفضل البريد الإلكتروني علمت باعتناقها الإسلام، وكيف أنها تغلبت على التوتّر في العلاقات العائلية التي سبّبها تغيير انتمائها الديني. بدأت مراسلاتنا عندما قرأتْ أحد مقالاتي عن الإسلام، فطلبَت مني التحدث في مناسبة لجمع التبرّعات،

(١) Muzaffar Haleem, *The Sun is Rising in the West* (Beltsville, Amana Publications), pp.106-107.

لمساعدة مدرسة إسلامية جديدة يجري تشييدها في إحدى ضواحي ميريلاند في العاصمة الأميركية واشنطن. وكان عليَّ الاعتذار بسبب ارتباطات سابقة، إلا أنَّ المراسلات اللاحقة ساعدتني على فهم المسلمين والإسلام.

قد تكون تجربة إبريل نموذجاً لآخرين اعتنقوا الإسلام. وعندما سألتها: هل شكَّل حدثٌ مُعيَّن نقطة تحوُّل ديني في حياتها، أجابت قائلة: "لم يكن هناك حدث رئيسي واحد في حياتي. كنت في الثانية والعشرين أبحث عن شيء ما، إلا أنني لا أستطيع القول بأن هذا الشيء كان الدين. كانت عائلتي دائماً محايدة، على نحوٍ ما، في موضوع الدين. نؤمن بالله حقّاً، إلاَّ أن ممارسة الطقوس الدينية اقتصرت دائماً على أداء صلاة الشكر أحياناً قبل تناول الغداء، أو التماس المساعدة في أوقات الشدة. وعلى الرغم من غياب الدين المنظَّم في حياتنا، فقد تعلمنا دائماً احترام الدين. وأعتقد أن كل واحد منا حافظ على علاقته الخاصة بالخالق، ونادراً ما كنا نناقش الأمر. ومع ذلك، فقد كنا قريبين جدّاً من بعضنا. وغمل والداي بجدّ ليغرسا فينا الصدق والإنصاف وآداب السلوك".

لماذا اختارت الإسلام وليس ديناً آخر؟

"بعد سنتين من تخرجي من الجامعة، عملت مديرة للتمويل في شركة "تويوتا". كان مالك الوكالة المحلية مسلماً مثل كثيرين من موظفيه. وفي تلك الفترة، تعرفت إلى مصري مسلم. وقد أدى ذلك كله إلى مناقشات طويلة عن الإسلام. كانت ردود فعلي في البداية مثل ردود فعل أيِّ امرأة غربية متعلمة ومتحررة لا تملك معرفة عن الإسلام. كنت اتهم الإسلام بالتعسّف إزاء المرأة، وأجد القواعد هاجساً عنده. لم أكن أدرك أنني أقصر عن فهم "الصورة الكبرى" بأن الله أكبر من التفاصيل الأخرى كافة.

"بعد أشهر من النقاش والقراءة، بدأت نظرتي تتغير، وقررت اعتناق الإسلام. كان الأمر الوحيد الذي يعوقني الخوف من أن ألقى في الجحيم بسبب إنكاري أن المسيح ابن الله. أقصد أنني كنت واثقة من معتقداتي الجديدة،

ولكن ماذا لو كنت مخطئة؟ صدقني عندما أقول لك إنني قضيت ساعات كثيرة في التفكير والاستبطان في هذه المسألة وحدها. وأعتقد أن ما سهّل الأمر معرفة أنني لن أتخلى عن إيماني بالمسيح كنبي. فالإسلام ينظر إليه بتبجيل كنبيّ".

لم يقل والدا إبريل الكثير عن اعتناقها الإسلام في بادئ الأمر.

"لم أبدأ بارتداء الحجاب (غطاء الرأس) إلا منذ عامين. حدث ذلك عندما شعرت عائلتي بالقلق الشديد حيال تغيير ديني. وأعتقد أن اعتماد المظهر الخارجي للمجاهرة بالدين الذي اعتنقه، وهو دين اعتقدت عائلتي أنه مُعادٍ لأميركا، هو ما سبّب نشوء صدع بيننا. قبل اعتناقي الإسلام، كانت لدى عائلتي أفكار خاطئة ومتحيّزة ضد الإسلام والمسلمين. أما اليوم، فعائلتي تدعمني بقوة. ويحترم والداي معتقداتي، على الرغم من أننا لا نناقشها صراحة بقدر ما أرغب. وأشعر أن احتراماً متبادلاً قد نمى بيننا وساعدنا على بناء علاقة أقوى من علاقتنا قبل اعتناقي الإسلام. بيد أنني واثقة أن ثمة أوقاتاً تندب فيها عائلتي خسارة إبريل القديمة"[1].

وإذا تجاوزنا الشعائر الدينية، نجد أن المسلمين معروفون بحسن الضيافة، وهي متعة اختبرتها أنا وزوجتي لوسيل مرات كثيرة في الولايات المتحدة وخارجها. وأتذكر، بخاصة، زيارتنا عام ١٩٩٥ إلى بينانغ في ماليزيا، لحضور مؤتمر استغرق أسبوعاً كاملاً، عُقد للبحث في الأفكار المنمطة عن الإسلام. فقد رحّب بنا، لدى وصولنا إلى المطار، المحامي جون محيي الدين الذي صحبنا مباشرة إلى داره لحضور استقبال أعدّته زوجته مسلمة. وقد تضمَّنت قائمة الطعام الموز المقلي الذي وجدناه شهياً لا يقاوم. وبعد مرور أسبوع، اختتم المؤتمر، وكنا على وشك الصعود إلى الطائرة عندما وصلت السيدة محيي الدين إلى بوابة المغادرة في المطار، وقدّمت لنا رزمة من الأطعمة الشهية الساخنة. وفي الطائرة، لاحظنا نظرات الحسد من الركاب الآخرين، ونحن نتناول الموز الذي كان ما يزال دافئاً.

---

(١) E-mail interview, 2-21-1989.

وفّرت لي مناسبات إلقاء المحاضرات في متشيغان والعراق الفرص لفهم قيم المجتمع والعائلة التي يؤمن بها المسلمون. وكانت زيارتي إلى دير بورن بولاية متشيغان، في نيسان (إبريل) ١٩٩٨، مناسبة اكتسبت خلالها الكثير من المعلومات المفيدة. وقبل أن أتحدث في مسجد محليّ، زرت منزل رمزي البزّي، مستورد البضائع من الشرق الأوسط. وتسنّى لي أن القي نظرة على أسلوب عيش عائلته الكبيرة المؤلَّفة من زوجته وردة وأبناء أربعة وثلاث بنات، وصهر واحد، بالإضافة إلى أخت زوجته، والتي يعيش أفرادها جميعاً سعداء في بيت واحد. وتضم عائلة البزّي عملياً أشخاصاً آخرين لا تربطهم بها صلة نسب. وبإجماع ضمني، أصبح رمزي البزّي مستشاراً شخصيّاً يُرشد العشرات من الجيران، وبات مسكنه مكان التقائهم المعتاد. فقد يتجاوز عدد الحاضرين أحياناً الخمسين في آن، كما كان عصرَ يوم زيارتي. ويلقى الضيوف الترحيب في أيِّ وقت تقريباً من ساعات النهار أو الليل، للحديث ولتناول الشاي والقهوة. وتستعمل العربية، كلغة مفضَّلة، وتتنوع مواضيع المناقشة.

وقد أعيد تصميم منزل عائلة البزّي، المكوّن من طابق واحد، لإيواء سيل الزوار المستمر. وبنقل المطبخ وغرفة الطعام إلى الدور السفلي، ضاعف البزّي مساحة غرفة الجلوس ثلاث مرات. وأقام في الدور السفلي مجلساً احتياطيّاً ينقلب غرفةَ طعامٍ، عندما لا تكفي الطاولة في المطبخ المجاور لجميع المدعوين .

وفي عام ١٩٩٧، ازداد عدد الضيوف إلى حدّ اضطر البزّي إلى تحويل المرآب الذي يتّسع لسيارتين، إلى غرفة جلوس ثالثة. وتتعاون زوجته معه، مرتدية القمطة الإسلامية التقليدية واللباس الطويل، في إكرام وفادة الضيوف.

وتقول بناته إن غسل الصحون وإعداد القهوة والشاي لا يتوقّفان أبداً. وقبل زيارتي، كان البزّي قد شرع بتشييد مسكن أكبر عبر الشارع، صمّمه، كما قال بفخر، انطلاقاً من الأمل باستمرار نمو فرعي عائلته الموسّعة.

إن منزل البزّي في ديربورن جزء من ديترويت الكبرى، وهي منطقة مدنية

فريدة تضم أكبر نسبة من المسلمين في أميركا، الذين يسكنون المناطق المدينية، إذ يبلغ عددهم ٢٨٠ ألفاً أو حوالى ١٥٪ من سكان المنطقة. ويعيش معظمهم في ديربورن أو ضواحيها القريبة. ويذكران لطلبة مدارسها الرسمية سمة فريدة، إذ إن ٩٠ ٪ من طلبة مدرسة "فوردسن" الثانوية في دير بورن مسلمون. أمّا نسبة المدرِّسين، فهي معكوسة؛ إذ يوجد ١٣ مدرّساً مسلماً بين ١٢٠ مدرّساً. إلاَّ أن المدرسة تشتهر بعلاقاتها المنسجمة، وانعدام التنافر بسبب الدين، وفق ما يقوله تحسين البزِّي مدير شؤون الطلبة المسلم. ولا يسمح بأداء صلاة الجماعة في مبنى المدرسة، ولكنَّ الطَلَبة المسلمين يُمْنحون الإذن بالانصراف لحضور صلاة الجمعة.

وفي عام ١٩٩٥ بدأت المدرسة، لأول مرة، تحتفل سنويّاً بالأعياد الإسلامية: مناسبة اختتام موسم الحج (عيد الأضحى) واختتام شهر الصوم في رمضان (عيد الفطر). ولتعزيز التفاهم بين الأديان على نطاق الولاية، في وسط الشباب، استضافت مدرسة "فوردسن" مؤخّراً طلبة من مدرسة ثانوية في شمال ولاية متشيغان، للتجول في المدرسة وإجراء مناقشة عن الأديان في مسجد محلّيّ. ويشكِّل المسلمون زهاء ٢٥ ٪ من مجموع طلبة كلّ من المدرستين الثانويتين الرسميتين في ديربورن.

قبل ثلاث سنوات من زيارتي إلى دير بورن، وعندما كنت مع لوسيل في بغداد، تعرّفنا إلى نموذج آخر من نماذج العائلات الموسّعة الإسلامية التقليدية، ممثلاً بعائلة محمد الخفاجي التي قدمت لنا ضيافة سخيّة أثناء أول زيارتين لنا إلى العاصمة العراقية. والخفاجي الأعزب، هو ربّ أسرةً من ١٦ فرداً، يمثلون ثلاثة أجيال، ويعيشون في منزل واسع شيَّده والده الراحل قبل سنوات طويلة. كانت الأسرة في زيارتنا الأولى تضم كلاً من: افتخار والدة محمد، وشقيقتين غير متزوجتين، وشقيقين متزوجين، هما نشأت وقاسم وعائلتاهما، ومها الشقيقة غير المتزوجة التي تدرس الهندسة الكهربائية في إحدى الجامعات المحلية. ولنشأت وزوجته ابنتان وأربعة أبناء؛ ولقاسم وزوجته ثلاث بنات وابن واحد.

دعتنا الأسرة ذات مساء إلى المنزل لتناول العشاء. ومِثْلَ معظم البيوت

العراقية، فإن منزل الخفاجي محاط بسور عالٍ. وفي الداخل عند أحد طرفيه مناحل وحديقة خضراء يمارس فيهما محمد هوايتيه المفضلتين. ويضم الطرف الآخر مرْجة واسعة بدأت فيها الضيافة في تلك الأمسية. تمتعنا بتناول الشاي و"الكعك"، في حين شوى محمد سمكة كبيرة على نارٍ مكشوفة قريبة. كان السمك لون الطعام الرئيس، وقدّم لنا في غرفة الطعام. وبعد تناول العَشاء، انتقلنا مع أفراد الأسرة كافة، إلى القاعة الرئيسة لتناول القهوة وتبادل الحديث. وقادنا محمد، بعدئذٍ، في جولة في أرجاء المنزل. في الطابق العلوي غرفٌ للنوم على الجانبين. ومكتبة محمد تقع عند أحد الطرفين. وتفضّل العائلة النوم صيفاً على سطح المنزل الذي تصل إليه من طابق ثالث صغير. والجدير بالذكر ان محمد يحمل شهادة الدكتوراه من جامعة ألمانية. وقد اعتزل مؤخّراً عمله في تجارة الآليات، ويكرّس حالياً اهتمامه كلّه لرعاية شؤون الأسرة.

أربعة من أشقاء محمد يعيشون في الغرب الأوسط من الولايات المتحدة. وكان شقيقه عامر هو الذي زوَّدني بمعلوماتي الأولى عن عائلة الخفاجي، عندما دعاني للتحدث أمام أعضاء نادي الروتاري في پيوريا بولاية إيلينوي، بعدما قرأ كتابي "من يجرؤ على الكلام". وعامر هذا حاصل على الدكتوراه، ويرأس قسم الهندسة في جامعة "برادلي". أما شقيقه الآخر شاكر، فهو مهندس معماري في ديترويت، رتّب لي، في أحد الأيام، موعداً لإلقاء محاضرة في جامعة متشيغان في آن اربر القريبة. ولمحمد شقيقة تدعى آن، وتعمل محامية في ديترويت، وشقيق رابع يُدعى فارس، تخرّج حديثاً من الجامعة، ويعمل في شركة "فورد" للسيارات في ديربورن.

وتنتشر العائلات الكبيرة كالعائلات في ديربورن وبغداد حيثما يعيش المسلمون. وقد أعلمني محمد الخفاجي أن المسلمين المتقدمين في السن نادراً ما يضطرون للعيش وحدهم، بل يعيشون، عادةً، مع أحد أبنائهم، أو مع قريب آخر، أو مع صديق. وقد لفت انتباهنا هذا التقليد أوّل مرة قبل عدة أعوام، عندما زارنا طالب كويتي. وحين تحوّل الحديث إلى الاتجاه الأميركي بإيواء كبار السن في بيوت التقاعد، عبّر ضيفنا عن القلق الشديد. وقال، مشدداً على

فكرته، وربما كان مبالغاً في ما قال: "الناس في الكويت يجافون أي شخص يودع أباه في دار رعاية. ولا يخالط أي كويتي محترم مثل هذا الشخص".

في زيارتي الأولى إلى دبيّ عام ١٩٨٨، عبّر عيسى القرق عن مشاعر مشابهة. وعيسى هذا رجل أعمال أصبح، فيما بعد، صديقاً حميماً لي. فعندما قدّمني لوالدته، قال إنه أصَّر على أن تعيش معه خلال سنواتها الباقية. وعندما قلت له إن والدتي الأرملة أعلنت أنها تنوي العيش في دارٍ للرعاية، قرب عائلتَيْ ابنتها وحفيدتها، بعد أن عاشت عدة سنوات مع إحدى شقيقاتي، اعترض قائلاً: "لا تدعها تفعل ذلك، وإلا نَدِمتَ طُولَ عمرك. ينبغي أن تصرّ على أن تقضي والدتك بقية حياتها مع أحد أبنائها". وفيما هو يتحدّث، تذكرتُ، لأوفيلا جيم، والِد لوسيل، تعليقاً، في مناسبة سابقة، أدلى به في سياق تفكيره المَلِيّ المتّجه إلى إيداع الآباء المسنِّين دور الرِّعاية، قال: "تستطيع الأم أن ترعى عشرة أبناء، غير أن عشرة أبناء لا يستطيعون رعاية أم واحدة!" على الرغم من توصيتي، أصرّت والدتي أن تعيش في دار رعاية المسنين. ومنذ ذلك الحين ينتابني شعور بالذنب، ولم أنس تعليقات القرق ووالد زوجتي.

كان تقليد العائلة الموسّعة شائعاً في وقت ما في أميركا. وكان ذلك القاعدة وليس الاستثناء قبل أقل من قرن واحد. وفي صباي، عاشت جدتي لأبي مع عائلتنا التي يبلغ عدد أفرادها سبعة في بيت صغير من طابق واحد. وفي مدينة أخرى، رعت إحدى عماتي أبويها حتى توفيا. وعلى الرغم من الاتجاه القوي نحو إيداع المسنين دور الرعاية أو التقاعد، ما يزال أميركيون كثيرون يقبلون مسؤولية رعاية الآباء المُقعَدين أو المسنين المنزلية.

علم الطبيب المسلم عنايت لالاني مؤخّراً أن إحدى مريضاته المسنّات، وهي غير مسلمة، تصر على العيش وحدها: "رفضت هذه المريضة النشيطة في عامها الرابع والسبعين، رفضت اقتراحي بأن من واجب أبنائها دعوتها للبقاء معهم. قالت لي بحدّة: إن ذلك يقيّد حياتها الاجتماعية، بما في ذلك حريتها الجنسية، وإنها لا تهتم بإخفاء أهوائها هذه عن أي كان". وبعد أن روى لالاني

ذلك تساءل: "ما هو الأهَم للإنسان: الأمن والإسناد، أم الحرية؛ أجل، حتى حرية إساءة السلوك أحياناً، ما دام ذلك لا يؤذي أحداً؟"

يبدو أن المسلمين في ديربورن قد نجحوا في المحافظة على التقليد الإسلامي للعائلة الموسّعة، إلا أنهم يواجهون تحدّيات مزعجة. وعلى الرغم من الزيادة السريعة في عدد السكان المسلمين، فإن جيران رمزي البزّي غير المسلمين لا يعرفون سوى القليل عن الإسلام، ولا يخوضون إلا قليلاً في نقاشات حول التفاهم بين الأديان، أو بين الجماعات.

تسهم عدة عوامل في هذا الافتقار إلى التواصل؛ ومسلمون كثيرون، كعائلة البزّي، هم مواطنو الجيل الأول أو الثاني، ويتّبعون تقليد الجماعات الدينية والعرقية الأخرى التي قَدِمت إلى أميركا، في العقود الأخيرة. إذ يتجمع معظمهم في جماعات متلاحمة ومنعزلة فعلياً عن الطوائف الأخرى. فما يجعلهم متلاحمين يميل أيضاً إلى فصلهم عن غير المسلمين. إنه خليط من اللغة والثقافة والملابس والدين.

إنَّ اللغة حاجز أساسي، ذلك أن مهاجرين كثيرين لا يتكلمون الإنكليزية بطلاقة، ويواصلون التحدّث باللغة الأم. وفي ديربورن، غالباً ما نجد ان العربية هي اللغة المحكية في الأحياء، في حين أن الصحيفتين المفضلتين لدى المهاجرين من الجيل الجديد والجيل الثاني، هما صحيفة ذي "أراب أميركان" التي تصدر مرتين في الشهر وتحررها نهاد الحاج؛ وصحيفة "صدى الوطن" الأسبوعية، ويحررها أسامة سبلاني. وتُنشر الأخبار فيهما كلتيهما بالإنكليزية في النصف الأول من كل عدد، ابتداء من الصفحة الأولى، وبالعربية في النصف الثاني منه.

وكالأميركيين الآخرين، نادراً ما يذكر المسلمون دينهم، ولو عرضاً، في أحاديثهم مع جيرانهم أو زملائهم في العمل، من غير المسلمين.

وعلى الرغم من الضباب الكثيب الناشئ عن التنميط المناهض للإسلام والذي يخيم على أميركا، فإن معظم المهاجرين المسلمين هنا، يبقون مثل المهاجرين الآخرين، لا يظهرون ميلاً إلى الرحيل.

أستطيع أن أورد حالة واحدة لمهاجرين اختاروا مغادرة أميركا. انها عائلة مسلمة، مؤلفة من طبيب وزوجته وثلاثة أطفال، اختارت العودة إلى باكستان بعد أن تمتعت بالعيش مدة خمسة أعوام في أميركا. كانت هذه العائلة تقيم في مدينة صغيرة في الغرب الأوسط، حيث نشأت صداقة بينها وبين عائلة هندوسية تتألّف أيضاً من طبيب وزوجته وثلاثة أطفال في أعمار مقاربة لأعمار الأطفال في العائلة المسلمة.

في السنة السادسة، تغيّرت العلاقة بين العائلتين فجأة، عندما لاحظ الأب بقلق أن أفراد عائلته بدأوا يفقدون التقاليد الإسلامية والباكستانية، فقرَّر العودة إلى باكستان. وفي الأسابيع التي سبقت الرحيل، واصل أطفال العائلتين اللعب معاً، ولكن عندما يلتقي الكبار كانت الأم المسلمة تتبع تقليداً ثقافيّاً شائعاً لدى بعض الجماعات الباكستانية، لكنه ليس من تعاليم الإسلام، يقضي بتغطية الوجه تماماً كلما التقى الكبار. استمرَّت العائلتان، بين الحين والآخر، تشتركان في بعض وجبات الطعام، إلاّ أنّ الأم كانت تتناول الطعام وحدها في المطبخ لتجنُّب كشف وجهها أمام الرجل الهندوسي. ولم تنته المشاكل العائلية بعدما وصلت الأسرة إلى باكستان. فقد كان الأطفال غير سعداء؛ وبما أن الأب لم يتمكن من تحصيل دَخْلٍ كاف في باكستان لإعالة أسرته، بمستوى المعيشة الذي تعودته، فإنه، في كل عام، كان يعود إلى أميركا: ليعمل عدة أشهر في أحد المستشفيات.

كانت تجربة مهاجرين آخرين في أميركا ممتازة، توضحها نادرة طريفة، رواها لي قبل عدة أعوام فنسنت تشيتشي، مالك المبنى الذي استأجرتُ فيه مكتباً أثناء تأليف كتابي "من يجرؤ على الكلام". فأثناء محادثة مع والدته، وهي مهاجرة من إيطاليا، شكت من مياه الشرب والخضر والفاكهة، ومن الهواء الذي قالت انه أفضل كثيراً في إيطاليا منه في أميركا. فاحتج فنسنت قائلاً: "إذا كنت تحبين كل شيء في إيطاليا أكثر مما تحبين كل شيء هنا، فلماذا لا تعودين لتعيشي هناك". فكان ردُّها الفوري: "ماذا؟ أغادر أميركا؟ هل تظن أنني مجنونة؟"

كذلك حال الدكتور محمد بشار، الذي كان يعيش مع عائلةٍ من ستة أفراد: لقد عبَّر عن مشاعر مماثلة وسط مهاجرين مسلمين كُثُر، فقال: "أسرتي سعيدة في أميركا، ونحن نعلم أن ههنا أموراً رديئة، ولكننا نعلَم أيضاً أن ههنا، من الأمور الجيدة، ما يفوق الأمور الرديئة"(١).

(١) Letter, 3-17-2000.

الفصل الثالث

الإرهاب والافتراء

لم تجعل مني سنوات التراسل مع المسلمين ومناقشتهم في العديد من أنحاء العالم الإسلامي مرجعاً في الإسلام، ولكنني أعتقد أن التجربة على الأقل منحتني فهماً واقعياً لمشكلة صورة هذا الدين في أميركا.

فبعض الأفكار النمطية السائدة عن المسلمين تثير الرعب. وثمَّة مثل على ذلك، حادثة وقعت في نيوارك، بنيوجيرسي، في تموز (يوليو) ١٩٩٩، تجعل المرء يتنبّه الى خطورة الحال. فقد ادعى ريجينالد كوري تحت وطأة الحاجة إلى المال لشراء الهيروين، أنه مسلم وسلَّم أمين صندوق أحد البنوك ورقة كتب فيها: "بسم الله، في حوزتي قنبلة، وأنا راغب في الاستشهاد في سبيل قضية الإسلام. ضع كل المال في الحقيبة، ولا تكن بطلاً". فما كان من أمين الصندوق المرتعب إلاَّ أن أطاعه بسرعة؛ ثم ما لبثت الخدعة أن كُشِفت إثر اعتقال كوري[١].

وفي أحوال أخرى، تحضّ الصور المزيَّفة عن الإسلام المجتمع على التعصب الأعمى وعلى أشكال أخرى من التعصّب الديني، وصولاً إلى العنف المدمِّر. وفي الأعوام الأخيرة، كانت المساجد هدفاً لمشعلي النيران في يوبا سيتي وكاليفورنيا وسبرينغفيلد وإيلينوي ووغرينفيل وكاليفورنيا الجنوبية ومينيابوليس؛ كما أصاب التخريب المتعمَّد مساجد في متشيغان وإنديانا وماساتشوستس ونيوجيرسي وجورجيا.

---

(١) *USA Today*, 8-16-1999, p.1.

وخلال دورية صباحية مبكرة في يوم من أيام أيار (مايو) ١٩٩٩، لاحظ رجل شرطة "سيارة تُركَنُ" خلسةً قرب مركز كولورادو الإسلامي، في دنفر، وهي مطفأة الأنوار. وما إن دنا الشرطي تيري ريبلينغ من السيارة، حتى أقلع سائقها، الذي عرف، فيما بعد، أنه المدعو جاك ميرلين موديغ. وبعد مطاردة في أنحاء المدينة، أوقفت الشرطة موديغ وهو يحاول الدخول إلى أحد المنازل. وأخذ الموقوف يصرخ وهو يقاوم اعتقاله: "أنا عدوّ للأمة الإسلامية، وكنت مزمعاً القيام بأمر ما... كنت سأحرق ذلك المكان". وقد اكتشف رجال الشرطة في سيارته رشاشاً وبندقية وبضعة مسدسات وذخائر ومواد لصنع القنابل(١).

وفي حزيران (يونيو) ٢٠٠٠، أطلق مسلَّح النار على مسجد في ممفيس في تينيسي، فجرح مسلماً، وأحدث فجوات في أبواب المسجد. وقد تعوّد المصلّون هناك التخريب المتعمّد، والتحرّشات اللفظية. قال دانيش صدّيقي، رئيس رابطة الطلاب المسلمين في جامعة ممفيس : "لقد رُمينا بالأقذار. ولقد فعلوا كل شيء، من تدخين الماريجوانا وشرب الكحول أمامنا إلى جعل كلابهم تتعقّبنا"(٢).

وفي الشهر نفسه، نشب جدل عنيف في إحدى ضواحي شيكاغو، بسبب معلومات مضللة، عن الإسلام، صدرت عن شخصية اجتماعية معروفة، واحتل هذا الجدل عناوين الصحف، مثيراً سجالاتٍ على صفحاتها لعدة أشهر. وقد بدأ عندما وصفت كارين هايز الإسلام بأنه "دين مزيَّف"، لأنه لم يقبل مفهومها عن الله. وكارين هايز هي منسّقة يوم الصلاة الوطني في پالوس هايتس، التي تقع بالقرب من شيكاغو، والتي يبلغ عدد سكانها اثني عشر ألف نسمة.

وقد أدلت هايز بقولها، هذا، عبر شاشة محطة تلفزيون شيكاغو العام، لتشرح معارضتها قرار "مؤسسة مسجد السلام" التي ضاقت عليها منشآتها في جنوب غربي شيكاغو، فاعتزمت شراء بناء كنيسة في بلدتها، وتحويله إلى مسجد

(١) *Rocky Mountain News*, 5-12-2000 (Denver).

(٢) CAIR e-mail, 6-22-2000.

ومدرسة إسلامية. ويعيش في پالوس هايتس زهاء أربعمِائة عائلة مسلمة، هي شريحة صغيرة من أصل ثلاثمِائة وخمسين ألف مسلم يقطنون في منطقة شيكاغو.

وصف رئيس البلدية دين كولدنهوفن تعليق هايز بأنه "مخزٍ" و"لا يمثِّل رأي المعتقد المسيحي". وسأل: "كم على هؤلاء الناس [المسلمين] أن يتحمّلوا ؟". ومع ذلك، وفي مواجهة فيض الاحتجاجات ضد المشروع، فقد صوَّت مجلس المدينة على دفع مبلغ ٢٠٠،٠٠٠ دولار للمؤسسة لتصرف النظر عن المشروع[١]. ووصف كولدنهوفن العرض بأنه إهانة-للمسلمين، ولكن روحي شلبي، محامي المؤسسة الإسلامية، اعتبره "لفتة حسن نية". أما إد حسَّان، وهو مسلم يعيش في پالوس هايتس، فقد عبَّر عن وجهة نظر توفيقية، فقال: "أعتقد أن أناساً مثل [هايز] لديهم محبة قوية لدينهم، مما يجعلهم يقفون ضد الأديان الأخرى. وإن بيننا متعصّبين أيضاً؛ ولكن، في الحقيقة، الرب واحد، وهو رب كل الأديان...". وقد انتقد بقسوة مجلس المدينة المحلي الذي يتصرف "كشلّة من عصابة فتيان في سنِّ السابعة عشرة يحاولون حماية ميدانهم". أما القس إدوارد كرونين راعي كنيسة القديس ألكسندر الكاثوليكية، الذي نظّم استقبالاً للترحيب بالقيّمين على مشروع المسجد، ضمّ أناساً من مختلف الأديان، فقد قال: "علينا أن نبرهن أن المسيحية لا تعني الانغلاق على الآخرين"[٢].

ونقض الحاكم "كولدنهوفن" قرار دفع مبلغ ٢٠٠،٠٠٠ دولار للمؤسسة، مما دفع المؤسسة الإسلامية إلى رفع دعوى ضد البلدية ومطالبتها بتعويض عطل وضرر قيمته ٣،٥ مليون دولار، ما لبث أن رُفع في أواخر الصيف حتى بلغ ٦،٢ مليون دولار. قال شلبي: "إن [دعوى التعويض] هذه هي رسالة، مفادها أن جماعة المسلمين لن تقف مكتوفة الأيدي حيال ممارسة التمييز ضدها".

---

(١) *Chicago Tribune*, 6-29-2000, pp. 1-2.

(٢) *Chicago Tribune*, 6-30-2000.

وأصدر مجلس المنظمات الإسلامية في شيكاغو الكبرى بياناً، يشكر فيه "أولئك الأشخاص في پالوس هايتس وخارجها الذين أيّدوا حقوق المسلمين الدينية ودعموها..."[١].

وقبل سنوات، واجه الوسط الإسلامي هناك مشكلات مماثلة.

ففي عام ١٩٨١، وقَّع ألفان من السكان الغاضبين التماساً، يعارضون فيه شراء "المؤسسة الإسلامية" في فيلاَّبارك مبنًى مدرسيّاً، بقصد تحويله إلى مسجد. وقد قاضى المسلمون المحليون سلطات القرية، وربحوا الدعوى عليها، بأن لهم الحق في استملاك المبنى، بعدما دفعوا رسوماً قانونية بلغت ٥١٠٠٠ دولار، إلاَّ أنهم اختاروا، فيما بعد، شراء مبنًى آخر في القرية نفسها. ومنذ ذلك الحين، شهدت القرية تحسّن علاقات مطّرداً، على الرغم من حدوث بعض أعمال التخريب، على حدِّ قول مدير المؤسسة عبد الحميد دوغار.

وفي عام ١٩٨٩، احتجَّ سكان مورتون غروف عندما أراد "مركز تعليم المسلمين" شراء أرض تملكها مدرسة المقاطعة الرسمية المحلية، لتكون موقعاً لمدرسة إسلامية. وبمساعدة من محمد قيصر الدين، الرئيس الأسبق لمجلس المنظمات الإسلامية في شيكاغو، تمكَّن المسلمون في البلدة من التغلّب على المحتجّين، وأسسوا المدرسة.

وفي بداية نزاع پالوس هايتس، حثَّ قيصر الدين المسلمين على الصمود، بثبات، من أجل تحقيق مشروع مسجدهم المحلي، واقترح عليهم فتح بيوتهم، أمام المناوئين لهم، ليروا كيف يعيشون، لأن المعارضة تنبع، بشكل رئيسي، من خوف الناس ممّا يجهلون. "فهم لا يعرفون أي نوع من الناس سيأتي للإقامة بينهم، ويخافون أن تتدنَّى قيم أملاكهم، وهذه مخاوف لا أساس لها من الصحة"[٢].

---

(١) *State Journal-Register*, 9-29-2000 (Springfield, IL.), p. 10; and *Chicago Tribune*, 10-1-2000, p. 5P, sect. 16.

(٢) *Chicago Tribune*, 7-17-2000, 1, 12.

قال عبد الله ميتشيل، رئيس منطقة شيكاغو، في حركة المسلمين الأميركيين من أجل الحقوق المدنية والدفاع القانوني: "إن المشكلة الأساسية تكمن في نقص المعلومات عن المسلمين، لدى المجتمع الأميركي. فالمسلمون يُصَنَّفون إرهابيين أو دخلاء، تحت وطأة الخوف من أنَّهم سيعطلون نمط الحياة [الأميركية]. إن المشكلة تكمن في الجهل. هذه كانت المشكلة في مورتون غروف، وهي نفسها التي نواجهها في پالوس هايتس"[١].

ومع نهاية السنة، كانت ضواحي شيكاغو تعجُّ بوُرش بناء المساجد. وقد أنفق على بناء أحدها ١٥٠٠٠٠٠ دولار في شومبورغ، و٣٥٠٠٠٠٠ مليون دولار على آخر في مدينة دي بلاين. أما بلدة هنزدايل، فتخطط لإنشاء مكان جديد للعبادة، وهناك عقار في منطقة لوب في شيكاغو تجري إعادة تصميمه ليكون مسجداً.

يعاني سلام المراياطي، المدير القومي للمجلس الإسلامي للشؤون العامة (MPAC)، ومقره في لوس انجلس، معاناة شخصية من الأفكار المنمطة عن الإسلام: "عندما يعلم معارفي الجدد أنني مسلم ممارس، تتملّكهم الدهشة، لأن الدم والدخان لا ينزَّان من قرنين في رأسي. ثم يدركون، فيما بعد، أنني أؤمن بالله وأحبّه، وأني ألبس بذلة وربطة عنق، وأتحدث عن فريق لايكرز لوس انجلس لكرة السلة وليس لمجرَّد كون أعظم لاعبيهم مسلماً"[٢].

وسوء الفهم يستثير في بعض الأحيان أعمال التخريب المتعمَّدة: فخلال أعمال العنف التي اندلعت في إسرائيل والأراضي المحتلة، في تشرين الأول (أكتوبر) عام ٢٠٠٠، شهد المركز الإسلامي في كاليفورنيا الجنوبية عمليات تخريب في ثلاث مناسبات منفصلة؛ والجدير ذكره أنه مركز يقدّم خدماته لنحو مِائة وخمسين تلميذاً من صفوف الروضات حتى الصف السادس. فمرّة، وأثناء اجتماع المسلمين لأداء الصلاة، ألقي حجر أصاب زجاج باب المدخل. وفي

---

(١) *Chicago Tribune*, 7-17-2000, p. 12.

(٢) *Los Angeles Herald Examiner*, 2-26-1989, p. G-1.

حادثة أخرى، نُهبت نقطة حراسة لموقف السيارات، التابع للمركز، ولُطّخت بالطلاء، ولم تنجُ سيارة نقل قريبة من هذا العمل التخريبي والكتابات الماجنة. وفي الحادثة الثالثة، التي بدت أنها تستهدف اليهود، كُتِبَ على أعمدة مدخل المركز هذه العبارة: "أيها اليهود اخرجوا"، وحَفرت الصلبان المعقوفة على البوابة الرئيسية.

وقد وصف محمد ج. ن. قرشي، مدير المركز، هذه الأعمال التخريبية بأنها "جريمة الكراهية"، وقال: "نريد أن يعرف الناس من نحن وأن يتقبّلونا. وهذه الأمور التي تجري ضدّنا تحدث دائماً، كما يبدو، فور نشوب معارك في الشرق الأوسط".

وفي مؤتمر صحافي، عقد في المركز، أدان جو ر. هيكس، مدير "لجنة لوس أنجلس للعلاقات الإنسانية"، الأعمال التخريبية، وعبَّر عن دعمه المجتمع الإسلامي: "إن الذين اقترفوا هذه الأعمال يريدون ترويع ضحاياهم. وعلى المجتمع التدخل للمساعدة على بلسمة الجراح". وكان بين الحضور مندوب الاتحاد اليهودي هوارد ويلنسكي.

ووجد "المراياطي"، في الأعمال التخريبية، جانباً مشرقاً. فقد أشار إلى تدفُّق الدعم من جانب الشرطة والنائب العام وبعض قادة اليهود، وقال: "لو حصل ما حصل قبل نحو عشر سنوات لما كنّا حصلنا على طمأنات كهذه". وتجدر الإشارة إلى أن هناك أكثر من ٢٥٠٠٠٠ مسلم يقيمون في مقاطعة لوس أنجلس، يترددون على خمسة وسبعين مسجداً ومركزاً إسلامياً [١].

وتنمو بعض الأفكار النمطية عن الإسلام في مبنى الكابيتول أيضاً. ففي عام ١٩٩٢، عثر رالف برايبانتي، وهو عالم وكاتب بارز في الشؤون الإسلامية، في أحد مكاتب الكونغرس، على بحث يتضمن "معالجةً للإسلام بوصفه العدو الكامن للولايات المتحدة، هي الأشمل من نوعها والأكثر إثارة للخوف". كان برايبانتي يشير إلى كتاب ليوسف بودانسكي، مدير مجموعة العمل المتخصصة

(١) *Los Angeles Times*, 11-9-2000.

بالإرهاب والحرب غير التقليدية في الحزب الجمهوري، وهي مجموعة يرأسها بيل ماكولوم النائب الجمهوري عن فلوريدا. ففي كتابه عن تفجير مبنى "مركز التجارة العالمي" في مدينة نيويورك عام ١٩٩٣، عمد بودانسكي المحرر التقني الأسبق لمجلة "القوات الجوية الإسرائيلية"، إلى اطلاق عنان خياله، إذ كتب يقول: "لقد باشر الإرهاب الإسلامي الحرب المقدسة -الجهاد- ضد الغرب، وبخاصة ضد الولايات المتحدة، وهو يشنها عبر الإرهاب الدولي بالدرجة الأولى"(١).

إن دعاية من هذا النوع، ستقود بعض الأميركيين، حتماً، إلى التصديق بأن ثمّة خطراً إسلاميّاً يتشكّل واقعاً في أميركا. ولكونهم متخوِّفين من تزايد العدد المطّرد لسكان الولايات المتحدة المسلمين، فإنهم يخشون أن يؤول هذا الاتجاه إلى إضعاف دعم أميركا غير المشروط لإسرائيل القائم منذ زمن طويل. وهناك مجموعة أكبر من المواطنين، يقودهم الإعلامي التلفزيوني الإنجيلي بات روبرتسون، لا يتقبّلون الفصل الدستوري بين الكنيسة والدولة، ويرون في أميركا أمة مسيحية، على الرغم من الفصل الدستوري بين الكنيسة والدولة، ويعتبرون المسلمين خطراً يتهدَّد هذا المفهوم.

وبالإضافة إلى الأشخاص المنغمسين في التنميط وفي استغلال الانفعالات البدائية، إما لمصلحة أو لأسباب دينية، هناك الذين يدّعون بأنهم إنما يستجيبون ببساطة للواقع. مثلاً، حذّر الأستاذ الجامعي الأميركي عاموس پيرلماتر، في العام ١٩٨٤، من "حرب إسلامية شاملة تُشَنُّ ضد الغرب والمسيحية والرأسمالية المعاصرة والصهيونية والشيوعية في وقت واحد"(٢). ونجد آخرين في الأوساط الأكاديمية يكررون جزم پيرلماتر لهذا الخطر، متجاهلين روابط الإسلام الأساسية مع المسيحية واليهودية. فهم يجدون في الإسلام خطراً كبيرا يتهدَّد الغرب، ولا يتورَّعون عن تصوير إسرائيل أمةً غربية، وجزءاً من الحضارة الغربية، في توسيع جغرافي خارق لخيالهم.

---

(١) Ralph Braibanti, *The Nature and Structure of the Islamic World*, p. 7.
(٢) *Wall Street Journal*, 10-4-1984.

إن التهجّم على الغرباء الأوغاد الموهومين ليس بالأمر الجديد في أميركا. فمنذ سنوات طويلة، حذَّر الساسة الساعون إلى كسب الشعبية من "الخطر الأصفر" الداهم، للحضّ على معارضة الهجرة من الصين. وفي فترة لاحقة، وعندما أصبح حاكم نيويورك آل سميث فيما بعد، أول مرشح كاثوليكي روماني للرئاسة، سَرَت همهمات تحذِّر من أنه سيأتي بالنفوذ البابوي المشؤوم مباشرة إلى البيت الأبيض. ومن بعدها جاء التهديد بـ "الخطر الأحمر" الذي رمز إلى الاتحاد السوفياتي. واليوم، غالباً ما يسمَّى الإسلام الخطر الجديد، الآتي من وراء الأفق، الآخذ مكان الاتحاد السوفياتي البائد، بَيْدَ أنّه محتفظ بقدرة مشابهة لقدرته على التغلغل والتوسّع، بحسب ما يدعيه المتقوِّلون.

ويشرح إدوارد و. سعيد الأستاذ في جامعة كولومبيا في نيويورك، وأحد الناشطين الفلسطينيين، فيقول: "ما يهمُّ "خبراء" مثل جوديث ميلر وصامويل هانتينغتون ومارتن كرايمر وبرنارد لويس ودانيال بايبس وستيفين إمرسون وباري روبين، إضافة إلى مجموعة كاملة من الأكاديميين الإسرائيليين، هو التأكد من إبقاء "خطر" [الإسلام] نصْب أعيننا، والأفضل التنديد بالإسلام لما يمارسه من إرهاب واستبداد وعنف؛ فيما يؤمّنون لأنفسهم استشاراتٍ مجزيةً، وظهوراً متكرراً على شاشات التلفزة، وعقوداً لتأليف الكتب. لقد جُعِلَ الخطر الإسلامي يبدو مرعباً الى حد لا نظير له، بما يدعم الموضوعة القائلة إنَّ وراء كل انفجار مؤامرة عالمية، [تتوازى بصورة مثيرة مع هوس الارتياب في العداء للسامية]"[١].

ويأسف المراياطي للظلم الواقع على الإسلام، والكيل بمكيالين الذي يتسم به الموقف العام تجاهه: "إن الإسلام يعلِّم البشر كرم الأخلاق، إلاَّ أنه يقرّ أيضاً بواقع السلوك المنافي للأخلاق. والإسلام يعني السلام، وهو يحاول أن يرسي أسسه في أنحاء العالم، [و] بأكبر قدر من التسامح. لقد أقلقني كتاب "آيات شيطانية" لسلمان رشدي، بسبب من تشويهه للإسلام، بَيْدَ أنني أيضاً

(١) "A Devil Theory of Islam", *The Nation Magazine* 8-96.

أدين الدعوة إلى قتله... إن الإسلام دين سلام وتسامح، مع ذلك يربطه الناس بالعنف وعدم التسامح.

"هناك العديد من المنافقين بين قادة المسيحيين. لكن الإسلام، بخلاف الأديان الأخرى، يُربَط، في الأخبار والتقارير والمقالات، بالعنف باستمرار؛ في حين أنه نادراً ما تُذكر ديانة الفاعلين عندما تُرتكب أعمال مروّعة على أيدي أناس ينتمون إلى ديانات أخرى. فالتقارير الإخبارية لم تُشر، إطلاقاً، إلى المذابح المرتكبة ضد "ألبان كوسوفو" بأنها أعمال قتل ارتكبها الصرب الأرثوذكس، وأن البورميين يُقتلون بأيدي البوذيين، وأنّ الفلسطينيين يقتلون بأيدي اليهود. فالجناة يُحدَّدون روتينيّاً بهويتهم القومية، وليس بانتماءاتهم الدينية، إلاّ عندما يكونون مسلمين. إذ لا يُنظر إلى مرتكبي العنف المسيحيين بأنهم يشوِّهون سمعة المسيحية؛ ولكن، إذا ارتكب مسلم إثماً، فإنّ هذا الإثم يُصوَّر كعنصر من عناصر الخطر الإسلامي الداهم على أميركا. وعندما نقف لنتأمل في حقد الدولة اليهودية التي تغزو لبنان وتقتل الألوف، والتي تقصف بيوت الفلسطينيين، وتقتلعهم من وطنهم، فإننا نقاوم مغريات التفكير أن العنف والتعصّب من دعائم اليهودية. لا ريب في أننا نجد هنا مكيالين يُكال بهما، حيث يُلقى اللوم على الإسلام في النزاعات الدولية"(١).

إنَّ هذه الازدواجية في التعامل هي التي تعزز أخبث تنميط للإسلام، وأوسعه انتشاراً، ألا وهو ربط المسلمين بالإرهاب. وهذه الفكرة النمطية متجذّرة عميقاً في وعي كل جمهور من المستمعين، تقريباً، تسنّى لي مخاطبته. فحينما كنت أسأل عن الكلمة التي تتبادر إلى الذهن، لدى ذكر الإسلام أو المسلمين، سرعان ما يتطوّع عدد من الحضور بإطلاق كلمة الإرهاب، دون أن أسمع اعتراضاً من الحاضرين الآخرين.

لا أعتقد أن تنميط الإرهاب من نتاج مؤامرة عالمية كبرى تستهدف

---

(١) *Los Angeles Herald-Examiner*, 2-26-1989, p. G-1.

الإسلام، ولا حتى من نتاج مؤامرة على مستوى قومي أميركي؛ ولكنني أعرف أن نشر التنميطات المزيَّفة يمكن أن يخدم المصالح المتعصِّبة الضيقة.

وفي بعض الأحيان، قد تنشأ الصور المزيَّفة من الحقد، وقد تنشأ في أحيان أخرى من "الطموح الجامح" على حدِّ قول شكسبير.

ولعل الرغبة بالشهرة الشخصية، وما يمكن أن تجتذبه من دخل، هما الدافعان اللذان قادا المعلق المستقل المختص بالإرهاب ستيفن إمرسون، الى الافتراء على مسلمي الولايات المتحدة. فهو يجيد، كغيره من الصحافيين المتَّسمين بالعقلية ذاتها، العزف على أوتار التعصّب الديني والانفعالات البدائية.

في عام ١٩٩٤، أي بعد مضي سنة على تفجير الراديكاليين مبنى التجارة العالمية في مدينة نيويورك، بثت محطات التلفزة العامة عبر البلاد (مأثرة) إمرسون الرئيسية التي جاءت على شكل فيلم وثائقي حمل عنوان: "الجهاد في أميركا: تحقيق عن نشاطات المتطرفين الإسلاميين في الولايات المتحدة". كان هذا العمل خليطاً من التكهُّنات السوداء، والغمز التحريضي، ومشاهد خاطفة، مقلقة لأناس غرباء مسعورين ينشدون الأناشيد عالياً بلغة غريبة. وقد نشر الفيلم ضباباً من الرعب، في أنحاء البلاد، وولَّد عدم ثقة بمسلمي الولايات المتحدة؛ فلا أذكر أي حدث آخر ترك أثراً سيّئاً مماثلاً لهذا الأثر.

فباستخدامهم تعريفاً مضلِّلاً للجهاد، نجح صانعو هذا الفيلم الوثائقي في تفسير هذه الكلمة، كأنها قنبلة موقوتة تستهدف الأبرياء في كل مكان. وقد ولَّدوا انطباعاً بأن "الأصوليين" المسلمين خطرون غير عقلانيين، تسلَّلوا إلى الريف الأميركي، حيث أنشأوا شبكة شريرة ترمي إلى تدمير الولايات المتحدة.

للجهاد ثلاثة أهداف، سيصفق الأميركيون بحماس لهدفين منها. أما الهدف الأول، فهو النضال من أجل حياة مِلْئُها الفضيلة. وأما الثاني، فهو القتال ضد الظلم، والهدفان كلاهما واردان في تعاليم الإسلام كورودهما ضمن مبادئ العقائد الدينية الأخرى، باعتبارهما أسمى المثل التي يطمح الإنسان لتحقيقها. وأما الهدف الثالث، فيتلخص في الدفاع عن الإسلام حيثما يتعرض لهجمات

عليه. وعلى عكس الصورة العنيفة التي رسمها الفيلم نفسه، فإن الإسلام يدين الإرهاب والتعصُّب. فقد كتب آندرو پاترسون يقول: "إنَّ العنف باسم الإسلام ليس من الإسلام في شيء، بل إنه نقيض لهذا الدين الذي يعني السلام لا العنف". ويعتبر إن فيلم "الجهاد في أميركا" هو مثال على الدعاية الخالصة التي تستهدف، إضرام المشاعر المعادية للإسلام؛ ويعتقد بأنه قد نجح في ذلك.

وبسبب الموضوعات الملتهبة التي عكسها الفيلم الوثائقي، اكتسب إمرسون سمعة سيئة طبقت البلاد لعدة أشهر، وذكّرت بما كان للسيناتور جوزيف ماكارثي من سمعة رديئة في الخَمسينات، حين لجأ الى التعريض، وساق تهماً بالخيانة لا أساس لها، ضد موظفي وزارة الخارجية الأميركية، وضد أعلام في الحياة الأكاديمية، وفي صناعة السينما والمسرح. وقد أرعبت اتهاماته ألوف الوطنيين الأميركيين؛ بحيث أدخلت إلى القاموس في النهاية، كلمة جديدة هي "الماكارثية" كمرادف لـ"اغتيال الشخصية".

أشك في أن تجد "الإمرسونية" (Emersonism) طريقاً إلى القاموس، ولكن إمرسون ألحق، بواسطة فيلم "الجهاد في أميركا"، ضرراً بالمجتمع الأميركي أكثر ديمومةً مما كان لـ"الماكارثية"، التي رد مجلس الشيوخ الأميركي الاعتبار لضحاياها، عندما وجّه تعنيفاً رسميّاً لمكارثي على سوء تصرّفه، أما ضحايا "إمرسون" فلم يكونوا محظوظين كهؤلاء. ومع أنَّ إمرسون فَقَدَ معظم مصداقيته، حاليّاً، كمصدر للمعلومات، وكمحلِّل، إلاَّ أن الضرر الذي أحدثه ما يزال موجوداً. والآن بعد مضي ستة أعوام على عرض فيلمه، نكاد نستطيع القول إن ضحاياه قد بدأوا بالرد، وما زال السمُّ الذي بثَّه يسمِّم الأمة. وجاء مؤلَّف أحمد يوسف وكارولين ف. كيبل الذي حمل عنوان العميل: حقيقة الحملة المناهضة للمسلمين في أميركا، ليفضح إساءات إمرسون؛ ولكن أيَّ اقتراح بتوجيه تعنيف رسمي له لم يُطرَح بعدُ في كونغرس الولايات المتحدة[1].

كانت لي مع إمرسون تجربتان شخصيّتان. في المرة الأولى جرى بيننا

(١) UASR Publishing Group, 1999.

حديث هاتفي في عام ١٩٨٤، عندما كنت أضع اللمسات الأخيرة على كتابي "من يجرؤ على الكلام؟"، فاتصل بي ليعلمني أنه يضع كتاباً عنوانه: "أسرة سعود الأميركية"، وهو كتاب حاول عبثاً تلطيخ سمعة العائلة المالكة السعودية، كقوة ذات وزن ومؤثرة في الرأي العام، في الولايات المتحدة. وقد أراد الاستيضاح عن التبرعات المالية التي تلقيتها عام ١٩٨٢ من أشخاص ذوي مصالح تجارية في العربية السعودية، أثناء حملتي الانتخابية للكونغرس. فأخبرته أن عدداً من الأشخاص أرسلوا إسهامات كريمة لتمويل الحملة، إلاّ أنها جاءت متأخرة، إذ فشلت في معركة إعادة انتخابي. وفي عام ١٩٨٦، التقيت إمرسون عندما شاركنا معاً في برنامج "كروسفاير" التلفزيوني الذي تبُثُّه محطة "CNN." وبدا أننا، أنا وإمرسون، قد تبادلنا التعامل بلطف في الجزء الأول من الحلقة، لأن مضيفينا حثّونا، خلال فترة الإعلانات التجارية، لنكون أكثر عدوانية؛ ولقد بذلت جهدي لتلبية الطلب..

لم يكن هناك أي لطف في التهم التي وجَّهها إمرسون ضد الإسلام في فيلمه "الجهاد في أميركا"، ولا في ظهوره التلفزيوني المتعدد، أو في مقالاته التي نشرها في الدوريات الشهيرة، قبل بث الفيلم وبعده. فقد كان يوجه تهجماته بطريقة تخلو من الحدّة، وتكاد تكون اعتذارية تبريرية، كما لو كان طبيباً شغوفاً يزمع أن يخفف من وقع النبأ السيّئ على مريض مشرف على الموت. لقد كان من الصعب في بعض الأحيان معرفة ما إذا كان ما يقدمه إمرسون هو صفعات أو تربيتاً. وعلى سبيل المثال، ورد في فيلم إمرسون، قبل أن يدين مسلمي الولايات المتحدة بعبارات كاسحة، "أن المسلمين، بغالبيتهم العظمى، ليسوا أعضاء في الجماعات المسلَّحة"، مضيفاً أن "الإسلام، باعتباره ديناً، لا يغفر العنف". ولكن يبدو أنه اعتبر أن ما قاله يمنحه ترخيصاً باتهام المسلمين، عموماً، بأن فيهم القتالية والعنف اللذين كان لتوه قد نفاهما عنهم.

ويعلن نص التعليق المصاحب للفيلم أن "هناك العديد من مراكز القيادة ومواقع الاتصالات" موزعة في أرجاء الولايات المتحدة، لمساعدة المسلمين على "إنشاء إمبراطورية إسلامية". ويحذّر النص من أنه "مع توسع نشاطات

الراديكاليين المسلمين في الولايات المتحدة، فإن التفجيرات في المستقبل [كتفجير مبنى مركز التجارة العالمية] ستكون حتمية، لأن وكالات الولايات المتحدة الأميركية، المعنيّة بتنفيذ القوانين، التي تعيق عملها القيود الدستورية، ستجد صعوبة في أن تدفع عن البلاد خطر تحوّلها إلى جبهة حرب".

وفي مقالة نشرها إمرسون في المجلة "الشهرية اليهودية" وضع المسلمين جميعاً في سلّة واحدة، حين "أكّد أن كل المنظمات الإسلامية تقريباً، القائمة في الولايات المتحدة، والتي تعتبر نفسها إسلامية، من حيث الديانة والثقافة، هي اليوم لسوء الحظ إما واقعة بالكامل في قبضة العناصر الراديكالية الأصولية، أو هي تهيمن عليها"(١). وفي المنحى نفسه، نبّه لجنة فرعية في مجلس الشيوخ لوجود "شبكة متشعبة ضخمة، من النشطاء والأتباع، يتعاون بعضهم مع بعض عبر الدول. فسلسلة الأصوليين الإسلاميين تمتد من القاهرة والخرطوم حتى بروكلين، ومن غزة إلى واشنطن"(٢).

وقد أكّد إمرسون في مجلة "وول ستريت جورنال" أن الأصوليين المسلمين "يستخدمون مساجدهم وزعماءهم الدينيين ليكوّنوا نواة بنيتهم التحتية الإرهابية"(٣). وأعلن في صحيفة سان دييغو يونيون-تريبيون ما يلي: "إن كره مقاتلي الأصوليين الإسلاميين للغرب ليس مرتبطاً بفعلٍ أو حدثٍ محدَّدين، بل إنهم يعتبرون وجود نظامه الاقتصادي والسياسي والثقافي، هو في حد ذاته فحسب، اعتداء على الإسلام"(٤).

وقذف إمرسون مصطلح "الأصولي الإسلامي" كأنه قنبلة يدوية، مطلقاً نظريته الشخصية، التي، وإن كانت مزيَّفة إلاَّ أنها تخدم أهدافه، والتي تقول بوجود نوعين من المسلمين، أولهما الأصولي وبالتالي هو نوع سيّئ؛ وثانيهما

(١) *The Jewish Monthly*, 3-95.

(٢) Senate Judiciary Committee Report, 4-27-1995.

(٣) *WSJ*, 6-25-1993.

(٤) *San Diego Union Tribune*, 6-8-1993.

غير الأصولي. وهذا المصطلح يكاد يكون مجهولاً في الإسلام. وعلى عكس المسيحية البروتستانتية التي تنقسم إلى ملل أصولية وأخرى ذات الخط الأساسي، فإن النقاط الخلافية الأساسية ضمن الإسلام أقلّ عدداً وذيولاً. وهكذا، يستخدم مصطلح "الأصولي الإسلامي" على نحو واسع بوصفه أداةً للتنميط.

لقد أعطى الانفجار المروِّع الذي وقع في أوكلاهوما سيتي يوم ٢٠ نيسان (إبريل) ١٩٩٩، إمرسون فرصاً جديدة لبروزه الشخصي. إذ لم يكد الغبار ينقشع عن ركام المبنى الفيدرالي المفزع حتى ظهر على شاشات محطات التلفزة الوطنية، مدَّعياً أن هذا العمل هو، على الأرجح، من صنع الإرهابيين "الإسلاميين". وأعلن من محطة "CNN" أن العبوات المستخدَمة تشبه تلك التي استخدمتها المجموعات "الإسلامية المسلَّحة" في الولايات المتحدة(١).

وفي محطة "CBS" قال: "أقول لكم إن أوكلاهوما سيتي ربما كانت أحد أكبر مراكز النشاط الإسلامي الراديكالي، خارج الشرق الأوسط". وفي الأيام التي أعقبت كارثة أوكلاهوما سيتي، ظلَّ إمرسون يستخدم عبارات مشحونة توحي بالعلاقة بين الانفجار والإسلام. ففي برنامج كروسفاير الذي تبثه محطة "CNN" قال بوقار: "إن هذا التفجير من نوع لم يسبق للأرض الأميركية أن شهدت مثله، إلاَّ في نشاط الجماعات الإسلامية المسلَّحة"(٢).

أثبتت الأحداث، فيما بعد، أن لا علاقة للمسلمين أو لذوي الأصول العربية بالتفجير الذي حصل، ولكن هجمة إمرسون الإعلامية أسهمت في خلق جو من الخوف العام من المسلمين. لقد عمَّ الشعبَ قلقٌ أكبر من أي وقت مضى، منذ القلق الذي أحدثه هجوم اليابان المفاجئ على بيرل هاربور في كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩٤١، عندما سرت، كالنار في الهشيم، شائعات تقول إن الغزاة ينتشرون على الساحل الغربي.

---

(١) CNN, 4-20-1995.
(٢) Ahmed Yousef, *The Agent*, p. 56.

ويوم الانفجار في أوكلاهوما سيتي، سمعت من إحدى كبريات محطات التلفزة خبراً، مفاده أن رجالاً يلبسون الكوفيات العربية شوهدوا يفرّون من موقع الحدث. وإن هي إلاّ ساعات حتى ظهر الرئيس بيل كلينتون على شاشات التلفزة يدعو إلى الهدوء، معلناً أنَّ أحداً لا يعرف من، أو ما، كان سبب الانفجار؛ إلا أن هذا التصريح لم يخفف من دفق الشائعات التي توجه أصابع الاتهام إلى مسلمين مجهولين، انطلقوا من قاعدة إرهابية متمركزة في أوكلاهوما.

فكَّرت أميركا المرتعبة ملياً في هذه الأسئلة الكئيبة: ما عساه يكون الهدف التالي؟ أيكون البيت الأبيض ؟ أم هو مبنى الكابيتول؟ أتكون المدارس والكنائس ومراكز التسوق؟ أصبح كل واحد جاهزاً، بل ومتحمّساً، لاتّخاذ تدبير حاسم. أما انتظار أن تأخذ التحقيقات مجراها، فلم يحسَب له حساب. في عدد World Almanac للعام ١٩٩٦، قَوَّم جيفري د. سايمون مؤلف كتاب "رحلة اللارهابي: تجربة أميركا مع الإرهاب"، الهستيريا التي أعقبت الانفجار، فكتب يقول: "لقد أصاب الانفجار وتراً حسّاساً... . حين تابع ملايين الأميركيين على شاشات التلفزة مشاهد الأطفال القتلى، وكيف تسحب من تحت الركام. كانت تلك مشاهد تدمي القلوب ..."؛ واستطرد قائلاً: "لم تكن المنطقة التي تعرَّضت للهجوم حاضرة كبيرة مشهورة في أنحاء العالم، بل مدينة صغيرة تقع في وسط البلاد. والآن، فإن كل بلدة ومدينة عبر الولايات المتحدة يمكن اعتبارها هدفاً محتملاً للإرهاب".

قبل اعتقال تيموثي ماكفاي، الرجل الذي أدين في النهاية، بارتكاب التفجير، قاسى العديد من الأشخاص "ذوي الملامح الشرق أوسطية" الإزعاج والحرج والإذلال على أيدي رجال الشرطة المسؤولين عن تنفيذ القوانين. وحدثت هناك مواجهات عدائية. وعانى المسلمون والعرب الأميركيون مضايقات رجال الشرطة وترهيبهم عبر البلاد كلها.

ولم تكن تلك الساعة واحدة من أفضل ساعات أميركا. فقد أُطلقت النار في أوكلاهوما سيتي على مسجد. وفي إحدى الحوادث تسبَّب الغوغاء المسعورون بموت طفل؛ فبعد ساعات من مقابلة أجرتها محطة "CBS" التلفزيونية مع ستيفن

إمرسون، وزعم فيها أن المسلمين متورطون، أغار غوغاء غاضبون على منزل عائلة مسلمة لاجئة من العراق، فحطَّموا زجاجه مطلقين شعارات معادية للإسلام. كان هذا الاحتجاج مرعباً إلى درجة أن امرأة حاملاً وضعت حملها قبل الأوان. ولسخرية القدر، سُمِّيَ المولود "سلام"، ولكنه سرعان ما قضى نحبه(١).

وفي مطار هيثرو بلندن، أوقف المواطن ابراهيم أحمد من أوكلاهوما سيتي، وكان مسافراً الى الأردن لزيارة أقاربه، واقتيد مخفوراً، بسبب اسمه العربي، ولأنه كان قادماً من مدينة أوكلاهوما سيتي بالذات، ولأنه عُثر على أدوات وأسلاك وأجهزة في حقيبته. فقد وُضعت في يديه الأصفاد في المطار. وبطلب من مكتب التحقيقات الفيدرالي، FBI، رُحّل إلى واشنطن تحت حراسة الشرطة، للاستجواب. وقد ثبت أن متاعه لم يكن يضمّ غير بعض الهدايا البريئة التي حملها معه لأقاربه في الأردن. وفيما بعد، بُرِّئ وأخلي سبيله، دون أن توجَّه إليه أيّ تهمة. ونظراً لما تعرّض له إبراهيم من مضايقات وسوء معاملة، فضلاً عن مضايقات الإعلام، عمد إلى رفع دعوى ضد حكومة الولايات المتحدة، وتلقّى تعويضاً ماليّاً لم يُفصَح عن قيمته.

وفي تلك اللحظات المتوتّرة التي تلت الانفجار، بدا أن معظم الأميركيين من غير المسلمين موافقون على أن الكارثة هي من عمل المتعصّبين الغرباء، الذين تسلّلوا إلى قلب أميركا. لقد بدت البلاد، التي هزتها الذكريات الحية لعملية تفجير مبنى مركز التجارة العالمية في نيويورك، وتحليلات إمرسون المفبركة، مستعدةً للافتراض بأن العرب والإيرانيين أو المسلمين، وهذه مصطلحات استخدمت بالتناوب، كأنها مرادفات، هم المسؤولون عن كارثة أوكلاهوما سيتي.

وقد نظر بعض المعلّقين إلى التفجير على أنه الجولة الأولى من نضال عظيم ضد الغرب، تشنه قوى غريبة، شريرة، آتية من الشرق؛ فيما نظر بعضهم الآخر

(١) *New York Times*, 11-24-1999.

إليه بأنه رد انتقامي رهيب على مشاركة حكومة الولايات المتحدة الدائبة لإسرائيل، في الاضطهاد الذي تمارسه على الفلسطينيين. وفي مقابلة تلفزيونية أجريت معه في أعقاب الانفجار، لم يتردَّد المحامي دايفيد ماكوردي، من نورمان في أوكلاهوما، عن القول إنَّ التفجير هو "من عمل إرهابيي الشرق الأوسط". كان لرأيه مصداقية خاصة، كونه قد سبق له أن ترأَّس اللجنة الدائمة المختارة لشؤون المخابرات في مجلس النواب الأميركي، عندما كان عضواً في الكونغرس.

كان هناك افتراض سائد مفاده أنه ما من مواطن في الولايات المتحدة الأميركية يمكن أن يتسبب بمثل هذه الجريمة النكراء، بحق مواطنيه الأبرياء، ولا بد أن هذا العمل هو من صنع قوى شريرة خارجية. وأنا أعترف، شخصيّاً، أن شعوراً دفيناً فوريّاً داهمني عندما علمت بالانفجار، بل قل إنه أسوأ شعور اعتراني في حياتي. ولما كنت أحد الذين ناضلوا على مدى سنوات من أجل التعاون بين مختلف الديانات في أميركا، ومن أجل العدالة في الشرق الأوسط، فقد أصبت بالقنوط. وبالطبع، فجعت، في البدء، على عائلات الضحايا من القتلى والجرحى، ولكنني خشيت أن تزيد هذه المصيبة من حدّة الحقد على المسلمين والعرب الأميركيين.

ومع سريان الشائعات، فكّرت مليّاً ما إذا كان هناك من شيء يمكنني القيام به للمساعدة على تفادي وقوع الأمة بأسرها في شباك البغض. كان باستطاعتي أن أتخيّل اعتقال المواطنين الأبرياء بالمئات، لاستجوابهم من قبل مكتب التحقيقات الفيدرالي، وتعرّضهم لمضايقات بطرق أخرى؛ ويعزى ذلك، بكل بساطة، إلى انتماءاتهم الدينية أو أسمائهم أو لون بشرتهم. وأحسست براحة غامرة، عندما اعتُقل تيموثي ماكفاي وأدين، إذ لم يكن له أي صلات لا بالمسلمين ولا بالعرب.

تشكِّل آثار كارثة الانفجار موضوعاً للتفكير، يستنير به كل مهتم بتفاهم أتباع الديانات المختلفة وتعاونهم. وعلى الجميع أن يُنعِموا التفكير في ما كان سيحصل لو لم يعتقل ماكفاي. ويجدر بالمواطنين جميعاً، وخصوصاً المسلمين،

أن يكونوا شاكرين للعمل اليقظ الفعَّال الذي قام به شرطي المرور تشارلز هانغر، بعد وقت قصير من الانفجار، أثناء دوريته عند الكيلومتر الثمانين على الطريق السريع الممتد إلى الشمال من أوكلاهوما سيتي. فقد أوقف ماكفاي لعدم حيازته إجازة سوق، ولاكتشاف سلاح مخبَّأً في سيارته؛ ومن ثم اعتقله، فكانت تلك الخطوة الأولى في رحلته التي أدَّت به إلى زنزانة المحكوم عليهم بالموت في سجنه.

كان يمكن للمجرم أن يفلت بسهولة، كما كان يمكن لهانغر ولزملائه أن ينشغلوا في تحرير مخالفات السير الأخرى، فيما ماكفاي يبتعد بسيارته من أوكلاهوما سيتي شمالاً. وكان من الممكن كذلك ألاَّ يكتشف هذا الشرطي السلاح المخبَّأ، وأن يحرِّر له ضبط مخالفة ويسمح له بمتابعة رحلته.

لو لم يعتقل ماكفاي لاستمر إمرسون وغيره، ممن ينتحلون لقب خبراء الإرهاب، بتوزيع مقولاتهم المعادية للمسلمين، على محرِّري نشرات الأخبار؛ ولاستمرّت الأمة تستجيب للشائعات الكاذبة، ولبقيت "بنية الإرهابيين التحتية" العاملة عبر البلاد والتي سبق لإمرسون منذ البداية إلصاق نشاطها بالمسلمين، تحتل الصدارة بين عناوين الأخبار؛ ولكان الأميركيون الخائفون أبقوا المسلمين في دائرة الشك، باعتبارهم الأنذال الذين ارتكبوا مجزرة أوكلاهوما سيتي المروّعة.

وكان يمكن للآلاف المؤلَّفة من المواطنين الأبرياء أن يجدوا أنفسهم في موقف المرتعد اليائس الذي يحاول دفاعاً، فلا يستطيع. وأمام هذا الواقع، ونزولاً عند إلحاح الجماهير المرتاعة، كان يمكن للكونغرس أن يسنّ قانوناً أوسع وأخطر من قانون مكافحة الارهاب وعقوبة الإعدام النافذة، الصادر في العام ١٩٩٦، والذي تضمَّن حرمان المهاجرين من إجراءات المحاكمة. وقد وُزِّعَت أشرطة فيديو فيلم إمرسون "الجهاد في أميركا" على مكاتب الكونغرس إبّان الحملة الإعلامية التي سبقت عملية إقرار مشروع هذا القانون.

ولم يخمد الرعب الشعبي. فعلى الرغم من اعتقال ماكفاي السريع، فإن

الأخبار، قد أفادت خلال السنة التي تلت الانفجار، عن مِائتي حالة مضايقة للمسلمين في مختلف أنحاء البلاد، بما في ذلك التهديد بالقتل[(١)].

بعد انقضاء أربع سنوات على انفجار أوكلاهوما سيتي وخمس سنوات على بثِّ شريط "الجهاد في أميركا"، بُثَّ فيلم وثائقي ثانٍ، عزَّز القلق الشعبي إزاء المسلمين، وأظهر هذا الفيلم الأذى الذي لا يمكن أن يلحقه بسمعة الإسلام إلاَّ أحد أدعيائه. ففي إنتاج بدا أنه تتمَّة لفيلم "الجهاد في أميركا" قدَّمت شبكة "PBS" شريطاً يحمل عنوان "الإرهابي والقوة العظمى"، وهو عبارة عن حلقة من مسلسل برنامج "فرونت لاين" (Frontline)، تتناول خطاب أسامة بن لادن، المنشق السعودي الذي يقدم نفسه كمدافع عن الإسلام.

يزعم الفيلم أن بن لادن قام بدور رئيسي عام ١٩٩٨ في تفجيري سفارتي الولايات المتحدة في كينيا وتنزانيا اللذين أديا إلى مقتل الموظفين الأميركيين والعديد من المواطنين المحليين. كما قدم تحقيقاً عن عمليات القصف الانتقامي الأميركي لأهداف في السودان وأفغانستان في وقت لاحق من ذلك العام، كان مؤداه أن ادِّعاء واشنطن بأنَّ الهجوم على السودان دمَّر معملاً، لإنتاج أسلحة كيميائية للدمار الشامل، هو ادِّعاء لا أساس له من الصحة.

وفي هذا الشريط الوثائقي أعطى بن لادن صورةً مزيَّفةً، بشعةً، فاسدةً عن الإسلام. فباسم الدين، دعا المسلمين إلى "قتل الأميركيين أينما استطاعوا ومتى استطاعوا"، وهي دعوة تنتهك مبادئ العدل التي تطبع الإسلام، انتهاكاً فاضحاً، وشدّد على أن أميركا هي عدو الإسلام الرئيسي، وقال إنه يتوجب على كل المسلمين محاربتها.

لقد ولَّدت هذه الدعوة إلى قتل الأميركيين، العسكريين والمدنيين على حدٍّ سواء، قلقاً كبيراً بين مسلمي الولايات المتحدة، وخصوصاً عند أولئك الذين يخدمون في قواتها المسلحة.

ومهما يكن الدافع الذي أدَّى إلى تفجُّر نقمة بن لادن، فقد أظهره منتجو

---

(١) 1998 CAIR report on harassment.

الشريط بصورةِ المسعور، إذ عمدوا إلى حذف المقاطع التي تضمَّنت عبارات متَّقِدةٍ، مشبوبةٍ بإحساسه بالظلم الواقع من جانب حكومة الولايات المتحدة، والتي صدرت عنه أثناء مقابلته المطوَّلة مع فريق عمل "فرونت لاين" الذي جمع مادة الفيلم الوثائقي.

وقد حاول بن لادن، في المقاطع المحذوفة من قبل منتجي البرنامج، أن يعدِّل دعوته السابقة إلى قتل الأميركيين، وقصر التهديد على الجسم العسكري. كما أدان أيضاً حكومة الولايات المتحدة على مشاركة إسرائيل في تاريخها الطويل من المعاملة الوحشية المستمرة للمدنيين الفلسطينيين، رجالاً ونساءً وأطفالاً، ومعظمهم من المسلمين. وعلى الرغم من أنه لم يذكر ذلك، فقد كان في إمكانه الإشارة إلى قصف القوات الأميركية معسكر التدريب التابع له، في أفغانستان، بوابل من صواريخ كروز، مستهدفةً إياه ومؤيّديه بوضوح.

واستحق منتجو البرنامج الثناء، لوضعهم كامل نص المقابلة على "الإنترنت"، مفسحين المجال أمام من يريد الاطلاع على شكاوى بن لادن ضد حكومة الولايات المتحدة، وعلى التعديل الذي أجراه على دعوته لقتل الأميركيين. بيد أنهم فقدوا مصداقيتهم عندما حذفوا كل هذه الفقرات من المادة التي بثُّوها، تاركين المشاهدين يتساءلون: ما الذي أثار الرجل ليطلق هذا الهجوم اللفظي العنيف ضد الأميركيين ؟ ومن تسنَّى له تفحُّص نص المقابلة الكامل على "الإنترنت" بعد مشاهدة البرنامج التلفزيوني، لا يجد مفرّاً من الاستنتاج أن منتجي "فرونت لاين" حذفوا من أقواله ما يسهم في حماية صورة إسرائيل.. وإبقائها بعيدة من دائرة الانتقاد.

في الأيام الأخيرة من سنة ١٩٩٩، استعد العديد من الأميركيين لمواجهة المزيد من العنف. كانت مجزرة أوكلاهوما سيتي ما تزال حية في ذاكرتهم، حين جاءت بلاغات إدارة كلينتون التحذيرية، حول هجوم محتمل، قد يشنُّه إرهابي مسلم في يوم رأس السنة الجديدة، أو لاحقاً. وتعمَّقت المخاوف حين حاول جزائري مسلم، يسعى للدخول إلى الولايات المتحدة، تهريب ما وُصِفَ بأنه تجهيزات لصنع متفجِّرات، عبر نقطة جمارك، بالقرب من سياتل على الحدود

مع كندا. واحتل نبأ اعتقاله صدارة عناوين الأخبار، لعدة أيام، في كافة وسائل الإعلام الأميركية المرئية والمقروءة. وازداد قلق الأميركيين، أكثر فأكثر، عندما اعتُقل مسلمان آخران في مدينة نيويورك سيتي، وجرى استجوابهما بحثاً عن أي علاقة محتملة تربطهما بالمعتقل في سياتل أو ببن لادن. في هذا الوقت، كان الأخير، المطلوب بتهمة تخطيط تفجير سفارتي الولايات المتحدة في أفريقيا عام ١٩٩٨، يعيش في أفغانستان. وعلى الرغم من عدم مقاضاة هذين الشخصين، إلاّ أنّ الأنباء عن اعتقالهما التي أُرفقت بصور بن لادن الخطير، عزّزت خوف الأمة جمعاء من إرهاب يَفِدُ عليها من الخارج.

هذه التطوُّرات دفعت بمحمد البنداري، أحد المساهمين في نشاط MSNBC، وأحد قادة المسلمين في سانت لويس، ليكتب قائلاً: "ثمَّة شعور متنامٍ بالكرب يسود في أوساط مسلمي أميركا. ففيما الأمة تستعد للإرهاب، يخشى [المسلمون] معاودة وسائل الإعلام الأميركية إبراز صورتهم وصور دينهم السلبية". وأشار إلى مسح يُظهر زيادة بلغت ٥١ ٪ في شهر كانون الأول (ديسمبر)، مباشرة بعد عرض التقارير الإخبارية التي تربط الإسلام بالإرهاب، تزامنت مع تحذير وزارة الخارجية الأميركية المواطنين من السفر إلى الخارج. وقد لاحظ البنداري أن الأفكار المقولبة التي تربط الإسلام بالإرهاب "تؤذي وتجرح في الصميم"(١).

قبل ذلك بأسابيع، وعلى أثر معاناة مسلمي الولايات المتحدة قرابة سنوات أربع من الضغط والتضييق والتنميطات المزيَّفة، في أعقاب انفجار أوكلاهوما سيتي والعروض التلفزيونية الوثائقية، قرَّرت قيادة مجلس نواب الولايات المتحدة التخلّي عن مشروع قرار يعبّر عن حسن النيات تجاه المجتمع الإسلامي الأميركي، من خلال شجب التعصّب والتميز ضد المسلمين".

كانت مسوَّدة مشروع القرار، التي أعدّتها مجموعة من أعضاء الكونغرس من كِلا الحزبين، قد نصَّت على أن "المنظمات التي تشجّع مثل هذا التعصب تخلق

(١) MSNBC web page, 12-30-1999.

أجواءً من الكراهية"؛ ودعت دوائر الحكومة والمواطنين إلى الامتناع عن "التسرع في إطلاق الأحكام" ضد المسلمين، على غرار ما حصل في أعقاب انفجار أوكلاهوما سيتي. وقال أحد واضعي مشروع القرار السيناتور اليهودي جوزيف إ. ليبرمان إنَّ الوقت قد حان لنحمل الى المسلمين "الأمل بمُثُل الأمة". وقد اختار المرشح الرئاسي آل غور (Al Gore)، فيما بعد، ليبرمان ليكون مرشحه لمنصب نائب الرئيس في حملته الانتخابية الفاشلة عام ٢٠٠٠.

ومع ذلك، وعلى أثر التذمر الذي أبداه على نص المسوَّدة المعترضون من الأصوليين المسيحيين وبعض المنظمات اليهودية، أجرى الأعضاء الجمهوريون في لجنة المجلس القضائية تعديلاً جذريّاً عليها، بحذفهم النقاط التالية:

ـ الإشارة إلى أوكلاهوما سيتي.

ـ عبارة تناشد المشترعين "المحافظة في الخطب السياسية على مستوى لا يتضمن جعل دين برمته كبش محرقة".

ـ تعبير يدين "المنظمات التي تشجع على التعصّب".

ـ إدانة "العنف المثير للكراهية".

ـ مقطع يستنكر حقيقة أن مسلمي الولايات المتحدة قد "صُوِّروا بشكل سلبي في بعض المناقشات" حول الإرهاب.

وشجب جيمس زغبي المسيحي الذي يرأس "المعهد الأميركي العربي"، شطب النقاط المذكورة، معتبراً ذلك إهانة للمسلمين "المحاصرين، أصلاً". وأضاف: "بدلاً من بلسمة جراح المجتمع المسلم، [جاءت التعديلات التي أجريت على مشروع القرار] دليلاً على المشكلات التي سبَّبت الجراح بالدرجة الأولى". ورفض التوصية المعدّلة لأنها "غير ذات معنًى".

أما علي أبو زقزوق مدير "مجلس المسلمين الأميركيين" (AMC) التنفيذي، فقد عبَّر عن إحساسه بالصدمة إزاء التعديلات، وقال: "كان يجب ألاَّ يكون مشروع القرار هذا موضوع خلاف. إنه سرد الحقائق بكل بساطة".

ان النائبين الجمهوريين، هنري هايد، رئيس اللجنة القضائية، وتوماس ديفيس الثالث، عضو اللجنة، نفيا، بواسطة ناطقين باسميهما، ان يكون القصد من التعديلات تمييع مشروع القرار". وأضاف: "لقد رفضا الكشف عن هوية المجموعات التي تريد التغيير، وأصرّا على أنْ لا علاقة للاتصالات بإعادة صياغة مشروع القرار، وأن الإشارة إلى أوكلاهوما سيتي شُطِبَت، حيث كان من شأنها أن تثير في مناقشات المجلس أسئلة تفصيلية مبدّدة للوقت، تدور حول نوع المضايقات العنيفة التي أعقبت الانفجار"[1].

لم يثر مشروع القرار أي أسئلة في أوساط المجلس، لا مبدِّدة للوقت ولا غيرها. فهو لم يُطرح للمناقشة ولا للمزيد من الدرس. وفي الأيام التي فتر فيها نشاط المجلس في دورته المنعقدة، سُحب مشروع القرار المعدّل بهدوء من جدول الأعمال.

ومع أنَّ الهيئة العاملة في واشنطن باسم "المجلس الوطني لكنائس المسيح" في الولايات المتحدة، الذي يمثّل المِلَل ذات الخط العام، لم يعبر أعضاؤها عن أي احتجاج عام، غير أن المجلس التنفيذي اتخذ عام ١٩٨٦ قراراً بنّاءً، شجب التحامل على الإسلام والمسلمين والعرب في الولايات المتحدة، ودعا المسيحيين والكنائس والمنظمات التابعة لها "لتأييد حقوق العرب والمسلمين المدنية، والدفاع عنها" و"رفض الديماغوجية الدينية والسياسية والتلاعب الجلي بنقل الأخبار ذات الصلة بأحداث الشرق الأوسط". علاوة على ذلك، ألحّ القرار على كل الأطراف "للسّعي إلى تفهم الأسباب الكامنة وراء الأحداث التي توصم بـالإرهابية".

في هوليود، حيث تنتج معظم الأفلام الروائية والعديد من الأفلام الوثائقية، يستمر إبراز صورة "الإرهاب" المسلم. ففي أوائل عام ٢٠٠٠ حقَّقت شركة "باراماونت" السينمائية أرباحاً طائلة من فيلم "Rules of Engagement" الذي يفتري القول عن المسلمين عموماً، ويقدح بحق اليمنيين خصوصاً؛ إذ جنت

---

(١) *New York Times*, 11-24-1999.

أرباحاً فاقت ٤٣ مليون دولار. وبرغم إنكار الشركة أن إنتاجها هذا يشكل "اتّهاماً لأي حكومة أو حضارة أو شعب"، فقد تضمَّن الفيلم مشهداً يعرض مجموعة هائجة من المسلمين اليمنيين، وهم يطلقون النار على سفارة الولايات المتحدة في صنعاء عاصمة جمهورية اليمن؛ ويستثيرون هجوماً دمويّاً مضادّاً شنته قوة من البحرية الأميركية، كانت تعمل لإنقاذ موظفي السفارة. كل ذلك من نتاج الخيال الخصب لكاتب السيناريو في هوليود.

ولعل الجزء الملتهب والأكثر تضليلاً وإثارةً، من الفيلم، هو الجزء الذي يُسمع فيه تسجيل صوتي في جلسة محكمة عسكرية أميركية وهمية، يحاكم فيها جندي البحرية الذي أعطى الأوامر بشنِّ الهجوم المضاد. في التسجيل الصوتي، نسمع قائد المجموعة اليمنية يحضّ أتباعه المسلمين على "قتل الأميركيين"، وهي دعوة موحى بها من الله مباشرة، على حدِّ قوله. وعندما كنت أشاهد الفيلم، تساءلت عما إذا كان غضب بن لادن أمام كاميرات فريق "فرونت لاين" قد ألهم كاتبه، ليدخل في السيناريو هذا التسجيل الصوتي الذي أعطى صورة مزيَّفة مقلقة عن الإسلام. ولا ننسى أن تعليقات الفيلم الختامية توحي للمشاهِد بأن هذه الدراما المثيرة للجدل مبنية على حوادث وقعت، بالفعل.

وفي حديثه لمجلة "People"، قال السفير اليمني لدى واشنطن عبد الوهاب الحجري: "لم يحدث في اليمن إطلاقاً أي حادث قريب مما ورد في الفيلم. ومع ذلك يتصل بي أصدقاء على دراية بالأمور، سائلين ما إذا كان ذلك حصل فعلاً". أما عاطف أحمد، أحد موظفي السفارة اليمنية في واشنطن، فقال: "لا مراء في أن هذا الفيلم هو الأكثر عداءً للعرب بين الأفلام التي أنتجت حتى الآن". وقد أطلق نداء، برعاية عربية، ناشد فيه العامة مقاطعة الفيلم. ولكن عندما لم يلق النداء استجابة تُذكر، دعا الحجري ممثلَّي الفيلم الرئيسيَّين تومي لي جونز وصامويل ل. جاكسون مع المخرج والمنتج لزيارة اليمن، ليلمسوا بأنفسهم أن الشعب اليمني شعب مسالم ويحسن وفادة الأميركيين[١].

---

(١) *People*, 5-8-2000, p. 28.

في كل يوم، تقريباً، أجد دليلاً جديداً على تنميط المسلمين، وآخرها جاءني من رونالد بايكر أحد ممثلي قطاع الصناعة، وقد جاورني في رحلة جوية كنت أقوم بها إلى شيكاغو. فعندما علم أني عضو في الكونغرس، سألني ما إذا كنت أعتقد باحتمال نشوء تهديد لأمن الولايات المتحدة في المستقبل القريب. وطبعاً كانت إجابتي بالنفي، ملاحظاً انهيار الاتّحاد السوفياتي، عدو أميركا الأول في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. فما كان منه إلا أن عارضني، بشدة، متوقّعاً تهديداً وشيكاً يأتي من البلدان الإسلامية، وقال: "فكِّر، فقط، في ما يمكن لقائد مسلم واحد أن يفعل إذا حاز بضع قنابل نووية. إنني أرى خطراً حقيقيّاً آتياً من الإرهابيين المسلمين".

وروى لي ما حصل له قبل يوم أثناء رحلة جوية، قال: "كنا في المقصورة ستة أشخاص، جلسنا ثلاثة مقابل ثلاثة. وعندما تطرق الحديث إلى الإرهاب اتفق الجميع على أن المسلمين يمكن أن يبدأوا الحرب العالمية المقبلة. كما اتفقوا على أن الأميركيين، بوجه عام، يعتقدون أن معظم الإرهابيين هم من المسلمين".

وقال، أيضاً، إن القلق حول الإرهاب الإسلامي بدأ يعتريه لأول مرة، في سنة ١٩٨٦، حينما تسنَّى له مشاهدة "الوجه العنيف للمسلمين" أثناء زيارة كان يقوم بها إلى سنغافورة. نزلت الحشود الجامحة إلى الشوارع للاحتجاج ضد الأميركيين، بعد قصف طائرات سلاح الجو الأميركي لليبيا البلد المسلم، ذلك القصف الذي أمر به الرئيس رونالد ريغن عقاباً لليبيا على تأكيدها حقها في السيادة على خليج سدرة، وعلى تورّطها المزعوم في تفجير ملهى ليلي في برلين، حيث قتل أميركيّان. وفي الهجوم الذي شنته الطائرات الأميركية، قتل بضع عشرات من المدنيين الليبيين، بمن فيهم ابنة الزعيم الليبي معمَّر القذافي بالتبنّي.

وأضاف بايكر: "بدت الاحتجاجات في سنغافورة مهدِّدة للغاية، فادّعيت أنني أوسترالي، خوفاً على نفسي". فأخبرته أن الانطباع الذي شكّلته عن المسلمين على مدى خمسة وعشرين عاماً، كان انطباعاً ايجابيّاً. ولخَّصت له

جهودي الرامية إلى إزالة الأفكار النمطية المعادية للإسلام؛ فردّ قائلاً، وكأنما أُخِذَ على حين غرّة: "أنت صريح جدّاً في دعمك ما يتعلق بهؤلاء القوم المثيرين للجدل وبدينهم. ألست قلقاً على أمنك الشخصي؟". فأكَّدت له أنني لست قلقاً، شارحاً أنني أحاول، وببساطة، توضيح سوء فهم العامة للإسلام. وعندما افترقنا، أعرب بايكر عن قلقه عندما قال: "لا يهمني إذا ما ذكرت اسمي في كتابك، لأن ثمة أشخاصا كثيرين في أميركا لهم الاسم نفسه؛ ولكن أرجوك ألاَّ تنشر عنواني، فأنا لا أريد التورّط".

وأورد مثلاً آخر على التنميط المعادي للمسلمين، ظهر في تقرير وزارة الخارجية الأميركية عن الإرهاب العالمي لسنة ١٩٩٩. فالمسؤولون عن هذه الوثيقة، وعلى رأسهم وزيرة خارجية الولايات المتحدة مادلين أولبرايت، يحتاجون إلى دروس في اعتماد الحقيقة في عرض الأمور.

يعلن التقرير، بصراحة، أن "التهديد الإرهابي الأول الذي يستهدف الولايات المتحدة"، إنما يأتي من آسيا والشرق الأوسط، حيث الأغلبية من المسلمين. بيد أن الوثيقة نفسها تورد إحصاءات وتسرد وقائع في مكان آخر منها، تؤدي إلى استنتاج معاكس، مفاده أن أميركا اللاتينية تشكِّل مركزاً للإرهاب المعادي للولايات المتحدة، وهو الأكثر نشاطاً من الشرق الأوسط أو آسيا. ويعدِّد التقرير ستة وتسعين حادثاً معادياً في أميركا اللاتينية، وثلاثين في أوروبا الغربية، وستة عشر في إفريقيا. أما في آسيا، فقد بلغت حوادث العداء لأميركا ستةً في آسيا، وأحد عشر في الشرق الأوسط، علماً أن عدّة حوادث منها ارتدت طابعاً دفاعياً، ولذا كان تصنيفها في خانة الأعمال الإرهابية تصنيفاً غير صحيح[١].

وتدعم عوامل أخرى تنميط الإسلام، إرهابيّاً. مثلاً، ما نشهده في وسائل الإعلام الأميركية من ربط شائع لكلمتي "الإسلام" و"المسلمين" بالعنف المعادي لإسرائيل في الشرق الأوسط، مما يساعد على إبقاء الصور المزيفة

(١) Department of State, *Patterns of Global Terrorism* (1999).

حيّة. وخلال سنوات عضويتي في الكونغرس كانت م.ت.ف. (منظمة التحرير الفلسطينية) تُستخدم في مبنى الكابيتول رمزاً للإرهاب، يُقذف من قبل بعض زملائي كقنبلة يدوية، بل إن كلمة "إرهابية" استخدمت تكراراً، كبادئة لـ"م. ت. ف." حتى ليكاد يُظن أن "م.ت.ف. الإرهابية" هو اسم المنظمة. أما الآن، فصفة "الإسلامي" أضحت تُستخدم بالطريقة نفسها. وفي هذه الأيام، أصبح من النادر استعمال كلمة "م.ت.ف." كرمزٍ للإرهاب، لأسباب، منها أن الشعب الأميركي بات على اطّلاع أفضل على هذه المنظمة ورئيسها عرفات، وما يبذله من جهود للتوصل إلى سلام عادل عبر المفاوضات.

وانتقلت صورة الإرهابي من م.ت.ف. إلى "حزب الله" وحركة "حماس". ففي الأحاديث العامة، وفي وسائل الإعلام الأميركية، غالباً ما تُربط كلمة "إسلامي" بهاتين المنظمتين، بحيث لا يرى فيهما الأميركيون غير الإرهاب الخالص تحت لواء الإسلام. وسبب ذلك، أوّلاً وأخيراً، انحياز قادة الإدارة الأميركية إلى إسرائيل؛ وقد وُضعت المنظمتان على قائمة المنظمات الإرهابية لدى وزارة الخارجية الأميركية. وبالتالي، أصبح مُجرد ذكرهما يستحضر مشاهد عن إرهابيين مقنّعين يطلقون النار من أسلحة أوتوماتيكية على المدنيين العزَّل.

ويتعزّز هذا الربط بالتعاطف الشديد الذي يبديه الأئمّة تجاه كلتا المجموعتين، وعندما يعلن أعضاء فيهما تحمُّل المسؤولية، باسم الإسلام، عن عمليات عنف حمقاء ضد المدنيين. أما بالنسبة إلى الفلسطينيين فإن العنف هو التعبير الأقصى لغضبهم ضد القهر الإسرائيلي، واستمرار احتلالهم أرضهم ومصادرة ممتلكاتهم. ويرى العديد منهم في هؤلاء المتعصّبين مناضلين من أجل الحرية، أو شهداء في سبيل قضية العدالة والتحرر الوطني، ولكن هذا العنف لا يذكر إلاّ نادراً في وسائل الإعلام الأميركية، على أساس هذه الاعتبارات.

وقد يفاجأ معظم الأميركيين إذا علموا أن "حزب الله" منظمة سياسية كبرى، محترمة، حسنة التنظيم، وقد ظهرت كحركة مقاومة بسبب من غزوات إسرائيل الدموية والمدمّرة للبنان، وقصفها المدن والقرى، وسقوط القتلى من

المدنيين، وفشل الحكم اللبناني والأمم المتحدة في إنقاذ لبنان الجنوبي من براثن قوات الاحتلال الإسرائيلية.

ويتبوّأ حزب الله زهاء ٢٠٪ من المقاعد في مجلس النواب اللبناني، ويقوم بتقديم الخدمات الطبية والاجتماعية والثقافية لأعضائه. وتعتمد وحداته المسلَّحة العنف، الذي يؤدّي أحياناً إلى قتل المدنيين، في مقاومة قوات الاحتلال الإسرائيلي المديد. إلاّ أن هجمات "حزب الله" العسكرية لطالما اتخذت طابعاً دفاعيّاً، على الأغلب، محصوراً في الأراضي اللبنانية.

وعلى الرغم من هذه الحقائق، عمدت إسرائيل ومؤيدوها في الولايات المتحدة الأميركية، داخل الحكم وخارجه، الى وصف "حزب الله" بالمنظمة الإرهابية؛ وكان هذا الوصف في الأصل نتيجة لاتّهامه بالمشاركة في تفجير شاحنة راح ضحيتَه مِائتان وأربعون جنديّاً من قوات "المارينز" الأميركية التي كانت متمركزة بالقرب من بيروت، لحماية المصالح الإسرائيلية في لبنان. وبالرغم من انسحاب كل القوات الإسرائيلية من الجنوب اللبناني في العام ١٩٩٩، فقد بقيت هذه الصفة ملازمة لحزب الله لأسباب، منها أنه تلقّى المساعدات، على امتداد السنين من إيران، وهي الدولة المصنَّفة، في قائمة وزارة خارجية الولايات المتحدة، من الدول الداعمة للإرهاب الدولي.

وبالنسبة إلى العديد من الفلسطينيين، وكذلك اللبنانيين والأردنيين وغيرهم من العرب، يتألَّف "حزب الله" من وطنيين شجعان عازمين على تحمُّل المخاطر الشخصية، في سبيل ردع القوات الإسرائيلية عن أن تحتل أي جزء من لبنان. في هذا المعرِض قال أحد المتطوعين في فيلق السلام الأميركي في عمّان إن "أصدقائي الأردنيين، بنسبة ١٠٠٪ تقريباً، يعتبرون أعضاء "حزب الله" و"حماس" أبطالاً". وفي سياق ملاحظته الإصابات الفلسطينية الضخمة في القدس والأراضي المحتلة، يتساءل إبريل زوشيت، قائلاً: "هل يمكنك لومهم على هذا الشعور إذا راعيتَ ما يحصل؟"[١].

---

(١) E-mail, 11-28-2000.

تأسست حماس في الأراضي المحتلة منذ عقد من الزمن، كحركة معارضة لعرفات الذي استقر آنذاك في تونس. ومنذ بدايتها اختطت هذه الحركة طريقها في مقاومة احتلال إسرائيل لكافة الأراضي التي استولت عليها في حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧. وبعد توقيع "عرفات" ورئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق رابين اتفاقيات ١٩٩٣، التي عرفت بـ"اتفاقيات أوسلو"، نقل زعيم منظمة التحرير الفلسطينية مقرّ قيادته إلى قطاع غزة، وبدأ مفاوضاته لتحقيق انسحاب القوات الإسرائيلية، على مراحل. ووفقاً لاتفاقيات "أوسلو"، فقد أُجِّل البحث في مستقبل القدس والمستعمرات اليهودية في الأراضي المحتلة، وحق عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى مرحلة المفاوضات الأخيرة. ومنذ البداية، رفضت حركة حماس بنود الاتفاقيات؛ وعارضت أيّ مساومة مع إسرائيل؛ ولم توافق على التنازلات المؤقّتة التي قدّمها عرفات.

وطوال السنوات الماضية سعى عرفات إلى التعاون مع "حماس"، ولكنه لم يحقق سوى نجاح محدود. لقد حرص مقاتلو حماس في نضالهم ضد الاحتلال الإسرائيلي، على أن تكون عمليات مقاومتهم موجّهة ضد القوات الإسرائيلية، ولكنهم لجأوا، في بعض الأحيان، الى تدابير متطرّفة تمثّلت بالعمليات الانتحارية ضد أهداف مدنية، وكانت أعمالاً مدفوعة بالتعصّب، تشكّل انتهاكاً واضحاً للشريعة الإسلامية.

ولا يعرف معظم الأميركيين أن كلاً من تنظيمي حزب الله وحماس له فروع مهمة في الميادين الاجتماعية والثقافية، كما في المجال العسكري، بل لا يعرفون مدى تنوع وجهات النظر ضمن كل مجموعة، حيث نجد تشكيلة من الآراء والحوافز. في الطرف الأول من التشكيلة أعضاء أصيبوا بالخيبة، بعد عقود من القهر، وفقدوا الأمل بمستقبل كريم، فباتوا قانطين، وراديكاليين جبريين يؤمنون بالقضاء والقدر، مصمّمين على الانتقام بأيّ شكل من الأشكال. وفي الطرف الآخر، تيّار يعارض العنف أيّاً يكن شكله، إلاّ في حالتي الدفاع عن النفس أو إحقاق العدل، وهو في هذا ينسجم مع تعاليم الإسلام.

ومن العوامل التي تبقي الصور المزيَّفة عن الإسلام حيّةً، ذلك النشاط

الحثيث في واشنطن، الذي تبذله جماعة الضغط لصالح المساعدات الأميركية لإسرائيل، إذ تحرص هذه الجماعة، في مساعيها الناجحة لتعزيز المساعدات والهبات السنوية الضخمة التي تمنحها "واشنطن" لإسرائيل، على الجزم أن إسرائيل تعيش حالة مواجهة دائمة، مع أخطار جدّيّة، تتهدّد أمنها، مصدرها مجموعات "الإرهابيين المسلمين" الذين يسهّلون أحياناً، دونما قصد، حملات جماعة الضغط، بتضمين تسميات منظماتهم مفردات مثل "الإسلامي" أو "الإسلام" أو "المسلم".

أما جين بيرد، أحد الموظفين السابقين في سلك الخارجية الأميركية، والذي يرأس مجلس المصالح القومية في واشنطن، فيشبّه صورة الإسلام "الإرهابية" بـ"الزّر الساخن"، ثم يضيف قائلاً:

"غالباً ما تُستخدم هذه الصورة. فهي تعزف على وتر الخوف، وتجيّش العواطف. تتعهدها جماعة الضغط بعنايتها وتعمل على إشاعتها، لأنها تعلم أنها ستستقطب التأييد لمنح إسرائيل بلايين الدولارات من المساعدات غير المشروطة، سنة بعد سنة. وفي سياق هذا الضغط، غالباً ما يكون شبح الإرهاب، المدعوم من المسلمين، هو الموضوع المتكرر، إذ يستخدم لتسويغ ممارسات الدولة اليهودية القاسية ضد الفلسطينيين، ذوي الأغلبية المسلمة، ولتبرير اعتداءات إسرائيل العسكرية الدورية على لبنان، حيث تسود، أيضاً، أغلبية إسلامية. إن صورة الإرهاب هي الأساس الذي تستند إليه إسرائيل في مطالبتها بمساعدات أميركية منتظمة من الأسلحة المتطوّرة، ومن المال، لتعزيز دفاعاتها ضد هجوم محتمل بالصواريخ من جانب سوريا والعراق وإيران، وغيرها من الدول ذات الأغلبية الإسلامية".

ويتابع بيرد أن التنميط، هذا، يشجّع على اتخاذ القرارات الحكومية المكلفة بالنسبة إلى الشعب الأميركي. ففي العقد المنصرم، سهّل الانحياز إلى إسرائيل إقرار هبات أميركية بلغت قرابة ٤،٧ بليون دولار سنوياً، كمعدّل وسطي.

وبالإضافة إلى الحمل الثقيل الذي ينوء تحته المكلَّف الأميركي، يُنزل الدعم

الأميركي غير المشروط لإسرائيل، على مختلف الصعد السياسية والديبلوماسية والعسكرية، الأضرار بمصالح الولايات المتحدة القومية الأخرى. إذ يثير ردود الفعل، لدى معظم عواصم العالم، التي تراوح ما بين الاشمئزاز والتفكّه. ويقول بيرد: "تقود هذه السياسة ديبلوماسيينا في الأمم المتحدة إلى مواقف محرجة. فكم من المرات استخدم مندوب الولايات المتحدة في مجلس الأمن حق النقض، ضد مشاريع القرارات التي تدين الانتهاكات الإسرائيلية لحقوق الإنسان الفلسطيني، مع أن هذه الإدانات تنسجم مع المبادئ الأميركية، وتتمتّع بتأييد شبه إجماعي من الحكومات الأخرى". إن إقدام الإدارات الأميركية المتعاقبة على تقديم المساعدات، غير المشروطة، لإسرائيل على الرغم من انتهاكها للحقوق الفلسطينية، قد لطّخ سمعة أميركا، بوصفها نصير حقوق الإنسان في العالم.

ويورد بيرد مفارقة مذهلة: "في الوقت الذي تحذر فيه إسرائيل من إرهاب المسلمين، نجدها تستخدم إرهابها الخاص، الذي ترعاه الدولة، متخفّياً في شكل الإرهاب المضادّ". فالحكومة الإسرائيلية تُجيز، رسمياً، استخدام إجراءات جسدية قصوى ـ التعذيب، باللغة المبسطة ـ لانتزاع الاعترافات من مسلمين معتقلين للاشتباه بكونهم يشكّلون خطراً أمنيّاً محتملاً، حتى ولو كانوا من التابعية الأميركية"[١].

هذا السلوك الإسرائيلي المشين نادراً ما يُشار إليه في وسائل الإعلام الأميركية. ولكن محطة "CNN"، في استثناء لافت، بثّت في إحدى أمسيات أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٠ تقريراً عن اعتقال المواطن الأميركي المسلم أنور محمد، واحتجازه وتعذيبه، أثناء زيارته لأهله في القدس عام ١٩٩٨.

ومع أن أنور محمد مواطن أميركي، ويحمل جواز سفر صالحاً، فقد أوقف دون تهمة في سجن شديد الرطوبة، مدة أربعين يوماً. وخلال احتجازه كان محمد يربط لساعات طويلة، على الكرسي في أوضاع مؤلمة، ويغطّى رأسه

(١) Interview, 7-20-2000.

بكيس تفوح منه رائحة كريهة، ويمنع من النوم ويعرّض للحرارة والبرد الشديدين.

كان هدف هذه المعاملة الوحشية محاولة، لا طائل تحتها، لإجباره على التوقيع على اعتراف باشتراكه في عمليات إرهابية. أما مسؤولو قنصلية الولايات المتحدة في القدس، الذين لا يبعدون أكثر من عدة مبانٍ، من مكان اعتقال محمد، فلم يقدّموا له دفاعاً أو مساعدة خلال محنته، سوى قائمة بأسماء محامين يمكنه توكيلهم. وفي النهاية، أخلي سبيله دون أن توجه إليه أي تهمة، وأجبر على شراء جواز سفر فلسطيني قبل السماح له بمغادرة إسرائيل.

وفي التحقيق الذي أجراه مقدم البرامج في محطة "CNN" تشارلز غلاس في واقعة التعذيب، هذه، علم من ديبلوماسيين، سابقين وحاليين، أن مسؤولي القنصلية الأميركية في إسرائيل لا يتّبعون الإجراءات الموضوعة من قبل وزارة الخارجية، المفروض اتّباعها، عندما تنتهك حقوق مواطني الولايات المتحدة، ولا يلحّون على وجوب أن تلتزم الحكومة الإسرائيلية بالقواعد الإنسانية نفسها التي تطالب "واشنطن" البلدان الأخرى باحترامها بإصرار.

وسأل غلاس محمّداً عن مشاعره أثناء احتجازه عندما قرأ على القيدين اللذين غلّلا معصميه عبارة: "صنع في الولايات المتحدة الأميركية"، فأجاب قائلاً: "أحسست بأنني تعرَّضت للخيانة".

لا يبدو أنَّ الاضطهاد الذي تمارسه أجهزة الدولة في إسرائيل ضد الفلسطينيين والعرب الآخرين، قد خف؛ كما لم تتلاش صورة الإرهاب الإسلامي، المزيَّفة، التي تبقى موجودة بقوة في مبنى الكابيتول؛ كما تبقى موضوعاً متكرّراً في هوليود. فعلى لسان بعض أعلى المقامات الرسمية في البلاد، في أحاديث تدور أثناء رحلات جوية، يتدفق سيل مدمر من عبارات الانحياز ضد المسلمين.

إنها ظاهرة، لا يمكن تحميل مسؤوليتها لجهل صحافيي الولايات المتحدة الأميركية العام بالإسلام وحده. فالمراسلون الصحفيون يملكون معلومات خاطئة

عن الأديان والشعوب والثقافات والتيارات السياسية الأخرى، ولكنّ أيّاً من هذه النقائص لا تثير الأفكار الخاطئة والضغائن إلى درجة يمكن مقارنتها بما تثيره التنميطات المعادية للمسلمين التي تغرق أميركا. إن تأثير هذه الصور النمطيّة في حياة المجتمع المسلم واسع وعميق، وهو يؤذي الشباب والشيوخ، الأغنياء والفقراء، الرجال والنساء؛ يؤذي الناس كافة على مختلف مستويات المهن والثقافة والدخل.

خلال أيام من بداية القرن الحادي والعشرين، اختارت ليلى المراياطي كلمات كئيبة لتستعرض "فيضان الكآبة" الذي يؤلم مسلمي الولايات المتحدة:

"تهديدات الإرهاب الألفي الصادرة عن المتطرفين الإسلاميين الجزائريين؛ وطائرة تهوي بغموض إلى البحر، مع كلمات معروفة مستقاة من الصلاة الإسلامية، يتم تسجيلها في اللحظات الأخيرة من طيرانها؛ وطائرة أخرى يخطفها مسلحون كشميريون؛ وأسلحة الدمار الشامل التي تستخدم ضد المسلمين الشيشانيين. إنها قائمة معروفة جيّداً. إنه بالتأكيد موسم الإحباط والكآبة في المجتمع المسلم، المجتمع الذي رُوِّع بأعمال العنف التي استهدفت المدنيين الأبرياء، والخائف بالدرجة نفسها من ردود فعل غير عقلانية، يمكن أن تعقب مثل هذه الحوادث"[(١)]. أما محمد البنداري، فيعلن أن "المسلمين الأميركيين قلقون إزاء تهديد الإرهاب، تماماً، كأقرانهم الأميركيين"[(٢)].

وعلى خلفية هذا المشهد الكئيب، يرتفع صوت العقل وحيداً وقوياً. إنه صوت دايفيد ووترز الكاتب الديني في نشرة "Commercial Appeal" التي تصدر في ممفيس، بولاية تينيسي. فهو يقدّم تقويماً يدعو إلى الارتياح، فيقول: "عندما نفكّر بالإسلام، في هذه البلاد، نميل إلى تخيّل صور العنف التي تسوقها وسائل الإعلام. ففي استطلاع رأي أجري، مؤخّراً، تبين أن أكثر من نصف الناس، المستطلَعة آراؤهم، اعتقدوا خطأً أن الإسلام يؤيّد الإرهاب. إن جوهر المسيحية

(١) *Religious News Service*, 1-6-2000.

(٢) MSNBC web page, 12-30-1999.

هو السلام والعدل والرحمة؛ وكذلك هو جوهر الإسلام. ولذا، ليس هناك شيء اسمه إرهابي مسلم، ولا إرهابي مسيحي أو حتى إرهابي يهودي"[1].

(١) *Memphis Commercial Appeal*, 8-30-1996.

الفصل الرابع

عامل "طالبان"

قد يخطئ الأميركيون القليلو المعرفة بالإسلام؛ فيظنون أن حكم "طالبان" الذي يسيطر على معظم أفغانستان، ويدعو نفسه إمارة أفغانستان الإسلامية، هو عيِّنة مما ستكون عليه الحكومات ذات الطابع الإسلامي.

ينجم سوء تمثيل حكومة "طالبان" للإسلام عن العوامل التالية: إنَّ كلمة "إسلامية" تظهر في تسميتها الرسمية، ومعظم الأفغان يُنسبون إلى الإسلام، بمن فيهم قادة هذه الحركة؛ وقلَّما انتقدها زعماء المسلمين في الولايات المتحدة علناً لإساءتها استخدام كلمة "الإسلام"؛ والواقع أنه قلما انتقدوها علناً لأي سبب كان، قبل تدمير تمثالي بوذا، فضلاً عن أن تعليقات من احتجُّوا لم تُغَطِّها وسائل الإعلام الرئيسية.

كل هذه العوامل ساهمت في تعزيز الفهم الخاطئ بأن حكومة "طالبان" في أفغانستان هي النوع الذي يود المسلمون إنشاءه في أماكن أخرى من العالم. وهذا تصور يزعج بشكل خاص الأميركيين، الذين يقلقهم كيف يمكن لمسلمي الولايات المتحدة أن يغيروا وجه أميركا إذا ما حازوا سيطرة سياسية.

يصف "طالبان" أنفسهم بأنهم مسلمون، بيد أن انتهاكاتهم لحقوق الإنسان، ولا سيما حقوق المرأة، هي انتهاكات صريحة لتعاليم الإسلام يعمِّقها تقصيرهم في إيقاف الاتجار بالهيروين. وقد اتهمهم أمين عام الأمم المتحدة كوفي أنان في تقرير له في العام ١٩٩٩، "بالقيام بخروق منظَّمة جمَّة لحقوق الإنسان"،

بما فيها "إعدام النساء والأطفال السريع". بَيْدَ أنّ هذا التقرير لم يحظ باهتمام يُذكر(١).

إن تقديم "طالبان" أنفسهم بأنهم حكومة دولة إسلامية يُرخي بظلاله على سمعة مسلمي الولايات المتحدة، والسبب، ببساطة، تصدُّر أخبار هذا النظام النشرات الإخبارية والعناوين الرئيسية للصحف. لقد كان من الحتمي أن تتماهى لدى غير المسلمين ممارساتُ حكومة "طالبان" مع الإسلام، بغضِّ النظر عن مدى تأثير العوامل غير الدينية، مثل العادات الثقافية والواقع الناشئ في منطقة تعيش حالة حرب، في تشكيل هذه السياسات.

يستحق "طالبان" أن يوليهم مسلمو الولايات المتحدة الاهتمام الذي يتوخى النقد، لأن نظامهم ليس ما يدَّعونه. إذ لم يقيموا دولة إسلامية فعلاً، بل إن أيّاً من الدول الإسلامية لم تُقِمها بعدُ، رغم أن عدداً منها يستخدم كلمة "إسلام" أو "إسلامية" في تسميته، مَثَلُهم في ذلك مَثَلُ "طالبان".

كتب مراسل هيئة الإذاعة البريطانية في باكستان رحيم الله يوسافزاي يقول: "لا توجد اليوم دولة واحدة إسلامية تماماً. فالكل "يجرب": "طالبان" والسعوديون والإيرانيون والسودانيون والباكستانيون .. إلخ". ويتنبأ بأنه من المستبعد اتخاذ نظام "طالبان" نموذجاً يقلِّده المسلمون حيثما كانوا في العالم". بيد أن توكيده هذا لا يبدد على الأرجح قلق غير المسلمين في الولايات المتحدة(٢). فقلّة من الأميركيين تستمع بانتظام إلى نشرات أخبار الإذاعة البريطانية، والعديد منهم باتوا قلقين متخوفين من نمو عدد السكان المسلمين في أميركا.

أعتقد أن معظم الأميركيين غير مدركين للروابط المشتركة بين الحكم بالشورى ـ أي إجماع العامة ـ المنصوص عليه في القرآن (الكريم) وبين النظام

---

(١) *USA Today*, 12-29-1999.

(٢) Letter, 9-30-1999.

الدستوري الأميركي. ولا يعرفون أن النظامين يتوافقان ويتكاملان من حيث البنى الديموقراطية. من هنا، ينقادون إلى استنتاج خاطئ مفاده أن أفغانستان التي يحكمها "طالبان" هي فعلاً دولة إسلامية. والجدير ذكره أنَّ جمهورية اليمن، وهي بلد مسلم، قد تكون الأقرب إلى أن تكون دولة إسلامية، بسببٍ من تقدمها المطَّرد نحو إرساء بنيةٍ ديموقراطيةٍ تشبه، إلى حدٍّ مدهش، الحكم الاجتماعي، من الشعب، وبواسطة الشعب، ومن أجل الشعب؛ وهذه غاية الإسلام المعلنة بجلاء.

وباستثناء جمهورية اليمن، يحكم البلدان الإسلامية عادةً الملوك أو الجنرالات أو المستبدون. والنظام اليمني استثناء، إذ إن الشعب ينتخب الرئيس ومجلس النواب مباشرة، بحيث يقوم توازن بينهما، ويكون كل منهما رقيباً على الآخر. إلاَّ أن هذه التطورات نحو قيام حكومة استشارية لا يلحظها أحد خارج حدود اليمن. لقد فهمت الوضع في هذه البلاد عندما قمت بخمس رحلات إليها، وقد قمت بالرحلتين الأولَيَيْن عندما كنت عضواً في الكونغرس.

لم أزر أفغانستان قط، لذا تأتي معلوماتي وفهمي للأوضاع فيها، استناداً إلى آخرين. لقد قمت بتكوين نظرة متوازنة لعامل "طالبان" عبر دراسات وقراءات واسعة، كما تكلَّمت مراراً ومباشرة مع عدة مسلمين ومسلمات يعرفون المجتمع الأفغاني، واستشرت أناساً قابلتهم في أوقات مختلفة خلال مسيرتي الطويلة مع الإسلام.

هناك خمسة رجال كانوا مصادري الرئيسية: أحدهم أندرو پاترسون، الذي كان قد أنهى لتوِّه دراسة عن أفغانستان وتاريخها؛ وثانيهما محمد بشار دوست، وهو طبيب لاجئ من أفغانستان، وجارنا الأقرب خلال سنواتي الأخيرة في الكونغرس. وفي كانون الثاني (يناير) من عام ٢٠٠٠، أرسلت لهذا الأخير رداً على بطاقة تهنئة بالعطلة كانت قد وصلتني منه، وأعلمته أنني أؤلف كتاباً عن مسلمي الولايات المتحدة سيتضمن فصلاً عن أفغانستان. فبدأ يزوِّدني بالمراجع والمصادر والوثائق. لقد أكَّد لي أن لا علاقة له البتة بـ"طالبان" أو غيرها من الحركات السياسية داخل البلاد، لكنه يرغب في مدِّي بفهمٍ صحيحٍ لمعاناة بلده

الأم، ولمساعي إعادة البناء الجارية فيه. حتى إنه عرض تمويل رحلة أقوم بها إلى أفغانستان، بحيث أتعرَّف مباشرة إلى أوضاع الأفغان، وهي دعوة رفضتها بسببٍ من ضيق وقتي. والمصدر الثالث هو سعيد أحمد بط من لاهور، في باكستان، وهو موظف متقاعد في السلك الخارجي، تعرَّفت إليه عندما استأذنني بترجمة كتاب "من يجرؤ على الكلام" إلى اللغة الأردِيَّة ونشره، وقد منحته الإذن. وجعلني تعاملي المطوَّل معه أدرك أنه مراقِبٌ مؤهَّل للقضايا والتيارات الأفغانية. كما ساعدني على الاتصال بمصدرين باكستانيين قيِّمين في الشؤون الأفغانية، وهما: يوسفزاي من الإذاعة البريطانية، وطارق مجيد، وهو كاتب وعميد بحري متقاعد في البحرية الباكستانية.

إنَّ مراسلاتي مع هؤلاء، إلى جانب أبحاثي حول الموضوع، جعلتني أقتنع بأن نظام "طالبان" هو غير إسلامي من وجوهٍ عدةٍ مهمةٍ، على الرغم من الإنجازات التي حقَّقها على صعيد الإعمار.

ورغم شجب الإسلام الشديد للمخدِّرات، يعتمد اقتصاد طالبان والاقتصاد الأفغاني اعتماداً كبيراً على إنتاج الهيروين والأفيون محلياً وتسويقهما في الخارج. وتشكل المخدِّرات أكبرَ مصدرِ دخلٍ من صادرات أفغانستان.

يمنع النظام تعاطي الهيروين محلياً، لكنَّه لا يتخذ إلاَّ خطوات شكلية لإيقاف الإنتاج من أجل التصدير. وطالما كانت النوعية الممتازة للهيروين الأفغاني ذات شهرة أسطورية، فضلاً عن أنَّ إنتاجه مزدهر. ففي عام ١٩٩٧، وبعد أن أحكم "طالبان" قبضتهم على معظم البلاد، ازداد إنتاج أفغانستان من الخشخاش بمعدَّل ٢٥ ٪ أكثر من السنة المنصرمة.

ويصر "طالبان" على أن إنتاج الخشخاش أساسي لبقاء المزارعين الفقراء على قيد الحياة. وانسجاماً مع ذلك، لم يستخدموا قوتهم الأمنية الهائلة لوضع حدّ لتجارة المخدرات. ويفنِّد بيتر مارسدِن في كتابه "طالبان" ذاك التوكيد الحكومي، فيكتب قائلاً: "ادَّعى "طالبان" في أحدث تصريحاتهم أن المزارعين الأفغان مضطرون بسبب من الفقر إلى زرع الخشخاش". لكن الحقيقة، كما

قال، هي أن الفقراء لا ينتفعون إلا عندما يحتاج ملاّكو الأراضي الكبار إلى عمالة يومية لأرضهم، أو عندما يطلبون من المزارعين الصغار مدَّهم بإنتاجهم لتلبية طلبات غير متوقعة من السوق[١]. فالأغنياء الأفغان هم الذين يتحكمون بمعظم إنتاج الخشخاش، وكذلك بتصنيع منتَجاته الجانبية وتصديرها إلى الأسواق الأجنبية.

على صعيد آخر، نجد التمييز ضد النساء، ظاهرة متفشية، قديمة العهد، وتشكل انتهاكاً صارخاً لتعاليم الإسلام. ويورد پاترسون معلومات عن أنَّ "طالبان" بدأوا يضعون موضع التنفيذ في أوائل ١٩٩٩ الأنظمة التالية على سكان "كابول" وغيرها من المناطق الواقعة تحت حكمهم:

- ممنوع على النساء مغادرة بيوتهن إلا برفقة رجل، حتى في حالة طوارئ تتطلب الاستعانة بطبيب أو الانتقال إلى مستشفى.

- ممنوع أن يقوم طبيب بمعالجة النساء إلا نادراً، رغم النقص الحاد في عدد الطبيبات.

- ممنوع عمل المرأة خارج البيت إلا في عدد من أنواع الأعمال يحدِّدها "طالبان".

- على المرأة، عندما تكون خارج بيتها، أن تُرخِيَ برقعاً يحجب وجهها.

- المدارس الحكومية للذكور فقط، فلا وجود لمدارس البنات إلا على الورق.

- يجب على كلِّ الذكور الالتحاء، وإقامة الصلوات الخمس في المسجد يومياً في مواقيتها.

- أجهزة التلفزة محرّمة بموجب القانون.

ويشير پاترسون إلى أن الإسلام لا يفرض أنظمة كهذه أو يوجبها؛ بل إن

(١) Peter Marsden, *The Taliban*, p. 141.

معظمها ينتهك مبادئ حقوق الإنسان التي نص عليها القرآن (الكريم). وقد نشأت هذه الانتهاكات، أساساً، عن تصميم "طالبان" على استبقاء التقاليد اللادينية، التي ازدهرت في أفغانستان قبل زمن من وصول الحكم الحالي إلى السلطة، والتضييق عليها في آن.

في طليعة هذه التقاليد، الهيمنة الذكورية على الحكم وعلى التعليم وعلى التوظيف في القطاع الخاص. وفيما لا يمكن لأيٍّ شيء تبرير اشتراك "طالبان" في تجارة المخدرات أو القيود الثقيلة التي فرضوها على النساء، فلا مناص من الإشارة إلى أنهم يسيطرون على بلاد يُعتبر الجفاف والقسوة الطابع المميز لظروفها الاقتصادية، ولحيّز كبير من تاريخها، ولتضاريسها الجغرافية أيضاً. ويصف باترسون أفغانستان جغرافياً بأنها واحدة من أكثر البلدان انعزالاً وبعداً وجبالاً في العالم:

"لقد عانى أفراد شعبها الأمرَّين عبر التاريخ، وتحمَّلوا ظروفاً معيشية صعبة. كما تعرَّضوا أحياناً للمذابح الوحشية، ومراراً لاعتداءات عسكرية، فيما كانت خريطة البلاد السياسية تتغيَّر. وفي القرن الثالث عشر، أنشأ "هولاكو"، حفيد "جنكيزخان"، جيشاً جرَّد معظم المناطق من أهلها، وذبح مئات الآلاف منهم، ودمَّر مدناً ونُظُم ريّ مُتقنة، تدميراً كاملاً".

"ولطالما شكَّلت أفغانستان المحاطة بالبرّ، وبجيران يختلفون عنها حضارةً وديانةً، تقاطع طرق لغزوات عسكرية دموية متكرِّرة. لقد ظلَّت سنين طويلة تحت الحكم الفارسي، ثم غزاها البريطانيون. وخلال السبعينات تعاظم فيها النفوذ السوفياتي".

"تتألف حركة "طالبان" من شبان ملتزمين، أفظاظ، عددهم عشرون ألفاً على الأكثر، قضى معظمهم فترة الصبا لاجئين في شمالي باكستان، خلال سنوات احتلال القوات السوفياتية معظم أفغانستان. وقد درسوا في مدارس دينية أنشأها البريطانيون في بيشاور قبل أن تصبح باكستان دولة مستقلة؛ وهناك كانوا يقضون السنوات الستَّ الأولى من دراستهم في التعليم الأساسي، تعقبها سنتان

من التأهيل الذي كان يشمل التلقين الإيديولوجي، المسؤول عن تنمية التعصّب حيال كل من يدينون بديانات أو قوميات مختلفة، ما يشكّل انحرافاً عن المعايير الإسلامية. أما السنتان الأخيرتان في تلك المدارس، فكانتا مخصّصتين للتدريب العسكري".

كانت الفكرة التربوية الرئيسية، في تلك الفترة، فكرة أملتها سياسة "فرِّقْ تَسُدْ". وقد عرض لها باترسون بقوله: "لقد قصد البريطانيون من وراء إنشاء هذه المدارس تنمية العداوات الطائفية بين أتباع الديانات المختلفة وتغذيتها. كانت غايتهم إيجاد نزاع يساعدهم على تبرير الهيمنة البريطانية الكلية على الهند، التي كانت تشمل آنذاك باكستان المعروفة اليوم. ومن أهدافهم الرئيسية تغذية العداوة وانعدام الثقة بين المسلمين والهندوس. وقد أنشأوا المدارس في المنطقة التي أصبحت فيما بعد باكستان، حيث كان يتلقّن الطلبة المسلمون ما ينمّي تعصّبهم حيال الهندوس، كما أنشأوا مدارس في مناطق أخرى حيث كان يتلقّن الطلبة الهندوس ما ينمّي عدم ثقتهم بالمسلمين".

وأشار "باترسون" إلى التغيُّر الذي حصل في التوجُّه إثر غزو السوفيات لأفغانستان، حين أصبح الشبان اللاجئون الأفغان الفئة الغالبة في مدارس بيشاور، فقال:

"لقد أُسقِط محور المعاداة للهندوس من روزنامة التلقين العقائدي، واستبدلت به تعاليم العداء للغزاة السوفيات وللمتعاملين معهم من الأفغان"[١].

أتى التغيير في محله تماماً. فقد قامت القوات السوفياتية باعتداءات وحشية في طول البلاد وعرضها، بما فيها المناطق الريفية، خاصة ضد القياديين المسلمين والمؤسسات الإسلامية. ولا يدرك الغرب مدى الخراب الهائل والتدمير اللذين لحقا بالممتلكات، مما يعود جزئياً إلى الحظر الذي فرضته وكالة الاستخبارت الأميركية على وجود وسائل الإعلام الرئيسية، وتغطية الأخبار من مواقعها. لقد كانت المذابح التي ارتكبت في أفغانستان ضد شعبها

(١) Interview, 8-7-2000.

أكبر بكثير من المذابح، التي حصلت في أوائل التسعينات وأواخرها، على أيدي القوات الصربية ضد مسلمي كوسوفو والبوسنة في يوغوسلافيا، والتي حظيت بتغطية إعلامية جيدة.

يقدِّر الصحافي بروس ريتشاردسون أن مليوني أفغاني، معظمهم مدنيون من المناطق الريفية، قد قتلوا على أيدي السوفيات خلال العقد الذي احتلوا فيه البلاد، وأصبح ٧٥٠٠٠٠ مدني آخر تقريباً معوقين، إذ كانوا ضحية انفجارات الألغام الأرضية؛ وسوِّي بالأرض مليون بيت ريفي وأحد عشر ألف قرية، مع عدد مماثل من المساجد، وزهاء ثلاثة آلاف مدرسة ابتدائية؛ كما نفق أكثر من مِائة وسبعين ألف جواد وخمسة عشر مليون رأس من الغنم والماعز، وزهاء مليوني رأس من الأبقار.

لقد اتبع السوفيات إحدى طريقتين لتدمير قريةٍ ما وتقتيل سكانها: إما أن تُشَنَّ غارة جوية عنيفة، ثم تقوم الطوافات السوفياتية بالتحويم فوق المكان وتستعمل رشاشاتها لقتل الهاربين من بين الركام؛ أو تقوم المدفعية السوفياتية وقاذفات الصواريخ بقصف كل الأبنية وتدميرها، ثم تجتاح المنطقة القوات السوفياتية وقوات جمهورية أفغانستان الديموقراطية ـ نظام الحكم الذي يديره السوفيات ـ وتقتل كل من بقي حياً من القرويين بين الخرائب؛ ثم تُسَمِّم الآبار، وتُفَخِّخ الجثث، وتزرع الألغام في الأهراء، لتضمن قتل أو جرح كل من يحاول دفن الموتى أو الحصول على شيء من المحاصيل النادر وجودها[1].

من جهته، يعتقد سعيد أحمد بط أن العقيدة الدينية اضطلعت بدور رئيسي في المقاومة الأفغانية، إذ يقول:

"من المحتمل أن يرد الشعب الأميركي الفضل كله للمعدات العسكرية التي أمَّنتها حكومته (للمقاومة). لكنه يتناسى حقيقة مهمة، وهي أن الولايات المتحدة ظلت على مدى سنتين ونصف السنة تمتنع تماماً عن إرسال الأسلحة، بل لم تعلن أي التزام بالمساعدة من قِبَلِها. فاستولى الأفغان على الدبابات وبطاريات

(١) Interview, 8-7-2000.

المدافع السوفياتية، وعلى ملايين من الألغام، إلى جانب انتصارهم على قوات حكومة كابول الشيوعية، مستندين في ذلك فقط إلى إيمانهم القوي بالله، وإلى عقيدتهم السامية.

"ويكاد يكون من المستحيل على الصحفيين الغربيين أن يفهموا الروحية التي تسيِّر المقاتلين الأفغان. وكيف يمكنهم ذلك ؟ فلو كان لدى الشعب الأفغاني القيم الاجتماعية نفسها والسلوك الجماعي الذي يعتبره المراقبون الغربيون طبيعياً، لما نجحوا قط في تحمل الغزو السوفياتي على مدى عشر سنواتٍ طوالٍ، ولما استطاعوا، في النهاية، إجبار القوات السوفياتية على الانسحاب. إن هناك ما غذَّاهم، ودعم صمودهم خلال تلك المعاناة الفظيعة"[١].

وبعد أن وقفت حكومة الولايات المتحدة حوالى ثلاث سنوات على الحياد، قرَّرت أن تساعد في القتال ضد الاحتلال السوفياتي، وذلك بتقديم المال والذخيرة وتأمين التدريب العسكري. كان أسامة بن لادن قد اتخذ لنفسه، آنذاك، دوراً بارزاً، سواء كمهندس إنشاءات مدنية أم كمقاتل. وما إن طُرِد السوفيات من أفغانستان حتى حمل بن لادن معداته الثقيلة وفريق عمله إلى السودان، حيث نال الثناء على إطلاقه بناء أوتوستراد من ٨٠٠ ميل يربط الخرطوم بـ بور سودان وعطبرة.

وبعد مغادرته السودان، حوَّل نيرانه السياسية ضد إسرائيل وحليفها الأقرب حكومة الولايات المتحدة. وقد انتقد إسرائيل بسبب من استمرار سوء معاملتها للفلسطينيين، وانتقد حكومة الولايات المتحدة على أنها شريكتها في جريمة الظلم هذه. وقد عارض استمرار الوجود العسكري للقوات الأميركية في منطقة الخليج العربي. وكذلك وجود القوات البريطانية، التي كانت القوة الإمبريالية المهيمنة بالأمس على المنطقة، ولا سيما تلك القوات المتمركزة في السعودية التي تضم أراضيها أقدس مقدَّسات المسلمين في مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة).

---

(١) Saeed Ahmed Butt, letter, 8-31-1999.

وأتت ردة الفعل من الرسميين الأميركيين عبر اتهامه باستخدام المخيمات في أفغانستان لتدريب الإرهابيين للقيام بعمليات حول العالم. وأكّدوا أنه هو وبعض الذين درَّبهم متورطون بعملية تفجير سفارتي الولايات المتحدة في كلٍّ من تنزانيا وكينيا في العام ١٩٩٨.

وفي ضوء المساعدة المهمة التي قدَّمها بن لادن في إخراج الغزاة السوفيات، منحه "طالبان" الملاذ. والأرجح أنه سيظل يعتبر بطلاً في أفغانستان. يؤكد رحيم الله يوسفزاي ذلك: "إن الولايات المتحدة جعلت من أسامة بن لادن بطلاً في عالم المسلمين، وكلّما ركَّزت الضوء عليه كبُر حجماً وأهمية"[١].

يبدو أن بن لادن لم يقم بدور بارز خلال الفترة العاصفة التي أعقبت طرد الغزاة السوفيات. فالبلاد التي ساعد على إنقاذها غرقت في الفوضى. وتحوَّلت عصابات من المجاهدين المسلمين، الذين نجحوا في طرد الغزاة، إلى أمراء حرب مستقلين؛ وانخرطوا في قتال داخلي بينهم من أجل السلطة.

وبمساندة من باكستان والولايات المتحدة، تشكَّل ائتلاف من خمسة فصائل، لكنه سرعان ما تداعى. كان المؤلف بروس ريتشاردسون يجوب أنحاء أفغانستان آنذاك، حيث لقي "فساداً هائلاً".

وخلال هذه الفترة العاصفة من تاريخ البلاد، دعمت الولايات المتحدة والسعودية وباكستان "طالبان" ليحكموا سيطرتهم السياسية على مناطق المدن وعلى قسم كبير من الريف. وما إن تسلَّموا سُدَّة الحكم حتى فرضوا النظام عبر مصادرة كل الأسلحة الفردية، وعبر تطبيق نظام متشدَّد.

هنا تختلف آراء الصحفيين الغربيين حول نتائج ما حصل. لقد جاب ريتشاردسون البلاد طولاً وعرضاً، ولاحظ "غياب الفساد والجريمة في المدن؛ أما في الأرياف، فليس هناك إساءة معاملة للسكان بمن فيهم النساء"[٢]. إلاَّ أنَّ

(١) Letter, 10-30-1999.

(٢) Interview, 7-6-1999.

صحافياً بريطانياً هو بيتر مارسدِن، قام بجولة خلال الشهور الأولى من حكم "طالبان"، فوجد مشاعر الأفغانيين منقسمة حيال سلوك الحكم الجديد؛ ذلك أن "طالبان" قد ظهروا على الساحة كمجاهدين، واستولوا على معظم البلاد عبر اندفاع شبان مستعدين للاستشهاد في سبيل القضية. لكنهم، من وجهة نظر غربية، ومن وجهة نظر معظم المسلمين، سلكوا مسلكاً متطرفاً مضطهداً للنساء بإجبارهن على الانعزال عن المجتمع". وعبَّر مارسدِن عن "درجة من التعاطف والتفهم" عندما عزا ذلك إلى "إرهاق الأفغان من استمرار القتال وخيبة أملهم بقادة المقاومة الذين فشلوا في أن يتحدوا ليؤلفوا حكومة مستقرة"(١).

ومؤخراً جابت باميلا كونستابل، مراسلة صحيفة "واشنطن بوست"، أفغانستان، فوجدت أن "طالبان" "قد أحدثوا تغييرات إيجابية.. فبعد سنين من الاضطرابات، تولّد اليوم إحساس بالأمان في المنطقة التي اعتمد مصيرها يوماً على ما يتكرَّم به أمراء الحرب وعلى قوَّتهم وتحالفاتهم المتذبذبة..."(٢).

وسجَّل باترسون أن حماس الأفغان حيال "طالبان" لم يستمر طويلاً. "ففي البداية رحَّب بهم الأفغان الذين استهلكتهم الحرب، لكن الانفعالات ثارت عندما فرضوا قيوداً قاسية تنمّ عن التعصّب، وكانت انعكاساً لما تلقّنوه في بيشاور. لقد أقاموا حكماً أوتوقراطياً لا هوادة فيه، ولم يتَّبعوا المبادئ الديموقراطية التي نصَّ عليها القرآن (الكريم)؛ كما هضموا حقوق النساء التي تضمَنُها الشريعة الإسلامية".

لم تُلْقِ وسائل الإعلام الأميركية الرئيسية بالاً إلى انتقادات المسلمين لـ"طالبان"، لكن هذا النقص في ما نشر أو بثّ من احتجاجات ليس دليلاً أبداً على موافقة المسلمين الأميركيين على تصرفاتهم، أو على عدم اهتمامهم بها. إن بعض الشخصيات القيادية المسلمة الأميركية قد أدانت قوانين "طالبان" القمعية،

---

(١) Peter Marsden, *The Taliban,War, Religion and the New Order in Afghanistan* pp. 57, 148.

(٢) *Washington Post*, 5-21-1999, p. A23.

وشجبت خرقهم حقوق الإنسان، والصورة التي يقدمها نظامهم عن نفسه على أنه دولة إسلامية حقَّة.

أدلت ليلى المراياطي بتصريح في كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩٩٨، وزَّعته "وكالة الأنباء الدينية" أدانت فيه "طالبان" "بسبب فرضهم الفصل بين الجنسين على حساب حاجات النساء" ومنعهم "معاينة الأطباء للأفغانيات، خاصة في ظل قلة عدد الطبيبات". واتهمت "طالبان" "بمناقضة القرآن" بمنعهم النساء من العمل في الأماكن العامة.

وكتبت تقول: "على كل حكم يدّعي تطبيق الشريعة أن يدرك أن غايتها الأساسية هي ضمان خمسة حقوق واسعة لكل مواطن تشمل كل نواحي السعي الإنساني، ألاَ وهي: حقوق الحياة والفكر والعائلة والملكية والدين. وعندما منعت قيادة "طالبان" المرأة الأفغانية من التمتُّع بهذه الحقوق فضحوا جهلهم للإسلام... إن سياساتهم القمعية ستستمر طالما أنهم لا يدركون، هم وغيرهم ممن يشاطرونهم آراءهم، ما في القرآن من تسامح ومساواة".

وقد أدانت المراياطي سياسات "طالبان" على أنها "انتهاك صريح لأسس العقيدة الإسلامية... لقد فرضوا إجراءات قاسية على الأفغان عامة، وعلى الأفغانيات خاصةً، باسم الإسلام". وقد شجبت تطبيق "طالبان" للعقوبات الجسدية دون محاكمة قانونية، مناشدةً القادة الأفغان وغيرهم من قادة المسلمين أن "ينظروا في عمق الإسلام نفسه"، بدلاً من أن يروه عبر منظار مشوّه دنيويٍّ، لاديني.

أما الطبيب حسان حتحوت، زعيم "المركز الإسلامي لجنوبي كاليفورنيا" (ICSC) فيشك في ما يدَّعيه "طالبان" من تطابق حكمهم مع الإسلام. يقول: "من الواضح أن براعتهم العسكرية تفوق معرفتهم للإسلام. وعندما حاربوا الروس تربَّعوا في قلوبنا، وعلَّقنا عليهم آمالاً كبيرة. لكن أحلامنا تبدَّدت حينما بدأوا يتقاتلون بُعَيْد انتصارهم. والآن، "طالبان" منتصرون، لكن الإسلام قطعاً لم ينتصر؛ فهو يتطلَّب منهم بلسمة الجراح، وبناء بلادهم، وغسل القلوب من

الحقد والضغينة؛ فَهُمَا، كما قال النبي عليه السلام بما معناه، كالمُوسَى التي لا تقطع الشعر، بل تقطع دابِرَ الدين".

ويضيف حتحوت الذي ألَّف مؤخراً كتاباً عنوانه "قراءة في تفكير المسلم" (Reading the Muslim Mind): "إن قمع النساء خرق صريح لتعاليم القرآن الكريم ولسنَّة النبي محمد عليه السلام وللسلف الصالح... والآن نشهد [في أفغانستان] [حملة] الهراوات بعباءات رجال الدين، يكمّون الفتاة ـ الطفلة... ونشعر أن من واجبنا الدفاع عن ديننا، وعن سمعته التي غالباً ما يُلطِّخها الإعلام الغربي؛ بيد أننا هنا، للأسف، ندافع عنهما ضد مسلمين لم يجدوا من ينصحهم ويوجِّههم توجيهاً صحيحاً.. ففي بعض الأماكن من العالم الإسلامي، تتعرَّض النساء للقمع، [كما يتعرَّض الرجال أيضاً]، ويحرمن الحقوق الإسلامية الأساسية، لكن أيّاً منها لا يوازي القرارات الأخيرة التي اتخذها "طالبان" على مشارف القرن الحادي والعشرين".

ويضيف حتحوت بمرارة: "لقد قللوا، الآن، من شأن تضحية مليون أفغاني استُشهدوا في مجابهة العدوان السوفياتي. فقد تراجعت قصة تضحياتهم، وحلت محلها نيران الحرب بين الإخوة، والإذلال الذي يمارسه البوليس الديني"[(١)].

وفي خطبة ألقاها الإمام موسى قطب رئيس "مركز المعلومات الإسلامي في أميركا، ومقرّه شيكاغو، نَعَتَ "طالبان" بأنهم "ينحرفون عن التيار الإسلامي العام"[(٢)].

أدَّت القيود التي فرضها "طالبان" إلى إطلاق سلسلة احتجاجات في الغرب. وعندما ظهر تقرير جاء فيه أنهم أمروا كل الرجال بإطلاق لحاهم، وهو تقرير يتشكك محمد بشار دوست في صحته، غضب الدكتور إسلام عبد الله، رئيس تحرير مجلة "Minaret" الشهرية المخصصة لجماعة المسلمين، إلى درجة أنه عمَدَ إلى حلق لحيته المشذَّبة بعناية احتجاجاً. وبعد أسابيع، غيَّر رأيه، حين

---

(١) News release, *Muslim Public Affairs Council*, 7-99.

(٢) Letter, 10-8-1999.

حصل عدوان وحشي على مسلمي كوسوفو، فأطلق لحيته تعبيراً عن التعاطف مع شعبها.

ويعتبر باترسون ممارسات طالبان إحراجاً للدين الإسلامي. "فأنا منزعج للغاية من تفسيرهم للإسلام، وأتَّجه إلى إنهاء أحد كتبي بالعبارة التالية، المستقاة من فيلم قديم: "الله يستخدم الطيبين، أما الأشرار فيستغلُّون اسم الله".

وقد لفتت أنظار الرأي العام الاحتجاجات التي أطلقتها حركة "الأغلبية النسائية"، بمساعدة الصحافية ابيغال فان بورين، محررة باب "عزيزتي آبي"، الشهير. فعندما نشرت فان بورين رسالة عن قمع "طالبان" للنساء في ٢٦ شباط (فبراير) من عام ١٩٩٩، انهمرت ردود من ٤٥٠٠٠ شخص. وقامت مافيس نيكولسون لينو، زوجة مضيف برنامج "Tonight Show" الذي تبثّه شبكة "NBC"، بترؤس حملة ضد "التمييز الجنسي في أفغانستان"، وساهمت بمبلغ ١٠٠٠٠٠ دولار للقضية.

وفي باب "عزيزتي آبي"، نشرت لينو في الثاني عشر من تموز (يوليو) عام ١٩٩٩ نتائج تجاوزت، في أهميتها، سيل المكالمات الهاتفية، إذْ تلقّت تأييداً للحملة من الرئيس كلينتون، ودعماً من الحزبين في الكونغرس، ورُتِّبت لها لقاءات مع كبار موظفي الأمم المتحدة. وفي الباب نفسه، نقلت، عن رسالة من امرأة في كابول، قولها: "كم أتمنى لو أستطيع غمرَك بالأزهار لأعبِّر لك عن مدى امتناني لكِ، لكني لا أستطيع أن أهديك من سجني هذا سوى قطراتٍ من دموعي". وفي العاشر من أيلول (سبتمبر) من العام نفسه، نشرت في هذا الباب رسالة مُغفَلة من مسلم يقيم في نيوجيرسي جاء فيها: "من الزِّيف بمكان أن نردَّ قمع المرأة في أفغانستان أو في غيرها من البلدان الإسلامية إلى تعاليم الإسلام. والحق أن القرارات التحريرية التي صدرت عن النبي محمد ﷺ أعطت النساء مكانة مشرّفة ومحترمة في بلاد العرب في القرن السابع الميلادي. فمثلاً، خلال المعارك التي جرت في صدر الإسلام، عملت النساء في ميدان المعركة في مداواة الجرحى ومؤاساتهم؛ أي أنهنَّ لم يُعزَلن ولم يُنبذن".

أما المراقبون للساحة الأفغانية، عن كثب، فيقدِّمون تقويمات متناقضة. يقول العميد البحري طارق مجيد: إن " إيلاء النساء حمايةً وتكريماً خاصَّين، ومرافقتهنَّ عندما يخرجن من بيوتهنَّ، وخصوصاً في الليل، وتشجيعهنَّ على أن يتطبَّبن لدى طبيبات، وفصلهُنَّ عن الرجال في المؤسسات الأكاديمية: كل هذه ممارساتٌ معروفة في المجتمع الإسلامي، وكانت البلدان الغربية تتَّبعها قبل الحرب العالمية الأولى، بما فيها الولايات المتحدة الأميركية. فهل بمقدور أحدٍ وصف مجتمع الدول الغربية، آنذاك، بأنه كان متخلفاً وبدائياً؟".

ويجد طارق مجيد "أن النساء تعرَّضن خلال السنوات الماضية للمبالغة في حمايتهنَّ، بحيث حُرمنَ بعض الحقوق الأساسية التي منحهنَّ إياها الإسلام، ومردُّ ذلك إلى عوامل قبليَّة وتعليمية وتاريخية وجغرافية في بعض الدول المسلمة، وفي مناطق من دول أخرى. وكتب يقول: وأفغانستان كانت إحداها. ولكن منذ عهد قريب، بدأ القادة الأفغان بإعادة حقوقهنَّ إليهنَّ، كحقَّي العمل والتعليم. لكن "القوانين المفروضة بالقوة" ليست ميزة تخص "طالبان" فقط، فالقوانين نفسها مفروضة في الأقاليم الأفغانية التي ظلت تحت سيطرة المعارضة، باستثناء قانون أو اثنين على علاقةٍ بالتعليم".

إلاَّ أنه ينتقد النظام الأفغاني بحدَّة، فـ"طالبان" يحطُّون من قدْر المفاهيم والقيم والممارسات الإسلامية ويسَخِّفونها. ويضرب مثلاً قرارهم "الخبيث" بتسمية إذاعتهم الحكومية "راديو الشريعة"، إذ يرى في ذلك تحقيراً للشريعة، وهي صلب القانون الإسلامي. كما يحتجُّ على تسمية زعيمهم نفسه بـ"أمير المؤمنين"، وهو لقب اختص به تاريخياً رأس الأمة الإسلامية جمعاء"[1].

ويلحظ يوسفزاي أنَّ "الإعلام الغربي نادراً ما ينقل إنجازات "طالبان" كنزع سلاح السكان في بلاد لا قانون فيها، غارقةٍ في الأسلحة والذخائر؛ وكذلك إزالة الحواجز ونقاط التفتيش، وحماية الناس وكراماتهم في المناطق الواقعة تحت سيطرتهم؛ وأخيراً إعادة توحيد ٩٠ ٪ تقريباً من الأراضي الأفغانية تحت

(١) Letter, 9-24-1999.

سلطة واحدة، بعد أن كانت تتنازع السلطة عليها جماعات مسلَّحة متعدِّدة من الميليشيات التي أقامت إقطاعيات خاصة، ونشرت الرعب في كل مكان، جماعات حكمت بالقوة وحدها؛ أما دعوى "طالبان"، فلا ترتكز على القوة وحدها".

ويشرح صعود "طالبان" السريع إلى سدَّة الحكم قائلاً: "فشل المجاهدون الأفغان الذين سبقوهم في إحلال السلام أو في تطبيق الشريعة الإسلامية، بعد نجاحهم في محاربة الاحتلال السوفياتي ونظام كابول المدعوم من موسكو. وقد رحَّبت بهم الجماهير التي لم تعد تطيق المجاهدين وتريد التخلُّص منهم. هذا يفسر سبب تحقيق "طالبان" معظم انتصاراتهم دون قتال فعلي".

ويورد ان طالبان خففوا، الآن، من صرامة القيود التي فرضوها، ولكنهم احتفظوا بالقيود التي تعتبر عادية: "فيزداد خروج النساء من بيوتهنَّ، مع وجوب ارتدائهِنَّ البراقع؛ كما يسمح لهنَّ بالتطبُّب لدى الطبيب عند الحاجة. لقد كان من عاداتهم وتراثهم القبلي على مدى قرون حماية "عرض" المرأة ولبس العمامة وإطلاق اللحى وسيطرة الرجال وإقامة الشعائر الدينية. ولا حاجة تقريباً إلى فرض هذه القوانين في الريف الأفغاني، فالناس هناك يطبقونها بصورة عادية. وحدَها النخبة التي حظيت بثقافة غربية في كابول أحسَّت بلسعة هذه القوانين الطالبانية"(١).

وفي أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٩٩، أعلن الناطق الرسمي باسم "طالبان" وكيل أحمد متوكل أن الإنفاق على التسلُّح لم يترك شيئاً تقريباً، للصحة والتعليم. واستشرف المستقبل قائلاً: "ننوي وضع برنامج تعليمي للجنسين"، لكنه أكَّد أنَّ أيّاً من المؤسسات المزمَع إنشاؤها لن تكون مختلطة(٢).

وفي كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩٩٩، حصلت حركة "طالبان" على ثناء العالم لتعاملها مع أزمة قيام مقاتلين كشميريين بقتل مسافر، والاحتفاظ

---

(١) Letter, 10-30-1999.

(٢) AFP News Agency, 9-14-1999.

بمِائة وخمسة وخمسين آخرين رهائن على متن طائرة تابعة للخطوط الجوية الهندية، طوال ثمانية أيام في مطار أفغاني. في بادئ الأمر، طالب المسلَّحون الهندَ بدفع فدية مقدارها مِائتا مليون دولار، وإطلاق سراح ستة وثلاثين من رفاقهم المسجونين لديها، ونبش جثة آخر وإعادتها إلى الكشميريين.

وعندما لفت مفاوض "طالبان" نظر الخاطفين إلى أن "مجمل عملية الخطف والاحتفاظ برهائن من أجل الفدية ونبش الجثث هو ضد تعاليم الإسلام"، أسقط هؤلاء مطالبهم الخاصة بالفدية ونبش الجثة[1]. وبعد المزيد من المفاوضات مع زعماء الحركة، أنهى الخاطفون العملية، بعد أن وافقت الحكومة الهندية على إطلاق سراح زعيم مسلم واحد. وكجزءٍ من الصفقة، شيَّعَ رسمِيّو "طالبان" الخاطفين إلى منطقة جبلية من أفغانستان لم يُكشف النقاب عنها، حيث أطلق سراحهم. وفي كانون الثاني (يناير) من عام ٢٠٠٠، اتخذ نظام "طالبان" خطوة أخرى نحو تحسين صورته العالمية، حين وجَّه دعوة لمحطة "CNN" التلفزيونية لإقامة مكتب ثابت لها في كابول، كما منح "BBC" حق تغطية إعلامية أوسع لمنطقة الأرياف.

ويعبِّر محمد بشاردوست عن تفاؤله بالمستقبل: "فبعد عقود من الحرب وسفك الدماء والخطف والسلب والنهب، أضحى رجال أفغانستان ونساؤها متعطشين لشخصية أو لمجموعة أو مؤسسة تسترجع لهم السلام والأمن والاستقرار. فهم يقدِّرون أهمية الوحدة والأمن والسلام ونزع السلاح. ويُكبِرون "طالبان" الذين حقَّقوا هذه المنجزات، لكنهم كانوا سيهلِّلون لأيِّ مجموعة أو أمة أو مؤسسة دولية تقوم بذلك. فهم يعرفون أنه لا يمكن إعادة بناء أمة مزَّقتها الحرب، وإعادتها إلى التيار العام العالمي بين ليلة وضحاها".

ويأمل بشاردوست أن تأخذ الولايات المتحدة زمام المبادرة إلى إقامة "حوارٍ بنَّاء" مع "طالبان"، وتحثّ على إنهاء العقوبات ضد أفغانستان. ويدافع

(١) Amir Zia, Kandahar, Afghanistan, AP dispatch, 12-30-1999.

عن الحماية التقليدية للنساء كما هي في الثقافة الأفغانية. فكلمة "الناموس" كلمةٌ عزيزة على الأفغانيين، وتمثّل منتهى الاحترام والتكريم اللذين يقدمهما الرجل الأفغاني للمرأة الأفغانية [١].

لكن من الصعب أن نَشْتَمّ الاحترام والتكريم في سياسات حكومة "طالبان" بشأن تعليم النساء وعملهنّ. ففي تموز (يوليو) عام ٢٠٠٠، منعت الحكومة برنامجاً لعمل النساء في البيوت، وسجنت المسؤولات عنه. كان هذا البرنامج مموّلاً من منظمة تُدعى "دعم أفغانستان بالمعالجة الفيزيائية وإعادة التأهيل" ومركزها أريزونا. وقد وضع أصلاً لزيادة مدخول النساء المفروض عليهن الإقامة في بيوتهنّ. وقد سُجنت مديرة البرنامج ماري ماكماكين، وطاقمها المساعد، أربعة أيام[٢].

لقد أهمل تعليم الأفغانيات منذ فترة طويلة: إذ يبلغ معدّل من يقرأون ويكتبون بين الرجال ٣٣ ٪، في حين لا تكاد تصل هذه النسبة إلى ٥ ٪ بين النساء، وربما كانت أقل. ويشير ذلك إلى أن النساء، رغم "الناموس"، قد عانين التمييز في مجال التعليم قبل زمن طويل من وصول "طالبان" إلى السلطة[٣].

يدرك بشاردوست مدى الحاجة إلى حصول تغيُّر ما. فيكتب أن لدى "طالبان" القدرة على "الإصلاح من الداخل"، ويتنبّأ لي بأنه "متأكد أنّ تغيُّراتٍ ستكون قد حصلت في سياسة الحكومة، في الوقت الذي ستنشر فيه كتابك، مما سيخلق صورة أفضل عن أفغانستان، بما فيها وضع النساء. دعني أَقُلْ لك: لا يمكن تجاهل تعليم النساء إلى الأبد. وينطبق ذلك أيضاً على المسائل الأخرى"[٤]. وفي مستهلِّ عام ٢٠٠١، تحقَّقت جزئيّا نبوءة بشاردوست

---

(١) Letter, 4-16-1999.

(٢) *USA Today*, 7-13-2000, p. 8A.

(٣) Letter, 8-1-99; and *Afghanistan in Pictures* (Lerner Publications, 1990), p. 47.

(٤) Letter, 8-15-2000.

عندما لحظت لجنة تحقيق تابعة للأمم المتحدة تراجعاً حاداً في إنتاج أفغانستان من الخشخاش(١).

وكتب لي سعيد أحمد بط من باكستان، يقول: "فلتتذكرْ أن الأفغان فقدوا أكثر من مليون نسمة، خلال ذلك الصراع الملحمي غير المتكافئ مع الاتحاد السوفياتي. واضطر أكثر من خمسة ملايين للجوء إلى الدول المجاورة، والعيش في ظروف مزرية أكثر من عشر سنوات"(٢). وهناك من يقدِّر عدد القتلى بأكثر من مليونين. ويشير أحمد بط إلى الفصل بين الجنسين في المدارس والمستشفيات والعيادات، وإلى وضع الحجاب (القناع) على وجوه النساء، وفرض إطلاق اللِّحى، ومرافقة الرجال للنساء عند خروجهنَّ من بيوتهنَّ على أنها تقاليد؛ وقد جرى التواضع عليها قبل وقت طويل من وصول "طالبان" إلى السلطة، بل إنَّ بعضها يعود إلى ما قبل ظهور الإسلام(٣).

بيْد أن هذه الممارسات مفروضة من الحكومة، بغضِّ النظر عن كونها نابعةً من الدين أو من العادات والتقاليد، أو من الصراع الأهلي؛ أي لا خيار فيها للفرد أو للعائلة. ولا أثرَ لما نصَّ عليه الإسلام من الحكومة الفضلى التي تحكم بالشورى والإجماع اللذين يحميان حقوق الناس وكراماتهم على حدٍّ سواء.

يستحق المقاتلون الأفغان في سبيل الحرية الثناء المطلق على بسالتهم الاستثنائية، التي قلَّ نظيرها في طرد الغزاة السوفيات وعملائهم من الأفغان؛ كما يستحق الأفغان، جميعاً، العطف الدولي لأنهم يدأبون على مجابهة مختلف التحديات في الفوضى، التي نجمت عن ذلك الصراع المستمر منذ عشر سنوات.

وصل الكفاح إلى ذروته في أواخر عام ٢٠٠٠، مع انتشار المجاعة على نطاق واسع. وفي آذار (مارس) من عام ٢٠٠١، حذَّرت الأمم المتحدة من أن

(١) *Journal Courier*, 2-16-2000, Jacksonville, IL, AP dispatch, p. 10.

(٢) Letter, 8-31-1999.

(٣) Ibid.

أكثر من مليون أفغاني يواجهون مجاعة وشيكة إثر ثلاث سنوات متتالية من الجفاف. ومن سخرية الأمور أن المنظمة نفسها، أي الأمم المتحدة، زادت المعاناة عذاباً بفرضها، في الوقت نفسه، عقوبات اقتصادية قاسية على الأمة الأفغانية جمعاء، نزولاً عند رغبة الولايات المتحدة. وذلك لأن طالبان رفضوا تسليم أسامة بن لادن من ملجئه الآمن في أفغانستان. كان مطلوباً من السلطات الأميركية بتهمة الإرهاب. وعلّق أحد قادة "طالبان" في "مدينة هراة"، على ذلك قائلاً: "لا نفهم لماذا يقتل الأميركيون الشعب الأفغاني بهذه العقوبات، لمجرد القبض على رجل واحد: أسامة بن لادن"[١].

يبدو أن الغرباء لا يدركون أن بن لادن هو أحد أَجَلِّ أبطال الأفغان، وكان له دور شبيه بدور المركيز لافاييت الفرنسي الذي قاتل إلى جانب الثوار خلال الحرب الثورية الأميركية. لقد انخرط بن لادن في معركة لطرد السوفيات قبل وقت طويل من تحرّك الولايات المتحدة.

وازداد المشهد غرابة في شباط (فبراير) من عام ٢٠٠١. فقد عمّ الاستياء معظم البلدان، عندما أمرت "طالبان" بتدمير تمثالي بوذا العملاقين المحفورين في الصخر قبل زمن طويل من ظهور الإسلام. وتُعَدُّ أفغانستان أحد المواقع الأولى للديانة البوذية. وللتمثالين قيمة تاريخية لا تُضاهى في علم الآثار. واندلعت الاحتجاجات في كل مكان، وأسف القادة المسلمون في البلدان الأخرى لقرار "طالبان"، مؤكدِّين أنه، وإن كان الإسلام يعارض تصوير شخصياته الدينية ويعارض عبادة الأصنام، ولكنَّه لا يصفح أبداً عن تدمير رموز الديانات الأخرى.

تُثبتُ الجلبة التي حصلت بشأن التمثالين، مرةً ثانية، أن لا حقَّ لـ"طالبان" في تسمية حكمهم بالدولة الإسلامية. لكن الحسم بشأن العقوبات الدولية يبرهن، هو الآخر، عن مدى جهل المجموعة الدولية ونفاقها وقسوتها. فتدمير تمثالين لبوذا استثار لمدة طويلة احتجاجاً دوليّاً عظيماً، يفوق، إلى حدّ بعيد، الاحتجاج

---

(١) *Times*, 3-7-2001, p. 47-48.

على العملية الوشيكة التي ستمحو الآثار التي لا تقدَّر بثمن في الكرمة على ضفاف النيل في السودان، وهي آخر ما تبقَّى من الحضارة النُّوبِيَّة القديمة. وستغرق الآثار، وسيُنقَل آلاف من النوبيين من أرض أجدادهم حين يكتمل بناء سدٍّ ثالث تمت الموافقة عليه تحت السدِّ العالي، في كجبار على النيل. والأكثر شناعةً هو لامبالاة الرأي العالمي شبه الكاملة لموت عددٍ هائلٍ من الأفغان، بسبب الحاجة إلى الطعام والدواء، وهذه مأساة زادتها العقوبات الاقتصادية، التي فرضتها الأمم المتحدة، عمقاً.

من المحتمَل أن قرار "طالبان" بتدمير التمثالين كان، إلى حدٍّ بعيد، عملاً سياسياً، ينطوي على تحدٍّ، جاء ضد عقوبات الأمم المتحدة؛ وهذا لا ينفي كونه خطأً فادحاً. قال لي مواطن سوداني: إن "إنقاذ الناس ليس أقل أهمية من إنقاذ تراثهم. فلا فصل بينهما: فكلٌّ منهما انعكاس للآخر. ويبدو لي أن تصرُّف "طالبان" أتى نتيجةً للعزلة واللامبالاة التي أبداها المجتمع العالمي حيال ما هم فيه من مأزق".



الفصل الخامس

"هذه حقائق نؤمن بها"

في معرض تقويم الأذى الذي لحق بسمعة الإسلام، ينبغي أن نُنْحِي بكثير من اللوم على بعض المسلمين الذين يبتدعون تصوُّرات غير دقيقة ومقلقة حول شكل الحكم أو المجتمع اللذين يريدون تأسيسهما، والذين يرتكبون ممارسات تتّسم بالتعصب الديني، وغيرَها من الممارسات الآثمة التي لا تمت إلى الإسلام بصلة، وذلك باسم دينهم، بالإضافة الى أولئك الذين يسمعون ويشاهدون تقارير عن ممارسات من هذا النوع صادرة عن مسلمين مزعومين من دون أن يرفعوا الصوت عالياً بالاحتجاج.

إنَّ التسامح الديني أمر أساسي في الأديان التوحيدية الثلاثة الكبرى، وهو مبدأ يستحق إعادة تأكيده بصفة خاصة، كما يستحق التطبيق الطوعي المنبعث من تحسّس الواجب، وهو غالباً ما يُمجَّد في عقائد المسيحية والإسلام واليهودية، وكذلك في قوانين الولايات المتحدة وتقاليدها. ومع ذلك، يظل التعصب الديني حدثاً عادياً في تصرفات عدد كبير من الناس الذين يسمُّون أنفسهم مسيحيين أو مسلمين أو يهوداً. ويتجلى التعصب في بعض الأحيان بوحشية مروّعة. وثمَّة مثل رهيب ظهر في ألمانيا، إبّان الحرب العالمية الثانية، عندما أقدم النظام النازي على قتل ما يقدَّر بستة ملايين من البشر، لأنهم، وببساطة، كانوا يهوداً. وهناك أمثلة فظيعة أخرى عن التعصب الديني، وقعت في السنوات الأخيرة، ولا سيما المجازر التي ارتكبت بحق المسلمين في البوسنة وكوسوفو، وإن لم تكن بوزن المحرقة النازية.

في كانون الثاني (يناير) من عام ٢٠٠٠، تناقلت وسائل الإعلام في الولايات المتحدة أخباراً مفادها أن المسلمين في إندونيسيا، حيث يشكل أتباع الإسلام ٩٠ ٪ من السكان وعددهم مئتان وعشرة ملايين نسمة، أضرموا النار في عشرات الكنائس وأحرقوا المحالَّ التجارية والمنازل التي يملكها المسيحيون، وتسبَّبوا بوفاة ثلاثة مسيحيين وربما أكثر. وبين عامي ١٩٩٨ و١٩٩٩، كانت إندونيسيا مسرحاً لعنف أكثر ضراوة، إذ قيل إن أكثر من ألف شخص، بعضهم من المسلمين وغالبيتهم من المسيحيين، قد قُتلوا[١].

قد تكون جذور هذه السلسلة من أعمال العنف ضاربة، عميقاً، في قضايا سياسية أكثر مما هي متجذِّرة في الدين؛ فالمسيحيون، أيضاً، وليس المسلمون وحْدَهم، قاموا بأعمال عدوانية وحشية، قد تكون وصلت ببعض المسيحيين إلى إحراق المساجد. ولكن، وبغضِّ النظر عمَّن كان البادئ والسبب الذي من أجله ارتكب مثل هذا العمل، فقد صوّرت وسائل الإعلام الأميركية ذلك العنف بأنه من فعل المسلمين ضد المسيحيين . وتبوّأت التقارير الإخبارية صدارة الصحف في أميركا لأيام. وسواء أكانت هذه التقارير صحيحة أم متحيِّزة، فقد دعمت الصور النمطية المناهضة للإسلام. وقد شجبت مجلة "الرسالة" (The Message) الشهرية، التي يصدرها المجلس الإسلامي لأميركا الشمالية، في عدد تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٩ أعمال العنف في إندونيسيا. وبدا من ناحية ثانية أنَّ معظم الزعماء المسلمين في أميركا كانوا يتجاهلون هذه التقارير. ولم تنقل وسائل الإعلام الرئيسية عن هؤلاء أي إدانة لهذه الممارسات، باعتبارها غير إسلامية .

ويتجلّى التعصُّب الديني، في أوقات وأماكن أخرى، بطريقة لاعنفيَّة، وغالباً، من خلال عبارات تُفصح عن اعتقاد صاحبها بأن دينه هو الأقوم، ومن خلال التصرّف، مع غير المؤمنين، بكياسةٍ تنمّ عن الإحساس بالتفوّق.

وقد يكون الدافع إلى التعصب الديني قوياً بصورة خاصة في بلد كأميركا، حيث نرى، منذ نشأة الأمة، أن السيطرة لدين واحد، هو المسيحية.

---

(١) *USA Today*, 1-18-2000 and 1-20-2000.

هل التعصب الديني ظاهرة طبيعية، ونتيجة جانبية محتومة، لقناعة انفعالية موجَّهة بصورة خاطئة؟ إن معظم الناس يقبلون انتماءهم الديني دون أن يكون لهم، في بادئ الأمر، أن يدرسوا الأديان الأخرى. وربما كانت هذه الحقيقة هي التي تجعلهم ميّالين إلى تصرّفات تنمّ عن التعصّب، بعضها يتّسم بالعجرفة، وبعضها ليِّن الجانب.

إن جاري المحامي الشاب ألِن يو، الذي اعتنق الإسلام منذ وقت قريب، يتأمَّل في تجربته الخاصة، فيقول: "قد تكون الطبيعة البشرية مسؤولة بعض الشيء عن الانزلاق إلى التعصب الديني. وفي حالتي أنا، كان التزام الإسلام أمراً شخصيّاً جداً، وقراراً نابعاً من مشاورة الضمير. وباعتناقي الإسلام، أكون قد فضّلته على المسيحية، عقيدة أهلي. إن معظم الناس لا يواجهون اختياراً كهذا. فمعظم المسيحيين يَتْبَعُون طريق أسلافهم الديني. وتنطبق هذه الحال على معظم المسلمين واليهود، فهي، عندهم، ليست، اختياراً، ولا اصطفاءً واعياً لدين على آخر. فمعظم المسيحيين، لسوء الحظ، مضللون عن الإسلام. وفي رأيي، أن فهم هذا الدين فهماً سَيِّئاً هو الذي يولِّد التعصُّب، لأن من السهل أن تكون متعصّباً ضد دين لا تفهمه"[١].

يكون الدين عادةً وسيلة تعين المرء على الاهتداء الأخلاقي، وهو بحث مُجهد وشخصي، أو هذا ما يجب أن يكون. وليس لأحدٍ أن يُفاجأ عندما يكتشف أن الإغواء الذي يحمله على الاعتقاد بأن دينه هو الأقوم، إنما هو الأرض الخصبة التي ينمو فيها التعصب. فالتعصب ينبع من أعماق الأنا البشرية ويتَّسم بالحدّة، ولا سيما عند الذين يعرفون القليل عن الديانات الأخرى، أو لا يعرفون عنها شيئاً.

كانت مسألة تحديد المسؤولية عن التعصب الديني المسألة المحورية خلال حديث دار، منذ وقت قريب، بيني وبين صديق حميم، أعرفه منذ ثلاثين عاماً. إنه محترف، متبصّر، واسع الاطّلاع، عميق التفكير، لا يميل أبداً إلى التهور أو

(١) Interview, 12-1-1999.

المبالغة. يختصر كلامه في مراسلاته وأحاديثه، يُبدي ما يسميه اقتصاداً في الكلام. دائماً تثير آراؤه وأفكاره اهتمام سامعيه، وهو خبير في السياسات الحزبية، بوصفه مسؤولاً مُنتخباً، ومعلّقاً له مؤلفات منشورة. ولسنوات خَلَوْنَ، كان يتسع بنا نطاق الموضوعات التي نناقشها، وكانت مناقشاتنا في الغالب تتناول الدين. لقد نشأ صديقي على مبادئ الكنيسة الأسقفية البروتستانتية، غير أنَّ انتماءه الديني واهتمامه تحوَّلا مؤخّراً نحو الكنيسة المُوَحِّدة البروتستانتية.

وما إن فاتحته في هذه المناسبة التي جمعتنا، بمشروعي الأخير، (قيامي بتأليف هذا الكتاب)، حتى سيطر الدين على بقية الحديث. قال لي (وليعذرني القرّاء على إغفال اسمه نزولاً عند رغبته): إنه لا يشعر بأنه مؤهَّل للخوض في هذا الموضوع، ولا يريد لأحد أن يعتقد بأنه كذلك. إلاَّ أن ملاحظاته ما زالت حتى الآن وثيقة الصلة بموضوعات هذا الكتاب، وهي تضيف إليه أفكاراً قيِّمة عن كيفية استجابة السياسي المسيحي لتنامي وجود المسلمين في أميركا.

وعند نهاية مناقشاتنا، قلت له: إن تجاربي الشخصية، مع أفراد مسلمين، كانت، في مجملها، تجارب ممتعة، ولا أكاد أستثني منهم أحداً. لقد وجدتهم عميقي التفكير، كرماء، يَقْرُون الضيف ويجيدون الإصغاء. لقد أصبحوا جزءاً لا يتجزَّأ من أميركا؛ فهم يشكّلون الدين الرئيسي الثاني الأوسع انتشاراً. وإذا استمرَّت وتيرة ازدياد عددهم على هذا المنوال، فإن عددهم سيبلغ قريباً اثني عشر مليوناً.

كانت إجابته إجابةً رزينةً. أمّا هو، فقد اعتبرها طويلة! وخلافاً لعادته، قال: "آسف، لم يتسنّ لي قط، إجراء ما يمكن أن أسمّيه مناقشة في العقيدة الإسلامية، مع أي مسلم أو مع أي شخص آخر، فأنا لا أدَّعي امتلاك فكرة أوّلية عن الإسلام. والواقع أنني لا أستطيع تذكُّرَ أنني، في يوم من الأيام، قد ناقشت، في أمر من الأمور، إنساناً كنت أعلم أنه على دين الإسلام. إلاَّ أن ما يفعله بعض الزعماء المسلمين بحق مسلمين آخرين أمر يروِّعني. ويثير قلقي سعوديٌّ متطرف، يعيش في أفغانستان، ويُعدّ نفسه مسلماً، وهو متَّهم بأنه الدماغ

المخطَّط للإرهاب. لقد أُجريَت معه مقابلة تلفزيونية الليلة الماضية. إنني لا أتذكّر اسمه، غير أنه بدا على الشاشة كالممسوس".

سألته: هل يُدعى "أسامة بن لادن"؟ فأجاب: "هو بعينه. لقد أظهرت نشرة الأخبار هذا الشخص، وأظهرت الإسلام، بمظهر سيِّئ. قد يكون أصدقاؤك المسلمون أناساً رائعين، إلا أن صور المسلمين التي عرضها التلفزيون في الأسبوع الماضي بعيدة عن أن تكون جذابة. والواقع أنني وجدتها مقلقة ومهينة".

لم تفاجئني حدَّة كلماته، ولا رَبْطه لبن لادن بأفغانستان. فالتقارير التي تقشعرّ لها الأبدان عن الحكومة الأفغانية سيطرت على الأخبار، والصور التي وصلتنا عبر التلفزيون، وعناوين الصحف، كانت مروّعة. لقد بثّوا صوراً عن نظام القهر الذي انتزع من رعاياه حقوقهم، وقمع النساء منهم، وقدَّم ملاذاً لثري عربي أصبح إرهابياً خطيراً.

لمَّا وَصَل صديقي، أشار إلى أنه لا يستطيع المكوث طويلاً. وها هو ينظر إلى ساعته، ثم ينهض عن كرسيّه، ويتوجَّه نحو الباب، ثم يتوقف، ويلتفت ليقول بهدوء، ولكن بحزم: "إنني غير قلق على المسلمين كأفراد، فأنا متأكّد أنهم محترمون، ويكدُّون كغيرهم من الناس، بل ربما كانوا يكدون أكثر مما يكدُّ سواهم بقليل؛ بيد أنَّ ما يقلقني هو ما يحصل في أفغانستان، باسم الإسلام. لماذا يبدو الزعماء المسلمون في هذا البلد كأنهم يقبلون هذه الممارسات الرهيبة دون أن يحتجّوا ؟. إذا كان الزعماء الأفغان ينتهكون معتقدات الإسلام ومبادئه، فلماذا لا يشهّر العلماء المسلمون علناً بهؤلاء الزعماء، الذين يدّعون زوراً أن حكمهم إسلامي الهوية؟".

واستطرد صديقي قائلاً: "يعتقد المرء أنهم سيجاهرون برأيهم، ولكني لا أسمع أي تذمّر. هل يخافون التكلّم لسببٍ مّا؟ لا يمكنني أن أتخيَّل سبباً لخوفهم. أم أنهم يشعرون أنه كلما قلَّ الحديث عن هذا الموضوع كان ذلك أفضل ؟ هل يأملون ألاَّ يلاحظ الشعب الأميركي ذلك. أم أنه سينسى بسرعة، إذا كان قد لاحظ؟

هنا، فهمت بالطبع أنه يقصد الأميركيين غير المسلمين، مهملاً في تلك اللحظة الملايين الستة من الأميركيين الذين يعتنقون الإسلام. وتابع كلامه قائلاً: "أم أنَّ مسلمي الولايات المتحدة راضون عما يفعله الحكم الأفغاني، وهذا ما يفزعني؟".

وفيما كان ينهي ملاحظاته، أحسستُ انفعالاً في صوته ليس من خلقه. قال: "تقول إن عدد المسلمين في الولايات المتحدة سيتضاعف خلال سنوات قليلة. ماذا يعني هذا الأمر، لمستقبل أميركا، عندما يصبح لهؤلاء المسلمين نفوذ في السياسة ؟ إن أكثر ما يقلقني هو ما قد يرغب المسلمون بتغييره في أميركا، وفي نظام حكمنا إذا حالفهم الحظ".

ألقى صديقي نظرة أخرى على ساعته. أردت أن أتابع النقاش، لكنني أدركت أنه سيتضايق إذا ما أخَّرت انصرافه. وفضلاً عن ذلك ، فقد فوجئت، إلى حدٍّ ما، بالحدة التي شعرت بها في كلماته الأخيرة. وبينما كنت أرافقه إلى الباب الخارجي، قلت له ببساطة: " لقد أثرت أسئلة مهمة، سأراعيها بكل عناية واهتمام".

وحسناً فعلت أنني لم أتجاوب، حينذاك، مع القضايا التي أثارها، لأنني لم أفكّر بها لسنوات خَلَوْن، ولكنني فوجئت أيضاً وحيَّرني انعدام الاحتجاجات الإسلامية على تجاوزات بن لادن وطالبان. ومن خلال مناقشاتي الشخصية مع مسلمي الولايات المتحدة، استنتجت "أنهم غير راضين عما يفعله الحكم الأفغاني". غير أنني لم أسمع ولم أر أي دليل على الاحتجاج الإسلامي ضد هذا التعسُّف. ولم أكن أدرك، آنذاك، أنَّ عدداً من زعماء المسلمين في كاليفورنيا وإيلينوي وتكساس كانوا قد أصدروا بيانات احتجاج تجاهلتها وسائل الإعلام.

ومن الواضح أن هذا الصديق المحترم، النبيل المشاعر، كان قلقاً على ما يمكن أن تؤول إليه الحياة في أميركا من التغيُّر إذا تعاظمت قوة المسلمين، وبلغت حداً يمكّنهم من التأثير في النظام السياسي الأميركي. وعلاوة على ذلك،

كان علي افتراض أن عدداً كبيراً من الأميركيين الآخرين سوف يشاطرونه القلق، ولا سيما الذين شاهدوا التقارير التي عرضت على شاشات التلفزيون، وقرأوا مقالات الجرائد التي أزعجته، وقد يُعدُّون بالملايين. كنت بحاجة إلى بعض الوقت لأدرس وأفكّر، وكنت أعي أنه ينبغي لي ألاّ أهمل هذه القضايا المثيرة للقلق، فهي تحتاج إلى معالجة.

وفيما كنت أراقب صديقي يدخل سيارته، ويقودها مبتعداً، عادت بي الأفكار إلى عشر سنوات خَلَتْ، الى تجربة شخصية في جنوب أفريقيا، البلد الذي تفصله عن أميركا المسافة نفسها تقريباً، التي تفصله عن أفغانستان. فقد تباحثتُ هناك مع أحمد ديدات، الزعيم المسلم البارز على الصعيد الدولي، حول النقاط الرئيسية التي أثارها صديقي الذي لم أذكر اسمه. وكان ديدات مؤسس "المركز الدولي للدعوة الإسلامية" (International Islamic Propagation Center) ومقرّه في مدينة دوربان بجنوب أفريقيا، ورئيسه في آن. كان، حيثما ذهب، لافتاً للنظر بطول قامته ووقاره ولحيته البيضاء، وكان وجهه يوحي بالثقة، مما جعله زعيماً بالفطرة. في تلك الأمسية، كان يعتمر القلنسوة الإسلامية التقليدية، ويرتدي عباءة بيضاء هَدِلة، وسترة بذلة غربية، تاركاً قميصه الأبيض مفتوحاً عند العنق مع حاشية ياقته التي تغطي، بأناقة، طيّة صدر السترة.

استهلّ ديدات مناقشتنا، في تلك الليلة، بتقديم صورة عن الحكم الإسلامي، مغايرة تماماً لتلك التي أبرزتها، بعد سنوات، تقارير وسائل الإعلام عن طالبان في أفغانستان. أثار الموضوع بطريقة غير مألوفة وغير مباشرة؛ وبينما كنا نستعد لتبادل الميكروفون أمام الحشد الهائل من الناس، الذين تجمَّعوا في مدرج مدينة الكاب، أخبرني ديدات أنه أحضر نسخاً من كتابين، ودبّر أمر عرضها للبيع من الجمهور في مدخل المبنى. وقد انتقى نسخته الخاصة من كتابي "من يجرؤ على الكلام". أما الكتاب الآخر، فقد عرّفه فقط بـ "نص دستور الحكومة العالمية".

أثار هذا التعريف فضولي، لأنني كنت مهتمّاً منذ زمن بعيد بالمنظمات الدولية التي من شأنها حماية حقوق الإنسان وإحلال السلام في العالم. فمَن

ألّف الكتاب؟ وأيَّ شكل من أشكال الحكم يقترح ؟ تعجَّبت من أن يكون في وسع الحكومة الجديدة المقترحة أن تنجز ما قصَّرت عن إنجازه الأمم المتحدة، ومنظمات دولية أخرى. وفوجئت لمّا روى لي ديدات، قبل أن يبدأ اللقاء الشعبي، أن دستور الحكومة العالمية لم يكن سوى القرآن (الكريم) لا أكثر ولا أقل. ثم حان الوقت لبداية البرنامج، ولم يعد أمامي الوقت الكافي لأطرح على ديدات أسئلة أخرى. وبعد إلقاء الخطب وخروج الجمهور عبر المدخل، علمت أن حركة مبيع الكتب كانت مذهلة، إذ بيع أكثر من ألفي نسخة من القرآن (الكريم) وزهاء تسعمِائة نسخة من كتابي.

وفي وقت متقدم من ذلك المساء، بعد أن تناولنا العشاء في منزل رجل أعمال من البلد، شرح لي ديدات لماذا وصف القرآن (الكريم) على النحو الذي فعل. قال: "يقدم القرآن قواعد مفصَّلة للحياة اليومية، لا تقتصر على مواقيت إقامة الصلاة. بل تشمل إطاراً يحكم كل ما يقوم من علاقات بين أفراد العائلة والجوار وكل شعوب العالم. إنَّه يقدم كل المقوِّمات الضرورية لحكم سليم على نطاق العالم، كما يقدّم نظاماً شاملاً، حسن التنظيم، يسود فيه العدل والتسامح على نطاق العالم، بين مجمل أعراق البشر، بين الرجال والنساء على السواء.

احتفظت آنذاك بمشاعري لنفسي، إلا أن شرحه تركني حائراً مضطرباً. ذلك أني لم أتوقَّع قط أن نظاماً للحكم يمكن أن ينبثق عن كتاب مقدَّس. أضف إلى ذلك أنني كنت، طوال حياتي، أبجّل دستور الولايات المتحدة باعتباره أفضل نظام حكم وضعه البشر على مرِّ التاريخ. هل أراد ديدات أن يودي بدستور الولايات المتحدة، فلا يُبقي أثراً منه ؟ كنت أعتبر، بسذاجتي، أن القرآن (الكريم) مهم جداً للمسلمين، يُلهِم كل من يقرأه، ولكنني لم أكن أتصوّر أنه يصلح إطاراً لحكم عالمي شامل.

وعند عودتنا إلى الفندق في تلك الليلة، وجدتني أفكّر ملياً في ما عَنَاه هذا الأفريقي الجنوبي. هل كان يتنبّأ بقيام حكم عالمي في النهاية، يرفع راية الإسلام، وتكون فيه نصوص القرآن أساساً لدستوره ؟ أم أن تصريحه يشبه دعوات رجال الدين المسيحيين الذين يبشّرون، آملين، بعودة المسيح الثانية،

ولكن من دون أن يتوقعوا العيش طويلاً ليشهدوا الحدث ؟ وهل اختار ديدات، ببساطة، هذه الطريقة الدراماتيكية ليعبِّر عن أمله، في قيام عالم تكون فيه المبادئ القرآنية نافذة، مهما تكن الراية التي تؤدَّى لها التحية ؟ ثم كيف يمكن تطبيق هذه المبادئ؟

هل سيكون نظام العالم الذي يتخيله نظاماً ديموقراطياً أم استبدادياً ؟ لقد قام ديدات بأسفار عديدة وشاهد التنوّع في التقاليد الدينية الأخرى، وقوة هذه التقاليد، وينبغي أن يكون قد أدرك أن احتمال إرساء نصوص القرآن كإطار لحكم العالم برمّته لن يكون إلاَّ رؤية بعيدة المنال.

وعند تناول الفطور في صباح اليوم التالي، علمت أن ديدات غادر مدينة الكاب لارتباطه بمواعيد أخرى، وأنه لن يكون حاضراً لخوض مناقشات إضافية حتى اليوم التالي. في غضون ذلك، قام عضو رفيع المستوى من فريق عمله بتسكين قلقي. وفي خلال جولة قمنا بها على مقر المنظمة القائمة في دوربان، قال لي: "أريد أن تعلم أن العبارات التي تستهل إعلان الاستقلال الأميركي تعني الكثير للمسلمين في كل مكان؛ فعندما تعلن هذه الوثيقة أن الناس جميعاً متساوون في نظر الله، وأن الله وهبهم حقوقاً غير قابلة للتصرّف، فإنها تعبِّر عن المشاعر الراسخة عند المسلمين، العزيزة عليهم جميعاً".

كنت أعرف القليل عن القرآن (الكريم) وعن حياة النبي محمد ﷺ وأحاديثه (الشريفة)، ولم أكن أعرف شيئاً عن الشريعة الإسلامية المستمدة من القرآن (الكريم) على مدى الزمن. ويؤسفني أنني لا أستطيع اليوم أن أطلب من ديدات ان يزوّدني بالتفاصيل. فبعد جولة قام بها في أوستراليا عام ١٩٩٦ لإلقاء المحاضرات، أصيب الرجل بسكتة دماغية خطيرة أفقدته قدرته على الكلام والكتابة.

وفي أوائل عام ١٩٩٩، قرَّرت أن أطلب من آندرو باترسون التفكير ملياً في ما قصد إليه هذا الزعيم الجنوب إفريقي. قال باترسون إن ديدات، في اعتقاده، وجد نظام الحكم في الولايات المتحدة متناسقاً عموماً، مع الدولة الإسلامية

الحقيقية. "ولكلٍّ من القرآن والشريعة خيوط مهمة مشتركة مع دستور الولايات المتحدة، والثلاثة كلها تكرس المساواة بين جميع الناس وتعزّز حقوق الإنسان، وحرمته وملكيته وحكم الرعايا بموافقتهم، وصُنع القرارات الحكومية بالتشاور معهم. والقرآن يدعو إلى نظام حكم ديموقراطي، يدخل فيه رأي أوسع قطاعات الشعب، بصورة منتظمة ودقيقة. وبموجب هذا المشروع، يختار الشعب قياداته ويساعدها على صنع القرارات السياسية بعملية اتفاق جماعي في الرأي".

بعد بضعة أيام، شاءت مصادفة لافتة، أن يرسل لي نور ناصري تصريحاً مُطَمْئناً أدلى به راشد الغنوشي، وهو قيادي محترم في حزب النهضة التونسي المعارض، ومعلّق في القضايا العامة. قال الغنوشي: "لقد مكَّنت حركة الصحوة الإسلامية المعاصرة المسلمين أن يكتشفوا، من جديد، أن الإسلام قادر على التفاعل العقلاني مع عالم اليوم، فهو لا يرفضه رفضاً كاملاً، لكنه لا يسعى إلى الذوبان فيه. وهذا التطور يتيح الآن للمسلمين أن يتكلموا على نظام سياسي إسلامي معاصر، يستمد شرعيته من إرادة الشعب، وفقاً لأسس دستورية تحدّ من سلطة الحكم المطلقة". وأضاف التصريح أن هذه القيود تحمي حقوق كل فرد وكرامته سواء "أكان الأفراد مسلمين أم غير مسلمين، نساءً كانوا أم رجالاً"[(١)].

ثم جاءت طمأنة أخرى من الدكتور رالف بريبانتي، وهو مرجع في الدراسات الإسلامية، ومؤلف كتاب "طبيعة العالم الإسلامي وبنيته". قال: إنها "حركة مهمة، لكنها مبعثرة جغرافياً، وغايتها إعادة تفسير معاني الإسلام كي تتلاءم مع العصر الحالي. وهؤلاء المصمّمون على إجراء إصلاحات كهذه، موجودون في الأردن ومصر وتركيا والجزائر وإيران. إنهم أناس محترفون بامتياز، حَصَّلوا علومهم في الغرب، لا يرفضون الاعتراف بالإسلام؛ بل، على العكس من ذلك، هم أتقياء ومسلمون ملتزمون"[(٢)].

ويعتقد الدكتور آغا سعيد، وهو أستاذ جامعي يدرّس العلوم السياسية ويؤيِّد

---

(١) *People's Daily*, 7-20-1999 (Cairo).

(٢) Ralph Braibanti, *The Nature and Structure of the Islamic World*, p. 83.

نشاط المسلمين السياسي، أن أتباع الإسلام راضون عن نصوص دستور الولايات المتحدة. ويتابع قائلاً: "لا أحد منهم يؤيِّد تغييراً أساسيّاً في مبادئ نظام الحكم الأميركي أو بنيته". فمعظم الانتقادات الإسلامية السائدة موجّهة، بالفعل، إلى إخفاق القيادة الأميركية في تطبيق المبادئ المنصوص عليها في الدستور، وإخفاقها في إعلان الاستقلال، تطبيقاً حازماً منتظماً.

وفي مقابلة تلفزيونية طويلة أُجرِيَت مع آغا، في أحد فنادق لوس أنجلس، رفض الفكرة القائلة إن المسلمين، أو أي مجموعة دينية أخرى، سيسيطرون على أميركا في يوم من الأيام، وقال: "ليست هناك إمكانية لحدوث هذا الأمر. وأنا أظن أنهم، إذا سيطروا، ستكون رغبتهم الإبقاء على البنية والمبادئ الأساسية القائمة اليوم. أما السيطرة، فهي مسألة غير واردة. إن التحذير، الذي يُسمع بين الحين والآخر، من أن المسلمين يشكّلون خطراً داخليّاً على أميركا، إنما هو كلام سخيف. إنه يذكّرني بالصرخة القديمة التي كانت تقول إن الروس قادمون، وعلينا الحؤول دون استيلاء الشيوعيين على السلطة في أميركا".

ويتابع آغا قائلاً: "قد يُنتَخب يوماً مّا، ثمانية مسلمين، أو عشرة، على أبعد تقدير، أعضاءً في مجلس النواب الأميركي. وهذا الرقم يمثل ٢ ٪ من مجموع الأعضاء. ليس في الكونغرس اليوم أي عضوٍ مسلم، مع أن المسلمين يتمنَّون أن يكونوا مشاركين في النظام، حتى بعدد بالغ الضآلة. ينبغي أن يكون للمسلمين وجود في الكونغرس، لأن وجودهم أمر مهمٌّ معناه النظر إلى المسلمين على أنهم بشر، لا مجرد أنماط مقولبة مزيّفة.

"هناك دعم شامل، في وسط مسلمي الولايات المتحدة، للمبادئ الأميركية المتعلقة بالكرامة الإنسانية، وتطبيق القوانين المرعية الإجراء، والمساواة بين الجميع، من حيث حرية بلوغهم ما يحق لهم بلوغه، وتساوي جميع الناس أمام القانون، وتساويهم في الفرص. إنني أدعم كلياً هذه المبادئ، ولا أحب أن أغيِّر أيّاً منها، إلاَّ أنني أتمنَّى أن أراها مطبَّقة بأمانة".

ويستطرد قائلاً: "إن عدداً كبيراً من المسلمين وغير المسلمين، يريدون أن

تُطبَّق هذه المبادئ، على الجميع، بطريقة متّسقة وشاملة. فقط عدد قليل من المسلمين سيقولون: إنهم يريدون تغيير البنية والمبادئ الأساسية. وقد يتمنَّى عدد قليل منهم أن يؤسّسوا مجلساً شرعياً يطبِّق الشرع الإسلامي في أميركا، لكن يمكن طرح هذه التمنيات جانباً. إنني لا أعرف مسلماً واحداً يريد، جدّياً، تغيير إطار الحكم الأميركي الأساسي أو مبادئه".

يتفق العلماء المسلمون على أن أي دولة إسلامية شرعية ستوفر الحماية الكاملة لحقوق غير المسلمين. يقول الدكتور جون إسبوزيتو في موسوعته: "إن معظم دساتير الدول الإسلامية تؤكد اليوم مبدأ المساواة بين جميع المواطنين، بغضِّ النظر عن الدين والجنس والعرق، [مع أنَّ] بعض الجماعات الإسلامية المناضلة تؤيد الشك العدائي في حق غير المسلمين". والزعماء المسلمون الذين يُسمَّون بالليبراليين أو المُحْدَثين، يعبِّرون عن وجهة نظر مماثلة. "إن الإسلام يشجّع أتباعه على إقامة حكمهم، على أسس فكرية عقلانية، وعلى أسس اختبرتها أمم من قبل، وأثبتت صحّتها"[1].

ويستشهد المقطع نفسه من الموسوعة بما ورد في الآية القرآنية الكريمة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [سورة البقرة، ٢٥٦]، ثمَّ يضيف: "هذا يفسر الدلالة على المساواة بين المسلمين وغير المسلمين في الحقوق والواجبات المدنية. إن التحدي في تعاطي الشؤون الدنيويَّة كما يراه الليبراليون [أو المُحْدَثون]، إنما يتمثّل بالدخول في التفاعلات الاجتماعية، على قاعدة تسمح بالتأقلم مع الظروف المتغيرة. ويمكن لوجهة النظر وطريقة العيش هاتين أن تكونا منسجمتين مع عقيدة الإسلام الدينية"[2].

تبين هذه المراجع أن للإسلام مرونةً جوهرية تمكِّنه من التكيُّف مع الأزمنة المتغيرة. وتتنبأ الكاتبة روبن رايْت بازدياد تأثير الإسلام، وبتعزُّز الحرية الفردية في العالم العربي، خلال الربع الأول من القرن الحادي والعشرين. وفي تعليق

---

(١) John L. Esposito, *Modern Islamic World*, vol. 3, pp. 110-111.

(٢) Esposito, *Modern Islamic World*, vol. 1, pp. 385-359.

مماثل لما قاله لي أحمد ديدات في جنوب أفريقيا، تصف الكاتبة الإسلام بأنه "البديل الأوسع انتشاراً" لأنظمة الحكم القائمة، لأنه "يوفّر منبراً قانونياً وبنية شرعية"، وهو، إلى ذلك، "الدين التوحيدي الأكبر الذي يقدّم مجموعة من الشرائع المحدَّدة لحكم المجتمع، كما يقدّم مجموعة من المعتقدات الروحية". وتتوقّع الكاتبة نمو الحرية الفردية خلال هذه العملية الانتقالية، فتقول: "على المرء، لكي يكون مؤمناً حقيقيّاً، أن يُقبل على الإيمان بحرّيّة".

وقد وجدت رايت أن هذه العقيدة شائعة، الآن، بين الإصلاحيين الإسلاميين، في إيران، وكتبت تقول: "وهكذا، تتقدم الحرية على الإيمان، فيشكّل تقدّمها تطور مهماً ومفاجئاً لدينٍ معنى اسمه الحرفيُّ هو: التسليم. ومما هو أكثر ترجيحاً في النهاية: أن يكون الإسلام وسيلة التحوّل، وليس بالضرورة النتاج النهائي"[١].

لقد عثرت، في ما توقعته رايت، على إشارة واعدة، تبشّر بأن البلدان الإسلامية ستجيز للأفراد مزيداً من الحرية لاختيار انتمائهم الديني. وإذا ثبتت صحة هذا التوقّع، فمن المحتمل أن تزداد هذه الحكومات اقتراباً من نظام الولايات المتحدة، في العقود القليلة القادمة. فالحرية الدينية والتسامح مع الأديان الأخرى جزء أساسي من البنية الأميركية.

ويحذِّر الزعيم المسلم، في تكساس، الطبيب عنايت لالاني، من صراع عقائدي إسلامي بين المُحْدَثين الذين يلتقيهم، والتقليديين: فهو يعتبر أن هذا الصراع أكثر خطورة من الصراع بين المسلمين وغير المسلمين. ويستطرد مقدِّماً التفاصيل التالية: "إن بعض المسلمين الذين يدّعون بأنهم علماء، سيدلون، ببرودة أعصاب، بتصريحات من نوع أنّ: "الديموقراطية غير إسلامية"، أو أنه "لا مكانَ لحقوق الإنسان في الإسلام". ومن الطبيعي أن يسارع الذين ينتقصون من قدر الإسلام إلى تلقّف مثل هذه الأقوال".

يضيف لالاني: "هناك شريحة واسعة في المجتمع الإسلامي تميل إلى

(١) *Time*, 5-2-2000, p. 109.

رفض أي مقاربة براغماتية للمشكلات التي تواجه المسلمين، من دون أن تقدّم لهم أي حلول بديلة. فهم مفرطون في الحساسية حيال كل ما يتعلق بالعقيدة الدينية. وسرعان ما يشكّكون بإيمانك إذا عبَّرت عن رأي لا يوافق أفكارهم المسبقة. فمعظمهم يستمدُّ "معرفته" من التقاليد الثقافية، لا من القرآن (الكريم). وهي تقاليد مضادّة كلياً للإسلام، وكثير منها يقمع حقوق الآخرين". ويقف بعض هؤلاء "العلماء" المسلمين مواقف تعود على خصوم الإسلام بالفائدة، وتعود عليهم بالضرر؛ فيما يعتقدون، بصدق، أنهم مخلصون للإسلام"[١].

ويرى آندرو باترسون مشكلة مشابهة، إذْ يقول: "ليس كل المسلمين متنوِّرين، ولن أستطيع أبداً النفاذ إلى عقول المتزمّتين، ولكن بعضهم يحاول عزل المسلمين عن الغرب".

ويعتقد باترسون أن على المتزمتين طلب الهداية من تشارلز داروين، ويقول: "لم أكن يوماً مولعاً بنظريات داروين، غير أنني أشاطره الرأي في ما كتب من أنه "ليست الأجناس الأقوى، ولا الأجناس الأذكى هي التي تبقى، بل الأجناس الأكثر استجابة للتغيير". أظن أن قوله، هذا، قابل للتطبيق في كل مكان. وقبل أن يسارع أحد الى معارضة شيء ما، عليه أن يفكر بأناة. ويذكرني قول داروين بالتوكيد التوراتي القائل: "الحليمُ يَرِثُ الأرض". وهذا القول يعيد إلى الذاكرة نصيحة النبي محمد ﷺ إذْ كان يسير ذات يوم مع بعض صحابته، فحثهم على توخّي الحذر في ما يقولون".

وكتب رالف بريبانتي: "من السخرية القاسية أن يجد المسلمين أنفسهم مُبْتَلَيْن بصراع إسلامي - إسلامي، في الفترة التي أصبحوا فيها متحررين من السيطرة الاستعمارية، وأصبحت بعض شرائحهم تتمتع بدرجة من اليسر أدَّت إلى شرذمتهم"[٢].

وأعتبر هذه الاهتمامات مركزية، فيما أنا أتأمل ماهية التغييرات، التي من الممكن أن يجريها مسلمو الولايات المتحدة إذا فازوا بالسيطرة السياسية.

---

(١) Interview, 5-2-1999.

(٢) Braibanti, *The Nature and Structure of the Islamic World*, p. 85.

تعود بي الأفكار إلى مناقشاتي مع أحمد ديدات. إنني مقتنع بأنه ينظر إلى المبادئ التي وضعت، في وثيقة إعلان استقلال الولايات المتحدة ودستورها، على أنها متوافقة وموازية لتلك الواردة في القرآن (الكريم). ففي وسعنا، إذن، أن نستنتج، كما ورد في موسوعة إسبوزيتو، "أن معظم شرائع الدول الإسلامية تؤكد الآن مبادئ المساواة بين جميع المواطنين، بغضّ النظر عن الدين والجنس والعرق". ومن خلال كل ما شاهدت وقرأت وسمعت، فإن مبادئ الحكم الإسلامي تعزّز الدستور الأميركي أكثر مما تهدّده.

حينما تكلمت مع ديدات عام ١٩٨٩، كانت سياسة التمييز العنصري ما تزال هي القانون السائد في جنوب أفريقيا. فقد عَمِلت البنية الأساسية لحكومة بلاده آنذاك، بطريقة مباشرة وفي وقت واحد، على تقويضُ مُثُل القرآن ومبادئه، وانتهاكها، وتقويض دستور الولايات المتحدة وانتهاكه.

كان التعصب المقيت لا يزال يسيطر على حكومة بلده جنوب أفريقيا، وكان حذراً في التعبير عن آرائه، فاجتنب العبارات الاستفزازية في كلامه على سياسة الحكومة، حتى في أحاديثه الخاصة. وكانت السياسات العنصرية، للأقلية البيضاء الحاكمة، قد أدت، آنذاك، الى عزل جنوب أفريقيا عن باقي العالم. ومع ذلك، فقد عبّر ديدات عن ثقته بأن مبادئ العدالة والتسامح الإسلامية، سوف تسود العالم أجمع، في نهاية المطاف. وكان هذا يتضمَّن أنّ سياسات الأقلية البيضاء، التي كانت تمنع ديدات والأغلبية الساحقة من مواطني جنوب أفريقيا، من الاقتراع، سوف تُقهر في آخر الأمر.

وفي ضوء تجربة "ديدات" كمواطنٍ من الدرجة الثانية في جمهورية جنوب أفريقيا، في ظل سياسة التمييز العنصري، استنتجت أنه لن يقدر، أبداً، على تحمُّل نظام يفرض درجة المواطنية الثانية على أيِّ كائن بشري. إنني واثق بأن ديدات يعتقد، كما أعتقد أنا، أن الحكومات والمنظمات الدولية سوف تعمل في السنين القادمة، على تعزيز مبادئ المساواة والعدالة والتسامح والتراحم، الواردة في القرآن (الكريم) والدستور الأميركي كليهما، كما تعمل على رفع شأنها خطوة فخطوة.

إن الإسلام، كالمسيحية واليهودية والهندوسية وغيرها من العقائد الإيمانية، يمكنه الاستمرار في الازدهار ضمن نظام الحكم الأميركي. فالحكومات العِلمانية لا تحتاج، ولا ينبغي لها أن تحتاج، إلى انتهاك حق أي دين من الأديان في ممارسة شعائره. وقد توصَّلت إلى هذا الاستنتاج، متأثراً بآراء العشرات من المسلمين الأميركيين. فقد سمعت عدداً كبيراً منهم يعبِّرون، بملء إرادتهم، عن فخرهم بكونهم مواطنين أميركيين؛ وعلى الرغم من مجابهتهم الصور النمطية المقولبة المناهضة للإسلام، فإنّهم يتمتَّعون بإجراءات حماية حقوق الإنسان والقوانين المرعية الإجراء، وحماية الحرية الفردية المنصوص عليها في الدستور الأميركي. إنهم يتمتعون، ولو كَرِه المتحجرون الذين يواجهونهم، من غير المسلمين.

وعندما يؤدّي غير المسلمين قَسَمَ المواطنية، فإنهم يتعهّدون بالولاء للدستور الأميركي. أما القلة الذين قابلتهم من المسلمين الذين حازوا الجنسية الأميركية كحق مكتسب بالولادة، فإنهم رفضوا تقديم هذا التعهُّد. إن محمود عبد الرؤوف، أحد نجوم كرة السلة في فريق دنفر ناغيتس، لما اعتنق الإسلام، رفض بادئ الأمر أن يعلن ولاءه للعَلَم، إلاَّ أنه غيّر رأيه عندما أقنعه الزعماء المسلمون بأن التعهد لا ينتهك مبادئ الإسلام. في حين أن أعضاء طائفة "سبتيِّي اليوم السابع" المسيحية يعتقدون أن التعهد بالولاء لا يكون إلا لله وحده.

وفي اعتقادي: أن كل معارفي من المسلمين يقبلون القيام بواجب الاحترام وخدمة العلَم والقانون والدستور الأميركي من دون تحفظ، على الرغم من أن نظام القضاء الجنائي في الولايات المتحدة يختلف عن الأحكام التي جاءت بها "السنّة النبوية" (الشريفة) التي تستوحي القرآن (الكريم).

فالإسلام فرض حدَّ القتل على مرتكب الزنا [المُحْصَن، أي المتزوج](*)، وحدَّ قطع اليد على السارق. إلاَّ أنَّه اشترط توفر عدة شهود عيان، أو الاعتراف

(*) ما بين معقوفين إضافة من المترجم.

الطوعي قبل توقيع العقوبات. وبما أن الجاني يحاكم بحسب نيته، فإن القرآن يُجَوِّز تخفيف هذه القوانين بالرحمة والرأفة والعفو. ومثال ذلك أن الشخص الذي يسرق طعاماً لا يعاقب، إذا بَرْهَن أن السرقة كانت بدافع الحاجة الملحَّة.

وفي حال جريمة القتل، يحق لعائلة القتيل أن تصفح عن المذنب، فتقبل الدِّيَة بدلاً من عقوبة الموت، التي ينص عليها القرآن بوضوح. كما يمكن الصفح عن بعض الجرائم، الأقل شأناً، إذا وافق الضحايا المعنيون.

هناك بلدان إسلامية قليلة العدد، كالسعودية والباكستان والسودان، تفرض الحدود القصوى التي أمر بها القرآن (الكريم). وثمَّة بلدان إسلامية أخرى تطبّق أحكام القانون المتأثّر بالقانون الوضعي الغربي. أما في البلدان التي استقرَّ فيها المسيحيون، أو استقرت فيها أديان أخرى، فلا يحاكم المذنبون فيها وفقاً للشريعة الإسلامية. إلا أن نور ناصري كتب يقول: إن "كل امرئ يوافق على أن تأثير العقوبات الإسلامية الردعي تأثير فعَّال على نحو لافت".

أما الميادين الأخرى للسياسة والسلطة، فيشترك فيها الإسلام مع تقاليد الحكم الأميركي في الأهداف الأساسية. فَكِلا الحُكمين أمين لمبادئ السلام والعدل والحرية الفردية لكل الناس. والمسلمون مخلصون لفكرة أن كل الناس ولدوا متساوين، تلك الفكرة الواردة في إعلان الاستقلال. والمعتقد الإسلامي يرتكز على العقيدة القائلة بكون الحكم مسؤولاً أمام الناس، مستجيباً لهم، ويرى فيهم خلائف الله على الأرض(١).

ولقد كتبت إبريل زوشيت تقول: "إن معظم المسلمين لا يَرَوْن أن الديمقراطية ابتدعتها وتتعهّدها الولايات المتحدة أو العالم الغربي. العكس هو الصحيح: إنهم يضعون الإسلام في هذا المقام؛ ولا يرون أن المسلمين يحاولون محاكاة المثل الغربية العليا. إنهم، بدلاً من ذلك، غالباً ما يلحظون، باستحسان، أن الولايات المتحدة تطبّق المبادئ الإسلامية".

---

(١) Interview with Inayat Lalani, 2-6-2000.

تملّكني الفضول لأعرف: هل كان للقرآن أي دور مؤثّر عندما شُرِعَ بوضع مسوّدة وثائق حكم الولايات المتحدة. ولذا طلبتُ من مكتبة الكونغرس أن تبحث عن أوراق توماس جفرسون الذي يعود إليه الفضل بوضع مسوَّدة إعلان الاستقلال؛ كما طلبت البحث عن مذكرات جيمس ماديسون، وهي أكمل سجلّ لوقائع الجلسات التي أنتجت دستور الولايات المتحدة. وتبين لي أن مذكرات ماديسون لم تتضمَّن إشارة لا إلى القرآن (الكريم) ولا إلى الإسلام أو أي دين آخر. بل لا يوجد أي دليل يشير الى أن مكتبته تضمنت أي نسخة من القرآن (الكريم). أما مكتبة جفرسون الخاصة، وقد كانت من أكبر المكتبات آنذاك، فقد ضمَّت نسخة من القرآن (الكريم) مترجمةً معانيها إلى الإنكليزية بقلم جورج سايل، وقد طبعت عام ١٧٦٤ تحت اسم "قرآن محمد"[١]. ولا توجد أي إشارة إلى أن جفرسون راجع هذه الترجمة عند وضعه مشروع وثيقة الاستقلال.

وإلى أولئك الذين يقلقهم إعلان يربط مبادئ الحكم التي جاء بها القرآن (الكريم) بالمبادئ التي يعبّر عنها دستور الولايات المتحدة، فإنني أطلب إليهم أن يدخلوا في حسابهم الإجابة عن السؤال التالي: هل سيسعى مئات الألوف من مسلمي البلدان الأجنبية للحصول على الجنسية الأميركية، إذا كانوا يعتقدون بأن بنية الحكم في الولايات المتحدة تتناقض جدّياً مع المبادئ الأساسيّة التي تتّسم بها دولة الإسلام المثالية. إن الأعداد الكبيرة من المسلمين، لمّا باشرت رحلتها الطويلة الصعبة للحصول على الجنسية الأميركية، كانت، عملياً، تمنح صوتها لصالح أميركا فعليّاً. إنني استنتج أن كثيراً منهم، وربما معظمهم، يعتقدون أن لأميركا بنية للحكم أقرب إلى مثالية الإسلام منها إلى أشكال من نُظم الحكم الأخرى. فأوسع تدفُّق لهجرة المسلمين، وأكثره ديمومة، هو الهجرة إلى الشواطئ الأميركية.

لِمَ هذا الانجذاب عند المسلمين إلى الولايات المتحدة، وهي بلد غير

---

(١) *Catalogue of the Library of Thomas Jefferson*, vol. 2. (University Press of Virginia), p. 90.

مسلم، وبنية حكمه تُعَدّ واحدة من أكثر بنى الحكم علمانية في العالم، وعدد مسلميها يبلغ أقل من ٣ ٪ من مجموع عدد السكان ؟ يمكن للمرء الافتراض، بعقلانية، أنهم اختاروا أميركا مكاناً تتوافر فيه الفرص الاقتصادية، فضلاً عن أنها مكان صالح لنشوء عائلاتهم، وممارسة شعائرهم الدينية. ولا شك في أنهم، جميعاً، قد حصلوا، قبل هجرتهم، على دلالاتٍ تشير الى المساعي الصارمة التي تبذلها أميركا منذ أمد طويل، لحماية الحرية الدينية، كما تشير إلى التزامها التسامح وحقوق الإنسان.

وقد روى زعيم مسلم، فضَّل عدم الكشف عن هويته، قائلاً: "غالباً ما يشير المسلمون إلى أنهم يتمتعون هنا بحرية في ممارسة الإسلام، أكثر مما تمتعوا به في مسقط رأسهم، حيث يتفشى القمع السياسي". وهو يشك في إمكانية أن يُصدَم المسلمون أو ينزعجوا إذا سمعوا الإشادة بالحكم الأميركي، كمُوَفِّر لأفضل حماية متاحة في العالم للمؤمنين بالإسلام.

لا يمكننا، بطبيعة الحال، أن نسمي الولايات المتحدة دولة إسلامية. وإذا سُميت كذلك، فإن مثل هذا الإعلان سوف يثير بالتأكيد ردود فعل حادة وسلبية لدى غير المسلمين، ولدى بعض المسلمين أيضاً. لكن، بعد التفكير ملياً، ينبغي للجميع أن يعترفوا بأن نظام الولايات المتحدة يشتمل على عناصر أساسية للدولة الإسلامية المتوقعة في القرآن (الكريم). لقد عبَّر أبراهام لينكولن، من غير أن يقصد، عن جوهر الدولة الإسلامية الحقيقية في خطابه الشهير، في غيتيسبُرغ، حين تكلَّم على "حكم الشعب من قبل الشعب وفي سبيل الشعب".

إن كلاً من الإسلام ودستور الولايات المتحدة يتطلّب قادة يجري اختيارهم بموافقة الشعب، ويكون مطلوباً منهم العمل بالتعاون مع مجلس يجري اختياره بإجماع شعبي، ويعترفون بمساواة كل الناس أمام الله وأمام القانون، ويوفرون الحماية والعدل بالتساوي لهم؛ بغضِّ النظر عن العرق والدين والجنسية والجنس.

ولا أقصد، في عرض هذا التقويم، أن أُولِّد انطباعاً، بأني أضع نظام

الحكم الأميركي والدين في مرتبة واحدة. فالحكم بالضرورة دنيوي زائل، وهو، في نظر معظم الناس، أقل أهمية من شؤون الإيمان. ولكن يمكن للحكم أن يؤثّر في ممارسة الشعائر الدينية، ويمكنه أيضاً أن يسهل أو أن يضيّق الخناق على الحريات الفردية، المهمّة في تنمية الانتماء الديني. إن الآباء المؤسسين، واضعي الدستور، قد كَفِلوا، بحكمتهم، فصل الدولة عن مؤسسة الدين، وضمنوا، بالحكمة نفسها، حرية الانتماء الديني.

إن ما يميّز أميركا من معظم الأمم الأخرى، هو المسعى الحازم والدائم، الذي يضطّلع به حكمها والأغلبية الساحقة من مواطنيها، بغية التطبيق الشامل والأمين للمبادئ الأساسية، ومنها وجوب المحافظة على التسامح الديني، في مرتبة متفوقة.

لم تحقق لي الرضى هذه الأفكار المشجِّعة، المتعلقة بالصور المزيفة عن الإسلام، المنتشرة في الولايات المتحدة. وأخشى أن يكون معظم الأميركيين قد خُدِعوا بما هو مغلوط، وتوهموا أن المسلمين يريدون تأسيس شكل من الحكم يتسم بالجور على غير المسلمين، ويخلّ بالمبادئ العزيزة في مجتمعنا. ومن المؤسف أن يكون بعض هؤلاء المضلّلين، من ذوي النفوذ.

ولا أستنتج أن كل مسلمي الولايات المتحدة وجدوا الكمال في الحكم الأميركي، بل لا أستنتج أنهم وجدوه حتى في الدستور. فكثير من المسلمين، مَثَلُهم مَثَلُ المواطنين الآخرين، وأنا منهم، يرون أن هناك طرقاً لتحسين القانون العام وتطبيقه، حتى مع إجراء تعديل دستوري أو أكثر، مع أنهم مغتبطون بامتيازات الحياة الأميركية.

يذكر آغا سعيد مسألة في غاية الأهمية، وهي الحاجة إلى التطبيق الشامل والأمين لمبادئ مجتمعنا. وهو على حق، عندما يلاحظ أن الحكم عندنا يقصّر في تطبيق هذه المبادئ، على كل المقيمين في الولايات المتحدة. ولكن المهم تَذَكُّر أن التسامح الديني يستحق التطبيق الأمين نفسه. ومع ذلك يبقى التعصب الحدث الشائع في سلوك كثير من مدَّعي الإسلام والمسيحية واليهودية، فلا يكفي مجرد الإعلان عن مبادئنا كأهداف في دستور أو في نص ديني.

إن الاختبار الأساسي لحكم مَّا، أو لإيمان دينيٍّ مَّا، يكمن في أن نطبق المبادئ الإسلامية، تطبيقاً حازِماً في الحياة اليومية. هناك العديد من أنظمة الحكم الاستبدادية، كان منها الاتحاد السوفياتي السابق، وغيره من أنظمة الحكم التي ما تزال على قيد الحياة، والتي تشتمل قوانينها على ضمانات لحرية التعبير والحرية الدينية والانتخابات الحرَّة، وغيرها من الحريات، ولكنها لا تطبقها. في ظل هذه الأنظمة، لم تعد الحقوق الأساسية سوى وعود خاوية.



الفصل السادس

سواسية كَسِنَّين من أسنان المشط

خلافاً للمبادئ والفرائض التي يُنادي بها الإسلام وسواه من الديانات التي تجلُّ حقوق النساء وتصون كرامتهن، فإنَّ إساءة معاملتهن، على ما يبدو، "تزدهر" على نطاق عالمي في كل المجتمعات، بغضِّ النظر عن العرق أو القومية أو الوضع الاقتصادي أو الدين.

نشرت كلية "جونز هوبكنز للصحة العامة" في بالتيمور تقريراً، في كانون الثاني (يناير) عام ٢٠٠٠، يخلص إلى استنتاج مفجع، مضمونه: "أن امرأة، من كل ثلاث نساء في العالم، تعرضت للضرب أو للاغتصاب أو لإساءة معاملتها بطريقة أو بأخرى". وقد استند التقرير المذكور إلى دراسات أجريت في أكثر من عشرين بلداً، من بينها الولايات المتحدة، مُورِداً أن ٧٠٪ من النساء اللواتي أجريت عليهن الدراسات لم يخبرن أحداً بإساءة معاملتهنّ قبل إجراء المقابلات معهنّ[١].

ويبدو أن الأميركيين ميَّالون إلى الاستشهاد بالتميز الشديد الذي يمارس ضد المرأة في بعض البلدان الإسلامية، كدليل على أن الإسلام يتساهل حيال إساءة معاملة النساء، ويتغاضى عنها. وصحيح أن هذا التمييز موجود، وغالباً ما يكون شديداً، إلا أن القيادات الإسلامية تصرّ على أن أي شكل من أشكال قمع النساء واضطهادهن ينتهك تعاليم الإسلام وقواعده. إذ إنّ معظم التميز ناشئ عن العادات الوحشية وعن الشوفينية الذكورية، لا عن القرآن أو السنَّة.

---

(١) Sheila Hotchkin, AP 1-21-2000.

قد يكون للإسلام أكبر أثر تحريري في وضع النساء في التاريخ المدوَّن. وقد يكون هذا الأثر أكبر من أثر اليهودية والمسيحية. قال توماس و. ليبمان، وهو صحافي يهودي عمل لمدة ثلاث سنوات مديراً لمكتب "واشنطن بوست" في القاهرة: "في مجتمع تعتبر فيه النساء من الممتلكات، يؤخذن أو يهملن جانباً مثل توافه الأشياء، وغالباً ما يخضعن لظروف تضاهي العبودية، جاء القرآن ليفرض قيوداً أو موانع كبحت جماح أسوأ أشكال إساءة معاملتهن، فضمن لهنّ حقوق الملكية، كما حضَّ الرجال على معاملتهنّ بلين وكرم أخلاق. إن ما نصَّ عليه القرآن (الكريم) عن أوضاع النساء الشرعية جاء متقدّماً جدّاً على زمانه: فالشريعة الإسلامية تمنح النساء حقوقاً أكثر تحرّراً من الحقوق التي منحتها إياها النصوص القانونية الغربية. لقد أرسى القرآن والحديث (أقوال النبي محمد ﷺ) أحكاماً تضمن للنساء وضعاً شرعيّاً محترماً وكريماً، كنَّ محرومات منه في مجتمع ما قبل الإسلام؛ كما شدَّد على الاستقرار العائلي"[١]. وكتب وليام بايكر، وهو قيادي مسيحي، يقول: "عندما ننظر إلى وضع المرأة في مجتمعات ما قبل الإسلام نجد أن النساء، بنسبةٍ منهنّ تبلغ الثلثين، كنَّ في وضع أقرب ما يكون إلى العبودية... كنَّ تقريباً غائبات عن عالم يحكمه الذكور في كل ديانة وكل حضارة في العالم أجمع"[٢].

إن عدد الأميركيين، الذين يقرأون رسائل ليبمان أو بايكر، قراءةً يغيِّرون بها نظرتهم إلى الإسلام عدد غير كافٍ. وأنا، عندما أخطب أمام جمهور عام، أستهل ملاحظاتي، في أغلب الأحيان، بطرح هذا السؤال: هل تعامل النساء في الإسلام على أنهن أدنى شأناً من الرجال ؟ ودائماً يأتي الردّ بالإيجاب المطلق. ففي أميركا تبدو التصورات السلبية، عن وضع المرأة المسلمة، متجذِّرة بعمق، ومنتشرة انتشاراً واسعاً، وإن كانت مشوَّشة. وقد نشأت بتأثير عوامل

---

(١) Thomas W. Lippman, *Understanding Islam* (New York: Mentor Books, 1990).

(٢) William Baker, *More in Common Than You Think*, pp. 62-63.

مختلفة منها: سوء الفهم، الفوارق في الشرائع القائمة في البلدان المسلمة أحياناً، درجة الحقد أحياناً أخرى؛ لكن التأثير يكون للجهل في معظم الأحيان.

وبعد اشتراكي في اثنتي عشرة جلسة حوار مع جماهير من المسلمين، وأكثر من ستين مناقشة مع جمهور عام خلال السنوات الأخيرة، توصلت إلى استنتاجين: الأول، أن معظم الأميركيين يعتقدون أن الإسلام منحاز ضد المرأة، وأحياناً بوحشية؛ والثاني، أن المسلمات الأميركيات يعترضن بشدة على هذا الاعتقاد.

تنشأ بعض الانطباعات الخاطئة عن الإسلام مما يقوم بين المذاهب من فوارق تتعلق بالملبس والزواج والعمل، بل تتعلق حتى بالمصافحة بين الرجال والنساء. ذلك أن ملبس العديد من المسلمات مَلْبس مميَّز، غالباً ما يشكّل الدليل المباشر الوحيد على الحضور الإسلامي الذي يصادفه غير المسلمين من الأميركيين. إنه يشبه، إلى حدٍّ بعيد، اللباس التقليدي للراهبات الكاثوليكيات: جلباب طويل فضفاض، وشعر مغطّى، محجوب بغطاء رأس مشدود، مربوط تحت الذقن، فلا تكشف المرأة سوى وجهها وكفيها. وكثيرات منهن يغطين شعورهن بمنديل فضفاض، شأنهن شأن الراهبات الكاثوليكيات اللواتي اعتمدن مؤخّراً لباساً أقل محافظة. في حين تعتمر كثيرات من ذوات الأصول الأفريقية قبعات أو "عمائم" نسوية، قد لا يدرك من يراهنّ بها أنهنَّ مسلمات. لكن من النساء من لا ترتدي غطاء الرأس إلا في المساجد أو أثناء الصلاة.

وأما لباس المسلمين من الرجال، فهو أقلُّ تميُّزاً، مع أن قلةً منهم، ولا سيما أئمة المساجد والمعلمين في المدارس الإسلامية، يعتمرون العمائم أو القَلَنْسُوات والجلابيب الطويلة. ويعتقد بعض المسلمين أن إطلاق اللحى من المتطلبات الدينية، ولكن لا إجماع على ذلك. وهناك، بين المسلمين الراشدين في مسقط رأسي، اثنان حليقا الذقن، وثمة ثالث أطلق لحيته، ورابع حفَّها.

وقد أكَّدت لي زينب البَرِّي أن الإسلام يشترط في الملبس أن يكون محتشماً، للرجل والمرأة. بيد أنها أقرَّت بأن النساء قد يختلفن بشأن تحديد ما

هو محتشم. صحيح أن أكثرهن لن يفكرن بارتداء مجرد صديرية أو بنطلوناً قصيراً، غير أنّ كثيرات يرفضن ارتداء اللباس المحافظ الذي لا يكشف إلاَّ عن الوجه والكفين. ولكن من النادر أن تخرج المسلمات إلى الأماكن العامة مكشوفات السواعد أو السيقان. ويضيف زوجها نور ناصري: "إن الإسلام لم يفرض يوماً نوعاً معيّناً من الملابس التقليدية". إلا أن هناك قاسماً مشتركاً بين الأزياء التي يظهر بها المسلمون في العالم، ونعني انعدام الغلو في تعرية الجسد اللافتة للأنظار. إن الكلمة الوجيهة التي بإمكانك استخدامها بلا تحفظ، لوصف ملبس الرجال والنساء المسلمين الملتزمين، هي "الحشمة".

في تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٩٩٦، لبَّيت، في الأردن، مع زوجتي لوسيل، دعوتين للعشاء في بيتين مختلفين. كان معظم المدعوين مسلمين، لكن أياً من النساء لم تكن تعتمر غطاء للرأس. وفي عشاء رسمي حضره أكثر من ثلاثمِائة من الرجال مع زوجاتهم، معظمهم مسلمون، قلة من النساء كنَّ يرتدينه. ان كثيراً من النساء يرتدين ثياباً محتشَمة كخيارٍ شخصي.

وذات يوم، كنا نعبر الريف الأردني، فبادرت سائقنا، وكان رقيباً في الجيش الأردني يدعى سميح مجالي، وهو متزوج وأبٌ لثلاثة أطفال، بسؤال عن النساء المتزوّجات في بلدته الكرك، إحدى كبريات المدن الأردنية: هل يرتدي معظمهن ملابس محتشمة، فأجابني: "أجل، وزوجتي واحدة منهن . إنها لا ترتدي الثياب المحتشمة بناءً على طلب أبيها أو أمّها أو زوجها، بل لأنها ترغب في ذلك".

وكنت قد سمعت تعبيراً عن شعور مماثل في مناسبة سابقة، استتبع نقاشاً حاداً زادني معرفة. فبعد ملاحظات أطلقتها أمام جمهور من المسلمين في شيكاغو عام ١٩٩٧، اقتربت مني امرأة محجّبة تلبس ثوباً طويلاً، وقالت: "لقد اخترت هذا الزي لأنني أودُّ ذلك. ولو أردت لاخترت لباساً غربياً محتشماً، وظَلَلْت منسجمة مع الإسلام. ليس هناك إساءة معاملة للمسلمات، ولا تمييز بحقِّهنَّ: فلنا الحق في التعلُّم والقيام بأعمال خاصة بنا، وامتهان ما نريد. ولنا، بعد الزواج، أن نحتفظ بأسمائنا، ونُدير أي ثروة قد نملكها، كما يحق لنا أن نطلّق".

اعترضت قائلاً: "لقد سمعت أن حصول الرجل على الطلاق أسهل من حصول المرأة عليه"، فأجابتني: "هذا صحيح في بعض المجتمعات الإسلامية، لكن حتى هناك، تستطيع المرأة أن تحتفظ بالعصمة في يدها عند إبرام عقد الزواج. أما في أميركا، وفي معظم البلدان الأخرى، فللمسلمة، بشأن الطلاق، الحقوق نفسها المعطاة لغير المسلمات. وبمناسبة الكلام على الطلاق، نوضح أن هناك سوء فهم للتعاليم والتقاليد الإسلامية بشأنه. فقد قال النبي محمد ﷺ [ما معناه]: إن الطلاق، لزوجين غير متآلفين، أفضل من الاستمرار في الزواج. ليتذكر المسيحيون أن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية حرَّمت الطلاق على مدى قرون، فأدَّى ذلك إلى أحد أعظم الانشقاقات في تاريخ المسيحية".

وطرحت مسألة نمطية أخرى عن الإسلام، فقلت: "منذ فترة، خلال لقاءٍ لنادي "الروتاري"، سمعت امرأة تقول، ولعل قولها من المزاح: يفترَض في المسلمة أن تمشي على مسافة خطوة أو خطوتين وراء زوجها عندما يكونان في مكان عام. وأنا متأكد أنها مخطئة". وبالكاد أمْسَكت ضحكتها، وقالت: "هذا غير صحيح على الإطلاق. المرأة تمشي إلى جانب زوجها، متساويين. قال الرسول ﷺ ما معناه: أن الزوج وزوجته متساويان "كَسِنَّيين من أسنان المشط"". وجفلتُ عندما سمعت ما قالت، إذ إن لوسيل تذكّرني معظم الأحيان بأني أسبقها عادةً بعدة خطوات عندما نسير جنباً إلى جنب، وهذا ناجمٌ عن عادة درجت عليها في المشي بأقصى سرعتي، لا عن إحساسٍ بأني أفضل منها.

هل هناك فعلاً حديث للنبي محمد ﷺ عن أسنان المشط ؟ ربما كان ذلك صحيحاً، وربما كان غير صحيح. لكن البحث عن الحقيقة يكشف ضخامة حجم الأحاديث النبوية (الشريفة)، فهناك آلاف منها منسوبة إلى النبي ﷺ: بعضها صحيح موثوق، وبعضها ضعيف مشكوك فيه. ويشير نور ناصري إلى أربع فئات من الأحاديث الشريفة، تصنَّف أولاها كأحاديث صحيحة محقَّقة، وثانيها حسنة، وثالثها ضعيفة، ورابعها مدسوسة. وجميع هذه الأحاديث رويت مشافهة على مدى السنين، قبل أن يصار إلى تدوينها.

ويتذكر ناصري، منذ أيام صباه، إشارات متكررة إلى حديث المشط. فالإمام

محمد الحانوتي، وهو فقيه علاّمة من واشنطن العاصمة، يقول إنه ورد في مدوَّنة تاريخية، لا يعتبرها المؤرخون موثوقة عن النبي ﷺ، أنه قال، دون أن يشير إلى الجنس: "الناس سواسية كأسنان المشط". وإذا كان هذا صحيحاً، فمن المنطقي أن الحديث يشمل الزوج وزوجته.

ويتقبَّل نور ناصري ما أجمع عليه علماء المسلمين، بشأن ما قاله النبي ﷺ من أن الزوج والزوجة متساويان كسِنَّيِ المشط، أنه يعني أن الرجال والنساء، المتزوجين منهم والعازبين، متساوون في الحقوق التي منحها الله (عزَّ وجلَّ) للناس جميعاً، وفي الواجبات التي ائتمنهم عليها، بوصفهم خلفاءه في الأرض. فمن الواجب أن يتعاون الذكر والأنثى تماماً، كل بأقصى طاقته، كتعاون أسنان المشط في عملية التمشيط، إذا جاز التعبير. عليهما أن يتعاونا، ضمن إطار العائلة الواحدة، وضمن المجتمع ككل".

قد يعتقد القارئ أن النقاش الذي حصل هو تمحيص لا ضرورة له، لكنه في الحقيقة يبرهن دقة التحقق وعمقه في ما قاله النبي ﷺ وفي ما عناه.

لا يتضح دائماً للغرباء أن هناك مساواةً بين الرجل والمرأة في الإسلام. ومن أسباب ذلك أن ما يشاع، من أفكار مُقَوْلبة، ينتشر على نطاق واسع، دون أن يحاول أحد تصحيحه. مثلاً على ذلك وجوب سير المرأة وراء زوجها.

بل نجد هذه الأفكار النمطية المقولبة في الكتب الدراسية. مثلاً، في كتاب "الزواج والعائلة: مقدِّمة موجزة" للمؤلفين دايفيد نوكس وكارولين شاخت، أقوال غير دقيقة تحرّف معتقدات الإسلام وتقاليده، منها:

"على المرأة التي تسير مع زوجها أن تمشي وراءه على بعد خطوات".

"أثناء تناول الطعام تأكل المرأة بعد انتهاء الرجال".

"في حضور الآخرين يجب ألاّ تتكلم المرأة مع زوجها أو أن تحدِّق إليه".

وهاكم العبارات الأكثر إهانة للمرأة:

"في الإسلام، وهو أكثر الأديان المعاصرة خضوعاً لنفوذ الرجل، ليست المرأة سوى أداة لإنتاج البنين".

وأشير هنا الى أن دار النشر "وادزوورث"، التي تقدم الكتب المدرسية لفروع في العلوم الإنسانية والاجتماعية وعلم السلوك لمرحلة ما بعد التعليم الثانوي، قد أوقفت توزيع الكتاب، وأرسلت قوائم تصحيح الأخطاء إلى المشترين الأفراد، وإلى مراكز بيع الكتب وتوزيعها، مصحِّحةً فيها هذه الادّعاءات. ويفترض أن تلحق قوائم التصحيح بالنسخ الموزعة. غير أن الأذى قد حصل، لأن الصفحات غير المُثْبتة في الكتب تُفْقد عادةً منها، ولا تبقى إلا كتب يعاد طبعها فيجري تصحيحها[١].

لقد أتت محاولة وادزوورث لتصحيح الغلط تجاوباً مع الاحتجاج الذي قدَّمه إبراهيم هوبر، مدير الاتصالات في مجلس العلاقات الإسلامية الأميركية، (CAIR) ومركزه في واشنطن. لقد كتب هذا المدير رسالة يقول فيها: "إن هذه الدعاية المناهضة للإسلام موجهة إلى طلاب قابلين للتأثر. وهذا ما يجعل الوضع أكثر إثارة للقلق. فمنذ أكثر من ألف وأربعمِائة سنة، ألغى الإسلام حالة العبودية التي كانت تعانيها النساء، وحرَّم عادة وأد البنات الجاهلية، ومنح المرأة كل الحق في إدارة شؤونها المالية وممتلكاتها. ومن الحقوق الأخرى التي منحها إيّاها حق الإرث، وحق طلب الطلاق، وحقها في أن تكون ربة عمل"[٢].

وثمَّة تصورات نمطية أخرى طرحت مؤخراً على طلاب في الصف السادس الابتدائي، وكوَّنت مشكلة لصبي مسلم في الثانية عشرة من العمر، يتعلم في مدرسة "هاستينغز" المتوسطة في آرلينغتون العليا بولاية أوهايو. لقد طلب الأستاذ سكوت هول، من كريم ورفاق صفّه، أن يجروا، في مسابقة خطية، "مقارنة بين معاملة النساء في بلدان الشرق الأوسط ومعاملة النساء في الولايات المتحدة". أخبر الصبي والده تيمور الحسيني بأنه أجاب عن السؤال كتابةً بقوله:

---

(١) بعض الناشرين الآخرين أساءوا إلى الإسلام. ففي عام ١٩٩٧، سحبت دار النشر (Capstone Press) في مينيسوتا، ودار (Simon and Schuster) في نيويورك، كتباً تتضمن معلومات خاطئة عن الإسلام والثقافة الإسلامية، بناءً لطلب CAIR.

(٢) CAIR Alert, 11-99.

"في الشرق الأوسط لا يأكل الرجال والنساء معاً، وتسير النساء وراء أزواجهنّ وفقاً للدين الإسلامي". ذهل والده وسأله: "أهذا ما علموك إيّاه في المدرسة؟"، فأجابه: "نعم. لقد عرض علينا السيد هول شريط فيديو في المدرسة علّمَنا ذلك". فاعترض الأب قائلاً: "لا شك في أنك تعلم أن الإسلام لا يفرض على النساء أن يمشين خلف أزواجهن، كما لا يمنع النساء والرجال من أن يتناولوا الطعام معاً. قال كريم نعم أعلم، لكني أردت أن أحصل على علامة جيدة في الامتحان. ومع أن إجابتي كانت غير صحيحة، فأنا أعرف أن السيد هول سيجدها صحيحة"(١).

لقد أرسل الحسيني رسالة احتجاج إلى المدرسة، فقامت إدارتها بسحب شريط الفيديو المهين للإسلام من مكتبة المدرسة، وأعلن أستاذُ الصبيّ كريم، أمام الصف، أن المعلومات التي وردت في الشريط غير صحيحة؛ كما وعد رئيس المدرسة والد كريم أنه سيجري التدقيق في كل مادة إعلامية بعناية.

يجيز القرآن للمسلم الزواج بأربع نساء. ومع أن "سلام المراياطي"، وغيره من مسلمي الولايات المتحدة، يرفضون ذلك باعتباره مغلوطاً، فإن هذه الإجازة أضحت معروفة من قبل غير المسلمين ومثيرة للقلق، تماماً مثل التصورات المغلوطة التي ذكرناها آنفاً. بيد أنهم قلّما يعرفون الشروط القاسية التي يفرضها القرآن على من يريد أن يعدِّد زوجاته: إنه يحذره من شديد العقاب في الآخرة إذا لم يعدل بين زوجاته في المعاملة والنفقة عدلاً مطلقاً، وهو شرط مستحيل عملياً.

ومن الأردن كتبت إبريل زوشيت" (April Szuchyt) تبين وجهة نظرها الخاصة عن تعدّد الزوجات فتقول: "لما نصّت الآية القرآنية (الكريمة) على تعدد الزوجات، كان لذلك هدفان: الأول تحديد عدد الزوجات، اللواتي يحق للرجل الزواج منهنَّ، بأربع فقط. ففي ذلك الزمان كان لبعضهم عشرون زوجة،

---

(١) Interview and written correspondence with Taymour El-Hosseiny, 1999.

وبعض الملوك المذكورين في الكتاب المقدس كان لديهم عشر نساء. والثاني، المساهمة في حل مشكلة النساء اللواتي أضحيْن أرامل، ويتامى، نتيجة للحروب التي قتل فيها كثير من المسلمين.

"في ذلك الوقت كان تعدد الزوجات يُعدّ واجباً اجتماعيّاً لا امتيازاً. ولا أستطيع أن أتصوّر نفسي وقد تخلَّيت عن أنانيّتي لأصبح زوجة بين عدة زوجات للرجل نفسه، لكني أعرف نساءً في هذه الحالة، وهن سعيدات متكيِّفات تماماً مع الوضع. وأرى لزاماً عليّ أن أضيف أنني أعرف كذلك حالات، يطبق فيها هذا "الواجب" تعسّفاً، منتهكاً حقوق النساء". وكتب آندرو باترسون: "لقد حصل ذلك قبل فترة طويلة من ابتداع الضمان الاجتماعي. إن تعدد الزوجات موجود في بعض البلدان الإسلامية، لكن نسبة من يمارسونه نسبة ضئيلة".

واستجابة للاستعلامات التي أجريتها مع عدد من معارفي في مصر والأردن والعربية السعودية، لم يتمكن أحد منهم من تسمية رجل يعرفه شخصيّاً متزوج بأكثر من امرأة. ولقد أخبرني مازن النشاشيبي، وهو سفير أردني متقاعد، فقال: "يأتي تعدد الزوجات من عادة قديمة أساساً، وستجده هذه الأيام، إن وجدته، غالباً في مناطق صحراوية نائية". وقال: إنه كان سابقاً للإسلام بسنين عديدة، ولم يمارَس أساساً إلا بسببٍ من ظروف الحياة القبلية في تلك الحقبة.

ويعتقد بعض الأميركيين أن تعدد الزوجات يمارَس على نطاق واسعٍ، في أوساط المسلمين في الولايات المتحدة، وفي البلدان الإسلامية على حدٍّ سواء. لكن زعماء المسلمين الأميركيين يؤكدون ان تعدد الزوجات عمل لا يُغتفر، لأنه يشكل خرقاً للقانون العام، وهو نادراً ما يحصل في أوساط المسلمين الأميركيين. أما حالاته النادرة في أميركا، فأفضل ما يقال فيها انها شاذة منحرفة.

كما أن عبد الرحمن العمودي، وهو شخصية بارزة في الشؤون الإسلامية، ومدير مؤسسة مجلس المسلمين الأميركيين، الكائنة في واشنطن، يوافق على ندرة حصول تعدد الزوجات بين مسلمي الولايات المتحدة، ويقول: "الواقع

أنني لم أسمع قط بأن مسلماً من الولايات المتحدة عدَّد زوجاته. فحيثما يحصل ذلك، تكون العواقب وخيمة. إذ لا يعترف القانون العام في الولايات المتحدة إلا بزوجة واحدة. فلا حقوق عائلية إطلاقاً لأيّ زوجة إضافية"[١].

أما الدكتور سليمان نيانغ، الأستاذ في جامعة "هوارد" بواشنطن العاصمة، والخبير في ديموغرافيا المسلمين، فيعتقد أن معتنقي الإسلام في الولايات المتحدة، المتورطين في تعدد الزوجات، إنما هم قلة قليلة لا يزيد عددهم على ألف، "معظمهم من الفقراء الافريقيين ـ الاميركيين غير المتعلمين، الذين يعيشون في المدن الداخلية. وقد لا يكون هؤلاء ذوي اطّلاع تامّ على قيود لهذا التعدّد فرضها القرآن، أو القانون العامّ". ويرى الدكتور سليمان أن الرجال يقبلون بصمت أن يكون لهم أكثر من "زوجة" واحدة، لا كفريضة دينية، بل لزيادة مداخيل الأسرة بحيث يستفيد الجميع. ويجد أن هذا التدبير، الذي تلجأ إليه قلة قليلة مِمَّن يتخذون غير زوجة في الولايات المتحدة، ويسمون أنفسهم مسلمين، إنما هو تدبير عرفي وسري، خلافاً لما هي الحال في بعض البلدان الإسلامية، حيث يمارس تعدد الزوجات بموافقة الشرع والقانون[٢].

يقول سلام المراياطي: "من الطبيعي أن تعدد الزوجات مخالف للقانون في أميركا؛ لكن، بالنظر إلى أن عدد المسلمين الأميركيين، يناهز الستة ملايين نسمة، فَعَليّ أن افترض أن بعضهم يمارس تعدد الزوجات. والذين يمارسون تعدد الزوجات يكونون، على الأرجح، غير متعلمين، فقراء منعزلين عن غيرهم من المسلمين"[٣]. ويتوافق المراياطي والعمودي على أن الإسلام يفرض على المسلمين الخضوع لقوانين البلد الذي يعيشون فيه. فمن غير المحتمل أن يتعمّد عدد كبير منهم خرق القوانين الأميركية التي تحرِّم تعدّد الزوجات.

وتشير مجمل المعطيات المتوافرة إلى أن عدد المسيحيين الذين يمارسون

---

(١) Interview, 1-18-2000.

(٢) Interview with Sulayman Nyang, 1-19-2000.

(٣) Interview, 1-28-2000.

تعدد الزوجات، في الولايات المتحدة، أكبر من عدد المسلمين الذين يمارسونه: إنها حقيقة واقعية قد تدهش الكثيرين من معتنقي المسيحية وتزعجهم.

هناك ٢٠ ٠٠٠ مسيحي أميركي يمارسون تعدد الزوجات علناً في الولايات الغربية. وقد يصل العدد الإجمالي إلى ٣٥٠٠٠ مسيحي، معظمهم من طائفة "المورمون" الأصولية المتشدِّدة، لأن لهم روابط متوارَثة بـ "كنيسة يسوع المسيح لقديسي اليوم الأخير"، وهي طائفة طالما سمحت بتعدد الزوجات حتى قرن مضى، حين حرَّمته الكنيسة، كما حرَّمته القوانين.

وهناك على الأقل ألف مسيحي أميركي مِمَّن لا رابط بينهم وبين طائفة "المورمون" يمارسون تعدّد الزوجات علناً، ويستشهدون بمقاطع من العهد القديم، تبرِّر تصرفهم هذا، بل يموِّلون عدة مواقع على "الإنترنت" تشجع على تعدد الزوجات[١].

قلَّما يدرك غير المسلمين أن اعتراض بعض المسلمات على مصافحة رجل لا يكون من محارمهنَّ، إنما يعود إلى التقاليد. ويرى قسم من المسلمين أن النبي محمداً ﷺ حثَّ على الامتناع عن مصافحة النساء (الأجنبيات)، في حين يرفض مسلمون آخرون هذا التفسير. فالإمام محمد الحانوتي يجد أن هناك إجماعاً واسعاً على أن مصافحة غير المحارم من الجنس الآخر ليست منافية للشريعة، بل هي "غير مستحبة، وينبغي تجنُّبها ما أمكن".

خلال زيارة قمت بها مؤخّراً إلى المملكة العربية السعودية، التقيت اختصاصيتين مسلمتين في الأمراض الجلدية، تختلفان في الموقف من المصافحة. فكلتاهما استخدمت يديها لتفحص رأسي وكتفي بحثاً عن القوباء الموضعية ("زنَّار النار"). لكن عندما غادرت العيادة صافحتني إحداهما، فيما رفضت ذلك الطبيبة الثانية. وبما أنني واجهت مثل هذا التحفُّظ من مسلمات أخريات، فإنني لم أُلقِ بالاً إلى ما حصل؛ ولكنها اتصلت بي هاتفياً قبيل

---

(١) Hannah Wolfson, AP 1-14-2000.

مغادرتي المستشفى لتتأكد من تفهُّمي، ولتؤكد أنها تصرَّفت من منطلق ديني، وأنها لا تريدني ان أعُدّ ما بَدَر منها تصرّفاً تعوزه الكياسة.

لي صديق أردني اسمه ضيف الله هنداوي. نشأت صداقتي له منذ زيارته الولايات المتحدة عام ١٩٩٠. تزوّج مؤخّراً، وهو يقيم في دُبَيّ. يقدم هذا الصديق تفسيره للمسألة على النحو التالي: "المسلمون من الرجال يتصافحون بحرية، لكنهم لا يبادرون إلى مصافحة النساء احتراماً لهنَّ وتشريفاً، في حين تعتبر معظم النساء أنه من غير اللائق لمس رجل لا يكون من محارمهنّ. أما الرجال، فيتصافحون، ويمسك بعضهم أيدي بعض، وإن كانوا من غير الأقارب".

إن عادةُ الامتناع عن مصافحة المرأة للرجال الذين لا يكونون من محارمها، لا تُحرج الرجال وحدهم، بل تحرج النساء أيضاً. فبينما كنت أحضر احتفالاً، في مخيّم للاجئين الفلسطينيين في الأردن، شاهدت محاسن محاسنة ترتدي زيّاً غربيّاً، مع صفوف المستقبلين لتحية إمامٍ من أئمة المساجد، وكان شخصية إسلامية معروفة في المخيّم. ولما جاء دور المرأة المذكورة، رفض الإمام مصافحتها، فأصيبت بالحرج وعادت إلى مقعدها، معلِّقةً على ما حصل أمام رفاقها قائلة: "هو الخاسر"!

من جهتها، لا تعتبر زينب البِرِّي عادة الامتناع عن المصافحة حكماً إسلامياً، وتضيف: "أحياناً يمتنع الرجال والنساء عن المصافحة إذا كانوا يستعدون للصلاة، لأنها تنقض الوضوء. والصلاة لا تصحّ دون غسل اليدين إلى المرفقين والوجه والرجلين، عمليّاً أو رمزيّاً. وتختلف مصافحة الرجال والنساء المسلمين اختلافاً بيّناً من بلاد إلى أخرى. ففي معظم البلدان، تعتبر المصافحة الطريقة العادية لتبادل التحية، لكن بعض المحافظين قد يعتقدون أنها غير ملائمة إلاّ بين الأقربين من ذوي القربى. وأمّا الطريقة الأكثر انتشاراً للتحية الشفهية، فهي كلمة "السلام عليكم"".

وفي مساء أحد أيام أيلول (سبتمبر) ١٩٩٩، كنت ألقي كلمة أمام جمهور

في قاعة محاضرات بمسجد من مساجد كاليفورنيا. كان الرجال في جهة، والنساء في جهة. وكان بينهم حاجز خشبي. وبعد انتهائي من إلقاء المحاضرة، تقدمت مني بضع نساء يرفلن في ثياب محتشمة ليرحبن ويشاركن في النقاش. وكان أن صافحني بعضهن، وأحجم بعضهن. واستعاضت المحجمات بالترحيب الشفهي. ومن عادتي أن أصافح كل من أقابل، وهذا ما أفعله عندما أبدأ المحادثة حتى مع مسلمات يلبسن الثياب الشرعية.

قالت إحداهن: "لا أفهم لماذا هذا الفصل بين الرجال والنساء في هذه المحاضرة، فنحن عادةً نختلط بحرية في مناسبات أخرى. لم لا نستطيع الجلوس معاً أثناء محاضرة ما ؟". ولما سألتُ إحدى الشخصيات القيادية الإسلامية المحلية، عن الحكمة من ذلك، كان الجواب: "نعتقد أن معظم النساء يرتحن لهذا التصرف"، ثم أضاف: "إنها التقاليد المتولدة جزئيّاً من متطلبات فصل النساء عن الرجال، خلال الصلاة في المساجد".

قد يعتبر الأميركيون، من معتنقي الديانات الأخرى، أن فصل الإسلام بين الجنسين في المساجد أمر غريب. لكنه كان، في وقت من الأوقات، شائعاً بين غير المسلمين في الولايات المتحدة. فالنساء، في بعض الطوائف المسيحية، ما زلن، حتى اليوم، يجلسن منفصلات عن الرجال في بعض الصلوات الدينية، ويعتمرن القبعات حال مغادرتهن المنزل، كما يلبسن ثياباً طويلة محتشمة طوال الوقت، وليس حين يجئن إلى الكنيسة. وتعتقد زينب البِرّي أن بعض أشكال الصلاة الإسلامية قد تغيرت تغيّراً طفيفاً عمّا كانت عليه: "فلم يكن هناك دائماً فصل دائم بين الرجال والنساء. ففي بداية الأمر، كانوا، في الأغلب، يقفون في الصف مع الرجال، وربما مجموعة من النساء ثم مجموعة رجال، وهكذا .. ثم رأى النبي محمد ﷺ أن الرجال يتشتت انتباههم لوجود النساء بينهم، فأمر بالفصل بين الجنسين".

يعلق آندرو باترسون على مسألة الفصل، هذه، فيقول: "ليست صلاة الجماعة مكاناً يلتقي فيه الصبيان بالبنات أو العكس. وهناك وصية متشددة ضد هذا المنحى في التفكير. فالصلاة صلاة وحسب، إنها عبادة لله". ويرى باترسون

أن النساء لا يقفن دائماً خلف الرجال أثناء الصلاة: "صحيح أن هناك فصلاً بين الرجال والنساء في أحد مساجد منطقة واشنطن العاصمة، لكن النساء يجلسن إلى يمين الرجال، وليس خلفهم. ويُتَّبَع ذلك في مساجد أخرى. وفي بعضها، يَفْصِل النساءَ عن الرجال ستار. وفي المؤسسة الثقافية الإيرانية في هيوستون، تتجمع النساء إلى يسار الرجال وخلفهم، ولكن ليس خلفهم مباشرة".

ويورد باترسون أن الفروق بين المسلمين السنَّة والمسلمين الشيعة هي، في الدرجة الأولى، فروق تنظيمية في الأساس. أما طقوس الصلاة، فقلَّما تختلف: "فالمسلمون الشيعة، عندما يسجدون يلصقون جباههم على أقراص من الطين المشوي خلال الصلاة: ليذكِّرهم ذلك بأنهم فانون، لن يعيشوا إلى الأبد، وأن أجسادهم ستعود إلى التراب الذي منه خلقت. كما أن الشيعة يصافحون الأقرب إليهم بعد الفراغ من كل صلاة. وفي مرحلة معيَّنة من الصلاة، يُمسك بعضهم أيدي بعض، ويرفعونها معاً بتناغم"[1]. والجدير ذكره أنه في مرحلة معيَّنة من مراحل القدَّاس الكاثوليكي الروماني، كما في بعض الكنائس البروتستانية، يصافح المتعبِّدون من يجاورهم.

عندما قمت مع لوسيل زوجتي بزيارة جنوب أفريقيا عام ١٩٨٩، وجدنا أن فصل الرجال عن النساء قد امتد ليشمل مكان العمل، وغرضه الحفاظ على شرف النساء وكرامتهن. وفي البناء الكبير الذي يشغله "المركز الدولي للدعوة الإسلامية"، والذي يرأسه أحمد ديدات، نجد أن الفصل بين الجنسين مبدأ مطبَّق في العمل: الرجال في طوابق معينة، والنساء في طوابق أخرى. وقد شرح لي يوسف بن أحمد ديدات قائلاً: "إن ذلك يخفّف من انشغال الذهن بالأمور الجنسية إلى الحد الأدنى". وبعد ظهر ذلك اليوم كشف للوسيل عن عادة متأصّلة أخرى، إذ رفض بكل تهذيب أن يوصلها بالسيارة إلى مزيّن نسائي يبعد عنا بضعة مبانٍ، لأن ذلك يعني أنه سينفرد بها في السيارة، وهذا، في حد

(١) Interview with Andrew Patterson, 4-23-1999.

ذاته، انتهاك لتعاليم الإسلام. وقال: إن كونها كبيرة في سن أمه لا يغيّر من الأمر شيئاً.

ولما زرنا، فيما بعد، منزل والديه، تحدث يوسف عن تقليد إسلامي آخر، متعلق بتوزيع المسؤوليات داخل العائلة المسلمة، فقال: "والدي رئيس المركز الإسلامي في البلد، أما في البيت فالرئيس هو أمي دائماً"؛ فابتسمت لوسيل وصفَّقت بحرارة.

ومؤخراً، أجريت مقابلة مع مسلمة في لوس أنجلس تعترض على فصل النساء عن الرجال عند إقامة الصلاة، معتبرة أن جلوسهنّ خلف الرجال يحطّ من قدرهنَّ، وقالت لي: "لم أدخل مسجداً منذ زمن طويل؛ فأنا أرفض أن يطلب مني الصلاة خلف الرجال".

وقَدَّمت سبباً آخر لامتناعها هذا، فقالت: "منذ عدة سنوات، في آخر رمضان، شهر الصوم، ذهبت إلى المسجد لآتي الزكاة (وهي حق مالي سنوي معلوم فُرِض لصالح الفقراء)، كنت أرتدي ثياباً كما أنا الآن"، وأشارت إلى زيّها الغربي الفضفاض والمحتشم، وتابعت قائلة: "وعندما اقتربت من الإمام حوَّل نظره عني ورفع يديه، ودعا بالعربية بما معناه: أستغفرك ربي لأني أثمت إذ نظرت إلى هذه المرأة غير المحتشمة الملابس. غضبت، وأدرت له ظهري وعدت إلى سيارتي وقدتها بعيداً. ومنذ ذلك الحين لم أدخل مسجداً قط".

ولما سألتها: أمَا تزال تعتبر نفسها مسلمة، أتى جوابها سريعاً حازماً: "بلا أدنى شك. إني مسلمة، أؤمن بالله وأؤدّي الصلوات الخمس في اليوم، وأصوم رمضان، وأتصدَّق على الفقراء". ثم أضافت قائلة: "إن الإسلام يفرض الاحتشام، ولا يفرض العباءات الطويلة وتغطية الرأس. أنا لا أنتهك إيماني إذا ما ارتديت ثياباً غربية ما دامت محتشمة". سألتها: هل الزيّ الغربي شائع لدى مسلمات أخريات، فقالت: "ليس في وسعي أن أجيب بالأرقام. لكن النساء اللواتي أعرفهنّ يلبسن كما ألبس، ونسبتهنّ تبلغ ٤٠٪ أو أكثر".

وفي ٣ آب (أغسطس) من عام ٢٠٠٠، تَصَدَّر صفحة الحياة الاجتماعية في

جريدة "ناشفيل تينيسيان" عنوان بارز هو: "توازن بين الموضة والإيمان: عرض أزياء يبرز جمال الأزياء الإسلامية (واحتشامها)". وللمرة الأولى في ناشفيل، عرضت أزياء إسلامية ملوّنة يصل سعرها إلى ٣٢٥ دولاراً، وذلك على مسرح قاعة احتفالات أمام جمهور استحسنها. واستهلت الكاتبة المحرّرة تسنيم أنصارية - غريس مقالها بالقول: "إن الأناقة للمسلمات شيء روحي. فالقرآن يشجعهن على أن يلبسن باحتشام، ويحجبن جاذبيتهنّ الجنسية، بحيث يقدرهنّ الناس من أجل شخصياتهنّ، لا من أجل المفاتن... هذه الثياب مذهلة: قماش قرمزي، وأحمر، وبرتقالي، وأزرق، مقصَّب بالذهب، وعلى الكتفين تنسدل أغطية رأس منسجمة مع الثياب حتى الكتفين، أو ترفع فوق الرأس في عمائم كالهالات. تنانير تلامس أذيالها الأحذية". وقالت خديجة مجيد، وهي معلّمة من المغرب حضرت العرض: "يعتقد كثير من الناس أن النساء المسلمات لا يرتدين إلا الملاءات السوداء والبيضاء. أحب أن أتأنّق وأرفل بالألوان الزاهية".

من الممكن أن نفهم لماذا لا تبادر المسلمات إلى تفسير ما يلبسنه، لكني وجدتهن مستعدات، دائماً، للإجابة بسرور عن أي أسئلة متعلقة بوجوه إيمانهن. والمؤسف: أن معظم الأميركيين طرحوا أسئلة كهذه؛ والمسلمات، مَثَلُهن في ذلك مَثَل غير المسلمات، نادراً ما يبادرن إلى التحادث مع الرجال.

وفي السنوات الماضية، غالباً ما تساءلت: لماذا تغطي بعض المسلمات رؤوسهنَّ ويضعن خِماراً على وجوههن، في حين لا ترتدي مسلمات أخريات إلاَّ حجاب الرأس، ولا يرتدي بعضهنَّ الثالث لا هذا ولا ذاك. وأعترف أنني، بعد مضي عشر سنوات كنت فيها على علاقات وثيقة بالمسلمين، لم أعرف الجواب، ولم أحاول أن أسأل، حتى شرعت في تأليف هذا الكتاب.

هناك عدم توافق بين المسلمين حول كون الحجاب، من الناحية الدينية، أمراً مفروضاً على النساء. فبعضهم يصر على أن النص واضح لا يقبل التأويل. بيد أن الاعتراض ينشأ عن تفسيرات متباينة لِمَا أمر به النبي محمد ﷺ منذ قرون. من جهته، يعتقد سلام المراياطي أن هناك مجالاً لتباين الآراء حول موقف النبي ﷺ: "لكن المسألة المهمة هنا هي أن على الذين يعُدُّون الحجاب أمراً دينياً مفروضاً أن يحترموا رأي الذين لا يَعَدُّونه كذلك، والعكس صحيح".

لقد شكَّل ما قام به مدير مسيحي لمدرسة عامة في تكساس سابقة تُحتَذى في أوائل سنة ٢٠٠٠، عندما طالب بالسماح لفتاة مسلمة بأن تلبس الحجاب خلال مباراة لكرة قدم: فقبل دقيقتين من بدء المباراة، أنذر الحَكَم الرئيسي مدرِّبة فريق فتيات مدرسة سام هوستون الثانوية بأن على إحدى الفتيات المتحجبات أن تنزع حجابها أو تغادر الملعب. ولم يُشر هذا الحكم، وهو عضو في الاتحاد العام لكرة القدم في تكساس، إلى ما ارتدته الفتيات الأخريات. وكانت الفتاة التي أُنذرت ترتدي بنطلوناً رياضياً طويلاً، وقميصاً طويل الكمَّين، إضافة إلى حجاب الرأس، بحيث لم يظهر منها إلاَّ وجهها وكفَّاها، التزاماً منها بما يتطلبه الإسلام من احتشام في الزي. كان الإنذار الذي وجَّهه الحكم مفاجئاً ومزعجاً في الوقت نفسه: فالفتاة من اللاعبات المنتظمات في الفريق، وقد سبق لها أن لعبت محجبة خمس مباريات سابقة خلال ذلك العام، دون أي اعتراض من الحكام المنتمين إلى الاتحاد نفسه.

وعندما أبلغ المدير ريكي كِمب بالإنذار، بُعَيْد وصوله إلى الملعب، طالب بالسماح لها باللعب بثيابها ذاتها. فرفض الحكم بحجة أنَّ "حجاب الرأس ضد القوانين التي ينبغي أن تطبَّق"، لكنَّ المدير، وهو عضو في "كنيسة المسيح"، أصر على موقفه قائلاً: "إنَّ قوانين لعبة كرة القدم لا يجوز أن تخرق القانون الفيدرالي. للفتاة الحق في التقيد بالمتطلبات الدينية، استناداً إلى التعديل الأول من الدستور، وبموجب القوانين العامة المناهضة للتمييز الديني". وهنا، هدَّد كمب برفع دعوى أمام المحكمة الفيدرالية، فتراجع الحكم وسمح لها باللعب مرتدية الحجاب. فيما بعد، أعلنت "رابطة كليات جامعة تكساس" دعمها لموقف المدير، وهي المنظمة التي تضع قوانين لعبة كرة القدم في الولاية. كما أصدر "مجلس الشؤون العامة للسلمين" (MPAC)، ومركزه في لوس أنجلس، بياناً أثنى فيه على كمب لاتخاذه "موقفاً مع الحرية الدينية.." و"..التعددية"، ولأنه برهن عن "شجاعة الوقوف مع ما هو حق"[١]. وفي وقت لاحق، قال كمب: "لا الدين الإسلامي، ولا زي المسلمين، هما نقطة خلاف في ثانوية

(١) Interview with Kempe, 2-11-00; and e-mail from MPACUSA 2-9-2000.

سام هوستون. أنا مدير هنا منذ أربع سنوات. وبحسب معلوماتي، حاول تلميذ، مرة واحدة، أن يسخر من الفتيات المسلمات اللواتي يرتدين الحجاب دائماً". وقدَّر أن هناك مائة تلميذ مسلم من أصل ألفين وخمسمائة، وقال: "التلاميذ المسلمون مجتهدون وفي طليعة صفوفهم، وهناك ثلاث تلميذات أو أربع محجبات ولا بأس عليهن في ذلك". لم يشتكِ أحد من الطريقة التي حل بها المدير الخلاف على ارتداء الحجاب أثناء اللعب، "ويسرني أن أقول إنني تلقَّيت زهاء ثلاثين رسالة إلكترونية تدعم كلها موقفي. ولم أتلقَّ أي اعتراض".

ولقد عرض لنا نور ناصري خلفية مسألة الحجاب التاريخية، فقال:

"إن الخمار الذي يغطي وجه المرأة تقليد حضاري قديم في بعض البلدان الإسلامية، لكن لا علاقة له بالإسلام إطلاقاً. فما من نصّ مقدّس يفرض وضع الخمار أو حتى يوصي بوضعه. وقد تعوّدت النساء في الجاهلية وصدر الإسلام، في بلاد العرب، أن يعتمرن نوعاً من غطاء الرأس ينسدل منه خمار، وكان يشار إلى الاثنين بكلمة "حجاب". وكان ما سُمِّي بالحجاب ينسدل على ظهورهن حتى خصورهن، وأدنى منها.

"لقد نصَّ القرآن (النور: ٣١) على أن تغطي النساء الجزء الأعلى من صدورهن وصدورَهُن نفسها، بخلاف ما كانت عليه الحال قبل الإسلام، إذ كنَّ آنذاك يكشفن الصدور. أمّا "مقاتل"، وهو أحد المفسرين الثقات للقرآن، فقد فسَّر ذلك بقوله: إنَّ كلمة "فوق النهدين" تعني "فوق الصدر"، حيث مكان "الجيوب" [ففي ذلك الحين] كانت العرب [رجالاً ونساءً] يجعلون جيوبهم على صدور ثيابهم [زيادة في الاحتراز] ... فـ "الحجاب" هو أصلاً ما يستعمل لتغطية الرأس [لا الوجه]. أما الكلمة العربية "جيْب" (وجمعها جيوب) فتعني فتحة جيب أو فتحة عنق الثوب؛ وأحياناً تعني قميص المرأة. وما يعنينا هنا ما أشار إليه "مُقاتل" من وجوب تغطية الصدر لا الوجه.

"أما غطاء الرأس الذي يعرف بالحجاب، فمسألة أخرى: أولاً، ما من نصَّ محدّد في القرآن يفرض على النساء تغطية شعورهنَّ. فإذا نظرنا في سورة

النور (الآيتين ٣٠ و٣١)، وجدناهما تنصّان على الاحتشام في لباس كلٍّ من الرجال والنساء على حدٍّ سواء. إلاَّ أنَّ كثيراً من المسلمين يعتبرون غطاء الرأس مفروضاً على المرأة دينياً، وهم يستشهدون على ذلك بما أمر به النبي محمد ﷺ في أحد أحاديثه (الشريفة) إذ قال: "إنَّ المرأة إذا بلغت المحيض لن يصلح أن يُرى منها إلاَّ هذا وهذا" وأشار إلى وجهه وكفيه. لقد أكَّد لي والدي "محمد مكي ناصري، وهو رفيع المقام بين رجال الدين المسلمين في المغرب، أن من غير الواضح ما عناه النبي عندما أشار إلى وجهه، إذ ربما كان الرسول ﷺ يعني الوجه أو الرأس كله (بعض الباحثين الإسلاميين يعارضون هذا التفسير)، وهنا مكمن استمرار الخلاف.

"يعتقد المسلمون عموماً بأنه يجب اعتبار أوامر النبي ﷺ واجبات دينية، لأن القرآن أمرهم بذلك. لكن، بما أنَّ الأمر لم يكن واضحاً، فقد رأى بعضهم أنه قابل للتأويل. فمثلاً، زوجتي زينب البِري لا تضع غطاءً على رأسها إلا أثناء تأديتها الصلوات الخمس أو عند دخولها المسجد".

ذكَّرني توضيح ناصري بما لاحظته من فروق في اللباس لدى عائلات منتشرة في بغداد وديربورن: فجميع النساء كنَّ سافرات؛ وفي عائلة بزي، ارتدت الحجابَ وثياباً طويلة الأم وبنتٌ واحدة من بناتها الثلاث؛ أما البنتان الأخريان، فقد ارتدت كل منهما ثوباً على الطراز الغربي، وكانتا مكشوفتي الرأس، تماماً كفتيات عائلة الخفاجي اليافعات في بغداد. وهو أمر منتشر بين الفتيات من أترابهنّ في العاصمة العراقية وفي ديترويت، على حدٍّ سواء.

وذات يوم، انخرطت شابات مسلمات معي في نقاش سياسي في ردهة فندق من فنادق ديربورن. وقد لاحظت أن إحداهنّ تنفرد بارتداء الحجاب. وما لبثت أن لاحظت أيضاً أنهن، عندما وصلن إلى المسجد، كنَّ متحجبات كسائر النساء الحاضرات. لقد كانت النساء، أيام شبابي، يغطين شعورهن عندما يدخلن الكنيسة، وبعضهن حافظ على هذه العادة؛ ومعظم الكنائس تشجع المصلين على ارتداء الملابس المحتشمة، وبعضها يتشدَّد، فلا يسمح إلاَّ للمحتشمات

بدخولها. وقد لاحظت أيضاً، وأنا أجول في حاضرة الفاتيكان، أن اللواتي يرتدين التنانير البالغة القِصر، يُمنعن من دخول كاتدرائية القديس بطرس.

إن ملابس المسلمات في أميركا تحكي لنا تنوّع العادات السائدة في البلدان الإسلامية. ولا يبرز الفرق بين ما تفرضه الثقافة والتقاليد، (مثلاً حجاب الوجه)، وما يتطلبه الإسلام من احتشام الرجال والنساء على حدٍّ سواء في اللباس. فعادةً ما ترتدي الكثيرات من المسلمات ثياباً عادية خفيفة في المنزل. أما حين يغادرنه، فيرتدين ثياباً فضفاضة طويلة تتقيد بالمقتضيات الدينية.

إنني، خلال أسفاري المتعددة، لم ألاحظ تشابهاً كبيراً بين الملابس في ماليزيا، والملابس في جنوب أفريقيا، والملابس في الشرق الأوسط، مع أن الناس في المملكة العربية السعودية يرتدون ملابسهم التقليدية في المناطق الريفية والمدنية على حدٍّ سواء، في حين أن النساء كلهنَّ محجبات يغطين وجوههن أيضاً.

وخلال زيارة قمت بها مؤخراً إلى اليمن، لاحظت أن لباس المرأة، في الشمال، محافظ أساساً، وأن الرجال يرتدون عادةً أزياء غربية، وخصوصاً في المدن. ومعظم المتقدمات في السن يرتدين الأسود، في حين تلبس الشابات فساتين طويلة زاهية الألوان. لا قاعدة مطلقة، إذن. وفي فندق بمدينة تعز، كانت عاملة الاستقبال امرأة شابة مسربلة بالسواد، وقد غطّى وجهها برقع غير شفاف.

وتختلف عادات ملبس الرجال والنساء، في بلدان إسلامية أخرى، اختلافاً كبيراً. وصحيح أنها تميل إلى المحافظة في المناطق الريفية، إلاَّ أنني وجدت الرجال في المدن قد شاعت بينهم الثياب الغربية. حتى أزياء النساء كانت أحياناً غربية، لكنها دائماً محتشمة. في ماليزيا، البلد الإسلامي الوحيد الذي زرته خارج الشرق الأوسط وشمالي أفريقيا، يرتدي معظم الرجال الأزياء الغربية، في حين تتنوع ملابس النساء: فبعضهن يلبسن عباءات زاهية الألوان مع غطاء للرأس، في حين يلبس بعضهن الآخر ثياباً غربية دون غطاء للرأس. وأما في أفريقيا، فتسيطر الألوان الزاهية على أزياء النساء وعلى عمائم الرجال

وجلابيبهم. ويعتمر الرجال في غرب أفريقيا الكوفيات، في حين تضع النساء دثاراً على رؤوسهن، وجميعها زاهية الألوان.

وقد شرحت لي زينب البِرِّي مصدر هذه العادات، فقالت: "في صدر الإسلام كان عدد المسلمات قليلاً، وكنَّ عرضة لاعتداء رجال القبائل الوثنية عليهن. وقد أسهم تميُّز ملبسهنَّ في ضمان حمايتهنّ. ومنذ ذلك الحين، ما زالت أغلبية المسلمات يحبِّذن أن تحدد ثيابهن انتماءهن إلى الإسلام. وقد يوفر الأمر لهن بعض الحماية، لكن ذلك يعبّر أيضاً عن الفخر بدينهنّ. ولقد كنّا، إلى فترة وجيزة خلت، ننعت سكان أميركا الأصليين بالعراة المتوحشين، مع أنهم لم يكونوا عراة. واليوم، وعبر وسائل الإعلام، يبدو أنه كلَّما ازددنا عرضاً لأجسادنا، كنا أكثر تحضُّراً، فالأفضل هو أقلُّ الملابس! ويظهر أن الأزياء تتأثر بالسياسة والاقتصاد وبالموضة الباريسية، لتركيزها الآن على التنانير البالغة القصر. أما في الإسلام، فلم يتغير القانون الذي يقول إنه على الرجال والنساء الاحتشام في الملبس دائماً".

والعديد من النساء المسلمات اليوم "يؤيِّدْنَ حق الاختيار" في ما يتعلق بتغطية الشعر، في حين أن أخريات يعتقدن بوجوب ارتداء غطاء الرأس في الأماكن العامة، بما فيها أماكن العمل. وفي هذا الصدد، كتب الدكتور موسى قطب، مدير "مركز الإعلام الإسلامي" في دي بلاين بولاية إيلينوي، يقول: "لقد شرّع الله الحجاب ليحمي المرأة، وكي لا يحطّ من قدرها". واستشهد بالآية (الكريمة) التاسعة والخمسين من سورة الأحزاب التي تقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾؛ كما استشهد بالآية الكريمة الحادية والثلاثين من سورة النور: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾، [أي للأقربين].

وقد طبَّقت تركيا، ذات الأغلبية الإسلامية، سياسة مفاجئة بمنع النساء من تغطية شعورهن في بعض الأماكن العامة، واستمرت في فرض العادات الجديدة

المؤدية إلى العلمنة التي كان بدأها كمال أتاتورك مؤسس تركيا الحديثة. وتمنع الحكومة النساء من ارتداء غطاء الرأس في المدارس الرسمية وفي الدوائر الحكومية. وفي أيار (مايو) ١٩٩٩، اتخذ مجلس النواب التركي قراراً برفض عضوية نائبة محجَّبة، لأنها رفضت نزع الحجاب أثناء مراسم أدائها اليمين(١).

يمكن للضغط الذي يمارسه المحيط أن يكون عاملاً مقنعاً في خيارات المرأة. ففي إحدى الأمسيات، اقتربت امرأة مبرقعة مع ثلاثة أولاد في عمر المراهقة، ليتجاذبوا أطراف الحديث مع ابننا كريغ، في ساحة السوق بصنعاء، عاصمة اليمن. كانت تلك الحادثة غير عادية لامرأة يمنيّة، كما وصفها صاحب المخزن الذي كان واقفاً بالقرب منا. قدمت المرأة نفسها بأنها وأولادها من سكان مدينة ستوكتون بولاية "كاليفورنيا"، وقالت إن هذه هي زيارتها الطويلة الأولى إلى بلد مسلم. وعندما انضمَّت ابنتنا دايان إلى الحديث، أفضت المرأة، وهي مسلمة، بأنها أزمعت أن ترتدي ثيابها الغربية العادية، إلا أنها سرعان ما استعاضت عن ذلك بارتداء جلباب طويل وحجاب مع خمار يغطي وجهها. وقد فسَّرت ذلك بقولها: "لم يضطرني أحد أو يدفعني لتبديل ملبسي، إلا أن التحديق المتواصل جعلني أعود إلى لبس الزي التقليدي". وأضافت أن تجربة العيش في اليمن سبَّبت لأولادها صدمة، إذ كانوا يمارسون في كاليفورنيا رياضة التزلج، ويذهبون إلى السينما، ويرتادون مطاعم "ماكدونالد"، ويتسوقون في مراكز التسوق الضخمة. لقد بدأت مطاعم الوجبات السريعة بالظهور في العاصمة اليمنية، لكن لا توجد فيها صالات للسينما على غرار عمان والقاهرة.

وفي جامعة صنعاء، تجمَّعت الطالبات حول دايان، راغبات في التحدث إليها عن الثقافة الغربية. كن كلهن يرتدين ثياباً محافظة مع البراقع، ولكن دايان لمحت، بين الفينة والأخرى، قمصاناً قطنية زاهية، وأحذية عالية الكعب. وكعربون للصداقة وحسن الضيافة، قدَّمت لها إحداهن خاتماً. ولقد لاحظنا أن معظم الأساتذة كانوا يرتدون الزي الغربي.

---

(١) AP, 5-3-1999.

وفيما بعد، علقت دايان على الزي قائلة: "لم يكن البرقع مشكلة لي، إذ من السهل أن نرى من خلاله، والمرء يستطيع أن يعرف الكثير عن الناس بمجرد النظر إلى عيونهم". وعندما ذكرت ذلك أمام آندرو باترسون، وافق قائلاً: "قال النبي محمدﷺ إن العينين نافذتا الروح".

ويتلاءم زي المرأة المسلمة مع واجبات الصلاة. وتفسر البِرِّي أن "الزي النسائي الإسلامي يستجيب جزئيّاً لمتطلبات الصلاة الإسلامية؛ إذ يطلب من كل المسلمين المواظبة على أداء الشعائر الدينية يوميّاً، وليس ليوم واحد في الأسبوع. فهم مأمورون بتأدية الصلاة خمس مرات في اليوم، وفي مواقيت محددة. وهذا يعني أنه لا يفصل بين الصلوات إلاَّ فترات زمنية وجيزة. وكل صلاة يتكرر فيها الوقوف والركوع والسجود بعدد محدد يختلف بين الصلوات الخمس. بهذه الحركات، يُعلل وجوب أن تراعي المرأة الاحتشام، وأن تصلي خلف الرجل".

لقد حافظ المسلمون على عادات كانت ذات يوم شائعة في أميركا، بين غير المسلمين. بل نرى، حتى يومنا هذا، وفي بعض الملل المسيحية، أن النساء يجلسْنَ في الكنيسة منفصلات عن الرجال، ويرتدين ملابس محتشمة، ويغطين شعورهن ما دُمنَ خارج المنزل. وليس بعيداً ذلك الزمان الذي كان اللباس المحتشم فيه هو الشائع، للمرأة والرجل كليهما، سواء أكان ذلك في أماكن الاستحمام العامة، أم في الملاعب الرياضية على وجه العموم. إنني ما أزال أذكر، من زمن الصبا، صور لاعب التنيس إلزوورث فاينس، بطلي المحبوب، يعدو في الملعب ببنطلون أبيض طويل. أما البطلة آنذاك هيلين ويلز مودي، فكانت ترتدي زياً رياضياً محتشماً، يصل إلى ما تحت الركبتين.

ولجيل خلا، كانت النساء الأميركيات غالباً ما يرتدين البراقع على وجوههن، لا بسبب إلزام ديني، بل استجابة للتقاليد السائدة، كما هي حال النساء المسلمات اليوم. فالبراقع السوداء، مثلاً، كانت مناسبة تماماً لحضور الجنَّاز، في حين كان البرقع الفاتح اللون أكثر ملاءمةً لمناسبات أخرى. وأما في

القرن التاسع عشر، فقد تميزت أزياء النساء الأميركيات بطولها الذي يبلغ الكاحلين، وباعتمار القبعات.

وتفسر زينب البِرّي تقسيم العمل التقليدي في العائلة المسلمة، فتقول: "على الزوج المسلم تقع المسؤولية الأولى بتأمين متطلبات العائلة المالية، في حين أن الزوجة عليها رعاية الأولاد وإدارة شؤون البيت". والجدير ذكره أن العائلات الأميركية، قبل الحرب العالمية الثانية، كان يسودها توزيع المسؤوليات نفسه، إلا أن هذا التقليد ما لبث أن ضعف حتى التلاشي؛ فمعظم النساء اليوم، المسلمات وغير المسلمات، يتوجهن إلى العمل خارج البيت، ويسهمن في تحسين دخل الأسرة.

وقد تكون الشوفينية الذكورية أقل ظهوراً في الإسلام منها في بعض أماكن العبادة المسيحية واليهودية. في هذا الصدد، تقول رشا يوو، إحدى الجارات المسلمات الشابات: ليس في القرآن الكريم ما يمنع المرأة من أن تكون إماماً، إذ يمكن للمرأة أن تؤمَّ صلاة الجماعة، أو أن تقدّم الإرشادات الدينية لجموع من المؤمنين، سواء أكانوا نساء أم رجالاً أم مختلطين؛ مع أن النساء نادراً ما يتصدَّين لهذه المسؤولية. وإذا ما حدث أن أمَّت امرأة صلاة جماعة مختلطة أو صلاة جماعة للرجال، فإنها، من باب الاحتشام، تقوم بذلك من وراء المصلين. وفي أي حال، فإن هذه القواعد تكون ناجمة من العرف والتقليد، ولا تكون نابعة من القرآن (الكريم).

نرى في المقابل: أن الحاخامات المحافظين، والرهبان الكاثوليك والأرثوذكس الشرقيين، نراهم كلهم من الرجال. وهناك ملل بروتستانتية، تحتل فيها المرأة مواقع إكليركية منذ سنوات، لكن القيادة تبقى حصراً للرجل في ملل أخرى. ويورد جون ف. بو، وهو قيادي معمداني معروف من هيوستن، ومؤلف كتاب "The Struggle for Baptist Integrity"، أن القيادة الجديدة للمؤتمر المعمداني الجنوبي، أكبر التجمعات البروتستانتية، أعلنت، في عام ١٩٩٨، أن الملّة المعمدانية "تريد من النساء الخضوع" لأزواجهن. وقد أقرَّ المؤتمر تعديلاً

يعتبر اليوم إحدى مواد العقيدة الملِّيَّة، مضمونه: أنَّ على الزوجة تقديم فروض الطاعة لزوجها بكل كياسة[١].

لا يزال الإسلام يحتفظ ببعض التقاليد الأبوية التي تمارس التمييز ضد النساء. فالزوج المسلم يملك تلقائيّاً حق الطلاق، لكن للزوجة أن تحتفظ بالعصمة في يدها عند إبرام عقد الزواج. وعلاوة على ذلك، يمكن للمسلم أن يتزوج من مسيحية أو يهودية. أما المسلمة، فيحظر عليها الزواج من غير المسلم. وبحسب مسلم من معارفي، يُعتبر زواج المسلمة من غير المسلم عملاً باطلاً يدين المرأة، بل يعتبره بعضهم من الزِنى.

إنَّ القوانين المعارضة لمثل هذا النوع من الزواج قوانين مدعومة. ويبلغ دعمها من القوة، في بعض البلدان الإسلامية، أن الراغبين في الزواج يُضطران للسفر إلى بلد غير إسلامي لعقد زواجهما. ويقول أحد قادة المسلمين في الولايات المتحدة (وقد فضَّل عدم ذكر اسمه): "أخشى أن يكون فقهاء المسلمين، في هذا الموضوع، متخلفين عن مواكبة العصر الحديث، وأن ذلك سيظل مشكلة لوقت طويل". وقد تبدو هذه المشكلة غير ذات أهمية في الولايات المتحدة، حيث يتزوج العديد من المسلمات من غير المسلمين، خلافاً لما تفرضه القواعد الإسلامية.

أما في الميدان السياسي، فما حققته النساء في البلدان الإسلامية قد تغبطهن عليه النساء السياسيات في الولايات المتحدة. لقد لاحظت زينب البِرِّي أن كل رؤساء الولايات المتحدة ونوابهم كانوا حتى الآن من الرجال، في حين تمكَّنت المرأة من الوصول إلى أعلى مناصب الحكم من طريق الانتخاب في بعض البلدان الإسلامية، كالباكستان وبنغلادش وتركيا. وفي عام ١٩٩٩، انتخبت امرأة مسلمة هي ميغاواتي سوكارنو نائبة لرئيس الجمهورية. وفي عام ٢٠٠٠، مُنِحت سلطة مهمة من قبل الرجل الذي انتخب رئيساً. ومنذ عهد قريب، شغلت امرأة منصب نائب الرئيس الإيراني.

---

(١) Grace Halsell, *Forcing God's Hand*, p. 108.

وسواء أكانت النساء في الولايات المتحدة مسلمات أم غير مسلمات، فقد كان عليهن انتظار مِائة واثنين وثلاثين عاماً ليحصلن على حق التصويت. أما النساء في معظم البلدان الإسلامية،التي تعتمد الديموقراطية، فقد حصلنَ على حق التصويت، بالتزامن مع حصول الرجل عليه. وفي أيامنا الراهنة، تملك المرأة حق التصويت في كل الدول الإسلامية الواقعة في جنوب آسيا وفي بعض دول الشرق الأوسط وأفريقيا. ولعل الكويت هي البلد الإسلامي الذي يشكل استثناءً لافتاً. إن مجلس الأمة، المتكون كليّاً من الرجال، قد صوَّت، في كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩٩٩، ضد منح المرأة الكويتية حق التصويت في الانتخابات. فانحصر، بذلك، حق الترشُّح والانتخاب في الذكور الذين بلغوا الحادية والعشرين، أو حصلوا على الجنسية منذ عشرين سنة على الأقل[1].

ولكننا نجد، في ناحية من النواحي، ان المرأة غير المسلمة تحظى، الآن، بما كانت تحظى به المرأة المسلمة منذ زمن طويل، بفضل التقليد الإسلامي المتبع. فالعديد من المتزوجات حديثاً، من غير المسلمات، يخترن الإبقاء على أسماء عائلاتهن قبل الزواج، وهو أمر لم يكن معروفاً لجيل مضى. أما في الإسلام، فهذا التقليد يحميه القانون الإسلامي، وهو يمارس منذ قرون.

يرى سلام المراياطي أن الإسلام يعزّز المساواة. ويعزز، بالتالي، الانسجام والتراحم بين المرء وزوجته، "فالإسلام يعلمنا أن حواء لم تخلق من ضلع آدم، بل خلقت مساوية له. وبحسب ما جاء في القرآن الكريم، لم تكن حوّاء هي التي وسوس لها الشيطان لتغوي آدم وتُغريه بارتكاب الخطيئة، وإنما سقطا فيها معاً، وقد عفا الله عنهما معاً بعد أن استغفراه. وبحسب الإسلام، أيضاً، فقد خلق الله الذكر والأنثى من طين واحد ومن نفس واحدة". وأسْتشِهد بفريضتين شرعيتين فيهما فائدة للمرأة، الأولى: مالها وإرثها اللذان لا يحق للزوج التصرف بهما دون إذنها؛ والثانية: أن على زوجها مشاركتها في تحمل مسؤولية الأعمال المنزلية، وأن يؤمّن لها مدبِّرة للمنزل. وأضاف المراياطي:

(١) *USA Today*, 12-1-1999.

"والمؤسف: أن العديد من هذه الفضائل لا تُراعى في الواقع والممارسة، في عالمنا الراهن"[1].

وفي ما يتعلق بالفضائل التي تحققت، وتلك التي لم تراع، نَرَى أن المسيحيين واليهود، لو فكروا قليلاً، لأدركوا أن في ثقافتهم وتقاليدهم الدينية أموراً عديدةً مشتركة مع ثقافة المسلمين وتقاليدهم الدينية، ماضياً وحاضراً.

---

(١) *Los Angeles Times*, p. A15, 3-8-1996.



الفصل السابع

ربطٌ مزيّف بالإسلام

عندما أخبرت، عام ١٩٩٧، جمهوراً مسلماً في كاليفورنيا أن معظم الأميركيين يعتقدون أن النساء المسلمات يعاملن كأنهنَّ متاع، ويتعرَّضن للتميز وسوء المعاملة بسبب جنسهن، انفجرت النساء الموجودات بين الجمهور الساخط بالضحك قبل أن أنهي جملتي.

بعد الانتهاء من تعليقاتي، اعتلت إحدى النساء المنبر لتعلن بانفعال شديد أن النساء المسلمات يقفن على قدم المساواة مع الرجال، وتابعت قائلة: "إنه لمن الخطأ الاعتقاد بأنَّ الإسلام يقهر النساء ويعاملهن كأنهنَّ أدنى من الرجال. بعضهن يُظلمنَ بالطبع، ولكن قطعاً ليس بسبب أحكام ديننا".

وعَزَت هذه المرأة الاعتقاد السائد إلى الهوة السحيقة التي تحول دون التواصل بين النساء المسلمات في الولايات المتحدة وبين جيرانهن من غير المسلمين. إنَّ هذه الصورة المزيفة عن النساء المسلمات التي يتقبلها الأميركيون على أنها صورة دقيقة، ليست مادة مضحكة، كما أنه ليس مضحكاً وضع النساء في العديد من البلدان الأفريقية التي يعتبر عدد منها بلداناً إسلامية.

أما النساء اللواتي ضحكن خلال تقويمي، فلن يكنَّ مسرورات إذا علمن أن كثيراً من الأميركيين ـ وربما الملايين منهم ـ يلقون باللوم على الإسلام في عادتين يجدر وصفهما بأنهما اعتداء وحشي على النساء، وهما: "جرائم الشرف" عند ارتكابهن الزنا؛ وختان الفتيات الصغيرات.

وتنتشر "جرائم الشرف"، التي ترتكب ضد النساء اللواتي يُتَّهمن بالزنا، في

عدد من البلدان، وبعضها إسلامي كالباكستان والأردن، وفي بعض مناطق شبه الجزيرة العربية والهند. أما في أميركا الجنوبية، فيطلق على هذه الجرائم اسم "جرائم الانفعال".

ولأنَّ هاتين العادتين، أي "جرائم الشرف" والختان، موجودتان كلتاهما في بعض البلدان ذات الأغلبية المسلمة، أو يشكل فيها المسلمون جماعة بارزة. فقد أساء العديدون في الغرب الظنَّ بأنَّ الإسلام يتغاضى عن هذه الممارسات.

ويختلف ختان الأنثى من حيث مداه وتأثيره، ولكنه قد يحرم من تتعرض له اللذة الجنسية في بعض الحالات. وقد يجعل الجماع مستحيلاً في حالات أخرى، حتى تجرى جراحة أخرى. إنها ممارسة قَبَلية تعود إلى ما قبل الإسلام، حيث كانت تمارس على الفتيات في سن المراهقة أو دون ذلك.

ويخلص أحد التقديرات إلى الاستنتاج أن هناك مليوني امرأة في أفريقيا عرضة لشتى أنواع الختان[١]، ومنهن غالبية نساء الصومال وصعيد مصر. ففي عام ١٩٩٩، صدر عن مجلس السكان تقرير تضمّن نتائج مسح أجري عام ١٩٩٧، تناول أكثر من تسعة آلاف طفلة مصرية مع والديهن. وقد كشف هذا التقرير أن ٨٤٪ من الفتيات، اللواتي تراوح أعمارهن ما بين العاشرة والتاسعة عشرة أخضعن لعمليات الختان الجراحية. ومع ملاحظة انحسار هذه الممارسة، إلا أن التقرير يضيف: "إنَّ أكثر من ٩٠ ٪ من الفتيات المصريات خُتِنَّ في سنِّ الخامسة أو السادسة، وثمَّة زهاء ٧٠ ٪ من هذه العمليات أجريت في المنازل في ظروف غير صحية، أدَّت في بعض الأحيان، إلى الموت بسبب النزف أو التلوّث بالجراثيم ... وما تزال هذه الممارسات متَّبَعة، استناداً إلى معتقدات دينية وثقافية، ترى [ضرورتها] بغية تهدئة أحاسيس الأنثى الجنسية، وجعلها أكثر أنوثة وقابلية للزواج"[٢].

قبل صدور هذا التقرير بعام، أي في شهر شباط (فبراير) ١٩٩٨، انتقد

(١) *Readers Digest*, 5-00, p. 222.

(٢) Population Council, February 1999.

وزير الصحة المصري إسماعيل سلاَّم المسلمين "الأصوليين" لمخالفتهم تحريم مصر ختان الإناث، ولتحدّيهم السلطة الإسلامية العليا في البلاد، التي أفتت بأن هذا الختان ليس من الفرائض الدينية. وأضاف سلاَّم: "نحن نعلم أنَّ الميسورين والرسميين وكبار رجال الدين لا يختنون بناتهن أو بنات بناتهن"(١).

وتنتشر عادة ختان الأنثى في عدد من بلدان أفريقيا الأخرى، وبعضها إسلامي، في حين تندر ممارستها في بلدان أوروبا الجنوبية وأميركا اللاتينية؛ وفي بعض الأحياء في الولايات المتحدة، بحسب ما أورده الدكتور شيري تيبودو(٢)، رئيس نظم إدارة الأطباء.

ومع أن ختان الأنثى قد حظر في الولايات المتحدة في تشرين أول (أكتوبر) عام ١٩٩٦، بفضل حملة قادتها النائبة الأميركية باتريسيا شرويدر عن دنفر، كولورادو، واستغرقت عشرين عاماً، إلاَّ أنَّه ما زال يمارَس على بعض النساء القادمات حديثاً من أفريقيا. فقد قدَّرت مراكز مكافحة المرض والوقاية وجود أكثر من ١٥٠٠٠٠ امرأة وفتاة من أصل أفريقي يعشن في الولايات المتحدة، إما مختتنات، أو مهدَّدات بالختن. وتذكر هذه المراكز، في تقاريرها، أنَّ هذه "الممارسة تُجرَى لصون عفاف النساء، ولكنها قد تؤدي إلى مضاعفات حادة، وإلى التلوّث بالجراثيم، بل قد تؤدي إلى الموت"(٣).

يقرر الوالدان، وعادةً ما يكون الأب، ما إذا كان الختان سيجرى ومتى سيجرى. ففي مصر، حيث يعتبر ختان الأنثى تقليداً متّبعاً منذ قرون، تجرى هذا الجراحة بصورة سرية، تماماً، إلى حدٍّ يعتقد معه بعض أفضل المثقفين المصريين، خطأً، أن هذه العادة قد انقرضت تقريباً. ففي معظم البلدان تجرى العملية بالسر، وغالباً دون تخدير، وفي ظروف غير صحية البتَّة، على يد امرأة غير مجازة، تسافر من قرية إلى قرية؛ وقد يجريها طبيب مجاز في ظروف صحية جيدة، وإن بسريَّة تامَّة، أيضاً، في هذه الحالة.

---

(١) Agence France Press, 2-13-1998.

(٢) Interview, 6-26-1999.

(٣) *New York Times*, 10-12-1996.

وغالباً ما يُشبَّه ختان الأنثى بختان الذكر، ولكنه توصيف خاطئ ومضلِّل. فالإجراءات المتَّبعة والعواقب الناجمة تختلف بينهما جذرياً. فالختان لدى الذكر يشمل من القضيب القلفة فقط، وهو شائع في كل أنحاء العالم، أقرَّته المسيحية على نطاق واسع وفرضه الإسلام واليهودية، وأُوصِيَ به على نحو واسع منذ سنوات باعتباره تدبيراً صحّياً. أضف إلى ذلك، أن ختان الذكر طقس يعتبر حدثاً مهمّاً في حياة العائلة المسلمة، تماماً كما هي الحال في العائلة اليهودية، وهو لا يفسد صحة الرجال ولا خصوبتهم ولا قدرتهم الجنسية، في حين أن ختان الأنثى، على العكس من ذلك تماماً، يؤدي إلى عواقب وخيمة. ويعدِّد "مجلس السكان" مخاطر ختان الأنثى على الوجه التالي: إصابة المهبل والشرج والمثانة والمسالك البولية بالتشوه وتلوّثها بالجراثيم، مما يؤدي إلى أعطال فيها مدى العمر، فضلاً عن التسبُّب بالعقم والكزاز وعسر آلام الحيض؛ تشويه الأعضاء التناسلية، تبوُّل مؤلم واحتباس بولي؛ جماع مؤلم؛ مصاعب أثناء الوضع تعرِّض صحة الأم والطفل وحياتهما للخطر؛ الموت بسبب نزف غير قابل للتحكم به، أو بسبب الصدمة. وسواء أكانت عملية الختان الجراحية طفيفة أم عميقة، فهي تعتبر، عادةً، عملاً محرجاً ينبغي إبقاؤه بعيداً من الضوء.

وفي كينيا، تُجرى الجراحة الختانية للأنثى بصورة روتينية، باستئصال غطاء البظر الجلدي فحسب. والعملية في هذا الجانب تشبه ختان الذكر؛ ومع ذلك، فهي لا تعتبر تدبيراً صحّيّاً؛ بل إنها على العكس، تنطوي على عواقب خطيرة. فانزلاق الموسى خطأً قد يحدث عطباً جنسياً أنثويّاً دائماً.

إن الختان في كينيا ممارسة أبعد ما تكون عن السرّية، فهي تشكل، عادة، مناسبة لاحتفال شعبي ممتد، بل إنه أوجُ احتفالات تدوم أيّاماً، احتفاءً بالفتاة التي بلغت أشدَّها؛ وهذا مرتبط أوثق الارتباط بعادات قبلية وإثنية، لا تمتُّ إلى الإسلام بصلة. وقد أورد جومو كينياتا، مؤسس كينيا الحديثة وزعيمها لسنوات عديدة، وصفاً مفصّلاً لهذه الاحتفالات والعملية الجراحية في كتابه "Facing Mt. Kenya"، إذ يصف التحضيرات التي تقوم بها العائلة والجماعة من حولها،

تمهيداً لأداء هذا الطقس، بما في ذلك التدابير الوقائية، التخديرية والصحية، قبل أدائه وبعده.

وفي آب (أغسطس) ١٩٩٦، بدأ التجمع النسائي الوطني الكيني بالترويج لطقس غير جراحي، لإحلاله محل تلك الممارسة التقليدية الخطيرة والمؤلمة. وقد أطلق عليه اسم "الختان بواسطة الكلمات"، وتتضمن حيثياته عزل الفتيات الصغيرات وتثقيفهن لمدة أسبوع، فكان أن شارك في الطقس الجديد مِائة وخمسون عائلة في عام تطبيقه الأول[١].

غالباً ما تأتي هذه الجراحة وحشيَّة، مبالغاً فيها، ولا تعدو أن تكون نتاجاً للجهل والفقر والإحساس الشوفيني بالتفوق الذكوري. وفي بعض المناطق، يعتبر الرجال أن النساء اللواتي لم يجر ختنهنّ غير ملائمات للزواج، إلاَّ أنَّه من النادر العثور بين المتعلمين على ممارسين له. فحيث تنتشر عادة ختان الأنثى انتشاراً واسعاً، في صعيد مصر والصومال وفي غيرهما من البلدان الأفريقية، نجد التعليم محدوداً والظروف المعيشة بدائية. وعلى سبيل المثال، تستمر نسبة الأمّيّة بالتزايد في محافظات مصر الريفية، رغم الجهود الهائلة التي بذلتها الحكومات المصرية منذ زمن طويل لنشر التعليم في أوساط كل المواطنين وتعميمه عليهم. ففي كل يوم، يفتتح صف تعليمي جديد كمعدل وسطي، ولكن هذا الجهد لا يتساوق ونمو السكان الحاصل. فعدد سكان مصر، البالغ حالياً زهاء أربعة وستين مليون نسمة، يزيد بما يربو على مليون نسمة كل عام[٢].

وعلى عكس الفكرة النمطية السائدة التي تعزو ختان الأنثى إلى الإسلام وحده، تجدر الإشارة إلى أنه يحصل في عدة بلدان غير إسلامية في وسط أفريقيا وغربها.

إن الربط المزيّف لهذه الممارسة بالإسلام ناجم جزئياً عن حقيقة مفادها أن وسائل الإعلام في الولايات المتحدة لا تغطّي مناحي الحياة في أفريقيا إلا

(١) *Africa News Online*, 11-1997.

(٢) Interview with Ford Foundation representatives in Egypt.

قليلاً، وأن معلوماتها في نواحٍ عديدة، هي معلومات خاطئة. نتيجة ذلك، يجهل الشعب الأميركي أن عادة ختان الأنثى منتشرة في العديد من الدول الأفريقية، حيث يشكل المسلمون فيها أقلية، كما هي الحال في كينيا وغانا وبينين وليبيريا. كما يجهل معظم الأميركيين، أيضاً، أن عدداً كبيراً من الإناث، من مسيحيي البلدان الأفريقية ويهودها وطوائفها الأخرى، غير الإسلامية، هم من بين ضحايا هذه العادة، التي يمارسها، مثلاً، مسيحيو إثيوبيا ويهودها.

ولم يعرف سواد مسلمي العالم، الذين يبلغ عددهم زهاء مليار ومِائتي مليون نسمة، بوجود عادة ختان الإناث إلاّ منذ عهد قريب، عندما بدأت المجلات والكتب والأفلام الوثائقية تجعل منها محور جدل عالمي النطاق؛ أما قبل ذلك، فلم تكن معروفة إلاّ لدى سكان بعض المناطق الأفريقية.

لقد كانت أليس ووكر، مؤلفة كتاب "اللون أرجواني" (Color Purple) الحائز جائزة بوليتزر، أوّل من استهل هذا الجدل، عندما نشرت كتاباً عام ١٩٩٢ تحت عنوان "امتلاك سر الفرح" (Possessing the Secret of Joy)، وهو قصة خيالية تهاجم عادة ختان الأنثى والأساطير التي تُحيكها حولها مختلف الحضارات والثقافات، لتبرير الاستمرار في ممارستها. ويروي حكاية امرأة أفريقية أخضعت لجراحة ختانية، وقضت بقية حياتها تكابد عواقبها، وتحاول أن تفهم الهدف منها.

وبرغم الشعبية التي حظي بها كتاب ووكر، فإن ختان الأنثى ظلّ ممارسة لا يعرفها إلا قلة من الناس، إلى أن صدر عدد حزيران (يونيو) ١٩٩٩ من مجلة "ريدرز دايجست" وفيه مقالة تحت عنوان "لا سكوت بعد اليوم"، وفيها تسرد ووريس ديري" الصومالية الشابة الشجاعة، محنتها الخاصة مع الختان. وبتصدُّر عنوان المقالة غلاف أوسع المجلات انتشاراً في العالم، أُثير انتباه ملايين الناس في أنحاء العالم حيال هذه الممارسة الوحشية.

قلّما تعرَّضت الصحف لختان الأنثى قبل صدور مقالة ديري، ونادراً ما تناولتها الأحاديث الخاصة. وربما عاد سبب ذلك إلى طبيعة الموضوع الحميمة

والإحساس بالحرج والعار الذي يلازم الضحايا، سواء أكُنَّ من أتباع الإسلام أو المسيحية أو غيرهما من الأديان، فتراهنَّ يتردَّدن في ذكر محنهنَّ، حتى أمام أقرب صديقاتهن. وباستثناء عدد قليل من البلدان، ككينيا حيث ينتشر ختان الأنثى انتشاراً محدوداً، نادراً ما تكون هذه العادة موضوع نقاش في أوساط العائلات. ونتيجة لذلك، لا يخبَرن الفتيات، عادةً، كما كان شأن ديري، ماذا سيحصل لهن ولماذا سيحصل.

وهكذا، وبسبب المقالة، باتت ديري، التي طبعت صورتها على غلاف المجلة، الضحية الأشهر في العالم. إذ بدأت تعاني المشكلات الصحية حين بلوغها الخامسة من عمرها، وعندما رتَّب والدها، راعي الماعز، أمر ختانها خارج البيت، في منطقة صحراوية دون تخدير، على يد امرأة متجوِّلة استخدمت شفرة حلاقة مكسورة ملطخة بالدماء.

بعد الجراحة، قُطِّبَ الجرح بإحكام، وتركت فتحة بالغة الصغر، بحيث لم يكن في وسع ديري التبوُّل وإفراز دم الحيض بعد بلوغها إلا قطرات قليلة. وكانت دورات طمثها عذاباً لا ينتهي. وبعد سنوات قضتها في لندن، أُجرِيَت لها جراحة سكَّنت آلامها وأعادتها إلى طبيعتها. وسرعان ما أضحت هذه الفتاة إحدى أشهر عارضات الأزياء في العالم، وما لبثت أن تزوجت، ورزقت طفلاً يبلغ الآن الرابعة من العمر، وتقيم معه في مدينة نيويورك.

وتصف ديري في مقالتها الثمن الجسدي الذي تعيَّن عليها دفعه، "... فضلاً عن المشكلات الصحية التي ما زلت أواجهها، فأنا لن أستطيع أن أتذوَّق طعم اللذة الجنسية. أشعر أني لست مكتملة وعاجزة.... وعليَّ البوح بذلك من أجل ملايين الفتيات المُخْتَتَنات في العالم اللواتي يعشن هذه التجربة واللواتي قضين بسببها".

إن ربط ختان الأنثى بالإسلام أثار امتعاضاً شديداً حيال هذا الدين لدى ليليان بيث، وهي سيدة من نيوإنكلند أعرفها منذ سنوات، وأكنّ لها الاحترام. فقد تملكها الغضب عندما قرأت كتاب "هل يسمعونك حين تصرخين؟"، لفوزية

كاسندجا، المسلمة من توغو، التي هربت من محاولة ختنها. ثم صودف أنها شاهدت، أيضاً، برنامجاً تلفزيونياً عن الموضوع نفسه(١).

عرض البرنامج التلفزيوني مسلمَيْن، أولهما امرأة هي ضحية الختان، والثاني رجل. كانت المرأة مغشَّاة الوجه تستذكر "العار والألم العظيمين" اللذين عانتهما، عندما أكرهت على الخضوع لعملية ختان في سن الثامنة. أما الرجل، فقد دافع عن الختان متذرّعاً بأسباب "أخلاقية". وقد تذكَّرت ليليان بيِتْ دفاعه قائلة: "لقد ذكر الرجل بعدد من الكلمات أن الجراحة تستأصل ذلك الجزء من المرأة الذي يثير لديها الرغبة الجنسية، لذا تمنع المرأة من ارتكاب الزنا قبل الزواج، وتضمن إخلاصها لزوجها بعد الزواج".

لقد كان لهذه المادة الإعلامية وقع على ليليان دام طويلاً، ممَّا دفعها إلى القول: "ثمة أمور قليلة في حياتي سببت لي مثل هذا الإزعاج العميق. لقد أحسست بحنق كبير. وعندما سمعت دفاعه، أحسست بالثورة تجتاحني. لقد اقتنعت أن مثل هذه الجراحة البربرية يسمح بها الإسلام، وقررت أنه لن تكون لي علاقة بالمسلمين. لقد حاولت حتى تلك اللحظة أن أفهم الإسلام وأتصالح معه، ولكن ما شاهدته وسمعته كان فوق التحمُّل"(٢).

إن الكلمات نفسها، التي عُبِّر بها في هذا الفيلم التلفزيوني دفاعاً عن الختان، أقل أهمية من الانطباع الذي خلَّفه في حدٍّ ذاته لدى المشاهدين. فهو لم يُبْدِ أي إشارة مثلاً إلى أن الإناث في العائلات المسيحية والعائلات غير المسلمة، في عدد من البلدان الأفريقية، هنّ غالباً، من ضحايا الختان. وبدا الفيلم وكأنه قد وجّه إصبع الاتّهام فقط إلى الإسلام، وأقنع ليليان بيتْ أن ختان الأنثى هو من صلب التعاليم والممارسات الإسلامية.

والواقع أن ليليان تعي الآن أن ختان الأنثى أمر لا يقرّه الإسلام، ولكن تجربتها منوّرة. فهي مثقفة جيدة، وقارئة نهمة، ومراقبة ثاقبة للقضايا العامة،

(١) Fauziya Kassindja, *Do They Hear You When You Cry?* (Delacore Press, 1998)

(٢) Interview, 11-8-1999.

فضلاً عن أنها تتعاطف مع جهودي منذ سنوات من أجل حقوق الإنسان. والبرنامج التلفزيوني نفسه، الذي أثار حنقها ضد الإسلام، أثار دون ريب ردة الفعل نفسها لدى مشاهدين آخرين. فإذا استطاعت مناقشة تلفزيونية في موضوع ختان الأنثى أن تحوّلها ضد الإسلام، فأنا أستنتج أن الفكرة المنمّطة عن الإسلام التي روّج لها هذا البرنامج، تشكّل عقبة كبرى، أمام أولئك الذي يسعون لفهم الإسلام وإنصاف المسلمين.

وبالعودة إلى ووريس ديري، فإنها تعي أنها تعرّض نفسها لمخاطر شخصية جسيمة بنشرها أخبار الجراحة الختانية في وسائل الإعلام، وبقبولها أن تكون سفيرة خاصة لدى الأمم المتحدة في الحملة التي تشنّها المنظمة الدولية لاستئصال عادة الختان. وفي ذلك تقول: "لقد عبّر أصدقائي عن قلقهم من أن يحاول المتعصبون قتلي، ذلك أن العديد من الأصوليين يعتبرون ختان الأنثى ممارسة مقدّسة، ينص عليها القرآن". لقد كان الخوف يسكن عقل ديري وهي تستعد لقيادة الحملة. فقد قالت: "أنا متأكدة من أن عملي سيكون محفوفاً بالمخاطر. أعترف أني أشعر بالخوف، ومع ذلك فالأحسن أن أجازف. هذا ما فعلته طوال حياتي".

إن الخوف هو أحد العوامل الرئيسية التي تثقل، ظلماً، كاهل الإسلام، وهو الدين الداعي إلى العدالة والمساواة والكرامة في ما يتعلق بالمرأة، بحيث تلقى عليه كل أحمال ختان الأنثى. فالخوف والسريَّة التي ترافقه، يحيكان شائعات لا أساس لها من الصحة عنه، ويغذّيان الصور المزيّفة. وبناء على شهادة ديري وتجربتها الشخصية، فإن إمكانية لجوء المتطرفين الدينيين، الذين يدّعون أن ختان الأنثى من تعاليم القرآن، إلى الاقتصاص، حتى باستخدام العنف، قد يفسّر سكوت زعماء المسلمين عن الأمر.

ويبدو أن الناس، في المناطق التي يكثر بها ختان الأنثى، معذورون في هذا الخرق المفرط لحقوق الإنسان، على الأقل في العلن، سواء أكانوا أغنياء أم فقراء، شباناً أم كهولاً.

لم أفاجأ حينما طلبت أمٌّ أميركية مسلمة إغفال ذكر اسمها، وهي تشرح لي الدور الذي يلعبه الجهل، في هذه الممارسة المشؤومة القديمة العهد. فهي لم تُرِدْ أن تدلَّ كلماتها التالية على هوية قائلها: "إن الرجال، الذي يأمرون بالختان في مناطق مصر الريفية وفي الصومال وغيرهما من دول أفريقيا، هم على جانب متواضع من التعليم، وكذلك النسوة. وهم، بالتالي، غير قادرين على قراءة النصوص الدينية المقدسة، وعرضة للتأثّر الشديد بشعبية الأساطير والعادات القبلية، فتراهم يهابون المخالفة. حتى ان الأمر نفسه ينطبق على بعض أئمة المساجد وغيرهم من قادة المسلمين".

وبرغم هذا الخوف، فإن ختان الأنثى، أصبح اليوم، فضيحة عالمية كبرى، تثير قلقاً عامّاً في أنحاء العالم، لأن الختان يشكّل تجنّياً على النساء، واسع النطاق. فأخبار الختان كثيراً ما تحتل عناوين الصحف والمجلات ، وتخصص لها البرامج الإذاعية والتلفزيونية. وبما أن الختان على علاقة بالجنس وبسرّية الاستئصال الجراحي لأجزاء من أعضاء المرأة التناسلية، يصبح انصباب اهتمام وسائل الأخبار عليه أمراً مفروغاً منه تقريباً. وهذا بالتأكيد ذروة الظلم واللامساواة والقهر والتميز والإهانة، وهي ممارسات يستنكرها الإسلام أشدّ الاستنكار.

تضطلع وسائل الإعلام، إذن، بدور رئيسي في ربط ختان الأنثى بالإسلام. ويعبَّر عادة عن هذا الربط بالتقارير التي يكتبها أشخاص، يفترضون مسبقاً صحة هذا الربط، لأن هذه الممارسة، وببساطة، تجري بصورة روتينية، على مئات الألوف من النساء المسلمات كل سنة. أليس ختان الأنثى سائداً في بلدان غالبية سكانها من المسلمين، كما هي حال مصر والصومال، في حين أنه ليس عادة شائعة في بلدان أخرى يشكل المسيحيون واليهود فيها غالبية السكان؟

وقد يزداد ارتباك كتبة التقارير، بسبب موقف المسلمين المتضلّعين، ومنهم بعض أئمّة المساجد وغيرهم من قادة المجتمعات، الذين يوافقون بصمت، إن لم يكن بصراحة، على ختان محدود، كذلك الذي يُجرى في كينيا. وقد يكون سبب هذه الموافقة تلك المهابة التي تثيرها في النفوس عادة قبلية متأصلة، أو

يثيرها الجهل، أو مزيج من الاثنين؛ أو آراء جرى التعبير عنها في الجدل القائم، حول موقف الشريعة الإسلامية من المدى الذي يجب أن تبلغه الجراحة الختانية.

إن التغطية الإخبارية الخاطئة المجتزأة هي، غالباً، المتهم الأول، وفق ما يعتقده نهاد عوض، مدير مجلس العلاقات الأميركية الإسلامية (CAIR)، إذ يقول: "ليس ثمّة في المراجع الإسلامية ما يدعمها (ممارسة ختان الأنثى)، لكن أوردتها مصادر غير إسلامية على أنها عادة إسلامية بسبب ممارسة بعض المسلمين لها. ولسوء الحظ، لا يملك المسلمون الوصول إلى وسائل الإعلام نفسها، كما هو متاح لتلك المصادر، حتى يتمكّنوا من تبديد هذا التنميط"[١].

ويتولّد جزء من هذا الارتباك عندما ينبري متطرفون، يقولون عن أنفسهم إنهم مسلمون، فيجزمون، دونما أساس من صحة، أن ختان الأنثى من تعاليم القرآن الكريم، إلاَّ أنَّ القرآن لم يشر في أي من آياته إليه، بل إنه عادة مورست على نطاق واسع في شبه الجزيرة العربية، حيث نزل الوحي على النبي محمد ﷺ.

وساهم بعض المسلمين المعاصرين، المعترف بهم كمراجع للشريعة الإسلامية، في الارتباك الموجود، فهم حذرون في مقاربة هذه العادة، ويدلون بملاحظات تبدو أحياناً متناقضة، ويستشهدون بأقوال منسوبة إلى النبي محمد ﷺ توحي بأنه أقرَّ، ضمناً، على سبيل المثال، ختاناً أنثويّاً محدوداً. ويتساءل علماء آخرون عن صحة هذه الاستشهادات.

إن شجب ختان الأنثى القاطع، الذي سمعته من مسلمين عاديين، يبدو أدق من الانتقادات الصادرة عن بعض أوساط العلماء. ففي الوقت الذي تمنع فيه الشريعة الإسلامية معظم أشكال ختان الأنثى، تبدو هذه الشريعة بالغة الحذر في إقرارها استئصالاً جراحيّاً "صغيراً" ومحدوداً. ومن بين المذاهب الفقهية الإسلامية التقليدية الأربعة، يذهب واحد منها إلى أن استئصال غطاء البظر الجلدي إلزامي، فيما اعتبره مذهبان آخران "عملاً محبَّذاً". ولكن ما يجدر ذكره

(١) Letter, 3-1-2000.

أن المذاهب الأربعة كلها تجمع على "عدم جواز" استئصال ما وراء الغطاء البظري[١].

ولم تفلح محاولات العلماء المسلمين في إزالة الارتباك والرعب لدى العامة إلاَّ جزئيّاً. ولقد كتب الدكتور عماد الدين أحمد أن الشريعة الإسلامية تحرّم ثلاثة إجراءات هي: استئصال البظر إمّا جزئيّاً وإمّا كُليّاً، وإزالة جزء من الأعضاء التناسلية الخارجية أو بكاملها، وتضييق الفتحة المهبلية، أو إجراء أي جراحة تناسلية قد تؤثّر سلبيّاً في قدرة المرأة على التمتع بالعلاقات الجنسية. وأضاف أن الشريعة الإسلامية تسمح "فقط بأخف أشكال ختان الإناث، بحيث لا يؤدّي ذلك إلى أيّ تأثير غير ملائم للفتيات الصغيرات". إنه كلام من مصدر موثوق أشبه ما يكون بشجب جارف لكل أشكال الختان الأنثوي، حيث يجمل خلاصته بالقول: "وما دامت هذه الممارسة المؤلمة مجرَّدةً من أيّ قيمة دينية، فلا مبرِّر لدى المسلمين للقيام بهذه العملية المؤذية، وقد يكون من الأفضل تجنّبها تماماً... أما الختان المعتدل، فينبغي وضعه، في أحسن الحالات، في خانة الممارسات المكروهة، لأنه يهدِّد مستقبل الفتاة، ويشكل خطراً على الاستمتاع بما يقوم بينها وبين زوجها من علاقات جنسية سوية"[٢].

أما الدكتور طه جابر العلواني، رئيس المجلس الأعلى للجمعية الإسلامية لأميركا الشمالية، فيكتب قائلاً: "لم يرد، في القرآن (الكريم) أو في السنّة (الشريفة)، ما يفرض ختان الأنثى، وهذا كان تقليداً مورس في الجاهلية، ثم جاء الإسلام ليدخل عليه الاعتدال". فبعض أبرز فقهاء الإسلام يتركون المسألة على ما هي عليه دون مساس. ويقول العلواني: "لم تعتبر ثلاثة من المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى [التقليدية] أن ختان الأنثى مسألة تقتضي حكماً دينيّاً، مشيرة إلى أنه لا يعدو أن يكون عادة اجتماعية ذات علاقة واهية بالإسلام"[٣].

---

(١) Jamal Zarabozo, "*Female Circumcision*", Al-Jumah 8, no. 12.

(٢) *Female Genital Mutilation: An Islamic Perspective, Pamphlet No. 1*, (Bethesda: Minaret of Freedom Institute).

(٣) E-mail, Sayyid M. Syeed, ISNA secretary-general, 5-19-2000.

ويبدو، في نظر بعض الأوساط، أن الشريعة الإسلامية تبقي الاستئصال المعتدل في قائمة الأمور المباحة، فيما تحظّر معظم أشكال الختان الأنثوي. ويبدو بعض الخبراء شديدي الحذر، في معارضتهم إيّاه؛ وحَذَرُهم هذا يقوم على القاعدة الفقهية القائلة: "كل ما ليس محرَّماً فهو جائز". ولأن القرآن الكريم لم يتضمَّن نصّاً صريحاً يحرّم ختان الأنثى، فمن الممكن، إذن، الاستدلال على أن هذه الجراحة ليست ممنوعة.

ويرى قلة من علماء المسلمين أن النبي محمّداً ﷺ دعا إلى "الاعتدال" ولم يدع إلى التحريم، مستندين إلى حديثه الشريف الذي خاطب به امرأة كانت تختن النساء في المدينة: "لا تُنْهِكي، فإنَّ ذلك أحظى للمرأة وأَحَبُّ للبعل". غير أن عدداً من فقهاء الشريعة، كأبي داود في مصنَّفه "السُّنن"، يشكِّكون في صحة هذا الحديث الذي يتضمَّن موافقة الرسول ﷺ على ختان محدود، ويعتبرونه من الأحاديث "الضعيفة".

وحتى في الولايات المتحدة، حيث يمارس ختان الأنثى في أوساط بعض مجتمعات المهاجرين، لم يردّ زعماء المسلمين على غضب الرأي العام. وكل الذين أدلوا بدلوهم في هذا الموضوع عارضوه بشدة دون استثناء. والواقع أنني ناقشت هذه المسألة مع عدد من مسلمي الولايات المتحدة، فعبّروا أمامي جميعاً عن معارضتهم له، حتى في شكله المحدود الذي يمارس به في كينيا.

يقول الدكتور مزمِّل صدِّيقي، رئيس الجمعية الإسلامية لأميركا الشمالية وعضو المجلس الشرعي لأميركا الشمالية: "إن إعادة النظر في الأحكام، عند المذاهب الفقهية الإسلامية المختلفة ومراجعتها، في ضوء حقائق العصر الراهن، ضرورة تواجه المسلمين. وهذا موضوع حسّاس، على الخائض فيه أن يلزم جانب الحيطة الفائقة... فهناك مساجلة، بين العلماء، حول الحكم الذي قد يَرد مرةً واحدة في القرآن: هل ينبغي أن يُعدَّ حكماً لحالةٍ خاصة، أم حُكماً يمكن تعميمه؟"(١).

---

(١) Pakistan Link, p. 1, 9-1-2000.

والواقع أن زعماء المسلمين في الولايات المتحدة تجاهلوا، بصورة عامة، قضية ختان الأنثى، فسكتوا عنها، سواء بفعل هذا التشوّش أو بسبب عوامل أخرى؛ وتركوها على حالها، مخضَّبة بالدماء. وسكوتهم يوحي بأن جمهور المنتصرين لسيادة الرجل ما يزالون هم الأقوياء المنتصرين. ولم ألتقِ حتى الآن امرأةً مسلمة واحدة، في أي مكان، توافق حتى على ختان محدود.

أمّا الاعتراضات العلنية، على قلّتِها، فقد تجاهلتها، في الأغلب، وسائل الإعلام. فالتصريحات المعارضة لهذه العادة، والصادرة عن مجلس الشؤون العامة لمسلمي لوس أنجلس، والتي أدلى بها الطبيب ماهر حتحوت (وهو اختصاصي في الجراحة النسائية وكاتب ومحاضر في الإسلام) لم تحظَ إلاً بتغطية إعلامية طفيفة.

وتَدِين الختان، وتُنكر أيَّ علاقة له بالإسلام، رابطة النساء المسلمات، إحدى المنظمات العاملة في كاليفورنيا، فتقول: "إنه لمن الواضح أن استئصال أجزاء من أعضاء المرأة التناسلية، باسم الإسلام، يشكّل اعتداءً على أقدس عقائدنا الإيمانية. لذلك، علينا أن نعارض هذه الممارسة، ونوحّد الجهود مع الآخرين ممَّن يعملون على تثقيف النساء والرجال حول تأثيراتها المؤذية". وتلاحظ الرابطة أنه يسود، في أوساط المسلمين، امتعاضٌ شديد مِنْ تناول الإعلام موضوع ختان الأنثى: "إن العديد من المسلمين ينظرون باشمئزاز إلى ما يروّج عن صلة تربط هذه الممارسة بدين الإسلام، وهم ببساطة يرفضونها". والاستغراب والاشمئزاز أمران مفهومان، إلاً أن رفض الختان، بوصفه فكرة منمّطة معادية للإسلام، لن يكون بالأمر السهل أو السريع.

أما زينب البِرّي، فشّجبها واضح تماماً، إذ تقول: "إن ختان الأنثى أمر مهين للإسلام، إذ ليس هناك أيّ نص، سواء في القرآن الكريم أو في السنة النبوية الشريفة، يسوّغه أو يتغاضى عنه. والحقيقة أن في القرآن الكريم عشرات من الآيات تدعو، في الواقع، إلى عدم محاولة تبديل خلق الله عز وجل، وجسم المرأة من خلقه تعالى. وهذا يعني أن استئصال البظر يقع في باب العبث بالحرمات وانتهاكها".

كما تعلن بحماس: "فإذا لم يشأ الله (عزَّ وجلَّ) أن يكون هذا العضو، لَمَا جعله جزءاً من جسد المرأة". وتضيف قائلةً: "غير أنني آسف أن أعترف أنه ما يزال يمارَس في وطني الأول [مصر] على أيدي أناس يسمّون أنفسهم مسلمين، حيث يأمر به الآباء، بل، وفي بعض الأحيان، تأمر به الأمهات والجارات ممن يعتبرن أنفسهن مسلمات. إن هذا منافٍ تماماً لما ورد في القرآن الكريم، في حين أنّ القيّمين على المؤسسات الإسلامية يلتزمون حياله الصمت".

ومن بين أبرز مسلمي الولايات المتحدة، أذكر عبد الرحمن العمودي، أحد مؤسسي "مجلس المسلمين الأميركيين" (AMC)، الذي يعلن، بلا لَبْس، أن أيّ درجة من درجات الختان الأنثوي ليست من الإسلام في شيء. يقول: "ليس هناك أي حكم إسلامي يدعو إلى إزالة حتى غطاء البظر الجلدي. فهذه الممارسة منافية للإسلام وتمسّ كرامة المرأة وسعادتها". وهذا الرأي، على ما أعتقد، هو الرأي الغالب بين كل المسلمين الذين تربطني بهم علاقات شخصية، بل هو في ظنّي رأي كل مسلمي العالم تقريباً.

وفي ردة فعل على مقالة ووريس ديري في مجلة "ريدرز دايجست"، طلب أكثر من ٣٠٠٠ قارئ من منظمة الصحة العالمية، التابعة للأمم المتحدة، تزويدهم معلومات عن ختان الأنثى. وقد استجاب الكونغرس الأميركي لهذا الطلب، إثر الشهادة الشخصية التي أدلت بها ديري، فخصَّص مبلغ ٢٥ مليون دولار لقضايا المرأة، ومنها الختان، قدمه لصندوق السكان التابع للأمم المتحدة. وبدأت حملة ديري في أفريقيا تؤتي ثمارها. فالسنغال، التي يخضع ٢٠٪ من إناثها للختان، التحقت بركب الدول الأفريقية الأخرى التي سنَّت القوانين المُحظِّرة لهذه الممارسة؛ فأصدرت قانون المنع في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٩٩، متّبعة خطى بوركينو فاسو وجمهورية أفريقيا الوسطى وجيبوتي وغانا وساحل العاج وغينيا وتوغو.

حظّرت غانا ختان الأنثى عام ١٩٩٤، ولكن قلة من السكان تعرّضوا للملاحقة القضائية رغم استمرار ممارسته(١). أما ساحل العاج التي يشكّل

---

(١) Associated Press, 7-14-1999.

المسلمون ٦٠٪ من سكانها، وحيث أخضع ٤٠٪ من نسائها للختان، فقد أصدرت قانون المنع في عام ١٩٩٨ [(١)]. وفي آذار (مارس) ١٩٩٨، قال ألبرتين غنانازان هيبي، وزير شؤون المرأة والعائلة: "هناك ثلاث حجج تُستخدم لتشجيع ممارسة ختان الأنثى، هي: الدين، واعتبار الختان شكلاً من أشكال التطهُّر، وشكلاً من أشكال دمج الفتيات اليافعات بمجتمع البالغين. وهذه الأسس الثلاثة ليس لها أي مسوّغ ديني [أو] أخلاقي" [(٢)].

وتعلق كارول بيلامي، مديرة "اليونيسيف" (UNICEF)، بالقول إن المنع "يعكس تصميم المرأة على وضع حد لممارسة غير مقبولة، وغاية في القسوة، تغتصب حق الفتيات في حياة حرة وآمنة وصحيّة" [(٣)].

ويزيد في صعوبة التحدي، الذي تواجهه الحملة للقضاء على ختان الأنثى، أن الختان هو هدف سهل لمنتقدي الإسلام. فصمت المسلمين عموماً، حيال هذه الممارسة، يخلي الساحة تاركاً أمر مناقشتها، في الأغلب، لأناس يُفْرِحهم نقل الشائعات الكاذبة الي الآخرين، خصوصاً تلك المتعلقة بالأمور الجنسية. وإن الربط التضليلي لهذه الممارسة بالإسلام يغري، بوجه خاص، المتعصبين المتحمسين لتلطيخ سمعة المسلمين، كما يغري ملايين الأميركيين الذين تعوّدوا أن يقبلوا الصور السلبية عن هؤلاء المسلمين.

إن ما نفتقده حتى الآن، وهو في رأيي الأمر الأكثر إلحاحاً، شجبٌ لختان الأنثى، يُجمع عليه علماء الفقه الإسلامي.

وثمة عادة أخرى تستحق الشجب، هي أيضاً يجري على الدوام إلصاقها خطأً بالإسلام، عَنَيْتُ بها "جرائم الشرف"، التي تنتشر في الأردن والباكستان ومصر والهند وبعض مناطق شبه الجزيرة العربية. إذ يُعتبر أن للرجل الحرية في أن يقتل المرأة المتهمة بالزنا، لجلبها العار على العائلة. ومع أن القتل جريمة

(١) Agence France Press, 6-4-1998.

(٢) InterPress Service, 3-27-1998.

(٣) CNN, 1-15-1999.

صريحة، غير أن الدفاع عنها يتمُّ بوصفها فعلاً ضرورياً لرد "الشرف" إلى عائلة المرأة، بحيث تتغاضى السلطات عنها بصورة روتينية، أو تلجأ في أحسن الأحوال إلى توقيع عقوبة مخفّفة[1].

ويتعاطى غير المسلمين في الولايات المتحدة مع "جرائم الشرف" باعتبارها ممارسة إسلامية، لأن التغطية التلفزيونية في الولايات المتحدة تركّز على ممارستها في البلدان الإسلامية، وتحديداً في الباكستان والأردن، في حين تتجاهل، في الأغلب، ممارسات مماثلة في البلدان ذات الأغلبية المسيحية. ففي أميركا اللاتينية، يرتكب بعض المسيحيين مثل هذه الجرائم، بالحصانة نفسها التي يتمتّع بها المسلمون في أماكن أخرى، بَيْدَ أنها لا تلقى اهتماماً في الولايات المتحدة إلاّ قليلاً.

وتشن الدكتورة رفعت حسن، وهي امرأة مسلمة وأستاذة للفقه في جامعة لويسفيل، حملة ضد جرائم "الشرف" في وطنها الأول الباكستان، حيث بلغ ضحاياها ٣٠٠ امرأة عام ١٩٩٧. وقد بثت هيئة الإذاعة البريطانية (BBC)، مؤخّراً، خبراً عن مقتل امرأة باكستانية تبلغ من العمر ستة عشر عاماً، حَرْقاً، بعدما أدانتها عائلة زوجها بالخيانة، فكان أن صُبَّ عليها الكاز وأشعلت بها النار. وقد وضع مفتي ضياء الدين، وهو محامٍ باكستانيّ متخصص بحقوق الإنسان، كتاباً يستعرض فيه قضايا النساء اللواتي كُنَّ ضحايا "جرائم الشرف" في المنطقة التي يقطنها في باكستان، حيث يحكم عادة على الجناة بالبراءة. وقال، في شهادة أدلى بها أمام إحدى لجان الأمم المتحدة: "لنفترض أنني قتلت زوجتي، سأسير إلى السجن مثل ملك، وسيقيم لي الناس استقبالاً، ولن ألبث حتى أخرج حرّاً".

وفي صحيفة "لوس أنجلس تايمز"، كتبت مارغريت راميريز تقول: "إن بعض الأصوليين الإسلاميين يرون في "جرائم الشرف" عقاباً يقرّه الإسلام. ويستنكف آخرون عن مناقشة الموضوع، خوفاً من أن يؤدّي تناوله إعلامياً إلى

(١) Personal interview with citizens.

التمييز ضد المسلمين في البلدان الغربية. أما رفعت حسن، فتستطرد مستنتجةً: "إننا بحاجة إلى مراجعة جذرية لتفسير نظرة القرآن إلى هذه المسألة. فإذا كنّا في صدد بناء مجتمع قائم على الأسس الإسلامية الصحيحة، فإن الرجل والمرأة متساويان في نظر الله (عزَّ وجلَّ). وهذه الجرائم لا تحدث، لأن مرتكبيها يتّبعون الإسلام، فهم يحرّفونه ويشوّهونه".

وتلقي الدكتورة حسن بجزء من اللوم على "المفاهيم الدينية الخاطئة التي تنتشر في المجتمعات الإسلامية التقليدية"، وتحذر من أن التمييز المتلطّي بالإسلام سيستمرّ إلى أن تُرفض هذه المفاهيم. وتفسر راميريز موقف الأستاذة حسن قائلة: "وظَّف بعض رجال الدين المسلمين والقضاة الباكستانيين آية قرآنية واحدة لتنصيب الرجال أوصياء على النساء. وعلى أساس ذلك، فإن الرجل الذي يقتل رجلاً آخر دفاعاً عن شرف زوجته أو ابنته، إنما يحمي ملكيته، ويعتبر فعله دفاعاً عن النفس. أما الدكتورة حَسَن، التي عملت ثلاثين عاماً في مجال تحليل القرآن، فتقدّم تفسيراً معاكساً. فهي ترفض أن الآية القرآنية تعطي الرجل سلطة على المرأة، لا بل تؤكّد، بدلاً من ذلك، أنه، فيما ينجب النساء الأطفال، لا يمكن مطالبتهنّ بأن يعملن لكسب رزقهن". إن القذف والاغتياب، اللذين يحرّمهما القرآن، يشكّلان الأساس العادي لجرائم "الشرف". وتضيف زينب البِرّي الملاحظة الكئيبة التالية: "إن القرآن يحرّم، على وجه الخصوص، النميمة والاغتياب": ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (القرآن الكريم، سورة الحجرات الآية ١٢)؛ (وفي موضوع "القتل" راجع أيضاً سورة المائدة، الآية ٣٢).

وتورد الدكتورة حَسَن ردود فعل متباينة في أوساط مسلمي الولايات المتحدة، فتقول: "يصيب الذعر والحرج كثيراً من الشباب... بيد أن لديهم شعوراً داخليّاً بأن ["جرائم الشرف"] ليست من الإسلام في شيء، ولكنهم ما يزالون يجهلون السبب". وأثناء قيامها برحلة عبر أميركا، لمست معارضة حقيقية لحملتها الهادفة لاجتثاث هذه العادة. وبعد أن طلبت دعمها بالمال، خلال كلمة ألقتها في مؤتمر رابطة الأطباء الباكستانيين، في أميركا، فوجئت بالحضور

يتجنّبها. وقالت لها امرأة باكستانية: "لا داعي لهذه الجلبة التافهة حول جرائم الشرف".

وتتذكّر الدكتورة حسن قائلة: "شعرت بإحباط بالغ. كانت تتلبّسهم حالة رفض، ولكنني لا أستطيع أن أتخلّى عن هذه القضية. فقد شاء الله لي أن أسير في هذا الطريق. إنها رحلة حياتي"[١]. وهي تشعر بالحاجة إلى برنامج تثقيفي واسع على مستوى عالمي، تشجعها على ذلك مبادرة الأمم المتحدة، إذ عقدت جلسة خاصة في حزيران (يونيو) ٢٠٠٠، ناقشت حقوق النساء، ودعت فيها إلى اتّخاذ إجراءات مشددة ضد "جرائم الشرف"[٢].

وترى زينب البِرّي، في عادتي الختان و"جرائم الشرف" مجتمعتين، حلقة مفرغة. "فلأسباب اجتماعية واقتصادية، لا يملك معظم الضحايا أي سبيل للهرب. وإن هذه العادات تعتّم على التعاليم الدينية. فحتى النساء المثقّفات يخفنّ الكلام على هذه المسألة، خشية أن يُنبذن. ولكن على النساء أن يبادرن إلى وضع حد لهذه العادات المروّعة، وكسر هذه الحلقة المُفْرغة. علينا، كمسلمين، أن نعمل بصورة أفضل لما فيه خير الأجيال المقبلة. وعلى النساء المسلمات أن يضطلعن بدور أكثر جرأة. فمعظمهنّ يربين أطفالهنّ بمكيالين، واحد للصبيان والآخر للبنات، في حين ينبغي لهنّ تعليمهم الأخلاق نفسها"[٣].

وأكثر ما أذهلني، لدى مراجعتي مسحاً، غير رسمي، للأدبيات الصادرة عن المنظمات الإسلامية في الولايات المتحدة، أنني لم أعثُر إلا على مرجِعَيْن اثنين يبحثان ختان الأنثى و"جرائم الشرف". أكثر من ذلك: لقد أحسستُ، لدى مسلمين قياديين، امتناعاً عاماً عن قول أي شيء يتعلق بهاتين الممارستين.

ويعني هذا ، عموماً، أن مسلمي الولايات المتحدة لا يدركون تماماً المحنة

---

(١) Ellen Goodman, *Boston Globe*, 3-12-2000 and *Los Angeles Times*, 3-11-2000, p. B-2.

(٢) *Washington Times*, 6-12-2000.

(٣) Interview, 7-8-1999 and letter, 8-23-1999.

التي يبتلى بها المسلمون من جرّاء الصور المضلِّلة التي تربط بين الإسلام من جهة، وختان الأنثى و"جرائم الشرف" من جهة أخرى؛ دونما حاجة للإشارة إلى الكرب النازل بالنساء. ولا بد من الإشارة إلى أنه نادراً ما تُتخذ تدابير مشابهة لزجر الرجال عن أي سوء في سلوكهم الجنسي.

إن ختان الأنثى و"جرائم الشرف" ممارستان تعبّران عن ذروة الشوفينية الذكورية؛ انهما من البقايا البشعة للممارسات القَبَلية التي ثبَّتت هيمنة الرجل على مدى قرون.

الفصل الثامن

ردم الهوة

كان لانهيار التواصل بين أتباع الديانات المختلفة فعل الصدمة التي انتشلتني من حالة الرضى عن الوضع، ودفعتني للتركيز أكثر من ذي قبل على رؤية أميركا المشوَّهة للإسلام. وكان الانهيار مقلقاً جدّاً، لأنه حدث بالقرب من مدينتنا.

فقد نظم الطلاب المسلمون في جامعة "سانغامون" (هي، الآن، جامعة إيلينوي في سبرينغفيلد - إيلينوي)، محاضرة حول الإسلام مساء يوم ١٦ شباط (فبراير) ١٩٩٠. فقد كان الأمل يحدوهم على تحسين تفهّم أفراد المجتمعَيْن، المسيحي واليهودي في المنطقة، للدين الإسلامي.

وفي محاولة لحشد الحضور، نشر المنظّمون إعلانات في وسائل الإعلام المحلية، من صحف وإذاعة وتلفزيون، وأرسلوا الدعوات إلى أكثر من ثلاثمِائة كنيسة مسيحية وكنيسَيْن يهوديّين. ولأنهم كانوا يتوقّعون حضور عدد كبير من الأشخاص، فقد استأجروا صالة تتسع لخمسِمائة شخص، وحضّروا كميات وافرة من المرطّبات. واتصل بي وبزوجتي لوسيل أحد الطلاب المنظّمين يحثّنا على الحضور لأنه يعرف اهتمامنا بالإسلام.

ومع كل هذا الجهد الإعلامي، لم يلبِّ الدعوة سوى خمسة وسبعين شخصاً كلهم من المسلمين، باستثناء خمسة أشخاص، أربعة منهم مسيحيون ويهودي واحد. ويعود سبب هذا الحضور الهزيل إلى عدة عوامل، أحدها الصورة السلبية للمسلمين المتجذرة عميقاً في العاصمة سبرينغفيلد، كما هي الحال في معظم المدن الأميركية. ومن العوامل، أيضاً، أن القُسُس والحاخامات يرتبطون، عادة،

بمواعيد مثقلة في أبرشياتهم تمنعهم من المشاركة في نشاطات خارج نطاقها. غير أن العامل الرئيسي، الذي كان وراء هذا الحضور الهزيل، يتلخّص في أن المنظّمين فشلوا في دعم الإعلانات باتّصالات هاتفية بالأشخاص الذين يرغبون في حضورهم، فضلاً عن أن موعد المحاضرة صادف مساءَ يوم شباطيّ بارد. وعلى الأرجح، أننا ما كنا لنسافر بالسيارة مسافة خمسة وثلاثين مِيلاً للمشاركة، لو لم يتصل بنا صديقنا الطالب داعياً إيّانا بحرارة للحضور.

أصيب المنظمون بخيبة أمل لِهُزال الحضور، ولكن الأمسية شكّلت منعطفاً رئيسيّاً في حياتي، وحدثاً مهمّاً في سلسلة أحداث سوف تقودني شيئاً فشيئاً إلى حقل نشاط جديد يتّسم بالتحدي.

كان المحاضر دايفيد زوينك، أحد كوادر الجمعية الإسلامية لأميركا الشمالية في بلانفيلد بولاية إنديانا، وابن قسّ بروتستاني ميثودي، قدّم مدخلاً عامّاً عن الإسلام، معدّداً المبادئ والممارسات التي يشترك فيها مع المسيحية واليهودية، مناقشاً المفاهيم الخاطئة حول الإسلام السائدة في أميركا. وغادرت القاعة وأنا مقتنع بوجوب تصويب الأفكار المنمّطة التي حدّدها، ليس فقط لصالح المسلمين الأميركيين، بل لصالح الأميركيين جميعاً. وللمرّة الأولى، أدركت كيف أن هذه الأفكار الخاطئة عن الإسلام تشكّل مصدر ضيق وقلق لمسلمي الولايات المتحدة، والأهم كيف أنها تشكّل حاجزاً منيعاً يحوُل دون رسم سياسة حكيمة للولايات المتحدة في الشرق الأوسط. فهذه الصور المضلِّلة تعمي بصيرة الشعب الأميركي عن رؤية الحقائق المهمّة في هذه المنطقة من العالم، وتستدرج حكومة الولايات المتحدة إلى انتهاج سياسات منحازة.

لم أعِ ذلك في حينه، ولكنني أصبحت مهتمّاً به، ولم يكن ثمَّة مجال للعودة إلى الوراء. وابتداء من ذلك اليوم، صارت الأولوية عندي لتصحيح الصور المزيّفة. وبالفعل، بعد مضيّ أسبوع على المحاضرة، نشرتُ في صحيفة مدينتنا اليومية "جاكسونفيل جورنال-كوريير"[1]، مقالاً يلخّص محاضرة زوينك،

(١) *Journal-Courier*, 2 -18-1990, p. 6.

أعربت فيه عن الأسى للحضور الهزيل الذي شهدها. واختتمت المقالة بالمناشدة التالية:

"إن في كل ديانة عناصر راديكالية، ولكن المسلمين الذين تعاطيت معهم أناسٌ محترمون، يُقْرُون الضيف ويراعون الآخرين. ولقد صادفت مسلمين يؤدّون صلواتهم في المكاتب والمزارع، وفي المساجد طبعاً. فالإسلام يدعوهم لأدائها خمس مرات في اليوم. ومن الطبيعي ألاّ يقوم كل المسلمين بأداء كل الفرائض التي يوجبها الإسلام، تماماً كما هي حال المسيحيين واليهود.

"إنني لا أتوسّل الدفاع عن الإسلام بل أتوسّل تفهّمه. فعلى المسيحيين واليهود أن يتعرّفوا إلى الإسلام، وينظروا إلى المسلمين باعتبارهم بشراً، لا كما يصوَّرون وفق تنميطات قبيحة ومزيّفة. ولمصلحتنا نحن، وفي سياق كفاحنا للعيش سعداء على هذا الكوكب الذي لا يفتأ يتضاءل ويتقلص، ينبغي لنا أن ندحض الصور المزيّفة التي تصدِّع رؤيتنا، وتوجّه أحياناً، سياسات حكومتنا، في الاتّجاه الخاطئ. وكان بوسعي أن أضمّن المقالة اقتباساً للشاعر روبرت بيرنز الذي كتب يقول: "أعجبك أم لم يعجبك، فنحن كلنا نعيش على هذا الكوكب، وليس هناك مكان آخر نذهب إليه".

وقد أعيد نشر مقالتي في النشرة الإعلامية التي تصدرها الكنيسة المشيَخِيَّة، فلفَتَت نظر الدكتور مالكولم ستيوارت، وهو أستاذ جامعي متقاعد، علَّمني مبحثَي المنطق والدين بين عامي ١٩٤١ و١٩٤٢. لقد كان شخصاً مخلصاً ومفكّراً شديد الدقة. وما لبثت أن جمعتني به صداقة، بعد أن أصبحت عضواً في مجلس أمناء الكلية. وبعد أن قرأ مقالتي في بيته الشتوي بأريزونا، كتب لي رسالة دعم تضمَّنت ملاحظة تُفصح عن عميق تفكير لمَّا تزل حيَّة في فكري مُذَّاك:

"لن يكون سلام في عالمنا حتى يتحقق السلام بين الأديان. ولن يكون سلام بين الأديان حتى يتوصل أتباعها إلى أن يتفهَّم بعضهم البعض الآخر. إن نقطة البداية تكمن في التشديد على الجوانب المتشابهة المتماثلة، لا

الاختلافات. فالهدف المعلن لكل ديانة هو السلام والوحدة والتآلف. وإنه لمن المفيد التأمُّل في ما كان سيحقق لو أن الأديان تعاونت لتحقيق هذه الأهداف المعلنة". وقد أورد أسماء مجلات عديدة متخصِّصة بالدين في العالم، وجد فيها عوناً أوصله إلى هذه الاستنتاجات.

وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٠، ألقيتُ كلمة خلال مأدبة أقيمت بمناسبة "يوم العالم"، الذي رعته مؤسسة مسلمي أميركا في مدينة نيويورك، استعرت فيها كلمات ستيوارت. وفي نقاش ليلي متأخر مع خمسة من مسؤولي المؤسسة، دعوت المسلمين، بإلحاح، إلى الانخراط في النشاط السياسي. واستشعرت أثناء الحفل، لدى مضيفينا المسلمين، قلقاً أمنيّاً ظهر في حراسة قاعة المأدبة خلال وقائع تلك الأمسية، وأجنحة المنامة طوال الليل.

ولدى عودتي إلى إيلينوي، فوجئت وكان سروري عظيماً، لمّا تسلمت طرداً بريدياً، كان عبارة عن كتاب صغير، بعنوان "الجيران: المسلمون في أميركا الشمالية" (Neighbors: Muslims in North America)، كان أول وثيقة مختصرة وسهلة القراءة. وكان، في علمي، أول وثيقة ترسم للمسلمين وجهاً ودياً وإنسانياً. وهذا الكتاب، الذي ألفه الأب الياس مالون الكاهن الكاثوليكي، والصادر عن دار فرندشيب بريس، يقدّم مقابلات مذهلة مع تسعة مسلمين يتبوّأون مناصب متنوعة في مختلف مناطق أميركا الشمالية. ويسجّل مؤلفه، في المقدّمة، الملاحظة التالية: "نبدأ حقّاً فهم هذا الدين، عندما يصبح لدينا صديق من أتباعه".

وبعد سنوات، أعرب لوثر وورن، وهو أميركي أفريقي من جيراني، عن شعور موازٍ، لمّا قال: "إنه لمن الصعب أن تكره امرءاً تعرفه". أما الممثلة اليهودية ميلي أفيتال من إسرائيل، فقد حملت معها، لدى انتقالها إلى الولايات المتحدة عام ١٩٩٣، نداء للتوافق بين الأديان، يبعث السرور في النفس. وكانت افيتال قد حققت ذروة نجوميتها في إسرائيل؛ وهي تؤدي اليوم، بنجاح كبير، دور شهرزاد الأسطورية في فيلم "الليالي العربية" الذي تنتجه شبكة أي بي سي التلفزيونية. فلدى سؤالها عن شعورها المتولِّد من تأديتها دور شخصية عربية،

قالت: "أنا جزء من جيل جديد لا يؤمن بهذه الأمور. وكلما ازدادت الثقافات في العالم، كان ذلك أفضل. ولو قُدِّر لي أن أقوم بدور يمثّل جيراني [الفلسطينيين] لكان ذلك عظيماً. إن لديهم ثقافة جميلة"(١).

وفي محاضراتي ومحادثاتي التي تلت تجربتي في مدينة نيويورك، كرَّرتُ فكرة مالكولم ستيوارت، واستشهدت بذلك الكتاب ("الجيران...") باعتباره كتاباً يجب أن يُقرأ. وسنحت الفرصة في نيسان (إبريل) ١٩٩١ في تامبا بفلوريدا، عندما كنت أتحدث في عشاء أقامته الجمعية الإسلامية المحليّة. فقد قمت، في وقت مبكر من ذلك اليوم، بزيارة مدرسة ابتدائية أنشئت لأطفال المسلمين، وجلْتُ في المنطقة المحيطة بها التي كانت يوماً، مرتعاً للفساد، وعاينت كيف عمد المتطوعون من الأهالي المسلمين، ذوي التفكير المدني، إلى تنظيفها وجعلها جذّابة. وقد شرح لي مضيفي قائلاً: "إن برنامجنا للنظافة لا يهدف إلى مساعدة المسلمين، فإن أي مسلم هنا لا يملك، فيما أعتقد، أي عقار، كما لا يستفيد ماليّاً بأي طريقة مباشرة. إننا، وببساطة، نريد أن نكون جيراناً جيّدين، وأن نبرهن أن المسلمين يسرّهم أن يساعدوا على جعل تامبا مكاناً أفضل للعيش".

في شباط (فبراير) التالي، دعوت المسلمين في نيوجيرسي، بإلحاح، للمشاركة في السياسة الحزبية: أوّلاً، في محاضرة ألقيتها في مدرسة متوسّطة رسمية في بلدة تينيك، وبعدها أمام جمع في مسجد قريب. وقبل أن أغادر المسجد، علمت للمرّة الأولى أنني مثَّلت مسلماً واحداً على الأقل خلال حياتي النيابية، عندما تعرّفت إلى محمد شاكر بين أولئك الذين رحّبوا بي بعد إلقائي كلمتي. فقد كان شاكر يعمل في جزء من وقته، وأثناء دراسته الجامعية، كموظّف استقبال في الفنادق؛ وقد سبق أن سجّلني، من حين الى آخر، نزيلاً في فندق بمدينة ألتون التي تقع ضمن إيلينوي، الولاية التي أمثّل.

وفي أيلول (سبتمبر) ١٩٩٣، رتب لي المناضل الذي لا يكلّ من أجل

(١) *USA Today*, 4-28-2000, p 12E.

الحقوق الفلسطينية رفيق جبر، لقاءً في "شيكاغو"، حيث كررت دعوتي للمسلمين، للانخراط في النشاط السياسي. وأجد لزاماً عليّ أن أشير إلى أن جبر أتاح لي فرصاً كثيرة للقاء المسلمين في السنوات اللاحقة.

أما المحطة التالية، فقد كانت سان خوسيه بكاليفورنيا، حيث نظّم مجلس العلاقات الأميركية - الإسلامية (CAIR) مؤتمراً استغرق يوماً كاملاً، تحت شعار "دعوة لتفعيل نشاط المسلمين". ولطالما أعجبت بإنجازات هذه المنظّمة في كفاحها من أجل الحقوق المدنية لمسلمي الولايات المتحدة، وخصوصاً في أماكن العمل. غير أن هذا المؤتمر، بحسب علمي، كان أول مؤتمر تحث فيه مجموعة إسلامية المسلمين على الانخراط في العمل السياسي.

حضر المؤتمر مِائة وخمسون شخصاً، معظمهم من المسلمين، وخاضوا نقاشاً حيويّاً بعد ظهر ذلك اليوم الطويل.. وكانت هناك مفاجأة، لي على الأقل. فقد وجّه أحد الخطباء، وهو إمام مسجد أميركي أفريقي، نقداً حادّاً لأنشطة كلا الحزبين، الجمهوري والديموقراطي، معلناً أنه يعتبر نظام الولايات المتحدة السياسي فاسداً إلى حد ينبغي معه للمسلمين تجنّب التورّط بأي مشاركة فيه، وقال: "إنني أدعو شعبي للابتعاد من السياسة والسياسيين". ولكن الخطباء الآخرين، وأنا منهم، حثّوا المسلمين ليسلكوا طريقاً معاكساً، من خلال القيام بدور فاعل في الانتخابات، والمشاركة في الحملات الانتخابية لترشيح أنفسهم في اللوائح الحزبية، أو يكونوا مرشحين منفردين.

إن هذه التجارب دفعتني إلى كتابة مقالة عن الطاقة السياسية الكامنة لدى مسلمي الولايات المتحدة، نُشرت في عدد تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٢ من مجلة "واشنطن ريبورت اون ميدل ايسترن افيرز"[١]، وهي مجلة واسعة الانتشار، تصدر مرة كل شهرين، يقرأها المهتمون بالنزاع العربي-الإسرائيلي. وقد عددت فيها الأفكار الخاطئة المنتشرة عن الإسلام، وأشرت فيها الى النموّ

(١) *Journal-Courier*, 2 -18-1990, p. 6.

المتسارع لعدد السكان المسلمين في أميركا. وفي سياق دعوتي المسلمين ليدركوا كل الفرص والمسؤوليات التي تمنحها الجنسية الأميركية وتوجبها، توقّعت أن يكون في وسعهم المساعدة على تصحيح هذه الصور المضلِّلَة عن الإسلام؛ وفي الوقت نفسه، ممارسة التأثير، القوي والبنّاء، في سياستي الولايات المتحدة الداخلية والخارجية. وقد أشرت أيضاً الى أن المسلمين يعيشون في الولايات الصناعية، حيث يمكن أن يكون تأثيرهم حاسماً، ولا سيما في الانتخابات الرئاسية. كما حَثَثْتُ على رصد وسائل الإعلام بوعي ويقظة. وكتبت أقول: إن على المسلمين المطالبة بتصحيح أي تعبير إعلامي يُشتَمُّ منه أي انحياز ضد المسلمين، كخطوة ضرورية في دحض التنميطات المضلِّلَة. وقلت: إن كل ما يحتاجه الأمر: ان يضطلع المسلمون بواجباتهم كمواطنين في الولايات المتحدة.

وقد لقيت مقالتي طريقها الى أحد القادة المسلمين في الخارج، فتلقيت دعوة للمشاركة في ورشة عمل حول الأفكار المنمطة عن المسلمين، تقرر عقدها في أيلول (سبتمبر) ١٩٩٦ في ماليزيا، برعاية "الحركة العالمية من أجل عالم عادل". ولقد رحَّبت بالدعوة معتبراً المشاركة فرصة لأتعلم المزيد عن الإسلام، ولأختبر أفكاري بشأن الخطوات التي يتعيّن اتخاذها في أميركا لتصحيح الأفكار الخاطئة عن هذا الدين.

شارك في هذه الورشة أربعة وأربعون مندوباً من ثلاثة وعشرين بلداً. وكنت واحداً من ستة مندوبين أتوا من الولايات المتحدة. وقدَّم كل مندوب بياناً مكتوباً، وشارك الجميع مشاركة فعّالة في المناقشات التي تلت. وعندما حان دوري في الكلام، قدَّمت الصورة الكالحة عن الإسلام التي يتقبّلها الأميركيون باعتبارها حقيقية، فقلت: "إن معظم الأميركيين ينظرون إلى المسلمين بقلق، إن لم أقل بخوف. فهم يرون فيهم مصدراً لعنف أحمق ولنزاع ديني، وتهديداً للمسيحية ولنظام حكمنا وحرياتنا الأساسية. إنهم يعتقدون أن رجال المسلمين يسيئون معاملة النساء ويعاملونهنّ كأنهنّ متاع. كما يرون في الإسلام ديناً غير

متسامح مع الأديان الأخرى. لقد آن الأوان ليتخلّص مسلمو الولايات المتحدة من خجلهم، ويبادروا إلى تنفيذ برنامج هجومي يهدف إلى محو هذه الصور المضلّلة. عليهم أن يتسلموا الزمام لنشر حقيقة الإسلام".

في الجلسة الختامية، طلب مدير المنظمة الدكتور شاندرا مظفر، هو مسلم نشأ في الهند، وكان هندوسيّا، طلب من كل المشاركين أن يقترحوا خطوات محددة للمتابعة، يأخذونها على عاتقهم لدى عودتهم إلى أوطانهم. وأخذت عهداً على نفسي أن أكتب بياناً قصيراً، يستطيع المسلمون الأميركيون، بلا حرج، توزيعه على جيرانهم غير المسلمين. وفي معرض تفسيري لقراري، قلت إن مسلمي الولايات المتحدة يبدون، لسبب مّا، تردّداً حتى في ذكر ديانتهم، فكيف بمحاولة تفسير هذه الديانة. وأضفت أن المرء لا يستطيع أن يتوقع من المسيحيين الذين لا يعرفون عن ديانة جيرانهم أن يبادروا للسعي الى التفهم. ووعدت أن اشدّد في بياني على الأهداف التي يشترك فيها المسلمون والمسيحيون واليهود، إضافة إلى الحقائق التي يمكن أن تساعد في تصحيح التنميطات المضللة.

بعد العودة إلى الوطن، عمدت خلال الأشهر الستة اللاحقة إلى الاتصال بزعماء المسلمين وبعدد من رجال الكهنوت المسيحيين عبر الهاتف وبالمراسلة، للتشاور معهم؛ وأعددت، عن الإسلام، مسوّدة لِبيان موجز، كنت واثقاً ان أي قارئ سيفهمه بسهولة.

ووجدت تعاوناً من ثلاثين شخصية، أذكر من بينهم توماس آبِركرومبي، وهو صحافي متقاعد كان من كبار محرري مجلة "ناشونال جيوغرافيك"، وقد التقيته للمرة الأولى عام ١٩٨٣ حينما كنت أكتب "من يجرؤ على الكلام". ولأنه اهتدى إلى الإسلام في سن الثلاثين، فقد كان بإمكانه تقديم نصائح مفصّلة. ومن بينهم أيضاً عنايت لالاني، وهو طبيب من فورث وورث بولاية "تكساس"؛ وزعيمان مسلمان من ناشفيل هما الدكتور نور نصيري وزوجته

زينب البِري؛ والدكتور شاندرا مظفر رئيس "الحركة العالمية من أجل عالم عادل" ومقرّها ماليزيا؛ والحاج غازي ي. خانكان مدير "المركز الإسلامي" في لونغ آيلاند.

وعندما توصّلنا إلى الصيغة النهائية بعنوان "نداء ودي من جاركم المسلم"، والتي كانت حصيلة أكثر من عشرين مسوّدة، شعرت بأنني بلغت مرحلة مهمّة في معرض الإجابة عن السؤال الأساسي: ما الإسلام؟[١] [انظر الملحق أ].

إني على ثقة بأنَّ إمكانية الاستفادة من الوثيقة إمكانية جيدة، لأنها توفر طريقة سهلة للتخاطب بين شخص وآخر، مباشرة بلا وسيط، وهو المستوى المثالي للتواصل. ولقد قمت بتوزيع نسخ عنها أثناء إلقائي المحاضرات، أمام تجمّعات المسلمين في شيكاغو، وسانت لويس، وديترويت، ولوس انجلس، وآن آربور، وفيلادلفيا، وبيتسبورغ، وتورونتو، ودالاس، وسان فرنسيسكو، وأثينا، وجورجيا. كما وزّعت نسخاً أخرى بواسطة البريد.

لكن ينبغي لي أن أكون واقعياً. ففي حين أنْ لا بديل لِلّمسة الإنسانية، أجد أن ثمة حدوداً لهذا "النداء الودّي...". فمعظم الأميركيين لا تتجاور مساكنهم مع مساكن المسلمين؛ ولا يسكن المسلمون في شارعهم، ولا في الشارع المجاور.

وبات واضحاً أن كتاباً مختصراً يركز على الخيوط المشتركة القائمة بين المسيحية والإسلام قد يساعد، فللكتب بقاء أكيد. انها تعيش منتقلة من بيت لبيت، ومن جيل إلى جيل. وهذا ما كان في بالي لمّا خطّطت لتأليف هذا الكتاب.

وللكتب أيضاً محدوديّتها، فعدد الأميركيين الذين يخصصون وقتاً للقراءة الواسعة عدد قليل نسبيّاً؛ ولذا، فإن تأثير الكتب في الرأي العام وفي السياسة العامّة نادراً ما يكون فوريّاً. وحينما فكّرت مليّاً في ماهيّة الوسائل التي ينبغي اعتمادها، وجدتني أتحوّل إلى التلفزيون، وهو الوسيلة التي أعتبرها الطريقة

(١) See Appendix A: "*A Friendly Note From Your Muslim Neighbor*".

الفضلى للتأثير في ملايين الناس، في فترة زمنية قصيرة. فالإعلان التلفزيوني فعّال في تسويق مختلف السلع والقضايا والأفكار، واستنتجت أنه يتمتّع بقدرة كامنة على إبطال مفعول التنميطات السائدة عن الإسلام، وتلطيفها ونبذها بسرعة.

وقد وافق ابننا كريغ، الذي يملك شركة علاقات عامة تحمل اسم "فندلي أسوشييتس" على تنظيم تجربة كلّفناه القيام بها، فأمَّن تمويل إنتاج رسالة تلفزيونية عن مسلمي الولايات المتحدة، مدّتها ثلاثون ثانية. وقد أفدت من هذه التجربة في تجديد معرفتي بثلاثة رجال مثيرين للإعجاب، كنت قد عرفتهم فيما مضى، وهم: الأخوان، جيمس وجون زغبي، ووليم بيكر. إنهم يزاولون مهناً مختلفة، ولكنهم متحدون من حيث التزامهم، طوال حياتهم، بمسألة حقوق الإنسان، فضلاً عن أنَّهم ثلاثتهم مسيحيون، ولكنهم محترمون ومعروفون لدى المسلمين، وكنت قد تعرفت إليهم خلال تأليف كتابي "من يجرؤ على الكلام" وتسويقه.

والدكتور جيمس زغبي هو مؤسس المعهد العربي-الأميركي ومديره، والمدير التنفيذي الأسبق لـ "لجنة العرب الأميركيين لمناهضة التمييز" المنظمة التي رعت الترويج لكتابي في جولاتي عبر البلاد عام ١٩٨٥؛ وهو ضيف غالباً ما يظهر على شاشات التلفزيون عندما تناقش مسائل الشرق الأوسط، وهو معروف باطّلاعه اليقظ على بواطن الأمور في سياسة الحزب الديموقراطي.

وأما جون زغبي، فهو مؤسس شركة عالمية لاستطلاعات الرأي، عاش بضع سنوات في ظل شقيقه، ولكنه أصبح اليوم شخصية بارزة بفضل كفاءاته الشخصية. وغالباً ما يقتبس عنه المعلقون السياسيون، وتستضيفه محطات التلفزيون في مقابلات تتعلق باستطلاعات الرأي العام التي تجريها شركته. وقد التقيته للمرة الأولى عام ١٩٨٥، عندما كان يعمل لدى "لجنة العرب الأميركيين لمناهضة التمييز". اعتلينا المنابر نفسها، منابر المساجد في الغالب، وكان ذلك خلال جولة روّجت للّجنة ولكتابي أيضاً. وكثيراً ما كان أحدنا يصغي للآخر،

حتى أكدتُ له مرة ممازحاً أنني أستطيع أن أسعف ذاكرته، إذا ما انقطع حبل أفكاره أثناء مخاطبته جمهوراً من المستمعين، وكنت أعلم أنه يستطيع تقديم الخدمة نفسها عندما يكون دوري في الكلام.

وبعد عقد من التواصل المتقطع مع جون زغبي وبيكر، عاد الاثنان إلى حياتي أثناء تجربة ابني كريغ في إعداد المادة التلفزيونية عن الإسلام. فقد كان كريغ، قبل وضع تصميم لهذه الرسالة المتلفزة، يحتاج الى معطيات عن المواقف العامة حيال الإسلام؛ وعملاً باقتراحي، لجأ إلى الزغبي وتعاقد معه لاستطلاع هذه المواقف.

ولمعرفة مستوى انتشار الأفكار الخاطئة عن الإسلام لدى غير المسلمين، عمد فريق الزغبي إلى الاتّصال هاتفيّاً بأكثر من أربعمائة شخص في أربعة مخازن تسويقية هي: تاكوما بواشنطن، ويلكس-بار ببنسلفانيا، شارلستون بفرجينيا الغربية، ويشيتا بكنساس. وطرح على كل شخص مجموعتي أسئلة.

في المجموعة الأولى من الأسئلة، سعى المستطلع لمعرفة ردة الفعل على ذكر تسعة أديان مختلفة، دون أن يعطي، بداية، أي معلومات أساسية عن أيٍّ منها.

أكّدت النتائج انتشار الأفكار المنمطة السلبية. فقد أثار ذكر الإسلام أو المسلمين، والبوذية والهندوسية، ردود فعل سلبية بين الذين جرى استطلاعهم، أكثر مما أثار ردود فعل إيجابية.

	إيجابي بالنسبة المئوية	سلبي بالنسبة المئوية
المذهب المشيخي	٨٤	٩
اليهودية	٧٤	١٤
الكاثوليكية	٧٢	١٦
اللوثرية	٧٠	١٠
الأصولية المسيحية	٥١	٢٠
طائفة المورمون	٤٥	٣٥
الإسلام أو المسلمون	٣٧	٤٠
البوذية	٣٧	٤٠
الهندوسية	٣٤	٣٩

ثم عمد فريق الزغبي إلى طرح أسئلة ترمي لمعرفة ردود الفعل على أقوال تأتي على ذكر الإسلام أو المسلمين. وكانت النتيجة أن ٣٣ ٪ من المستجيبين، كانت ردود فعلهم إيجابية على كلمة "الإسلام"، إلا أنّ نصفهم قالوا إنهم يستشعرون "ميلاً للتمييز" ضد المسلمين. وأعرب ٢٠ ٪ عن شعورهم بأن "عدد مسلمي الولايات المتحدة يتزايد بوتيرة أسرع مما ينبغي"؛ فيما فضَّل ٣٣ ٪ وضع قيود على عدد المسلمين الذين يُسمح لهم بالهجرة إلى الولايات المتحدة، وقال ٤٠ ٪ إنه لا ينبغي لمطاعم المدارس ان تلتزم تلبية أنظمة الحمية الغذائية التي يتبعها المسلمون؛ وعارض ٣٣ ٪ السماح للمسلمين بالتعطيل وقت أداء الصلاة يوم الجمعة؛ كما عارض ٤٦ ٪ منحهم أيام أعيادهم مدفوعة الأجر؛ ولاحظ ٤٦ ٪ أن لدى المسلمين نزوعاً نحو التعصّب الدينيّ؛ وأعرب ٣٣ ٪ عن اعتقادهم أن المسلمين لا يتقبّلون الأديان الأخرى، وفي حين أن٥٠ ٪ أعربوا عن اعتقادهم بأن المسلمين يحيون حياة نظيفة ومحترمة، خالف ١٦ ٪ هذا الرأي.

ولكن ٧٥ ٪، من هؤلاء الذين شملهم الاستطلاع، أعربوا عن رأي شكّل خروجاً على اتّجاه الرأي في الإجابات السابقة، عندما قالوا بوجوب السماح للنساء المسلمات بارتداء الحجاب، في أماكن العمل.

وكانت الأسئلة في المجموعة الأخيرة تستهدف تقصي ردود الفعل على سلسلة من المقولات الواقعية عن الإسلام، وجاءت النتائج لافتة.

المقولة	الإجابات الإيجابية بالنسبة المئوية
المسلمون ملتزمون السلام العادل، والمسؤولية العائلية والتسامح	٥٤
المسلمون يحترمون تقاليد إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، ولديهم القيم الأخلاقية نفسها الموجودة لدى اليهود والمسيحيين	٥١
للنساء المسلمات الحق في التملُّك وممارسة المهن والعمل التجاري، والانخراط في الحياة العامة، وحق الطلاق	٤٦
المسلمون يمقتون الإرهاب والقهر	٤٣
المسلمون يؤمنون بالله الذي يؤمن به المسيحيون واليهود	٨٣

وأظهرت مقارنة نتائج هذا الاستطلاع[١] بنتائج استطلاع مماثل سبق أن أجرته شركة الزغبي لحساب "مجلس المسلمين الأميركيين" عام ١٩٩٣، تحسّناً طفيفاً في ما يتعلّق بالتسامح الديني[٢].

لقد كانت نتائج الاستطلاع مشجّعة جدّاً، ممّا دفع كريغ إلى تكليف شركة متخصّصة للشروع في إعداد الرسالة المتلفزة التي تستغرق ثلاثين ثانية. لقد

(١) Zogby International poll, 7-15-1977.

(٢) Zogby International poll, 3-29-1993.

أكدت الرسالة، المؤلفة من سلسلة من العبارات والصور، مقولة أن مسلمي الولايات المتحدة تجمعهم قواسم مشتركة كثيرة، مع جيرانهم غير المسلمين. فقد جاء في النص ما يلي: "المسلمون الأميركيون. هذا ما نؤمن به... أن الناس، كل الناس، أحرار في أن يصلُّوا للسلام... ويقدّسوا الله، كلّ على طريقته... ويربّوا أطفالهم... ويجلّوا المسيح... ويأملوا في مستقبل يحترم كل الناس... ويمجد اختلافاتهم... ويدوم إلى الأبد. المسلمون الأميركيون، يجمعهم بك من الأمور أكثر مما قد تتصوَّر".

وبُثَّت الرسالة في حملة تجريبية محدودة خلال صيف ١٩٩٨ في العاصمة واشنطن، في أيام انعقاد دورة الكونغرس. وقد أجرت شركة الزغبي، قبل البثّ التجريبي، اتصالات هاتفية بثلاثمِائة وثمانية أشخاص طرحت فيها عليهم مجموعة من ستة وعشرين سؤالاً. وكان الجمهور المستهدف بهذا الاستطلاع مكوّناً من البالغين الذين تراوح أعمارهم بين الخامسة والعشرين والرابعة والخمسين، أي مِن الشريحة القادرة على تكوين الرأي، والتي يتوقَّع أنَّ يكون مستوى معرفتها للإسلام أعلى من المعدل الوسطي. أما الرسالة المتلفزة، فقد تقررت مواعيد بثّها خلال الأوقات المخصَّصة لبرامج إخبارية، كبرنامجي "Meet the Press" و"Face the Nation"، موزّعة على فترة ثمانية أسابيع فيَ أوائل الصيف. وفي أواخر تموز (يوليو)، أُجرِيَت اتصالات بثلاثمِائة وثمانية أشخاص شاهدوا هذه الرسالة المتلفزة، وطرحت عليهم مجموعة الأسئلة نفسها، فجاءت النتائج كما يلي:

المقولة	نسبة الموافقين	
	قبل الحملة	بعد الحملة
غالبية المسلمين العظمى تكره الإرهاب	٥١	٦١
المسلمون لا ينزعون لأن يكونوا متعصبين دينيين	٤٥	٥٥
المسلمون متسامحون مع الآخرين	٣٧	٤٢
المسلمون يميلون لأن يحيوا حياة نظيفة ومحترمة	٦٢	٦٩
ينبغي السماح للنساء المسلمات بارتداء الحجاب في أماكن عملهن إذا رغبن في ذلك	٧٦	٧٩
المسلمون يحترمون تعاليم المسيح	٣٤	٣٤
ينبغي إعطاء المسلمين الوقت اللازم لأداء صلاة الجمعة	٥٣	٦٢
ينبغي إعطاء المسلمين عطلاً مدفوعة الأجر عن أيام أعيادهم الدينية	٤٥	٥٢
انطباعي العام عن المسلمين إيجابي	٤٩	٥٥
الانطباع العام عن المسلمين لدى مشاهدي CNN الدائمين	٤٢	٦٥

أظهرت نتائج الاستطلاع انحيازاً إيجابياً في وجهات النظر، استناداً إلى العمر والثقافة والجنس وعادات مشاهدة التلفزيون، لدى المُستطلَعَة آراؤُهم.

فقد تبين أن الشباب أكثر تسامحاً حيال المسلمين، مقارنة بأولئك الذين

تجاوزت أعمارهم الخامسة والستين؛ كما تبين أن النساء أكثر تسامحاً من الرجال. أما المشاعر السلبية تجاه المسلمين، فقد مالت الى التدنّي في وسط الأشخاص ذوي المستويات التعليمية العليا.

أما التحسّن الأكثر دراماتيكية، فقد شمل مشاهدي محطة CNN الدائمين. فقبل الحملة التلفزيونية أعرب ٤٢ ٪ عن انطباعهم العام الإيجابي عن المسلمين. وبعد الحملة قفزت النسبة لتصبح ٦٥ ٪، أي بزيادة ٢٣ ٪. ومن بين جميع الذين استطلعت آراؤهم، ازدادت نسبة أصحاب الانطباع الإيجابي من ٤٨ ٪ إلى ٥٥ ٪، أي بتحسن بلغ ٧ ٪.

لقد بيَّن تحليل النتائج أن الحملة أحدثت، في ستة أسابيع، تحسّناً في تفهّم افضل للإسلام في سلسلة واسعة من المواضيع. ولقد وصف جون زغبي هذا التحسن بأنه "استثنائي حقّاً"، وأضاف قائلاً: "قد يبدو ذلك تحسّناً طفيفاً، ولكننا إذا أخذنا بالحسبان الإيجاز الذي اتّسمت به الحملة، فإن التحسن يكون ممتازاً. ويمكننا ان نتوقع نتائج إيجابية، من حملة أوسع نطاقاً"[1].

وبناءً على نتائج الاستطلاع، بدا أنَّ الأميركيين منفتحو الذهن حيال المسلمين والإسلام، وبوسعهم الاستجابة بصورة إيجابية، إذا ما توافرت لهم حتى شذرات قليلة من الحقيقة. ولو توفَّرت الأموال اللازمة لبث تلك الرسالة المتلفزة ورسائل أخرى مماثلة، لأمكن التأثير بسرعة على الملايين من غير المسلمين، كي يقلعوا عن تصديق تلك الصور المضلّلة التي نُسجت حول الإسلام والمسلمين.

عندما تسلَّمت تحليل الزغبي، للتجربة التلفزيونية، حدث أمر لافت. فقد وردني بالبريد كتاب وليم بيكر الجديد بعنوان: "ثمة ما هو مشترك أكثر ممّا تعتقد: الجسر بين الإسلام والمسيحية" (More in Common Than You Think: The bridge Between Islam and Christianity). فهذا العنوان، وحده، أظهر أن

(١) "This We Believe," *Findley Associates, Zogby Survey*, 5-18 to 7-19, 1998, Jhon Zogby, interview, 9-3-1998.

المؤلف قد تناول، في الكتاب، الموضوع نفسه الذي عرضته رسالة كريغ التلفزيونية. فقد كان بيكر، سابقاً، عالم آثار في الشرق الأوسط وأستاذاً في التاريخ القديم، وقد رُسم كاهناً فيما بعد، وله معارف شخصيون في وسط الزعماء المسلمين في العالم.

في هذا الكتاب المختصر والممتع، الغزير بمعلوماته، يقدم بيكر المبادئ والمعتقدات المشتركة التي يجب أن تجمع بين المسيحيين والمسلمين، ليعملوا معاً. ودعم موضوعه باستشهادات مباشرة من القرآن الكريم والكتاب المقدس، فجاءت متكاملة على الدوام، متوازية في أغلب الأحيان؛ ولا شك في أن قراءة هذا الكتاب ستكون تجربة تنويرية ثقافية، لأي شخص يود عبور الجسر الذي يصل ما بين الديانتين.

وها هو يدعو إلى العدالة: "إذا كان سيُحكم على المسلمين والإسلام من خلال ممارسات وسياسات قلة قليلة تدعو إلى العنف والكراهية والموت، فيجب الحكم بالمقابل على المسيحيين والمسيحية، على اليهود واليهودية، على البوذيين والبوذية، بالمعايير نفسها تماماً"[1].

ويضيف قائلاً: "إن مفهوم الخطيئة [الإسلامي] هو، في وقت واحد، مماثل لما هو عليه في التوراة، ولكنه مختلف عنه، من حيث أن الإنسان في عرفه كائن أخلاقي حرّ قادر على الاختيار بين الخطأ والصواب، أو بين إطاعة الله أو عصيانه، لكنه ولد في هذه الحياة بريئاً من الخطيئة الأصلية. فالإسلام يقول إن الإنسان لا يمكن أن يولد مع الخطيئة الأصلية، مثلما لا يمكنه أن يولّد قدّيساً أصيلاً. فالقرآن يبيّن أن الناس جميعاً ولدوا أبرياء، أنقياء، صادقين، أحراراً، ميّالين إلى تقديس الله، فعّالين للخير"[2].

وسيلقى هذا الكتاب اهتماماً عظيماً في وسط المجتمع المسيحي، الواسع والمتنوّع. وسيُعزى بعض الفضل في ذلك الى المراجعة الإيجابية للكتاب، التي

---

(١) William Baker, *More in Common Than You Think*, p. 61.

(٢) Ibid., p. 56.

قدّمها القس روبرت هـ. شولِّر، أحد أشهر رجال الدين المسيحيين في الولايات المتحدة، ومؤسس كاتدرائية "كريستال" في لوس أنجلس، وراعي البرنامج التلفزيوني الأسبوعي الواسع الانتشار "Hour of Power". والجدير بالذكر أن بيكر هو مستشاره للشؤون الإسلامية.

ويقر شولِّر بأهمية التفاهم المسيحي-الإسلامي، فيقول: "إني مقتنع أن كتاب بيكر هذا سيكون إسهاماً مهمّاً في التقريب بين المسيحيين والمسلمين ليعيشوا معاً بسلام، وليتبادلوا الاحترام"[(١)]. كما أخبر رفاقه أنه سيركز في نشاطاته الكهنوتية على التفاهم المسيحي - الإسلامي"[(٢)].

وسيدهش المسلمون بتقويم الدكتور مزمل هـ. صدِّيقي، رئيس الجمعية الإسلامية لأميركا الشمالية، وأحد أكثر قادة المسلمين احتراماً. فقد نوّه صدِّيقي بكتاب بيكر، وكتب يقول: "إننا، نحن المسلمين والمسيحيين، نشكّل معاً اليوم أكثر من نصف سكان العالم. وإن علاقات التواصل والسلام والتفاهم الفضلى بين مجتمعاتنا ليست أمراً جيّداً، فحسب، بل إنها علاقات ضرورية. إن ما لدينا من القواسم المشتركة لَهُوَ أكثر بكثير مما نعتقد أو نسلّم به"[(٣)].

يقدّم الكتاب فصلاً يبيّن الأصول والفروع التي يشترك فيها الإسلام والمسيحية واليهودية. ففي الفصل الرابع يقول بيكر: "لعلّ قلّة من المسيحيين يعرفون أن النبي محمّداً ﷺ، رسول الإسلام، آمن بأنَّ يسوع المسيح وموسى (عليهما السلام) كانا أهمّ رسولين إلى بني البشر، مبلّغين لوحي الله، الذي أودع التوراة والعهد الجديد؛ والإسلام يؤمن بالكتابين ويتقبّلهما... كما ينظر إليهما على أنهما وحي من الله إلى البشر... وأن المسلمين دُعوا إلى التأسّي بأمثولات أنبياء الكتاب المقدس الأقدمين... وكما يؤمن المسيحيون بأن العهد

---

(١) William Baker, *More in Common Than You Think*, backcover.

(٢) Ibid., backcover.

(٣) Ibid., backcover comments.

الجديد متمّم للعهد القديم اليهودي، كذلك يؤمن المسلمون بأن الإسلام والقرآن هما التتمة النهائية لكلا الكتابين، وأن النبي محمّداً ﷺ هو خاتم رسل الله"[١].

ويقرّ بيكر أن "كثيراً من الحروب اندلعت عبر القرون بين المسلمين والمسيحيين"، وأن "كثيراً من الظلم والممارسات البربرية ارتكب باسم الله والكنيسة لأن البشر من مسلمين ومسيحيين، غالباً ما أخفقوا في ممارسة جوهر ديانتهم وروحها"[٢].

ويكتب بيكر أيضاً أن الإسلام، خلال توسّعه السريع، كان ينتهج التسامح، الديني وغير الديني، حيال المغزوّين، وفق ما أمرت به شريعته: "ولعلّ أفضل مثال على التسامح والمسالمة والتعايش ما قام به النبي محمد ﷺ إثر هجرته إلى المدينة (المنوّرة) من عقد المعاهدات، مع اليهود وغيرهم من سكان المدينة، التي ضمنت الحريات الدينية وحدّدت حقوق أتباع كل ديانة وواجباتهم". آنذاك، كان المسيحيون الذين يعيشون في المنطقة أقلية[٣].

وفي مقابلة أجراها بيكر مع مفتي سورية الأكبر الشيخ أحمد كفتارو عام ١٩٨٧، قال المفتي: "أخي العزيز، أنت لا يمكنك أن تكون مسلماً حقيقياً إذا لم تحب يسوع المسيح وتحترمه وتجله". وأضاف المفتي أن الإسلام والمسيحية كليهما يؤمنان بأن الله هو المتحكّم بكل شيء، بما في ذلك مصائر البشر، إن على المستوى الجماعي أو على المستوى الفردي، مختتماً كلامه بالقول: إن الحكم لله، وهو ما ورد في القرآن وفي الكتاب المقدس"[٤].

وسعياً لإرساء قيم التفاهم والسلام، تولى بيكر تنفيذ مشروع يركّز على التفاهم الثقافي والديني في أوساط الشباب من أتباع الديانات المختلفة. وحذا حذوه، بمشروع مماثل، الكاتب جون والاش الذي كان يرأس مكتب دار "هارتس" للنشر، في واشنطن.

---

(١) William Baker, *More in Common Than You Think*, p. 16.

(٢) Ibid.

(٣) Ibid., p. 17.

(٤) Ibid., p. 43.

والجدير بالذكر أن بيكر هو الرئيس المؤسس لـ "منظمة المسيحيين والمسلمين للسلام" (CAMP)، ذات الفروع في العديد من بلدان العالم، حيث يقوم كل فرع بتنظيم مخيّمات صيفيّة يجمع فيها شباب كلتا الديانتين، لتعميق أواصر الصداقة والتفاهم بينهم.

أما والاش، وهو ابن أحد الناجين من المحرقة النازية، فقد ترك مهنة الصحافة والنجاح الذي حقّقه فيها، ليؤسس ويدير المخيّمات الصيفيّة في مدينة ماين، حيث يتعلّم شبان يهود من إسرائيل وشبان من بلدان عربية، مسلمون على الأغلب، شيئاً عن ثقافة الآخر ودينه. ويحمل هذا المشروع اسم "بذور السلم العالمي" .(Seeds of Peace International) وتقام ثلاثة مخيمات في فصل الصيف، مدة كل منها ثلاثة أسابيع. "إنه المكان الوحيد في العالم الذي يمكن لليهود وللعرب أن يجتمعوا فيه على أرض محايدة، ليحاولوا أن يكونوا أصدقاء. ومهما فعلتم لتمضية وقتكم هنا، أريد أن يتخذ كل واحد منكم صديقاً من الجانب الآخر". ثم يشرح السبب الذي دفعه إلى الانصراف عن مهنة يتعاطى فيها مباشرة مع قادة البلد السياسيين، مفضِّلاً على ذلك إدارة مشروع هذه المخيّمات: "لقد تعلَّمت أن الحياة ليست في التفاهات، بل هي في الجوهر"[١].

يضطلع عدد من المسيحيين، على المستوى الوطني، بدور مهم في إخراج الإسلام من دائرة الظل السياسي. ونذكر من هؤلاء البروفسور جون ل. إسبوزيتو، مدير "مركز التفاهم الإسلامي-المسيحي"، التابع لمدرسة السلك الخارجي في جامعة "جورجتاون" بواشنطن، الذي يهتم بتشجيع الحوار الديني على الصعيد الدولي. وقد قام إسبوزيتو بتحرير المجلدات الأربعة لـ "موسوعة أوكسفورد للعالم الإسلامي الحديث" (Oxford Encyclopedia of the Modern Islamic World)، وهو مرجع معلومات شامل عن المسلمين نشر عام ١٩٩٥. كما أن إسبوزيتو أستاذ للدين والشؤون الدولية في جامعة "جورجتاون"، وكاتب

(١) *Hope*, Nov.-Dec. 1997, pp. 51-52.

مُكْثِر، بلغت مؤلفاته عشرين، منها كتاب: "Islam: The Straight Path"، الذي اعتمد كتاباً يدرسه طلاب الفقه، وكتاب "The Islamic Threat: Myth or Reality?"، فضلاً عن إدارته العديد من الحلقات الدراسية الدولية.

وثمّة مسيحيان آخران هما الديبلوماسيان المتقاعدان ريتشارد ت. كورتيس وأندرو إ. كيلغور، اللذان يصدران مجلة، تعرّف الأميركيين بسياسة المسلمين الداخلية والخارجية. فإذا أمكن الوصول إلى اتفاقية سلام، فإنّ جهودهما تستحق التقدير الكبير.

دخل كورتيس وكيلغور مجال صحافة المجلات، بعد أن عملا ردحاً طويلاً في السلك الخارجي الاميركي؛ وفي عام ٢٠٠٠، تحوّل الأول إلى محرر، والثاني إلى ناشر لمجلة "واشنطن ريبورت اون ميدل ايست افيرز"، التي تَصْدُر مرّة كلّ شهرين. وبدلاً من أن يتمتّع هذان الديبلوماسيان بتقاعدهما تحت الشمس، وفي ملاعب الغولف، فإنّهما يعملان ساعات طويلة كل يوم في مكاتب المجلة دون مقابل، بل ينفقان ما في جيوبهما ليبقيا المجلة على قيد الحياة. يقول كورتيس: "إنَّ نشر مجلتنا يُوفِّر لنا سبباً جيّداً لننهض في الصباح. إننا، أنا وآندي، نشعر بأننا نساعد الشعب الأميركي في اكتساب فهم صحيح للنزاع العربي-الإسرائيلي، والقوى السياسية في المنطقة. إننا مؤمنان بأن "واشنطن ريبورت" تستحق كل ما نستثمره فيها من طاقة وأموال"[١].

وتحظى مجلة "واشنطن ريبورت" بالاحترام على نطاق واسع، بسبب تغطيتها المتوازنة لسياسات البلدان الإسلامية والشرق الأوسط عموماً. فقد بلغ عدد المشتركين فيها عشرين ألف مشترك؛ ممّا يجعلها الأكثر تداولاً بين المجلات المتخصّصة في قضايا الشرق الأوسط.

وقد خطّت كلية "دارتماوث" خطوة متقدِّمة على طريق التفاهم الديني، باتّخاذها قرارَ تقديمِ وجبات إسلامية (حلال) ويهودية (كوشر) عمّا قريب

(١) Interviews, 8-23-1999.

للطلاب المسلمين واليهود. ويأمل متّخذو القرار في أن يسهم ذلك في تعزيز الانسجام بين "أولئك الذين يحفل تاريخهم بالنزاعات المسلحة".

وفي أواخر عام ٢٠٠٠، قام "الاتحاد اللاهوتي الكاثوليكي"، كبرى مدارس اللاهوت والكهنوت الكاثوليكية العليا في الولايات المتحدة، بإدخال برنامج الدراسات الكاثوليكية-الإسلامية احتفاءً باقتراب الألفية الثالثة. وفي حفل الافتتاح، ألقيت كلمات لخطباء مسلمين، كطلعت عثمان الذي يترأس "المجلس المحلي للمنظمات الإسلامية"، والدكتور م. شريف بسيوني الذي لاحظ أن "الولايات المتحدة ربّما كانت المكان الأفضل في العالم، حيث يمكن ربط النهضة الإسلامية بالمسيحية وباليهودية، لإرساء الروابط المشتركة بين هذه الرسالات التوحيدية الثلاث".

وقد أصبح جيمس ديني، وهو من كبار المحسنين الكاثوليك في شيكاغو، الراعي الرئيسي للبرنامج، بعد زيارة قام بها مع زوجته كاثرين إلى مدارس في فلسطين. وهو يقول بأسًى:

"ما كنت في السابق لأقدِّر تماماً التراث الذي يتشارك فيه الإسلام واليهودية والمسيحية. فما إن تستعرض كل هذا التاريخ حتى تبدأ بالتساؤل: أليس ذلك أساساً كافياً لشقّ طريقٍ ما، أمام التفاهم والتعاون؟ إن الحوار الشعبي يسيطر عليه التطرف".

"إن الناس في الشرق الأوسط من أتباع الديانتين، الذين لا يعرف بعضهم عن بعض شيئاً، يقودهم ويؤثّر فيهم أشخاص هامشيون"[١].

---

(١) *Logos* Fall 2000, (Catholic Theological Union).

الفصل التاسع

الطلاب يرشدون إلى الطريق

كانت سنة ١٩٦٣ سنة مهمّة للمسلمين: ففي داخل أميركا، اتّخذ الطلاب المسلمون الخطوات الأولى في مواجهة الأفكار الأميركية المنمّطة عن ديانتهم. وعلى الساحل الشرقي أدّى طالب من كلية "دارتماوث" دوراً في حث مالكولم إكس على التخلّي عن عنصريته المعادية للبيض، ونبذ دعوته الى انفصال السود عن الدولة؛ ثم مدَّ له يد العون حين حاصرته تلك الهستيريا الوطنية بُعَيْد اغتيال الرئيس "جون ف. كينيدي".

كانت سنة تبشّر بإنجازات للسكان الأميركيين المسلمين المتزايدين بسرعة، وبتقدّمٍ سيتحقق بخطوات صغيرة لكن مهمة، خلال السنوات العشر التالية، ولن تلبث ان تتحول إلى خطوات واسعة في السنين الأخيرة من القرن العشرين. إنه تقدّمٌ طال انتظاره.

فَعَلَى مدى سنوات، عانى مسلمو الولايات المتحدة التمييز الديني العنيف أحياناً. وحتى عندما كانت إساءة المعاملة غير جسدية كانت مؤلمة: من السخرية المهينة والتحقير والمكالمات الهاتفية المُغفَلة، والتمييز المهني والتوصيف العنصري، إلى التأخير في المطارات للاستجواب، فضلاً عن مهانة التعرّي للخضوع لتفتيش ضباط الجمارك.

ولم يكن ردّ المسلمين على إساءة معاملتهم هذه رداً منظماً إلا في الآونة الأخيرة. والواقع ان المسلمين كانوا بالكاد منظَّمين من اجل أي هدف كان. حتى اننا نجد، اليوم، نسبة ضئيلة فقط من الراشدين، ربما كانت أقل من ٥٪، تنتسب إلى تنظيم إسلامي من أي نوع كان.

وعلى مدى عقدين من الزمن، قصرت المنظمات الاسلامية الرئيسية نشاطاتها وخدماتها كليا تقريباً، على أعضائها. ونادراً ما أمّنت معلومات لغير المسلمين، أو لفتت عامة الناس الى مظالم المسلمين وتطلعاتهم. كان المسلمون يفتقرون إلى جودة التنظيم، ولا يريدون إثارة المتاعب: لذا عانى معظمهم في صمت.

بيد أن هذه القيود التي فرضها المسلمون على أنفسهم بدأت تنحل. وإني لأعلم عبر ملاحظتي المباشرة أن كل منظماتهم الوطنية الرئيسية أصبحت ترعى اليوم برامج خدمات مهمة للناس الذين لا يملكون الحصول عليها، وأن بعضها وُجد لهذه الغاية فقط. وخلال رحلتي في عالم الإسلام، خاطبت تجمعات ترعاها معظم المنظمات التي ذكرتها في كتابي، كما تعرفت إلى معظم من جاء ذكرهم من الأفراد.

لقد قاد الطلاب مسيرة التحوّل التدريجي والمطّرد. فقبل ثلاثين عاماً، كان "اتحاد الطلاب المسلمين" (MSA) هو الوحيد الذي يقوم بأنشطة لصالح العموم. ففي في مستهل عام ١٩٦٣، أنشئت، في حرم جامعة إيلينوي بمدينة شامباين، منظمة لطلاب الكلية الذين أدركوا الحاجة إلى التضامن، في صفوفهم، والحاجة الى فهم أفضل للإسلام لدى الطلاب غير المسلمين من سكان المدينة. وسرعان ما أصبح للاتحاد فروع في كليات وجامعات رئيسية أخرى، غالباً ما تقدم الخدمات لعموم الجماعات بتنظيم المعارض والمحاضرات والندوات.

وفيما بعد، وفي السنة نفسها التي أنشئ فيها اتحاد الطلاب المسلمين في شامباين، ساهم طالب سوداني اسمه أحمد عثمان بإنشاء فرع محلي لها في كلية "دارتماوث"؛ وما لبث، بعد أشهر قليلة، أن تسبب عن غير قصد بإطلاق عملية كان لها أبعد الأثر في تمتين وحدة المسلمين في أميركا، وتمهيد الطريق أمام حصول تقدم كبير في تفاهم أتباع الديانات المختلفة.

لقد صودف وجود عثمان في المكان المناسب، وفي الوقت المناسب،

حاملاً الرسالة المناسبة. فقد اشترك في نقاش علني عفوي قصير مع مالكولم إكس، وهو أميركي أسود مثير للجدل، كان يومها مساعداً لمؤسس "أمة الإسلام" وزعيمها ايجا محمد. بدأت سلسلة الأحداث اللافتة بُعَيْد ظهر يوم أحد في حيّ هارلم الذي كان عثمان يتجول فيه مع أحد رفاقه من الطلاب، خلال إجازة دراسية.

كنت يومها قد بدأت، لتوي، ولايتي الثانية في الكونغرس. لكن رغم دعمي الشديد للتشريعات المتعلقة بحقوق الإنسان، فإن مالكولم إكس لم يكن ضمن دائرة اهتماماتي. كنت أريد مساعدة الأميركيين الأفارقة على كسب حق التصويت، وعلى شراء أي بيت يقدرون على دفع ثمنه، وعلى الأكل في أي مطعم يحبذونه، وعلى الإقامة في الفندق أو النزل الذي يختارونه. كنت لا أزال متأثراً بالأفكار المنمّطة المزيّفة التي تعلّمتها في طفولتي عن الإسلام، وما كنت أعرف شيئاً عنه أو عن منظمة "أمة الإسلام". بالنسبة إلي ما كان مالكولم إكس سوى مشاغب يكره الناس البيض. وقد كوّنت هذه الصورة عنه من خلال مشاهدتي البرنامج التلفزيوني الذي أنتجه مايك والاس وبثّته محطة سي.بي.اس. تحت عنوان: "الحقد الذي أنتجه الحقد"، والذي ركّز على ما كان يبديه مالكولم آنذاك من وجهات نظر فظّة غير إسلامية في الحقيقة.

كان ارتباط عثمان الشخصي المفاجئ بمالكولم اكس بداية صداقة لها ذيول تاريخية، إذ شكل لقاؤهما وما تلاه من تراسل بينهما عاملاً رئيسياً في اتخاذ مالكولم إكس قراره بالشجب العنيف لسياسات "أمة الإسلام" العنصرية ومن ثم الخروج منها.

لقد سمعت تفاصيل هذا الفصل المهم من حياة "مالكولم" خلال أحاديثي مع عثمان، بعد ثمانية وثلاثين عاماً من حصولها؛ وعلمت أنها لم تنشر، رغم كثرة المواد المنشورة عن سيرته. كان عثمان مستعدّاً للتكلّم على تجربته في المجالس الخاصة، لكنه لم يكن مستعدّاً لنشرها علناً. وقد أوضح لي وجهة نظره في الموضوع، في نقاش مطول جرى بيننا بعد ظهر يوم عيد العمال سنة ٢٠٠٠ في شيكاغو، فقال: "المسلمون يُرَبَّوْن على التواضع. فليس لنا أن نمدح

أنفسنا. لا أريد أن يعتقد أيّ كان أنني أتبجح بما حصل. لست بطلاً! كل ما حصل أنني خضت تجربة غير عادية مع إحدى أهم الشخصيات، في تاريخ تطوير حقوق الإنسان في أميركا". لكنه ما لبث أن وافق، بعدما أقنعته بوجوب نشر ما حصل، من أجل الذين يريدون أن يفهموا، فهماً صحيحاً، العوامل التي جعلت ذاك القائد الأسود يقدم مساهمات تاريخية، أدت إلى ازدياد عدد مسلمي أميركا، وإلى وحدتهم.

حصل اللقاء بين عثمان ومالكولم إكس بمحض الصدفة: كان الأول يجوب أحد شوارع هارلم مع رفيقه حين لاحظا إعلاناً على بناية "المعبد المحمدي" رقم سبعة. كان الملصق يحمل دعوة عامة للاستماع إلى الزعيم الأسود وهو يلقي كلمته بعد ظهر ذلك اليوم؛ فقرّرا الحضور. وسرد لي عثمان ما حصل:

"استقبلنا عند الباب بترحاب حرّاس في ثياب مرتّبة، وقاموا بكل تهذيب بتفتيش جيوبنا بحثاً عن السلاح، ثم رافقونا إلى غرفة اجتماعات واسعة، حيث احتشد زهاء خمسمِائة شخص. ظل مالكولم إكس يتكلّم طوال ثلاث ساعات والجمهور مأخوذ به.

وعندما أنهى خطابه، أتيح لي، لحسن الحظ، أن أطرح عليه سؤالاً. فعرّفت عن نفسي كطالب من السودان، وأثنيت على فصاحته وعلى ما ذكره من أمور إيجابية بحق إفريقيا. ثم قلت إن بعض تعليقاته قد أقلقتني: " فالإسلام كما أفهمه لا يوجد فيه تمييز عرقي ولا قومي ولا تمييز بسبب اللون. أما أنت في خطابك، فقد شجبت الناس البيض وأدنتهم" .

عند هذه النقطة، اضطرب الجمهور، وسمعت أصواتاً تطالب بإسكاتي. فهدَّأهم مالكولم إكس: "دعوه يعبّر عن رأيه فلنسمع ما لديه". عندها تابعت قائلاً: "يبدو لي أن انتقادك للناس البيض ينتهك تعاليم الإسلام" ؛ فرد بحدَّة نالت تصفيق الحاضرين: "أنت طالب وشاب وسوداني، لذا فأنت لا تعلم شيئاً عمّا نواجه من مشكلات نحن السود في أميركا".

ودهشتُ حين قام مالكولم إكس بعد المحاضرة بدعوتي أنا وصديقي إلى

تناول العشاء معه في مطعم قريب. لم يكن باستطاعتنا البقاء، لكن قبل أن نفترق تبادلنا العناوين. وبعد أيام قليلة، أرسلت له بالبريد عدة كتب عن الإسلام؛ فأجابني برسالة يشكرني فيها، ويطلب شراء نسخ أخرى للناس في المعبد. وكتب لي خلال الأشهر التالية، عدة رسائل تنمّ جميعها عن تفكير عميق. وطبعاً رددت على كل منها".

يتذكر عثمان أنه، خلال فترة تراسلهما، اغتيل الرئيس جون ف. كينيدي. وفي صباح اليوم التالي، أدلى مالكولم إكس بملاحظة جعلته مركز جدل وطني، ظل مشتعلاً إلى أن اغتيل بعد خمسة عشر شهراً.

أثار ذلك الجدل مقابلة سريعة مع مراسل صحفي. كان الزعيم الأسود قد أنهى لتوّه إلقاء خطبة أمام مسيرة في مدينة نيويورك، أشار فيها مراراً إلى سيرة الرئيس القتيل، لكنه لم يعلّق على عملية الاغتيال نفسها، تنفيذاً لتعليمات قائده "إلايجا محمد". وما إن انتهت المسيرة حتى طلب منه المراسل أن يعلّق على مقتل كينيدي، فأجابه بفظاظة: "لقد ارتد السوء على صاحبه". ولم يشرح مالكولم اكس لماذا استخدم هذه العبارة. وافترض المراسل ان مالكولم كان يريد للناس أن يعرفوا أن كينيدي كان يستحق الموت، فذكر التعليق بهذا الإيحاء. وسرعان ما انتشرت ملاحظته في طول البلاد وعرضها، واعتبرت إهانة بحق الرئيس الذي كان العالم بأسره يندبه.

فيما بعد أكد مالكولم إكس لأصدقائه أنه كان يعني شيئاً آخر تماماً؛ كان يريد أن يقول إن مناخ الحقد والعنف الذي سببه التطرف العنصري في المجتمع الأميركي قد خلق جوّاً أدى إلى العنف الدموي.

وأفصح لي عثمان بالقول: "لم يكن في قصده أن يصفّق لموت كينيدي، بل كان في قصده أمر آخر مختلف تماماً. كان يقصد أنك تحصد ما تزرع، وأن كينيدي كان ضحية التطرف العنصري الذي يسود الأمة". وكان عثمان واثقاً أن ملاحظة الزعيم الأسود المتسرّعة، أطلقت سلسلة من الأحداث أدت عملياً إلى اغتياله هو الآخر. فغضب الناس، بحسب تعليل عثمان، ساعد بعض منتقدي

مالكولم إكس على دق إسفين بينه وبين إلايجا محمد، "إذ سارعوا إلى استغلال الغضب لتحقيق غاياتهم، راحوا يطرقون الإسفين الذي كانوا قد وضعوه بين المعلم ومريده".

وبسبب من الاهتياج الشعبي، أمر إلايجا محمد مالكولم إكس بأن يلزم الصمت والعزلة تسعين يوماً. لقد منعه من التكلم علناً أو من التكلم مع أي عضو كان من منظمة "أمة الإسلام"، ومن الاشتراك في أيّ أنشطتها، بل حتى من زيارة منشآتها.

وذكر عثمان أن مالكولم إكس خضع للتعليمات وأطاعها؛ لكن أثناء فترة عزله وصمته خطا خطوة واسعة في مسيرته نحو الإسلام القويم. كان قد منع من دخول معابد "أمة الإسلام"، لذا بدأ يحضر صلاة الجمعة في مؤسسة نيويورك الإسلامية، حيث تعوّد عثمان أن يصلّي أحياناً. كان مدير المركز المذكور هو الدكتور محمود الشواربي، وهو أستاذ جامعي مصري من جامعة القاهرة، في إجازة.

لاحظ عثمان تغيّراً في لهجة الرسائل التي تصله من الزعيم المبعد. قال:

"بدأ يعيد النظر في بعض مبادئ "أمة الإسلام". وسرعان ما أدركت انه أضحى ملتزماً تماماً في أفكاره الخاصة الإسلام القويم. ودفعني ذلك إلى حضور لقاء له مع الشواربي، لحثّه على الحج إلى مكّة. وعندما قال مالكولم إكس، أثناء اللقاء، إنه يفتقر إلى المال اللازم للقيام بالرحلة، اقترحت عليه أن يقترض ما يحتاجه من أخته إيلاً التي تقطن بوسطن. كانت تسكن في جادة ماساتشوسيتس قرب "سيمفوني هول"، وكانت أعمالها في تجارة العقارات مزدهرة وتملك عدة بيوت. وكانت قد انتسبت إلى "أمة الإسلام"، ثم انفصلت عنها أكثر من مرة، إلى أن تحوّلت أخيراً إلى الإسلام القويم.

وهكذا كان: طلب مالكولم اكس المال ووافقت أخته فوراً. وقبيل سفره قطع كل علاقة له بـ"أمة الإسلام". وصرّح في حضور الشواربي أنه يشجب كل تعاليمها المتعارضة مع خط الإسلام الأساسي؛ فتأهّل بذلك للحصول على سمة دخول إلى مكّة لأداء فريضة الحج.

سافر إلى القاهرة بمفرده؛ وهناك التحق بحملة حجيج استقلّت الطائرة إلى جدة المحطة الثانية في الرحلة إلى مكة. وسجّل أثناء الرحلة، في أوراق ملاحظاته، وصفاً للتنوّع بين الحجاج: "كان على الطائرة أناس بيض وسود وحمر وصفر. عيون زرقاء وشعر أشقر مع شعري الأحمر المجعّد. وهم جميعاً إخوة! كلهم يعبدون الرب نفسه، ويحترمون بعضهم بعضاً على قدم المساواة". ولاحظ عثمان: "كان ما يراه أمامه وما يحسُّه متعارضاً مع تعاليمه وتجاربه السابقة سابقاً".

في مطار جدة، طلب منه أن يبقى في مجمع الحجيج إلى أن يجري التثبّت من صحة إسلامه. انتظر يومين ثم أجرى مكالمة مع الدكتور عمر عزَّام، بناءً على اقتراح قدَّمه صديق له في نيويورك، قبل أن يغادرها. ما لم يكن يعلمه هو أن عزَّام صهر الأمير محمد الفيصل، ابن الملك الراحل فيصل. وفوراً أضحى مالكولم إكس ضيفاً رسميّاً، ونقل إلى جناح خاص في فندق "قصر الكندرة" قبل توجّهه إلى مكة.

يتابع عثمان الرواية قائلاً: إن الوقوف على جبل عرفات هو ذروة الحج "إنه امتحان روحي.. يقف هناك كل حاج في تواضع مطلق، عارياً من ممتلكاته وألقابه الدنيوية، متساوياً، كإنسان، مع رفاقه الحجّاج. وبكلمات أوضح، الحج هو ولادة الفرد من جديد. وعندما سأله رفاقه ما الذي أثّر فيه أكثر من غيره في الحج أجاب: " الأُخُوَّة! فمن كل أنحاء الدنيا يأتي الناس جميعاً من كل عرق ولون، كأنهم واحد. لقد برهن لي ذلك عظمة الإله الواحد الأحد" .

ومن مكّة كتب إلى عائلته وإلى أصدقائه، بمن فيهم و. دين محمد ابن إلايجا محمد، قائلاً:

" لم أشهد في حياتي قطّ مثل حسن الوفادة وروح الأُخُوَّة الحقَّة التي يمارسها الحجّاج من كل عرق ولون.. كنت طوال الأسبوع الماضي مبهوراً، مأخوذاً بكرم أخلاق الناس حولي، من كل الألوان .. كان هناك عشرات آلاف الحجاج من كل مناطق الدنيا، لكننا جميعاً نمارس الطقوس نفسها، في روح

من الأُخُوَّة والوحدة. كانت تجربتي، في أميركا، قد جعلتني أعتقد أنها لا يمكن أن توجد إطلاقاً بين البيض وغير البيض.

"على الأميركيين أن يفهموا الإسلام، لأنه الدين الوحيد الذي يستأصل مشكلة العنصرية من المجتمع... لم أر يوماً أُخُوَّة حقيقية مخلصة يمارسها أناس، بصرف النظر عن لونهم، كما رأيت في الحج. قد تُصدمون من قولي هذا؛ لكن ما رأيته وخبرته خلال حجّي فرض علي أن أعيد النظر في أفكاري الماضية. وأن أتخلّص من بعض معتقداتي السابقة.

"لقد لمست في كلمات المسلمين البيض، وفي أعمالهم وتصرفاتهم، الإخلاص نفسه الذي لمسته لدى المسلمين السود، من نيجيريا والسودان وغانا ... لذا، أرى أنه إذا تقبّل الأميركيون البيض وحدانية الله، ربما استطاعوا عندها أن يتقبّلوا حقيقة وحدانية الإنسان، فيكفّوا عن قياس الآخرين، وإعاقتهم، وإلحاق الأذى بهم، على أساس فوارق اللون"(١).

يتحسَّر عثمان لأن وسائل الإعلام الرئيسية لم تُقرّ يوماً، بتغيّر وجهات نظر مالكولم إكس الدينية والعنصرية، وانفصاله التام عن "أمة الإسلام"، وقبوله القاطع حيثيات العقيدة الإسلامية الحقَّة.

بعد موته، نشرت صحيفة "ساترداي إيفنينغ بوست" التعليق التالي: "لو لم يكن مالكولم إكس زنجياً لكانت سيرته مجرّد سجلّ للانحراف النفسي: قصة لصّ، مدمن، ومروّج مخدّرات، ونزيل سجون، يحفل تاريخ عائلته بحالات الجنون، تساوره أوهام المنظّر الديني، فينطلق الى التبشير بديانة مقلوبة رأساً على عقب، تدعو إلى "الحقد الأخوي"(٢).

وتابع عثمان: "لم يوفر مالكولم إكس أيَّ مناسبة أتيحت، ليعلن أنه قد أطلق اتهامات جارفة بحق البيض ككل؛ وقال انه لن يقترف هذا الإثم بعد

(١) Malcolm X, letter from Mecca. Muslim Mosque Inc., 1964.

(٢) Alex Haley, *The Autobiography of Malcolm X.* (New York: Random House, 1965) pp. 418-419.

اليوم، لأنه يدرك أن بعض البيض مخلصون حقّاً، بل إن بعضهم قادر على مؤاخاة رجل أسود. إلا أن وسائل الإعلام تجاهلت هذه التعليقات، ولم تغيّر موقفها منه، لا في حياته، ولا بعد مماته".

بالمقابل، كان مالكولم اكس على وئام مع الطلاب الجامعيين البيض. كان الطلب عليه شديداً، للتكلم في الجامعات، حيث كان الجمهور يقف دائماً ليهتف احتفاء به. كتب يقول: "أعتقد حقّاً ... بأن الأجيال الصاعدة من البيض في الكلّيات والجامعات سيقرؤون الكتابة على الجدران؛ وسيتحوّل كثر منهم إلى طريق المعرفة الروحية ـ إنها الطريقة الوحيدة المتبقية عند الأميركيين، لردّ الكارثة التي يتحتم أن تقود العنصرية إليها"(١).

ويستعيد عثمان ذكرى تجربة زيارة الزعيم الأسود لجامعة دارتماوث: "كانت زيارته آنذاك، كخطيب زائر، زيارة لا تُنسى. فقد دعاه الطلاب دون إشراك الإدارة بالأمر، وطلبوا مني المساعدة في إقناعه بالقبول. وقام وفد منهم باستقباله في المطار، واستمتعوا بحرارة المناقشات المباشرة معه خلال العشاء، ورافقوه لإلقاء خطبته في قاعة "سبولدينغ" التي غصّت بالحضور. وفي صبيحة اليوم التالي، شاركوه طعام الإفطار".

في ٢١ شباط (فبراير) ١٩٦٥، بعد زهاء خمسة عشر شهراً من اغتيال كينيدي، اغتيل مالكولم إكس بالرصاص، فيما كان يستعدّ لإلقاء خطبة في مسيرة في هارلم بأودوبون بولروم. وأعلنت عليه الحداد كل صحافة الأميركيين الأفارقة. أما الإعلام "الأبيض"، فقد تناول سيرة حياته بفظاظة وسلبية. وفي الخارج، حظيت سيرة الزعيم القتيل بتغطية متعاطفة معه، خاصة في صحافة إفريقيا وآسيا. واستثار ذلك رد فعل غريباً من قبل كارل روان الأميركي الإفريقي، الذي كان يومها مديراً لوكالة الأنباء الأميركية، إذ عرض أمام المراسلين الأميركيين نماذج من التغطية الأجنبية التي امتدحت مالكولم اكس،

(١) Alex Haley, *The Autobiography of Malcolm X.* (New York: Random House, 1965) p. 341.

قائلاً: "كل هذا عن مروّج مخدرات من أصحاب السوابق تحوّل إلى متعصّب عنصري".

حالما علم عثمان بعملية الاغتيال، استقل الباص من كلية "دارتماوث" إلى نيويورك لتقديم التعازي، ومد يد المساعدة لعائلة المغدور المعدمة الثكلى. كانوا يسكنون عند الجيران إثر تعرض منزلهم، قبل أسبوع من الاغتيال، لهجوم بالقنابل؛ وطلبوا من عثمان تنظيم جنازة وفقاً لتعاليم الإسلام القويم، ودفنه تحت اسمه الإسلامي الذي اختاره بنفسه، وهو الحاج مالك الشاباز.

بعد حصول الاغتيال، كان العلامة الشيخ أحمد حسون السوداني يجلس في الصفوف الأولى مع عائلة مالكولم، وكان هو من حضَّر الجثة للدفن حسب الشعائر الإسلامية: أي نزع الملابس عنها وغسلها بالماء وتطييبها بالعطور، ثم لفّها في كفن أبيض. وكان حسّون قد أتى إلى نيويورك من مكة، مبعوثاً من قبل "عصبة المسلمين العالمية" لمساعدة الزعيم الأسود على إنشاء مؤسسة مسجد المسلمين في هارلم.

جرى الدفن بعد أسبوع من الحداد الشعبي. واستعاد عثمان تلك الفترة قائلاً: "خلال الأسبوع، مر أكثر من ثلاثين ألف شخص أمام جثمانه لإلقاء النظرة الأخيرة عليه، تحت حراسة مئات من رجال الشرطة الذين كلّفوا هذه المهمة الإضافية. اصطفّوا على أسطح البنايات، وفتّشوا الناس بالشوارع، بحثاً عن أسلحة، ونصبوا الحواجز التي سدّت الطرقات. الأرجح أن ذلك الأسبوع كان الأكثر توتّراً في تاريخ جماعة المسلمين. ورغم التهديدات والإهانات، قرّر اتحاد الطلاب المسلمين في الولايات المتحدة وكندا، التزاماً بتكليف شرعي، اتخاذ موقف وحضور الجنازة.

لكن هناك قادة من المسلمين الآخرين لم يفعلوا. وهكذا، قام بمراسم الدفن الكاتب المسرحي أوسي دايفيس وزوجته الممثلة روبي دي وعثمان. فقرأت روبي دي برقيات تعزية من قادة العالم. وقال عثمان في كلمته التأبينية إنه يتكلم كإفريقي وثيق المعرفة بمالكولم اكس. وأشار إلى تحوله إلى الإسلام الأصيل،

وختم قائلاً: " لقد حقّق أعلى ما يطمح إليه أي مسلم، ألا وهو الاستشهاد أثناء الجهاد من أجل المساواة والعدالة بين الناس".

والقى دايفيس الكلمة التأبينية الأخيرة، فتردد صوته، وهو يقول:

"في هذه الساعة الأخيرة، وفي هذا المكان الهادئ، أتت هارلم لتودع أحد ألمع آمالها..

كثيرون سيتساءلون ما الذي رأته هارلم في هذا الزعيم الشاب، المثير للجدل، العاصف والشجاع. وسنبتسم .. فلو عرفتموه لعرفتم لماذا نجلّه ونحترمه: كان مالكولم رجولتنا، كان رجولتنا السوداء الحيّة. هذا ما كان يعنيه لشعبه. وعندما نكرمه نكرم فيه أفضل ما في ذواتنا .. وسنعرفه حينذاك، كما كان وكما هو على حقيقته، أميراً، أميرنا الأسود اللامع الذي لم يتردّد في الموت لفرط محبته لنا"[(١)].

ويستعير عثمان كلمات لمالكولم إكس، للسلام عليه: "حبّذا لو أموت بعد أن أبعث بصيص نور، وأكشف أي حقيقة ذات دلالة، تساعد على تدمير سرطان العنصرية الذي يأكل جسد أميركا، عندها فالفضل كله لله. أمّا الأخطاء، فأخطائي وحدي".

بعد الجنازة، ساهم عثمان في جمع التبرعات لأرملة مالكولم إكس وأولاده المعدمين. وقد استخدمت بعض الأموال لتمويل حجّ زوجته بهية شاباز إلى مكة.

يعتبر عثمان أن علاقته الوثيقة بمالكولم إكس قد أغنت حياته أثناء دراسته إلى حدٍّ بعيد، لكنه استفاد كذلك من تجارب فريدة، خارج الحرم الجامعي. لقد رأى، عن كثب، الحياة الأميركية، وهو الطالب الأجنبي؛ وذلك بفضل شرط لافت من شروط المنحة الدراسية التي أتاحت له الدراسة مدة ثلاث سنوات في "دارتماوث". فقد عرض عليه المانحون، وهم من خريجي العام ١٩٥٦، أن يقضي كل العطل المدرسية في بيوت الخريجين الذين قدّموا المنحة. وجعلته تجاربه مع هذه العائلات يقدّر أميركا تقديراً عميقاً، كملاذ للمهاجرين.

---

(١) Alex Haley, *The Autobiography of Malcolm X.* (New York: Random House, 1965) p. 454.



الفصل العاشر

كسر جدار الصمت

بعد سنوات قليلة من لقاء عثمان ومالكولم إكس، كانت هناك منظمتان للمسلمين تعملان على المستوى الوطني، هما "الحلقة الإسلامية لأميركا الشمالية" (ICNA)، التي بدأت عملها في سنة ١٩٧١، و"الجمعية الإسلامية لأميركا الشمالية" (ISNA). في بداية الأمر كانت المنظمتان تؤمّنان سلسلة واسعة من الخدمات للمسلمين، قبل الشروع في أنشطة خدماتية لغير المسلمين.

كانت "الحلقة الإسلامية لأميركا الشمالية"، ومركزها نيويورك، قد خلّفت مجموعة أنشئت عام ١٩٦٨ لخدمة المسلمين الذين يتكلمون الأُرْدِيَّة. أما "الجمعية الإسلامية لأميركا الشمالية"، ومقرّها في بلاينفيلد في ولاية إنديانا، فقد أنشأها عدد من قادة اتحاد الطلاب المسلمين.

كان للمنظمتين غايات متشابهة. فكلتاهما كانت تناضل من أجل الكفاية المالية في السنوات الأولى. لكن، بحلول عام ٢٠٠٠، كانتا قد ثبّتتا أقدامهما. وكلتاهما رعت مؤتمرات وطنية حظيت بحضور واسع، وقدّمت إغاثات لعدّة بلدان أجنبية وخدمات تربوية وإعانات للمسلمين في الولايات المتحدة وكندا. كما أصدرتا كتباً وكرّاسات عن مختلف المواضيع الإسلامية.

تعمل "الحلقة الإسلامية لأميركا الشمالية" في أنحاء البلاد من خلال فروع محلّية، إضافة إلى مؤسسات وطنية. وتصدر مجلة "ذي ميسيج" (الرسالة)، وهي مجلة شهرية يشرف على تحريرها ظهير الدين، الذي يشغل في الوقت نفسه منصب الأمين العام لهذه المنظمة، التي تضم عشرة آلاف عضو، ويشغل أيضاً

منصب المدير التنفيذي لـ "مركز المعلومات والأبحاث الإسلامي الأميركي" (CAMRI). ويرعى المركز المذكور المؤتمرات والمحاضرات، وإصدار المنشورات، إضافة إلى البرامج البحثية والتعليمية. وقد بدأت منظمة "الحلقة الإسلامية لأميركا الشمالية" عام ١٩٨٣ بتقديم خدمة فريدة من نوعها من خلال "شركة الخدمات المالية" التي تقدم للمسلمين قروضاً غير رَبَويّة عندما يحتاجون إلى الاستدانة.

وقد كانت هذه المنظمة رائدة في وسائط الاتصال المتعددة لكل الأعمار، باستخدام الأقراص المدمجة، والأفلام الوثائقية المسجلة على أشرطة الفيديو، والإنترنت. وستصدر قريباً كتاباً مرجعياً عن مسلمي الولايات المتحدة عنوانه: "جماعة المسلمين ٢٠٠٠"(The Muslim Community 2000).

من جهتها تنشر "الجمعية الإسلامية لأميركا الشمالية" مجلة "آفاق إسلامية " (Islamic Horizons) الشهرية، وتدير مركزاً تدريبيّاً وتتعاون مع جامعة انديانا بتقديم مقررات تعليمية على المستوى الجامعي. وفي عام ٢٠٠٠، بدأ الدكتور مزمِّل صِدِّيقي، العالم الأميركي الجنسية الذي يتحدّر من أصل هندي، بدأ سنته الرابعة رئيساً لها. أما أمينها العام، فهو سيد م. سعيد الذي ترأس، في عهد التحصيل، اتحاد الطلاب المسلمين في الولايات المتحدة وكندا، ثم عمل، فيما بعد، مديراً للمركز الإسلامي في العاصمة واشنطن.

ينتسب إلى هذه الجمعية زهاء أحد عشر ألفاً. ويقدر سعيد أنه، بحلول شباط (فبراير) ٢٠٠٠، تكون قد قدّمت خدماتها لأكثر من مليون مسلم أميركي. وتنضوي تحت راية هذه الجمعية مجموعات إسلامية مناطقية ومجموعات متخصصة، بما فيها اتحاد الطلاب المسلمين. يقول سعيد: "خلال ثلاث سنوات فقط، ارتفع عدد المنظمات التي استفادت من خدمات جمعيتنا، من ثلاثمِائة وخمس وعشرين منظمة، إلى أربعمِائة منظمة"[١]. وفي تشرين الأول

(١) Interview, 3-1-2000.

(أكتوبر) ٢٠٠٠، رعت ورشة عمل عن العنف المحلي، شارك فيها خمسون من قادة المسلمين، أتوا من مختلف أنحاء البلاد[١].

واتّضح مدى الدعم الذي تتمتع به الجمعية، في العام ١٩٩٧، حين حضر أكثر من عشرين ألف مسلم مؤتمرها الوطني. وقد شاركتُ في أعماله، ولاحظتُ أن الحضور كان، من الكثافة، بحيث اقتضى الأمر أن تقوم الشرطة بضبط حركة المرور في أروقة فندق كونراد هيلتون، مركز معظم نشاطات المؤتمر. وبناءً على توقّع زيادةٍ أكبر في عدد الحضور، عُقد المؤتمر سنة ٢٠٠٠، في مركز "هايات" للمؤتمرات قرب مطار "أوهير" في شيكاغو. وقد فاق عدد الحضور آنذاك ثلاثين ألفاً[٢].

ويُثني صدّيقي على البيئة الأميركية قائلاً: "يعيش المسلمون الأميركيون في بلاد هي على الأرجح البلاد الأكثر ديموقراطية في العالم، بلادٌ تؤمّن فرص نمو غير محدودة"[٣]. فالمسلمون يحققون تقدّماً مطّرداً في مجال الخدمات التعليمية. إذ نجد، في مُدن أميركا الرئيسية، مدارس المسلمين مزدهرة على كل المستويات.

ربّما كانت مدرسة "نيو هورايزون" في جنوب كاليفورنيا، هي الأشهر بين أكثر من مِائة وخمسين مدرسة ابتدائية. فهي تضم فرعين: الأول في باسادينا والثاني في أورانج كاونتي، وتتحدّر مديرتها نيكفا غور من أصل تركي. أما هدفها، فهو إمداد الطلاب "بتعليم أكاديمي رفيع المستوى وترسيخ القيم الأخلاقية والسلوك القويم المرتكز على التعاليم الإسلامية. تقول نيكفا: "واننا نعلّم طلابنا المهارات الحياتية، كحلِّ المشاكل والخلافات، والتعاطف مع الآخرين؛ ونرسّخ فيهم قيم المسؤولية الشخصية وعاداتها، وقيم الأمانة والعدالة. إنها هبة المدرسة لهم". وتمثّل الهيئة الطلاّبية والهيئة التعليمية، خليطاً من أعراق

(١) *Chicago Tribune*, 10-13-2000, p. 8, sect. 2.

(٢) Siddiqi, Interview, 10-29-2000.

(٣) *Pakistan Link*, 9-1-2000, p. 1.

وقوميات مختلفة. ويقدّم عدد من مدارس المسلمين تعليماً ثانوياً، إضافة إلى التعليم الابتدائي.

على صعيد آخر، تقوم جامعة "إيست وست"، وهي مؤسسة للتعليم العالي يديرها مسلمون في كاليفورنيا، تقوم بإعداد الطلاب للمهن وللوظائف العامة، مع إيلاء الشباب المعوز اهتماماً مركّزاً. وتقع هذه الجامعة وسط جادة "متشيغان" في شيكاغو. وهي أول مؤسسة للتعليم العالي في الولايات المتحدة يرأسها عالم مسلم. ويشكّل المسلمون أبرز أعضاء مجلس أمنائها والجسم الطلابي فيها. وقد أنشئت عام ١٩٨٠، ويرأسها منذ ذلك الحين الدكتور وسيع الله خان؛ وهي تدرّس منهاجاً واسعاً، على مستوى البكالوريا، كما تخطّط لبرامج دراسة عليا في السنوات القليلة القادمة.

وفي العام الدراسي ١٩٩٩-٢٠٠٠، كان عدد أفراد هيئتها التعليمية ٣٠ أستاذاً؛ بينهم خمسة عشر متفرغون، يدرّسون هيئة طلابية من سبعمِائة طالب. وفي أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٠، فيما كانت الجامعة تحتفل بسنتها العشرين، وصل عدد الطلاب المنتسبين إلى ثمانمِائة طالب. ويتوقع وسيع الله خان أن يصل العدد إلى ألفين، في غضون ثلاث سنوات. وفي ذلك الاحتفال، مُنح النائب الأميركي دايفيد بونيور، نائب زعيم الحزب الديموقراطي في مجلس النواب الأميركي، الدكتوراه الفخرية لدوره القيادي في القضايا التي تعزز التفاهم بين الديانات المختلفة.

من جهة أخرى، أنشئت في شيكاغو عام ١٩٨٢ "الكلّية الإسلامية الأميركية"، التي تقدّم مقررات تعليمية في الإسلام وفي اللغة العربية. وقد أسسها ويرأسها الدكتور أسعد حسين.

وهناك منظمات عدة تقدّم الخدمات التعليمية للمسلمين. فـ "المعهد العالمي للفكر الإسلامي" الذي تأسّس عام ١٩٨١، ومركزه في هيرندون بولاية فيرجينيا، ينشر مجلة فصلية هي "المجلة الأميركية للعلوم الاجتماعية الإسلامية" (The American Journal of Islamic Social Sciences). أما "الجمعية المتحدة

للدراسات والأبحاث" (The United Association for Studies and Research) ، التي تأسست عام ١٩٩٩ في أنانديل فيرجينيا، فتصدر مجلة "شؤون الشرق الأوسط" The Middle East Affairs Journal ، وهي دورية صدرت لأول مرة عام ١٩٩٨. وهناك مجلة "المسلم الأميركي" (The American Muslim) الشهرية التي يرعاها إمام دين محمد من مجلس المسلمين الأميركيين، وقد بدأت تصدر في كانون الثاني (يناير) من عام ٢٠٠٠.

علاوة على ذلك، هناك "مركز دراسة الإسلام والديموقراطية" ومديره رضوان أ. منصوري من بيرتوتنزفيل، ميريلاند؛ و"حلقة التراث والتقدم" التي يديرها البروفسور أنتوني ت. سوليفان من آن آربر بولاية متشيغان. ويركّز هذان المعهدان على العلاقات بين المؤسسات وأتباع الديانات المختلفة.

ومع ظهور منظمتين للسياسة العامة الوطنية، أعني مجلس المسلمين الأميركيين (AMC)، ومجلس الشؤون العامة للمسلمين (MPAC) عام ١٩٨٩، أصبح النشاط السياسي نشاطاً رئيسياً منظّماً عند المسلمين. وتجدر الإشارة إلى أن المجلس الأول مقرّه في العاصمة واشنطن، في حين أن الثاني في لوس أنجلس، وكلاهما لديه طاقم من العاملين المحترفين، الذين يعملون بلا كلل على وضع برامج العمل المتنوعة.

ويقول المدير التنفيذي لـ "مجلس المسلمين الأميركيين" علي أبو زقزوق: إن أهداف المجلس تعزيز الأهداف السياسية للمسلمين، على المستوى الفيدرالي، وجعل المسلمين ينخرطون في العملية السياسة الأميركية؛ "فكلما ازددنا اشتراكاً فيها ازداد الناس استماعاً إلينا. نريد من جماعتنا أن تضطلع بالعمل السياسي، بدءاً من روابط الأهل والمعلمين، وصولاً إلى جادة بنسيلفانيا عاصمة الأمة، ونقول لهم: إذا لم يكن لديكم أصوات انتخابية فلا وزن لكم في هذا المجتمع"(١).

كان "مجلس المسلمين الأميركيين" سبّاقاً في القيام بعدد من الأنشطة،

(١) *Washington Times* 7, 17-2-2000, "Weekly", p. 23.

أدّت إلى لفت الانتباه إلى اهتمامات المسلمين على المستوى الوطني. فعام ١٩٩١، ساهم في إنشاء منظمة "العسكريون المسلمون"، وشارك في رعاية أنشطتها. وفي وقت لاحق من ذلك العام، شجع الرئيس جورج بوش على التسامح الديني، فأرسل للمنظمة رسالة دعم في ختام حملة الحج الأولى التي نظّمتها إلى مكة، وأصبح الإمام سراج وهاج، أحد قادتها، أول مسلم يؤدّي الصلاة خلال دورة انعقاد مجلس النواب الأميركي.

وكممثل للجمعية الإسلامية لأميركا الشمالية، شجع "مجلس المسلمين الأميركيين" على تعيين أئمة مسلمين في القوات المسلحة الأميركية. وفي ٣ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٩٣، أصبح الكابتن عبد الرشيد محمد أول رجل دين مسلم ملحق بالجيش الأميركي، في تاريخ الولايات المتحدة. وهناك اليوم ثمانية منهم في مختلف أسلحة الجيش الأميركي. ويضع كل منهم الهلال والنجمة كشارة تعرّف بهم.

كما ساهم المجلس في إنشاء "المؤسسة الإسلامية الوطنية للسجون" في العام ١٩٩٣، للمساعدة على تلبية حاجات "من تحوَّل إلى الإسلام وهو في السجن، ممَّن لا يزالون يقضون عقوبتهم أو من ينخرطون مجدّداً في المجتمع بعد سجنهم".

وتشارك المنظمة بنشاط، في مبادرات تشريعية مختلفة وفي مبادرات تتعلق بالسياسة الخارجية: فمؤخّراً دعمت التشريع الخاص باعتبار الأدلّة السرّيّة غير قانونية في الدعاوى القانونية لدائرة الهجرة والتطبيع في الولايات المتحدة. وعام ١٩٩٢، أصدرت كتيّباً، وُزِّع على نطاق واسع، بعنوان : "السكّان المسلمون في الولايات المتحدة الأميركية" . وقد أصدرت سلسلة من الدراسات، بما فيها دراسة تبحث في رِدَّات الفعل على الجرائم الناجمة عن الحقد المعادي للإسلام. كما أصدرت عدة طبعات من دليل قانوني يعرّف المسلمين بحقوقهم المشروعة. كما أطلق المجلس فيما بعد، مشروعاً كاثوليكياً - إسلامياً مشتركاً لمكافحة الإرهاب.

عام ١٩٩٢، سجل المجلس اختراقاً جديداً، على صعيد الانخراط في العمل الحزبي، من طريق استطلاع رأي المسلمين بشأن المسائل السياسية، ورعاية وتمويل أجنحة الضيافة في المؤتمرات الوطنية، لتسمية المرشحين للرئاسة. وعام ١٩٩٦، أطلق المجلس برنامجاً لمخاطبة عموم الناخبين، يحدِّد فيه المسائل التي تهمّ المسلمين، ويستطلع ما يفضّله الناخبون المسلمون، بالإضافة إلى إصدار دليل يعرّف بإجراءات الاقتراع.

وهناك زهاء خمسة آلاف مسلم يقدّمون الدعم المالي للمجلس، ويشاركون في انتخاب قيادته. وقد ساهم عبد الرحمن العمودي في تأسيس المنظمة، وظل مديراً تنفيذيّاً طوال تسع سنوات؛ وهو الآن يدير المؤسسة المنبثقة عنها، "مجلس المسلمين الأميركيين"(١).

ومع أن "مجلس الشؤون العامة للمسلمين" لا تربطه أيّ علاقة بِـ "مجلس المسلمين الأميركيين"، إلاَّ أنه يتولى أنشطة مكمِّلة. فهو يسعى "إلى تعزيز العلاقات البنَّاءة الإيجابية بين المسلمين الأميركيين وممثليهم المنتخبين، وجعْل القيم الأخلاقية الإسلامية تندرج في العملية السياسة الأميركية".

وبناءً عليه، قدَّم المجلس عام ١٩٩٦ دراسة لمجلس الشيوخ الأميركي حول مفهوم الديموقراطية الإسلامية؛ وبعد ثلاث سنوات، دراسة أخرى لوزارة الخارجية حول السياسة الأميركية في شأن مكافحة الإرهاب. وفي نيسان (إبريل) ٢٠٠٠، خصص المجلس جوائز للعاملين، في مجال الترفيه، وحازت استوديوهات "وُرنر براذورز"(Warner Brothers Studios) على جائزة تقدير لأنها، بإنتاج فيلم "الملوك الثلاثة"(The Three Kings)، كشفت معاناة الشعب العراقي، الناجمة عن العقوبات الاقتصادية المفروضة على العراق، من قبل القوات المسلّحة الأميركية.

أما سلام المراياطي، المدير العام للمجلس وأحد مؤسسيه، فإنه يبرز في الأنشطة الأهلية في لوس أنجلس. وقد قابلته للمرة الأولى في "المركز

(١) AMC: *Our First Five Years*, (11-96).

الإسلامي لجنوبي كاليفورنيا" في المدينة، خلال رحلتي عام ١٩٨٦ للترويج لأحد كتبي. وهو متكلّم بارز، يلقي المحاضرات في طلاب المدارس والمجموعات الدينية. كما يكتب المقالات النقدية والتعليقات في أبرز الجرائد الأميركية، ويظهر مراراً وتكراراً ضيفاً على برامج التلفزة؛ وقد نظّم العديد من الندوات في العاصمة واشنطن، للمشرّعين ولغيرهم من صنّاع السياسة الأميركية.

تعلَّم المراياطي أنَّ من ينتقد إسرائيل يمكن أن يصبح مستهدفاً: ففي العام ١٩٨٨، أضحى مركز اهتمام في أنحاء البلاد. وقُدِّر للنائب الأميركي ريتشارد غيبهارت، زعيم الديمقراطيين في مجلس النواب الأميركي، أن يلاحظ أعماله البحثية كأحد قادة "مجلس الشؤون العامة للمسلمين"، فرشّحه لعضوية "اللجنة الفيدرالية لمنع الإرهاب". كانت تسميته أمراً منطقياً، لأنّه معلّق غالباً ما يتناول موضوع مكافحة الإرهاب. فهو من أصحاب الرأي القائل إن برنامج استئصال الإرهاب لا يمكن أن ينجح ما دام يقتصر على اعتقال مرتكبيه ومعاقبتهم. وهو يعتقد أن البرنامج ينبغي أن يسعى إلى إزالة الحَيْف، بمعالجة المظالم المحقّة التي تولّد العنف الأخرق.

وبرغم هذه المؤهلات، احتجت مجموعات اللوبي المساندة لإسرائيل احتجاجاً شديداً جعل غيبهارت يسحب ترشيحه. كان اعتراضها الرئيسي على انتقاد المراياطي المتكرّر لإسرائيل، لإساءة معاملتها للفلسطينيين. وكان سحب الترشيح انتصاراً غالي الثمن للمعترضين: فالضجّة الإعلامية التي أحدثها استسلام غيبهارت أحرجت هذا القائد البرلماني الديموقراطي الذي يُعدّ من نجوم الحزب الديموقراطي. وفي الوقت نفسه، جذبت أنظار عامة الناس إلى القضية التي يدافع عنها المراياطي، ألا وهي معالجة مظالم الفلسطينيين.

وبعد سنة، قام منتقدو المراياطي، ومن بينهم "المنظمة الصهيونية الأميركية"، بمحاولة فاشلة لتشويه سمعته، حينما كان يقود حواراً شعبياً، يهودياً ـ إسلامياً، في لوس أنجلس. وقد حثّت إحدى المجموعات المحتجة القادة اليهود على "مقاطعته"، هو وغيره، من القادة المسلمين الذين ساهموا في إقامة سلسلة الحوار. واتّهموه هو ومحرّري مجلة ميناريت (المئذنة) الشهرية التي

يصدرها "المجلس الإسلامي لجنوبي كاليفورنيا"، بأنهم "منكرون للمحرقة النازية"، أي من أولئك الذين يشكّكون بإبادة اليهود المنظّمة على يد ألمانيا النازية، خلال الحرب العالمية الثانية . فقد انتقد المحتجّون محتوى المجلّة، ووصفوا المرياطي بأنه "ناكر: لأنه أفسح للعاملين في المجلة مكاناً في مكتبه".

كانت الاتّهامات باطلة لا أساس لها من الصحة، كما أعلن رمزي حكيم، رئيس مجلس إدارة "مجلس الشؤون العامة للمسلمين"، في لقاء له مع وسائل الإعلام. "فالمشاركة في مكان العمل ليست هي المسألة. المسألة هنا هي إسكات الأصوات التي لا تُعجب مجموعات تمثّل مصالح خاصة، طالما تعوّدت مناورات الترهيب... لقد اعتبر "مجلس الشؤون العامة للمسلمين" ومجلة "ميناريت" و"المركز الإسلامي لجنوبي كاليفورنيا"، وكل منظمات المسلمين الرئيسية، أن "المحرقة النازية" هي من أفظع الجرائم بحق الإنسانية في التاريخ الحديث. وفيما يعاني المسلمون صدمة المذابح في البلقان والشيشان والصين وعدة أماكن أخرى، يدركون أكثر من غيرهم الحاجة إلى اتخاذ موقف من الحقد والتعصّب اللذين يؤدّيان إلى اضطهاد وإبادة أي مجموعة إثنية أو دينية"[(١)].

لم يغيّر المراياطي مكتبه. وعلى الرغم من الجدل الذي جرى، فقد استمر الحوار بين الديانات بنجاح، وبقي المراياطي في موقع قيادة هذا الحوار، الذي لاقى ترحيباً على صعيد البلاد، باعتباره نموذجاً للنقاش البنّاء.

وفي حزيران (يونيو) عام ٢٠٠٠، عادت منظمات اللوبي إلى مهاجمة المراياطي، لتثير جدلاً في خضم معركة انتخابية، كانت واحدة من أشد المعارك ضراوة تشهدها البلاد. كان ذلك عندما ترشح الجمهوري جيمس روغان لإعادة انتخابه نائباً عن كاليفورنيا. وكان روغان قد ذاع صيته في أنحاء البلاد عام ١٩٩٩، باعتباره واحداً من النوّاب الذين تولّوا إدارة محاكمة الرئيس كلينتون في مجلس الشيوخ، بتهمة عدم الجدارة. فقد استهدفت لجنة قيادة الحملة الانتخابية

(١) MPAC e-mail release, 4-19-2000.

الوطنية للحزب الديموقراطي إسقاط روغان في انتخابات تشرين الثاني (نوفمبر) عام ٢٠٠٠، وقدّمت دعماً كبيراً لمنافسه الديموقراطي السيناتور آدم شيف.

وأضحى المراياطي وغيره من المسلمين، موضع خلاف، حين نقلت صحيفة لوس أنجلس تايمز، عن جايسون كايبل رو مدير حملة روغان، ملاحظات مهينة لهم. ونقل مراسل صحيفة التايمز، مايكل فينيغان، عن كايبل رو قوله: إن ظهور شيف في برنامج حفل إسلامي، كان المراياطي أحد مضيفيه، "يثير تساؤلات حول الارتباطات التي ينوي شيف المحافظة عليها إذا ما انتخب". كذلك نُقل عن كايبل رو قوله، بالإشارة إلى شهرة المراياطي كنصير للمسلمين: "أستغرب، من يهودي كالسيناتور شيف، أن يشعر بالارتياح لاشتراكه في هذا الحدث".

وأثارت رواية الصحيفة عاصفة احتجاج في صفوف قادة المسلمين، ومنهم حسام عيلوش، المدير التنفيذي لـ "مجلس العلاقات الإسلامية لجنوبي كاليفورنيا"، الذي شجب تعليقات رو، باعتبارها "محاولة لمعاملة مسلمي أميركا كجماعة منبوذة".

وبسبب الجدل الذي نشأ، عرض رو الاستقالة من منصبه كمدير لحملة روغان. لكن روغان رفضها، وقام بزيارة شخصية إلى المراياطي، وسلّمه رسالة اعتذار عن ملاحظات رو، وأبلغه أن مجموعات ذات مصالح خاصة تقف وراء تصريحات رو لمراسل "التايمز". وقال المراياطي لمراسلي وسائل الإعلام فيما بعد: "ما يقلقنا هو أن مجموعات تمثل مصالح خاصة من خارج المقاطعة جعلت عضو الكونغرس روغان، الذي طالما كان منفتحاً على جماعتنا ويكنّ لها الاحترام، يقفل الباب في وجه الحوار والتخاطب المتمدّن معها".

ومن جهته، قال المستشار السابق لـ "مجلس الشؤون العامة للمسلمين" الطبيب ماهر حتحوت، للمراسلين: "إلى أن يقدّم رو اعتذاراً رسمياً يبقى الاجتماع مع السيد روغان مجرّد خطوة على الطريق الصحيح". وبعد يومين تسلَّم المراياطي رسالة اعتذار عبر فيها رو عن "عميق احترامه لطائفة المسلمين". وبعد أسبوع أصر فينيغان على تقريره، وأكد في مقابلة هاتفية دِقَّة ما

جاء في مقالته المثيرة للجدل[1]. وفي ٧ تشرين الثاني (نوفمبر)، خسر روغان معركة إعادة انتخابه، إذ فاز بـ ٤٣ ٪ من مجموع الأصوات.

وفي تموز (يوليو) من عام ٢٠٠٠، أصلح غيبهارت موقفه من جماعة المسلمين حين اشترك، مع المراياطي، في ندوة عقدت في مبنى الكابيتول حول "تجارب المسلمين الأميركيين". رعى الندوة "التحالف من أجل الفتاهم بين الديانات المختلفة"، وهي منظمة يرأسها القس ويلتون غادي البروتستانتي المعمداني من مدينة مونرو في لويزيانا. قال غادي: "المسلمون من أكثر المجموعات الاثنية تنوّعاً في أميركا. وهم لا يتمتعون بالتمثيل الذي يستحقّونه في الحياة العامة، ويعانون التمييز وسوء الفهم".

كان بين المشاركين الدكتور حتحوت والحاخام دايفيد سابيرشتين من "مركز اليهودية الإصلاحية" (Center of Reform Judaism)، وكلاهما عضو في مجلس إدارة "التحالف من أجل التفاهم بين الديانات المختلفة". وشارك، أيضاً، النائب الأميركي آمو هوتون، وهو جمهوري من ولاية نيويورك، وثلاثة مسلمين من طواقم العاملين في "الكونغرس"، وهم: جميل عليم جونسون من مكتب النائب غريغوري ميكس، وهو ديموقراطي من نيويورك، وسُهَيْلة الجدة من مكتب النائب الأميركي دينيس كوسينتش، وهو ديموقراطي من أوهايو، وعاصم غفور من مكتب النائب الأميركي سيرو رودريغز، وهو ديموقراطي من تكساس[2].

وكان للمراياطي لحظاته الممتعة الأخرى: فعام ١٩٩٨ وبناءً على طلب السيدة كلينتون نظّم هو وزوجته الطبيبة ليلى المراياطي احتفالاً في البيت الأبيض، بانتهاء شهر رمضان، شهر صيام المسلمين. وبعد سنة تلقّيا معاً "جائزة المواطن العالمي" في حفل عشاء رعته جمعية الأمم المتحدة في لوس أنجلس.

وليلى المراياطي، مثل زوجها، وجه إسلامي معروف ويتكلم باسم

(١) CAIR, 6-22-00; MPAC statements, 6-24-2000 and 6-27-2000; and phone interview with Finnegan, 6-28-2000.

(٢) MPACUSA notes, 7-17-2000.

المسلمين. وهي العضو المؤسس لـ "رابطة النساء المسلمات". وفي عام ١٩٩٥ كانت ضمن الوفد المرافق للسيدة الأولى هيلاري رودهام كلينتون إلى مؤتمر الأمم المتحدة العالمي للمرأة الذي عقد في الصين. وأوائل عام ١٩٩٩، عيّنها الرئيس كلينتون عضواً في "لجنة مفوضية الحرية الدينية الدولية.

وقد دخل كلٌّ من حتحوت وطلعت عثمان، من "المركز الإسلامي في شيكاغو"، في سجّل التاريخ، حين كانا صيف ٢٠٠٠ أول مُسْلِمَيْن يقيمان الصلاة في المؤتمر الوطني لتسمية المرشح الرئاسي عن كلا الحزبين الرئيسيين في البلاد. فقد قدّم عثمان صلاة البركة لدى نهاية اليوم الأول من مؤتمر الحزب الجمهوري في فيلادلفيا؛ فيما أقام حتحوت صلاة افتتح بها جلسة مؤتمر الحزب الديموقراطي، التي تكلم فيها الرئيس بيل كلينتون والسيدة الأولى هيلاري رودهام كلينتون.

ودخلت مجموعة إسلامية رئيسية أخرى الساحة الوطنية عام ١٩٩٢، حين أنشأ الأستاذ الجامعي من كاليفورنيا، آغا سعيد، فور نيله شهادة الدكتوراه، "اتحاد المسلمين الأميركيين" (AMA)، وهي منظمة أوقفت عملها على تشجيع اشتراك المسلمين في الأحزاب السياسية والعمليات الانتخابية. ولكن كانت هناك منظمة في تكساس سبّاقة في هذا المجال، هي "مؤتمر تكساس الحزبي للمسلمين الأميركيين" التي كانت قد بدأت العمل منذ سنتين، لتشجيع المسلمين على الانخراط في الأنشطة الحزبية. ويقول رئيسها سيد إحساني إن أعضاء "المؤتمر الحزبي" ساعدوا على انتخاب خمسة وعشرين مسلماً لمناصب عامة سنة ١٩٩٦ وحدها. وهدف المنظمة، كما شرحه لنا الدكتور نظام أ. بيرواني، هو "تنمية فهم إيجابي عن الإسلام والمسلمين، وتعزيز مصالح المسلمين عبر اشتراكهم في العملية السياسية"[١]. وقد أصبحت المنظمة الآن فرعاً لاتحاد المسلمين الأميركيين في تكساس.

ونجد، بين أعضاء هذه المنظمة، الدكتور أمان الله خان، الذي كان واحداً

(١) American Muslim Caucus Yearbook, 1996-1997.

من المجموعة الصغيرة النافذة التي ساعدت حاكم تكساس جورج بوش الابن على الفوز بالرئاسة عام ٢٠٠٠؛ كما نجد بركات علي الذي يقيم روابط مع الجمهوريين، على أعلى مستوًى، بالإضافة إلى أعضاء آخرين لهم علاقات شخصية بقادة الحزب الديموقراطي.

وفي عام ١٩٩٩، حثَّ هذا "المؤتمر الحزبي" المسلمين على النهوض والتحرك، معلناً أن مسلمي الولايات المتحدة "هم أغنى جماعة إسلامية في العالم"؛ وحثَّهم على "التوقف عن لوم الغرب والتوقف عن إلصاق عيوبنا بالآخرين". فكان ان وافق سبعة وعشرون مسلماً من تكساس على ترشيح أنفسهم لانتخابات المندوبين إلى مؤتمرات الأحزاب.

ويقدّم أعضاء "المؤتمر الحزبي" الدعم المالي لمرشّحين يختارونهم من كلا الحزبين الرئيسين على المستوى المحلي والوطني. وفي عام ١٩٩٦، جمعوا ٦٠٠٠٠ دولار لتمويل إعادة انتخاب عضو مجلس الشيوخ الجمهوري عن ولاية تكساس، فيل غرام. كما أسهموا إسهاماً ملموساً في إعادة انتخاب السيناتور الأميركي توم هاركين من أيوا، والسيناتور تيم جونسون من داكوتا الجنوبية، وكلاهما ديموقراطي.

وقد تمكّن سعيد، عبر اتحاد المسلمين الأميركيين، من توسيع نطاق العمل السياسي للمسلمين على الصعيد الوطني العام. وفي الوقت الذي كان فيه متفرّغاً للتدريس في الجامعة، كان يسافر كثيراً ليطور هذه المنظمة السياسية الوطنية التي أنشأها. وبحلول العام ٢٠٠٠، كان لدى الاتحاد ستون عضواً في السكرتارية العامة، وشبكة تضم أكثر من أربعمِائة شخصية قيادية، معظمهم من المتطوعين، بالإضافة إلى ثلاثة وتسعين فرعاً يعملون في إحدى وثلاثين ولاية، منها أربعةَ عشَرَ فرعاً في كندا وحدها. وبلغ مجمل أعضائه زهاء سبعة آلاف عضو.

كان صعود آغا سعيد إلى الشهرة صعوداً سريعاً. فعندما قابلته للمرة الأولى عام ١٩٨٥، كان يحمل شهادة جامعية وملتزماً بمساعدة المهاجرين على اكتساب قوة سياسية. وبعد ست سنوات اتصل بي هاتفيّاً، ليطلعني على خطّته

لجعل المسلمين ينخرطون في الحياة الحزبية الأميركية. وفي شباط (فبراير) عام ٢٠٠٠، حين كنا في غرفة بأحد فنادق لوس أنجلس، شرح لي استراتيجية "اتحاد المسلمين الأميركيين"، فقال: "إن هدفنا الرئيسي جَعْل المسلمين جماعة منظمة على صعيد الشأن العام، والتخاطب المدني، والنشاط السياسي الحزبي في مجمل الولايات الخمسين. ذلك أننا نعتقد أن القوة السياسية لا تعتمد على العدد وحده، بل هي نتاج للمبادرة والإبداع والعزم. إننا، في سبيل تقوية أنفسنا، محتاجون إلى تحويل إحباطنا المكبوت وغضبنا ووجعنا إلى خطوات خلاَّقة هادفة"[١].

وكشف بحثه عن وجود ٥٢١٠٠٠ وظيفة تُشغل بالانتخاب في الولايات المتحدة، "في حين ان حفنة فقط من هذه الوظائف يُشغلها مسلمون في الوقت الحاضر. يجب أن يعوا حجم ما يملكونه من طاقة كامنة في النظام السياسي الأميركي". وقدّر سعيد بأن عدد المسلمين في كاليفورنيا، وتكساس، ونيوجرسي، وميتشغان، وفلوريدا، وإيلينوي، ونيويورك، يكفي ليجعل منهم قوة مهمة في الانتخابات الرئاسية، وفي ترجيح كفة مرشحين، في معارك انتخابية ضمن هذه الولايات يكون التنافس فيها على أشده[٢].

على صعيد آخر، هناك عدد من المجموعات الأصغر حجماً التي تسهم في العمل لتحقيق الأهداف السياسية، وتدريب المسلمين لتولّي مناصب قيادية في الحياة العامة.

فخلال سنتين أصبح "اتحاد المسلمين الأميركيين" (AMU) برئاسة محمد يونس، وهو صناعي من باترسون في نيوجرسي، تنظيماً يضم ألفي عضو. وقد ساعد "اتحاد مسلمي المدن الكبرى"، الذي يتزعمه مجدي محمود، على رعاية عدد من مسيرات كبيرة في منطقة مانهاتن نُظمّت خلال عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠١ من أجل الحقوق الفلسطينية.

(١) Interview with Saeed, 2-22-2000.

(٢) Interview with Saeed, 10-3-1998.

في هذا السياق، نذكر الطبيب المسلم زياد أصالي الذي يملك عيادة "كرستشين كاونتي" في مدينة تايلورفيل في إيلينوي، ويرأس "جمعية الخريجين الجامعيين الأميركيين العرب". وهو، أيضاً، عضو مجلس إدارة عدد من المنظمات التي لا تتوخّى الربح، وتركّز على حقوق الإنسان في الشرق الأوسط. كما يعمل مستشاراً لـ "لجنة العرب الأميركيين لمناهضة التمييز"، التي ترأس زوجته نائلة مجلس إدارتها.

ويرعى مرغوب قريشي وزوجته رينيه "شبكة الطلاب المسلمين" في العاصمة واشنطن التي تعدّ كل صيف برنامجاً يختار ما بين عشرة وعشرين من خيرة الطلاب الجامعيين المسلمين ليعيّنهم متدرجين في مكاتب حكومية مختلفة، ويؤمن لهم سكناً ومعاشات متواضعة. وفي ساعات فراغهم يقوم محامون وباحثون بإعطائهم دروساً في الشريعة الإسلامية والقانون الأميركي والدولي.

وقد كتبت ابنتهما آصفة قريشي عن هذا البرنامج، فقالت: "من المتوقع أن يكون لهؤلاء الطلبة تأثير كبير في المسرح السياسي للمسلمين الأميركيين، نظراً لما يكتسبونه من معرفة واطّلاع في هذا التدريب المبكر"[(١)]. وكانت آصفة قد رعت مشروعاً فريداً آخر للمسلمين أثناء انشغالها بدراستها العليا في كلية الحقوق بجامعة هارفرد. فقد تولت إدارة مجموعة نقاش، بواسطة البريد الالكتروني، قوامها محامون وطلاب حقوق مسلمون، بلغ عدد المشتركين فيها، عام ١٩٩٩، زهاء مِائة مشترك. وهي تجد أن المحاماة باتت مهنة مشوّقة للمسلمين، تثير في وسطهم اهتماماً متزايداً. تقول: من الواضح أنه كلما ازداد عدد المنخرطين في النظام القضائي ازداد الوعي والاهتمام ببلورة صوت سياسي متماسك، صوت يهتم بالأمور المحلية اهتمامه بالمسائل الخارجية.

تعتبر ناشفيل في تينيسي مركزاً رئيسيّاً تنطلق منه مبادرات المسلمين من أجل التفاهم بين أتباع الديانات المختلفة. فخلال حرب الخليج، قامت الكنائس المحلية برعاية محاضرات عامة في أنحاء المدينة لدعم المسلمين ومساندتهم.

---

(١) Letter, 4-5-1999.

وتبرز في هذا المجال زينب البري التي قالت عنها، آنذاك، صحيفة "ناشفيل تينيسيان": إنها "سفارة في شخص واحد"؛ ويبرز زوجها الاقتصادي نور نصيري؛ وقد عرفا بمبادراتهما الرامية إلى توسيع فهم الإسلام. بدأت البري عملها عام ١٩٨٥ حين ترأَّست احتفال "روابط السلام"برعاية الأمم المتحدة. وهي غالباً ما تكتب، إلى رؤساء التحرير، مقالات ورسائل نُشرت إحداها في صحيفة "يو. إس. توداي". وقد نظمت خلال حرب الخليج "حوار نساء شرق أوسطيات"، وهو برنامج تلتقي فيه بانتظام ست أميركيات عربيات الأصل مع عدد مماثل من اليهوديات الأميركيات.

من جهة أخرى، يرعى محمد وسيدة يوسف برنامجاً إذاعيّاً في ناشفيل، هو "الإسلام في الضوء" (Islam in Focus)، الذي يدعو المستمعين إلى الاتصال وطرح الأسئلة. ويتولى علي الموسوي، وهو مهاجر من العراق، تمثيل حكومة ناشفيل في توطين اللاجئين الآتين من بلدان إسلامية. وينشط أبو بكر باه، من خلال عضويته في لجنة تينيسي لحقوق الإنسان. كما نذكر، في هذا السياق، الدكتورة آرشي ناصح التي تتولى، منذ ربع قرن، دوراً قياديّاً في الأنشطة الهادفة إلى إرساء التفاهم بين الديانات. وقد سُمّيت "امرأة العام" في ناشفيل عام ١٩٨٠، وهي معروفة شعبياً في أنحاء المدينة، باسم "الأم آرشي" بسبب من عملها في مجال الرعاية وأعمال الخير.

على صعيد آخر، يتزعم صادق محيي الدين في منطقة سانت لويس قيادة المسلمين الذين يشكلون نسبة كبيرة ومتنامية من سكانها. وهو يساعد على توجيه عملية استيعاب أكثر من عشرة آلاف مهاجر مسلم. وتشكّل هذه العملية جزءاً من برنامج خيري أميركي وُضع لإعادة توطين المهاجرين، إثر الحرب الأهلية في الصومال التي بلغت أوجها عام ١٩٩١. وقد أوجد عيادات مجانية في كل من سانت لويس ولاهور في باكستان. وينشط محيي الدين في مجال البرامج المدنية؛ فقد تولى لبضع سنوات رئاسة "مجلس سانت لويس للشؤون العالمية"، إضافة إلى محاضرات يقيمها على نطاق واسع عن مساجد العالم.

كما كان رئيس لجنة الإعلام لمؤتمر الجمعية الإسلامية لأميركا الشمالية لعام ١٩٩٨ الذي عقد في سانت لويس. ونظّم، كجزء من برنامج أعمال المؤتمر، جلسة حول تفاهم الديانات أوضح خلالها "أن المسلمين يودّون أن يكون معيار الإقرار بحقوق الإنسان وتأييدها العلني، معياراً واحداً في أنحاء العالم"[١].

أما منطقة شيكاغو، ففيها الطبيب طلال سنبلي، ورجل الأعمال طلعت عثمان، الشخصيتان بارزتان في "اتحاد منظمات المسلمين الأميركيين"، وهي مجموعة تعمل على تطوير التعاون بين الجماعات الإسلامية المختلفة في شيكاغو وضواحيها. ومن أهدافها تحسين التعاون بين المسلمين الأفارقة الأميركيين وغيرهم من المسلمين الأميركيين. ويعترف عثمان بوجود اختلافات، لكنه يعتقد أنها "ستحل مع مرور الوقت"[٢].

وهناك أربعة من المسلمين يعملون على تعزيز التفاهم بين أتباع الديانات المختلفة في الأحياء المجاورة لشيكاغو، هم: مريم زايد، وهي معلّمة رسمية عيَّنها جورج رايان، حاكم ولاية إيلينوي في "مجلس الإنسانيات". ولمّا كانت رئيسة دائرة انتخابية في الحزب الديموقراطي، احتجّت على الانحياز المناهض للعرب في المدارس، خلال حملتها غير الناجحة لتنتخب عضواً في مجلس إدارة مدرسة محلّية غير متحزِّبة. واعتبر الكاتب راي حنانيا أن حملتها رفعت شأن المسلمين والعرب الأميركيين في السياسة المحلية".

أما سمر غولة، فهي كاتبة وفنانة، يركّز آخر كتاب لها (Treasured Misfortunes) على مرض استسقاء الحبل الشوكي الذي أصاب شهيدة ابنتها الصغيرة. وظهرت قصائدها عن التحدّيات التي تواجه المسلمين والعرب، في كتابين سابقين لها. وسمر شخصية قيادية في جمعيات فلسطينية، وتقوم بتدريس العربية للشباب؛ وقد نشرت عدة كتب تلوين مصوّرة للأطفال، إضافة إلى

---

(١) *Alton Telegraph*, 8-4-1998, Alton, IL., p. 2.

(٢) Interview, Talat Othman, 12-27-2000.

مجموعة من بطاقات المعايدة، تركز كلها على مواضيع عربية وإسلامية. تقول: "أنا مسلمة، ولكني أشعر بأهمية المشاركة في المجتمع الأوسع، وأن نتحد معاً في خير الرسالة الإلهية".

بيد أن المسلمَين الآخرَين، اللذين يقسّمان أوقاتهما ما بين السياسة وقضايا المواطنة، هما: خليل شلبي، المولود في فلسطين، وهو رجل أعمال ناشط في منظمات الأميركيين العرب، وشخصية قيادية في الحزب الديموقراطي؛ وصفيَّة شيلو التي تعمل في تسجيل الناخبين كمساعدة أمينة سجلّ؛ كما تعمل في هيئة تساعد الشباب الذين يرتكبون جرماً للمرة الأولى؛ وهي تقول: "بدلاً من إحالتهم على المحاكم، التي قد تُنزل بهم أحكاماً قاسية، فإننا نناضل لتوجيههم نحو خدمة المجتمع"(١).

إضافة إلى من تقدم ذكرهم، نجد مايكل وولف من سان فرانسيسكو، وهو منتج للأفلام الوثائقية، يعمل لحسابه، وينشط مع ألكس كرونيمر من واشنطن، لتعزيز التفاهم بين أتباع الديانات المختلفة. وقد أنتج فيلماً وثائقياً نال استحساناً واسعاً، عن شعائر الحج إلى مكة والمدينة. وقد بُثَّ على امتداد البلاد، عبر قنوات التلفزة العامة.

وفي العام ١٩٩٤، أنشئت منظمة نشيطة وناجحة، تساعد المسلمين على شق طريقهم إلى السياسة. حين قام ثلاثة مسلمين هم نهاد عوض (٣٧ عاماً) وعمر أحمد (٣٨ عاماً) وإبراهيم هوبر (٤٣ عاماً) بتأسيس "مجلس العلاقات الأميركية الإسلامية" (CAIR).

وُلِدَ كل من عوض وأحمد في مخيم للاجئين الفلسطينيين في الأردن. ولم يلتقيا إلا خلال دراستهما في مينيابوليس ، حيث تعرّفا إلى إبراهيم هوبر الذي اعتنق الإسلام، وهو مواطن كندي نال إجازة ماجستير في الاتصالات، وكان يعمل في محطة إذاعة محلية.

---

(١) Ray Hanania interview, 6-18-1999.

يعمل أحمد الآن موظّفاً في مصنع للتقنيات المتطوّرة في مدينة سانتا كلارا في كاليفورنيا. وقد موّل انطلاقة مجلس العلاقات الأميركية الإسلامية، ويرأس مجلس إدارته. أما عوض وهوبر، فهما موظّفان متفرّغان في قيادة المجلس، حيث يتولّى عوض المسائل التنظيمية، ويتولى هوبر موضوع الاتصالات؛ وتركز هذه المنظمة، ومقرها واشنطن، على الدفاع عن حقوق المسلمين المدنية، وعن الإسلام، ضد الصور النمطية الشائعة عنه، بالإضافة إلى تولّيها تدريب المسلمين في مجال العلاقات الإعلامية.

وسرعان ما نالت المنظمة الجديدة المديح، ومدَّ إليها يد التعاون "مجلس المسلمين الأميركيين" الذي يقول مؤسسه ومديره التنفيذي عبد الرحمن العمودي: "لقد ابتهجنا ببرنامج مجلس العلاقات الأميركية الإسلامية الخاص بالحقوق المدنية والدفاع القانوني. وقرّرنا، على الفور، توقيف أنشطتنا في هذا المجال. فتقسيم المسؤولية مكّن منظمتنا من تخصيص المزيد من الاهتمام والموارد لبرامجها الحيوية الأخرى. إنه بمنزلة زواج سعيد بيننا وبينهم.

وقد حقق مجلس العلاقات الأميركية الإسلامية، منذ تأسيسه، سلسلة انتصارات مثيرة للإعجاب. وبحلول سنة ١٩٩٩، ساهم المجلس في إنجاح احتجاجات المسلمين على أكثر من مِائتي قضية تَحامُل عليهم؛ وحصل، استناداً إلى ما يقوله عوض، على تعويضات اتخذت شكل اعتذارات وإصلاح سياسات متّبعة، وشملت كل القضايا باستثناء أربع. وفي أواخر سنته الأولى، زرت مكتبه الصغير، في بناء متواضع في شارع "k" في واشنطن . كانوا قد وظّفوا لتوّهم، عاملة استقبال، فزاد عدد موظفيهم بنسبة ٥٠٪! كان مقرّهم ضيّقاً وصغيراً، تماماً كميزانيتهم، وكانت على المكاتب أكوام من الاعتراضات. وفي تلك السنة الأولى، كانت نفقات المجلس أقل من مِائة ألف دولار؛ ولكنه تمكن، في عشائه السنوي في تشرين الأول (أكتوبر) عام ٢٠٠٠، من جمع تبرعات بلغت بمجموعها ثلاثمِائة ألف دولار.

وبعد خمس سنوات، أُجريت مقابلة مع عوض فرأيت ميزانية المجلس قد ارتفعت إلى ما يقارب مليوني دولار. ومع أن عدد موظفي المجلس المتفرغين

كان قد ارتفع من ثلاثة إلى ستة عشر، فإنهم كانوا ما زالوا يعملون بضغط أكبر من المعاملات. فالفاكس والبريد الالكتروني يعملان بلا انقطاع لتلبية طلبات المساعدة والتزوّد بالمعلومات. وقد قدّر أحد الموظفين، المولجين بالتعامل مع سيل الطلبات، ما لديهم من معاملات غير منجزة، بما يقارب الألف طلب. وكان المجلس قد أنشأ مكاتب إقليمية، تعمل ساعات دوام كاملة، في سانتا كلارا ولوس أنجلس وكولومبس ودالاس، إضافة إلى فروع محلية في زهاء خمس وثلاثين مدينة.

بعد أيام من لقائنا، حضرت افتتاح مكتب إقليمي في بلدة كوينز من أعمال نيويورك. والجدير ذكره أن كل مكتب من مكاتب المجلس، يتمتّع باكتفاء مالي ذاتي، وله مجلس إدارته الخاص. ويفتخر عوض بأن في مجلس الإدارة العام أعضاء من الجنسين: رجالاً ونساء، وكذلك في المجالس الإقليمية.

وفي أيار (مايو) من عام ٢٠٠٠، انتقل مقر مجلس العلاقات الأميركية الإسلامية المركزي العام إلى مبنى ضخم، اشتراه المجلس في جادة نيوجرسي ٤٥٣ في واشنطن، بالقرب من مبنى الكونغرس، مما سيساعد على توسيع نطاق أنشطة التدريب وغيرها من الأنشطة الخدماتية لعامة الناس.

وشكّل هذا الانتقال حدثاً مهمّاً للمنظمة الناشئة وقادتها. وعلّق عوض على الإنجازات التي تحقّقت، قائلاً: "لقد درّب المجلس حتى الآن بضعة آلاف من المسلمين، في مجال العلاقات الإعلامية. كما نظّم حملات دعائية حول الحج ورمضان. ففي عام ١٩٩٥، نتج عن حملة رمضان ٣١٤ مقالاً، وازداد عدد هذه المقالات بثبات إلى أكثر من ١٤٠٠ مقال عام ١٩٩٨".

ومنذ بداية نشاطه، استغلّ المجلس الاتصالات الإلكترونية، لاستنهاض المسلمين وحثّهم على التحرك. فجهاز الفاكس الخاص بي يتلقّى الرسائل يوميّاً تقريباً، ما يذكّرني بحيوية هذا المجلس الذي يُصدر تقارير إخبارية ومناشدات، يرسلها إلى أربعين ألف عنوان لأجهزة فاكس وأنترنت. وكانت الحملة، التي نظّمها المجلس لمساعدة البوسنة، عاملاً مهمّاً في تحقيق استقلالها عن صربيا عام ١٩٩٢.

وممَّن تصل إليهم رسائل المجلس، شخصيات قيادية لأكثر من ١٥٠٠ مسجد ومركز إسلامي. ويشير عوض إلى أهمية ذلك، فيقول: "إنهم يخطبون في مئات الألوف من المسلمين الذين يؤدّون صلاة الجمعة، وغيرها من الفرائض الإسلامية. وغالباً ما تشكّل نشراتنا قوام خطب الجمعة. وإذا كنا لا نعلم، بالضبط، عدد المسلمين الذين يحضرون هذه الصلاة، فإننا نعلم أن هذا العدد قد يتجاوز المليون. ونجد أن معظم الناشطين في المجلس هم أبناء الأجيال الثانية من المسلمين الأميركيين؛ مما يعني أنهم متقنون للّغة الإنكليزية، وعلى إلفة بالثقافة الغربية. إننا نأمل أن يصبح لدينا، في القريب العاجل، معلومات مخزّنة في الحواسيب عن نصف مليون ناشط". ويرى عوض أهمية وجود نفوذ للمسلمين في المهن، ذات العلاقة بالسياسة العامة فيقول: "كلّما توجّهتُ بالخطاب إلى مجموعات من المسلمين، أحثّ الطلاب على التخصص في الصحافة، أو القانون، أو العلوم السياسية. ولأن الصحافة، بالذات، حقل مهم، فإننا نحثّ الراشدين من المسلمين على تقديم منح تخصّص جامعية في هذا الحقل، ونقول للمسلمين إن عليهم أن ينشطوا في الوظائف حيث تكتب التقارير الإخبارية والعناوين"(١).

ويزوّد مجلس العلاقات المربّين وأرباب العمل بالأدلّة، ويقدّم الإرشادات للمسلمين الذين يواجهون التمييز، أو يودون كسب تعاون وسائل الإعلام، ويصدر نشرة فصلية توزّع على عموم المنتسبين، إضافة إلى نشرات تصدر عن المكاتب الإقليمية، تركّز على مواضيع تحظى بالاهتمام المحلّي. ويصدر المكتب العام المركزي تقريراً سنوياً عن حالة حقوق المسلمين المدنية. ولقد قدّم تقرير سنة ٢٠٠٠ موجزاً عن ثلاثمِائة وخمسين حادثاً محقّقاً من حوادث التمييز، ورَفْضِ تأمين التسهيلات التي تتيح التزام الفرائض الدينية، والمضايقات والتمييز غير المشروع، بزيادة بلغت ٢٥٪ إذا قورنت بالعام ١٩٩٩. وقد علّق المنسّق في المجلس س. إيريك شاكر على هذا الأمر، فقال: "أفضل حل لهذه المشكلات

---

(١) Interview with Nihad Awad, 2-3-2000.

هو نشر معلومات دقيقة عن الإسلام، تعزّزها زيادة النشاط الاجتماعي والسياسي للمسلمين الأميركيين"[١].

غالباً ما تأتي طلبات المساعدة من مسلمين يواجهون شروط عمل تمنعهم من إطلاق اللحى، أو مسلمات يُمنعن من ارتداء الحجاب في مراكز العمل. وكثير من المسلمين يعتبرون اللحى والحجاب فروضاً دينيّة. وقد حقق المجلس سلسلة انتصارات متتالية، حينما كانت هذه الممارسات تهدد بفقدان الوظائف. بَيْدَ أن أشهر انتصاراته هي تلك التي حقّقها على عمالقة صناعة السينما وكبار ناشري المجلات والصناعيين. ففي العام ١٩٩٨، أدت حملة الاحتجاج، التي كان المجلس يقف وراءها، إلى إجبار شركة "نايك" المعروفة، الرائدة في صناعة المعدات الرياضية، بإعادة تصنيع طراز من الأحذية الرياضية التي أنتجتها، والتي كانت تحمل كلمة "الله" واضحة على كعوبها. وقد اعتذرت "نايك"، وسحبت مجمل ما أنتجته من هذه الأحذية، ثم أزالت عنها الكلمة التي شكّلت إهانة لمشاعر المسلمين، كما قامت، في بادرة حسن نية، بتمويل بناء ملاعب في عدة مدارس للمسلمين، وقدّمت هِبات إلى عدد من المؤسسات الخيرية الإسلامية.

وحاز المجلس احترام القيمين على صناعة السينما، حين ساهم في إقناع شركة "دريم ووركس إس. ك. جي" بإجراء تغييرات في سيناريو فيلم "أمير مصر" قُبيل عرضه الأول في كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩٩٨. وفي نشرته لربيع ١٩٩٩، ذكر المجلس أنه "خلال السنوات الأربع التي استغرقها إنتاج الفيلم، عمل الاستوديو، عن كثب، مع مجموعات من المسلمين واليهود والمسيحيين للتثبّت من صحة الوقائع التاريخية، ولإزالة كل ما يتّصل بالأفكار المنمطة؛ وقد عمل الدكتور ماهر حتحوت، أحد قادة "مجلس المسلمين للعلاقات العامة" مستشاراً رئيسياً للاستديو.

وحين رفضت استوديوهات شركة "فوكس" إزالة المشاهد والعبارات النمطية

---

(١) CAIR e-mail release, 4-18-2000.

من فيلم "الحصار"، حوّل المجلس اهتمامه عن هوليود، وانصرف إلى تنظيم حملة احتجاج، في طول البلاد وعرضها، شملت نشر الإعلانات في الصحف وغيرها من وسائل الدعاية التي ركزت على مشاهد الفيلم غير المنصفة للمسلمين. وغطَّتِ الجدل القائم حول الفيلم عدّة صحف ومحطات تلفزة رئيسية، فنشرت صحيفة "نيويورك تايمز" تعليقاً للمجلس نُشر إلى جانب تعليق آخر لمنتج الفيلم.

وفي عشرات المدن الأخرى، نظّم المجلس برنامجاً فريداً من نوعه لمشاهدي الفيلم بعد العرض. وشرح لنا عوض ما حصل، فقال: "كان المشاهدون وهم يغادرون صالة السينما يفاجأون بمسلمين يبتسمون لهم ويدعونهم إلى مسجد قريب، للقيام بجولة فيه، وتناول المرطّبات، والحصول على معلومات عن الإسلام. وبلغ العدد الإجمالي لمن استجابوا للبادرة سبعة آلاف متفرّج في مناطق مختلفة". كانت المشاركة واسعة، ولا سيما في مساجد كاليفورنيا الجنوبية، وفي منطقة العاصمة واشنطن. ولبّى أكثر من أربعمِائة من غير المسلمين هذه الدعوة العامة في مسجد في آن آربور بمتشيغان، ولبّى مِائة وخمسون آخرون دعوة مماثلة في ناشفيل، وكان حدثاً غطّته صحيفة ناشفيل تينيسيان ومحطات التلفزة الثلاث الرئيسية.

يعتقد عوض أن الحملة ولّدت، لدى رواد السينما، شعوراً وديّاً تجاه المسلمين كان له دور في جعل الفيلم يخسر ٢٠ مليون دولار، وقال: "ربما تعلّمت صناعة السينما درساً بقيمة ٢٠ مليون دولار"!

كان للمجلس حالات أخرى من النجاح: لقد استطاع، نتيجةً لاعتراضاته على تعليقات تتحامل على الإسلام، ولا تراعي مشاعر المسلمين، أن يحصل على اعتذارات من شخصيات ومؤسسات بارزة، من بينها مقدم البرامج في N.B.C. جاي لينو، والمعلّق الإذاعي بول هارفي، والنائب الجمهوري الأميركي عن ولاية نيوجيرسي، جيم ساكستون، ومكتب محاماة ماير، وبراون وبلات في شيكاغو، والإذاعة الرسمية الوطنية. كما ساعد المجلس على تنظيم "يوم تسجيل

الناخبين المسلمين الأميركيين"، وذلك يوم الجمعة ١٥ أيلول (سبتمبر) عام ٢٠٠٠.

إلا أن أعظم انتصارات المجلس كان انتصاره على الناشر مورتون زوكيرمان ناشر مجلة "يو.إس.نيوز أند وورلد ريبورت"، لما نشر اعتذاره عن تهمة وجَّهها إلى النبي محمد ﷺ، بأنه خرق معاهدة بينه وبين اليهود. لقد غضب عوض غضباً شديداً، فقال: "كانت تلك كذبة خرقاء، وهجوماً على النبي ﷺ الذي لم يخرق معاهدة قط. ولما أخبرتُ زوكيرمان أنه سيواجه احتجاج المسلمين إذا لم ينشر، على الفور، اعتذاراً واضحاً، رفض التحذير قائلاً: "فلْيفعلوا"!.

"وهكذا، فقد أرسل المجلس، من طريق الأنترنت والفاكس، إشعاراً بالتحرُّك، جعل زوكيرمان بعد ثلاثة أيام يتوسل على الهاتف وقف الاحتجاجات؛ واتصلت سكرتيرته بالمجلس قائلة: "إن مكاتبنا مشلولة ولا نستطيع إنجاز أي شيء". أما زوكيرمان نفسه فتوسَّل، قائلاً: "أرجوكم ضعوا حدّاً لما يجري"، فأجبته بأننا "لا نستطيع وقف الاحتجاج، لكنّ الأمر بيدك"، فرد بالقول: "إني أعتذر منك الآن على الهاتف"، فقلت إن هذا لا يكفي. عليك أن تنشر اعتذارك في الصفحة نفسها التي نشرت فيها كذبتك عن الرسول". قال: إنه سيفعل، ولكنه لم ينشر في عدد المجلة إلا تعليقاً غامضاً، لم يكن هو الاعتذار المطلوب".

وهكذا دعا المجلس فوراً إلى مؤتمر صحافي، عقده خارج مكاتب المجلة في واشنطن، انضمّت إليه قيادات إسلامية أخرى شاركت المجلس في إعلان العزم على حثّ المسلمين أن يشدّدوا الضغط على مجلة زوكيرمان، وهذا ما حصل. وسرعان ما رضخ زوكيرمان لمطالب المسلمين، فنشر اعتذاراً شخصياً في المكان نفسه الذي تُنشر فيه افتتاحياته.

واعتبر عوض ذلك نصراً مهمّاً، "لأن المسلمين صمدوا ولم يَلينوا. لقد أجبروا ناشراً ذا نفوذ، للمرة الأولى، على أن يُقدِّم، للمسلمين، اعتذاراً واضحاً لا لبس فيه. لقد استطعنا كسر حاجز نفسي، فلم يعد المسلمون يشعرون

بأنهم جماعة لا حول لها ولا قوة، في مواجهة التمييز المؤذي. باتت لديهم ثقة جديدة بأنفسهم، وبات لديهم شعور بأنهم قادرون على حماية كرامتهم الإنسانية. لقد أدركوا أنهم بالعمل المتضامن، من أجل قضية مشتركة، قادرون أن يحدثوا فَرْقاً "[1].

لقد قام المسلمون، المنخرطون في أنشطة تنظيمية وأنشطة ذات صلة بالسياسة العامة، بخطًى واسعة، مؤثّرة في مجال التفاهم بين الديانات المختلفة. بَيْدَ أنهم ليسوا سوى جزء صغير من الجماعة الإسلامية في أميركا. وإذا اعتمدنا لوائح العضوية والحضور في المؤتمرات السنوية التي تعقدها أكبر منظمتين إسلاميتين، "الجمعية الإسلامية لأميركا الشمالية (ISNA) و"الحلقة الإسلامية لأميركا الشمالية (ICNA)، نستطيع أن نقدر عدد المسلمين المنخرطين في النشاط المنظّم. ولكن أفضل التقديرات المبنية عليها تعطي رقماً لمجموع هؤلاء، لا يتجاوز مِائتي ألف ناشط. أما بقية المسلمين، وهم أكثر من ستة ملايين نسمة، فإنهم أكثرية صامتة تقف على الهامش، ولا تقدّم أي دعم، حتى انها تُحجم عن المساعدة بالمال.

(١) Interview, 5-22-1999.



الفصل الحادي عشر

الطريق إلى النجاح الحزبي

يُحرز المسلمون الأميركيون، تدريجياً، مكانة بارزة في الحكم، ويظهرون المهارة في مزاولة السياسة، بعدما كانوا، لسنوات طويلة، في موقع «المتفرّج»، وباتوا يُنتخبون لتولي المناصب الرسمية، ويساعدون مرشحين آخرين على الفوز في الانتخابات، ويمارسون دوراً قيادياً في أنشطة الأحزاب السياسية والأنشطة السياسية الحكومية، ويؤسسون حضوراً في السلطة القضائية للدولة.

ويمكننا، بعد ظهور الانتصارات الانتخابية للعيان، أن نسمي بعضها انتصارات كبيرة وبعضها انتصارات صغيرة. ولكن لا وجود لانتصارات صغيرة عند المسلمين. وسواء أكان منصب الفائز وظيفة بلا راتب، كأن يكون عُضوَ لجنة في دائرة انتخابية حزبية، أم كان عضوية بارزة في المجلس التشريعي لإحدى الولايات، فجميع الانتصارات، عند المسلمين، انتصارات كبيرة.

منذ أربع سنوات، سطع نجم لاري شو، وهو أفريقي أميركي من الحزب الديموقراطي، قد حقق نجاحاً في العمل التجاري، عندما تولى إدارة المطاعم في خمسين قاعدة عسكرية، وكان المسلم الأوّل الذي يُنتخب عضواً في المجلس التشريعي لإحدى الولايات. جرى انتخابه، في البداية، عضواً في مجلس نواب ولاية كارولينا الشمالية، وكان ذلك عام ١٩٩٤. وبعد سنتين، فاز بمقعد في مجلس شيوخ الولاية. لم يكن الدين يوماً موضوع جدل في حياته السياسية، ونادراً ما أتى زملاؤه في المجلس على ذكره. يقول شو: "إنهم ينظرون إليّ كرجل أعمال ولا ينظرون إليّ من خلال انتمائي الديني." بدأ

اهتمام شو بالدين الإسلامي في سن المراهقة، حينما كان يدرس حياة مالكولم أكس، قائد منظ مة أمة الإسلام. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) من العام ٢٠٠٠، لم يلق شو معارضة في حملة إعادة انتخابه[1].

في ذلك اليوم نفسه، انتخب اثنان من الديموقراطيين المسلمين لعضوية مجالس تشريعية. جرى انتخاب عائشة عبد الله ـ أودياس لولاية ثانية كعضو في مجلس نواب ولاية رود أيلاند، فيما فاز صغير طاهر، وهو رئيس الاتحاد الإسلامي الأميركي، فرع نيو هامبشاير، بمقعد في مجلس نواب ولاية نيو هامبشاير.

يقول طاهر، وهو من مواليد باكستان، إنه لا يلاحظ أي تحيز ديني في منطقته، ويضيف: " أنا وعائلتي المسلمون الوحيدون بين جمهور الناخبين المؤهلين، البالغ عددهم اثني عشر ألفاً، ولم نشعر يوماً بالتحيز. فإن شعر مسلمون آخرون به، كان عليهم أن يسألوا أنفسهم: ماذا يفعلون من أجل بلدهم." يقول طاهر، وهو مهندس متخصص في مجال التسقيف والعزل، لدى شركات كبرى: "أحاول أن أعطي شيئاً مقابل الحياة الرائعة التي تنعم بها عائلتي في أميركا."

في العام ١٩٩٨، أصبح قاضي وسكونسن، حامدي عز العرب، أول مسلم يُنتخب عضواً في هيئة إحدى المحاكم في الولايات المتحدة. إنه مؤسس فرع فتشبرغ وسكونسن للاتحاد الإسلامي ـ الأميركي. و بعد أن أعيد انتخاب عز العرب للمرة الثانية في العام ٢٠٠٠، بات يتقاسم شرف الانتماء إلى سلك القضاء مع قاضيين مسلمين آخرين، هما داود شهيد من ولاية إنديانا، وعبد المجيد من ولاية فلوريدا، وكلاهما انتُخِب في السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٠. ومن بين السبّاقين أيضاً، المحامي عريق علي خان من لوس انجلس، وهو أول مسلم يصبح مساعداً لوزير العدل الأميركي، وهو منصب مهم في السلطة القضائية الفدرالية.

---

(١) Interview, 12-17-2000.

وعندما يخوض بعض المسلمين، المعترك الانتخابي، يشهدون، عن كثب، ذلك الوجه الصاخب والعنيف للنشاط الحزبي، ويختبرون التحيز العرقي والديني البشع الذي يسمم هذه العملية أحياناً. كما يبتهجون عندما يزيل المواطنون الصالحون هذه السموم.

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٧، كان للمسلمين دور حاسم، لكنه بلا تخطيط، أدّوه قبيل إقفال صناديق الاقتراع، أثناء الانتخابات البلدية في مدينة هامترامك الصغيرة في ولاية متشيغان. فقد أثبتوا أن عدداً قليلاً من الأصوات يمكن أن يصنع انتصاراً كبيراً. وبيان ذلك أن عدد سكان المدينة كان ٢٠،٠٠٠ نسمة، وكان البولنديون الكاثوليك يشكلون ٤٠ ٪ منهم، والمسلمون ٢٠ ٪، ومعظم الباقين كانوا من المسيحيين الذين ينتمون إلى طوائف متعددة. وقد أدى تأخر الناخبين المسلمين عن التصويت إلى خسارة المحافظ روبرت كوزارين، المرشح للفوز بولاية سنتين للمرة الحادية عشرة، وكانت هذه الخسارة لصالح غاري ل. زيك، بفارق تسعة أصوات. لقد أدار زيك الكاثوليكي حملة نشيطة لكسب تأييد المسلمين. وفي وقت متأخر من يوم الانتخاب، لاحظت مجموعة من مناصريه أن نسبة الاقتراع، في الدوائر الانتخابية ذات الأغلبية المسلمة، كانت نسبة منخفضة؛ فسارعوا إلى المسجد المحلي، حيث كان المسلمون قد انتهوا، للتوّ، من أداء صلاة العصر. ونجح مناصرو زيك في كسب أصوات المسلمين، إذ أقنعوا مئة وسبعين مسلماً بالإدلاء بأصواتهم خلال الساعة التي سبقت إقفال صناديق الاقتراع. وعند فرز الأصوات، أشارت النتائج الأولية إلى أن زيك متقدم بثلاثة أصوات. ثم ارتفع هذا الفارق في النتائج الرسمية إلى تسعة. وعلّق زيك بضحكة خافتة قائلاً: "كان انتصاراً ساحقاً. ولو لم يستجب المسلمون خلال الساعة الأخيرة من الاقتراع، لخسر زيك بفارق مئة وواحد وستين صوتاً.

وفي أحد قراراته الأولى التي اتّخذها بصفته محافظاً، عيّن شحاد أحمد مديراً للثقافات المتعددة، ونفروس نازاركو مديراً لمصلحة الضرائب، وهما أول مُسْلِمَيْن في تاريخ بلدية هامترامك يعيّنان في مناصب إدارية.

وبعد عام، أسست مجموعة من مناصري كوزارين المتطرفين حركة أَطْلقت عليها اسم "مواطنون مهتمون بتحسين مدينة هامترامك". وقد جمعوا عدداً كافياً من التواقيع لفرض إجراء انتخابات خاصّة، على مستوى المدينة في حزيران (يونيو) ١٩٩٩، للاقتراع على عزل زيك من منصبه. رفض الناخبون الاقتراح، لكن حركة المواطنين المهتمين لم تتراجع عن هجومها. فلما أعلن المحافظ أنه سيسعى من أجل ولاية أخرى في الانتخابات العادية بعد ستة أشهر، نالت المجموعة المعارِضة، من أمينة المجلس البلدي إثيل فيدلر، موافقتها على أن يَعْمل عدد من أعضائها، يوم الانتخاب، كمدققين رسميين في عملية الاقتراع. وكان هذا يعني أن في استطاعة هؤلاء الأعضاء البقاء داخل مراكز الاقتراع أثناء الانتخاب، والطعن بأهلية المواطنين الذين يرغبون بالتشكيك في شرعية تصويتهم.

قبل أسبوع من التصويت، علم بهذه الخطوة المدير الإقليمي للجنة الأميركية العربية المناهضة للتمييز ـ فرع ديترويت، عماد حمد، فتوجّه إلى من تتولّى منصب النائب العام في ولاية متشيغان، وهي جينفر غرانهولم، وقدم لها التماساً أبدى فيه قلقه من أن تُبنى الطعون في أهلية التصويت "على أساس الأصول القومية حصراً"؛ وحثّها على "التأكد من أن الناخبين المسجلين بحسب الأصول لن يواجهوا تمييزاً أو مضايقات أثناء عملية الاقتراع"[١]. وفي الوقت نفسه، أبلغ المحافظ زيك المكتب الانتخابي للولاية أن فيدلر، وهي صديقة مقربة من رئيس حركة المواطنين، روبرت زاليوسكي، قد لا تستطيع منع المدققين من "إساءة استخدام القانون"[٢]. فقانون متشيغان يجيز التدقيق فقط في حال كون أهلية الناخب موضع شك لسبب منطقي.

في يوم الانتخاب، وبالرغم من التدابير الوقائية، جرى الطعن تعسُّفاً في حقوق اقتراع عدد من الأشخاص الذين بَدَوْا غرباء في مظهرهم. فقد طُلب من بعضهم إبراز جوازات سفرهم قبل التصويت، مع أنهم قد أبرزوا بطاقات تثبت

(١) Letter by Hamad of ADC, 10-29-1999.

(٢) *The Hamtramck Citizen*, 3-30-2000.

أهليّتهم للاقتراع. ووافق آخرون، بعد احتجاج شديد في بعض الأحيان، على القَسَم رسميّاً بمواطنيتهم في مركز الاقتراع، في حين أن عدداً آخر من المواطنين، وقد ساءهم هذا الطلب الغريب، أصرّوا على الرفض، وسمح لهم أخيراً بالتصويت دون قسم. وهناك أيضاً من لم يقدموا على الاقتراع بعد أن شاهدوا المشاحنات الصاخبة في المراكز، أو سمعوا عنها من أصدقائهم.

وصرَّح زيك لأحد المراسلين بقوله: "يتّضح، من الأدلة التي بين أيدينا، أنهم [أي المدققين التابعين لحركة المواطنين] كانوا يستهدفون المسلمين تحديداً"[١]. وأظهرت مراجعةٌ لحالات تسعة وأربعين شخصاً طُعن بحقهم في التصويت، أن خمسة وأربعين منهم كانوا يحملون أسماء عربية أو بنغالية. والواقع أنّ عدداً من مدققي تلك الحركة قد اعترفوا لمراسل صحفي، أثناء التصويت، أنهم شكُّوا فقط في أهلية الناخبين الذين يحملون أسماءً "أجنبية"، أو أولئك الذين لا يتكلمون الإنكليزية بطلاقة. وقال أحدهم بصراحة إنه لم يكن يملك أية أسباب للطعون التي تقدم بها.

وقالت سوزان دان، وهي عضو بارز في "حركة المواطنين المهتمين بتحسين هامترامك" لأحد المراسلين، أثناء التصويت، أنها شكّت في أهلية بعض الناخبين كي "تتأكد من نزاهة" الاقتراع. أما شمسول علي، من مواليد بنغلادش، الذي يعيش في الولايات المتحدة منذ ستة وعشرين عاماً، وقضى السنوات الثماني الأخيرة في مدينة هامترامك، فقد شعر بالاستياء عندما شكَّت دان في مواطنيته. وفي وصف تجربته لأحد المراسلين، أضاف: "إنهم لا يسألون أي أشخاص آخرين، فلماذا سألوني أنا؟"[٢].

وتلقت فيدلر، أثناء التصويت، شكاوى حول طعون غير شرعية. وروى شهودُ عيان أنها، أثناء زيارتها لمراكز الاقتراع التي صدرت عنها الشكاوى،

---

(١) *The Detroit News*, 11-4-1999.

(٢) *The Detroit News*, 11-4-1999.

حضَّت مدققي حركة المواطنين على اجتناب المخالفات، ولكنها لم تُبْطل صلاحيات أي منهم، أو تهدِّد بذلك.

وبالرغم من المشاحنات الصاخبة المخيفة التي دامت طوال النهار، فقد أعاد الناخبون انتخاب زيك، مرةً ثانيةً، لولاية سنتين. وكان الفارق، هذه المرة، تسعة وستين صوتاً، أي "بزيادة ٧٠٠ ٪ عن المرة الأولى"، كما أشار زيك والابتسامة على وجهه.

لم ينته الجدل بعد فرز الأصوات. ففي جلسة استماع الى إفادات الشهود، أجرتها لجنة هامترامك لحقوق الإنسان، أورد أوسيا علي الإفادة التالية: "عندما ذهب والدي للإدلاء بصوته في الدائرة الانتخابية الثالثة، طُلب منه، خلافاً للقانون، أن يُقسم اليمين، فاعتبر ذلك باطلاً لأنه لم يضطر للقسم من قبل، ثم غادر المكان. لكنه عاد الى المبنى برفقة محام أشار عليه بوجوب ألا يدع الخلافات الجانبية تصرفه عن حقّه في التصويت. وهكذا أدلى بصوته، لكنه كان مستاءً جدّاً. وعندما سمعتُ القصة، رفضتُ التوجّه إلى مركز الاقتراع، لأنني لم أشأ الخوض في مثل هذه المشاكل." وأفادت إحدى المدققات لصالح زيك، وتُدعى ليزا ماغواير، أن مفوّضاً بشؤون حركة المواطنين المهتمين، وهو ريتشارد ماريكي، قد طعن في مواطنية سراج أحمد، مع أنّه أبرز جواز سفره، طوعاً، عندما طلب ورقة الاقتراع. ولما سئل ماريكي عن سبب طعنه، اكتفى بالقول إن أحمد "لا يبدو مواطناً".

وقال شارلز ف. سيرجنسكي، أحد مناصري زيك، إنه كان يراقب المدققتين التابعتين لحركة المواطنين المهتمين، سوزان دان وخوانيتا فورد، وهما ترتابان في مواطنية أربعة عشر شخصاً. وأضاف أن دان نفت، في مقابلة مصورة مع مراسل تلفزيون ديترويت، أن تكون قد طعنت في أهلية بعض الناخبين، على أساس انتمائهم العرقي. وعندما أخبرها المراسل بأن لائحة الأشخاص الذين شكّت في أهليّتهم لم تتضمّن إلا أسماءً تبدو عربية أو بنغالية، قالت له إن المقابلة انتهت، وانصرفت. وأضاف سيرجنسكي قائلاً: "ما شهدته خيّب أملي.

لقد أغضبني سلوك سوزان دان وخوانيتا فورد برمّته. فقد اتسم سلوكهما بالخبث والغطرسة دون مبرر".

وأفاد عضو آخر في فريق زيك، يدعى دايفيد بولز، أن بعض النساء اللواتي تناول الشك أهليَّتهنّ كن يرتدين الزي الإسلامي التقليدي. وأضاف أنه، عندما سئل ممثلو حركة المواطنين عن أسباب طعونهم، كانت إجاباتهم نموذجية: "ليس هناك من سبب محدد". "انظروا إلى مظهرها أو مظهره". "أصغوا إلى طريقة تكلمها الإنكليزية أو تكلمه". أو "إنها لا تكاد تجيد الكتابة كي تملأ الاستمارة، وهو كذلك".

بدورها، أفادت فيرجينيا وينارسكي "أن هذه الانتخابات قد جرت بشكل مخزٍ. فقد كانوا ينقضّون بوقاحة على الناخبين الذين بدوا كالأجانب. لقد مارست العمل الانتخابي طوال السنوات السبع والعشرين الماضية، ولم أشهد إطلاقاً أموراً على هذه الدرجة من التفاهة". أما ناجي صالح، وهو من مواليد اليمن، فقد جرى التشكيك في صوته، على الرغم من كونه مواطناً أميركيّاً منذ سنوات طويلة، وقد مارس، على الدوام، حقه بالاقتراع في هامترامك. ويقول بأسى: "لم يسبق إطلاقاً أن تعرضت للاستجواب".

وكرر فريدريك زاجديل ما ورد في إفادات عدد من الشهود الآخرين، لمّا قال: "لم أشهد في أي وقت من الأوقات تشكيكاً في حق التصويت لأناس من العرق الأبيض أو أفريقيين ـ أميركيين".

أما المحامية في وزارة العدل الأميركية نانسي رو، فإنها، بعد الاطلاع على الشهادات، قد توصّلت إلى استنتاج أن موظفي مكتب فيدلير قد فشلوا في وضع حد لسوء معاملة الأشخاص "ذوي البشرة السمراء والأسماء العربية الجليّة، حتى بعد أن اتضح أن التشكيك في أهليتهم للتصويت كان ناتجاً عن مظهرهم الخارجي فحسب". وبالنتيجة، رفعت وزارة العدل دعاوى لدى المحكمة المدنية ضد فيدلير ومدينة هامترامك؛ وطالبت بإجراء إصلاحات في الإجراءات الانتخابية، يقضي أحدها بتوظيف بعض العرب الأميركيين للعمل في الانتخابات

في المستقبل. وفي ذلك الوقت، لم يكن هناك أي عربي أميركي بين المئتي عامل الذين يستخدمهم مكتب فيدلير.

بعد أسبوعين من الانتخابات، اتهمت صحيفة " هامترامك سيتيزن" ، في افتتاحيتها، المدققين التابعين لـ"حركة المواطنين المهتمين بتحسين هامترامك" بمحاولة تهديد مجموعة من الناخبين، المعروفين بتأييدهم لغاري زيك و "ازدراء القانون، والاستهداف المخزي للناخبين العرب والبنغاليين". استنكرت الافتتاحية هذه الأساليب باعتبارها أساليب "بشعة لا تمت بصلة إلى السلوك الأميركي" ، وأضافت: " إن محاولة إخافة الناخبين، ومنعهم من ممارسة حقّ دستوري أساسي تصرف جبان. فلطالما رحّبت مدينة هامترامك بالمهاجرين وسهّلت عليهم الانطلاقة الأولى في هذه البلاد. وقد دنّست حركة المواطنين المهتمين هذا التراث "(١).

ويعتقد ناشر مجلة "أراب أميركان جورنال" ، الصادرة في ديترويت، نهاد الحاج، أن للدور الإسلامي، في انتصار زيك بفارق تسعة أصوات عام ١٩٩٧، أهمية خاصة؛ ويقول: "كان ذلك إثباتاً للمسلمين أنهم يستطيعون إحداث فرق في يوم الانتخابات، وتذكيراً لنا جميعاً بأن لكل صوت أهمية ." كما أظهر ذلك الانتصار أهمية العمل المناضل في الحملات الانتخابية، ولو في الساعات الأخيرة من إقفال مراكز الاقتراع.

إن الفشل الانتخابي لاقتراح عزل المحافظ زيك من منصبه، وانتصاره اللاحق على التكتيكات العصبية التي اعتُمدت يوم الانتخاب، ينبغي أن يلهما الآخرين الذين يدخلون الساحة السياسية للدفاع بصلابة عن حقوقهم الشرعية. أما أولئك الذين يخضعون لأساليب التهديد، فإنهم، بكل بساطة، يشحذون همّة المستأسدين.

إن لائحة الناشطين السياسيين المسلمين تكبر:

---

(١) *The Hamtramck Citizen*, 11-18-1999.

في نيويورك، ثاني أكبر ولاية في البلاد، سطع نجما اثنين من المسلمين في المجال السياسي، أحدهما من الحزب الديموقراطي، والآخر من الحزب الجمهوري.

في العام ١٩٩٦، أصبح الديموقراطي مرشد عَلَم، العالم الكيميائي البالغ من العمر واحداً وأربعين عاما، وهو من مواليد بنغلادش، أول مهاجر من جنوب آسيا يفوز، في الانتخابات، بمنصب عام في مدينة نيويورك. وكان هذا المنصب غير الحزبي، مَقْعداً في المجلس المدرسي، في المنطقة ٢٩ من مدينة نيويورك. وبعد عامين، حَصَلَ على ٤١٪ من أصوات الناخبين، فأثبت وجوده كسياسي ينتظره مستقبل واعد، وكاد يُفْشِل مسعى السيناتور الجمهوري القديم فرانك بادافان لإعادة انتخابه في بلدة كوينز، على الرغم من معارضة حزبه والقيادات النقابية.

لقد واجه خلال حملته الانتخابية مصاعب شديدة. وأشارت صحيفة تايمز ليدجر[١]، الصادرة في كوينز، إلى أن "عَلَم لم يحظ بدعم من المجموعة المتحكمة في الحزب الديموقراطي التي رفضت الاعتراف به كمرشح للحزب. وفيما كان المرشحون المدعومون من قبل منظمة الحزب الديموقراطي يتمتعون بأموال الاتحادات النقابية السخية، وهِبَات سكان مناطقهم، كان عَلَم مرغماً على استجداء المال من خارج المنطقة، واللجوء إلى إخوانه البنغاليين في أنحاء البلاد لتمويل حملته.

وقد تحدى السيناتور الأميركي باتريك موينيهان خط الحزب بموافقته على ترشيح عَلَم. وكانت هذه الموافقة بادرة وصفتها صحيفة "نيوزداي" الصادرة في كوينز بأنها نادرة. قال موينيهان في رسالة موجهة لعَلَم: "نادراً ما أعلن تأييدي لمرشحي المناصب المحلية. وها أنا، الآن، أقرر كسْر القاعدة بسبب سجلّك الحافل. إن هذه الإنجازات، علاوة على صوتك المعبر عن شجون الأميركيين الجدد من جنوب آسيا، تبشّر كلّها بنجاحك". وحاز عَلَم، أيضاً، على تأييد

---

(١) *Queens Times Ledger*, 11-12-1998.

الصينيين الأميركيين، ومنهم جيمي ميند، وهو صيني أميركي بارز، اشتكى أمام مراسل صحفي يوماً، قائلاً: "لدينا عدد كبير من الآسيويين الأميركيين في كوينز، وليس لدينا أي نائب [منتخب] يمثّل جماعتنا".

ويتحدث عَلَم، بحيوية وثقة وصدق، عن طريقة إدارته لحملته الانتخابية فيقول: "عملنا، أنا وزوجتي، ساعات طوالاً كل يوم لأكثر من عام دون توقف، حتى حلول يوم الانتخابات". كانت، هي، تتولى ناحية من الشارع، وكنت، أنا، أتولى الناحية الأخرى. طرقنا آلاف الأبواب، الآلاف المؤلفة من الأبواب"[1]. ولمّا قطف ثمرة جهوده، قال: "تمكنت من اجتذاب تأييد معظم الاتجاهات السياسية، بالتشديد على اهتماماتي كأب، وكمكلّف دفع الضريبة. في حين أن إيماني بالمبادئ الأخلاقية التقليدية والقيم العائلية ساعدني على الفوز بدعم المحافظين، وساعدني نشاطي في دعم قضايا العمال والمهاجرين على الوصول إلى القوى الأكثر تحرّرا".

كان من الصعب الحصول على تمويل للحملة الانتخابية، لكن نتائج الانتخابات فاقت توقعاته. كان يتصور قبل البدء بحملته أنه سيحتاج لمبلغ ٢٠٠٠٠٠ دولار لتحقيق هدفه، أي ١٥٪ من مجمل أصوات المقترعين التي كان يتوقعها؛ وبعد فرز الأصوات، تبين أنه حصل على ثلاثة أضعاف تلك النسبة، مع أن نفقات حملته بلغت ٣٥٠٠٠ دولار فقط، في حين أن بادافان، بحسب قوله هو، قد أنفق نحو ٥٠٠٠٠٠ دولار. وبعد بضعة أيام من إخفاقه بفارق ضئيل، في الفوز بمنصب سيناتور للولاية، باشر حملة جديدة، ولكن هذه المرة من أجل انتخابات المجلس البلدي لمدينة نيويورك للعام ٢٠٠١[2]. وهو يتوقع، هذه المرة، تأييد الحزب الديموقراطي والاتحادات العمالية، لأنه يؤمن أن قادة هذه المجموعات ينظرون إليه، الآن، كشخص قادر على الفوز.

أثناء حملته الانتخابية، لم يشر عَلَم إلى انتمائه الديني إلا في مناسبات

(١) Interview, 5-23-1999.

(٢) AMA message, 8-21-2000.

قليلة، تطرح عليه فيها أسئلة بهذا الشأن. كان يقول: "أشدد على الدمج عوضاً عن الاستبعاد. نحن، [المهاجرين]، جزء من المجتمع الأميركي. وقد حان الوقت لنعمل كجزء من المجتمع الأميركي بدلاً من عزل أنفسنا عن الاتجاه السائد. وعلينا أن نشكّل الائتلافات حيثما تكون أعدادنا صغيرة. في حملتنا الانتخابية، تخطّينا لون البشرة والعرق. كان المؤيّدون لي يمثّلون العديد من المنظمات الاحترافية والمدنية والدينية والسياسية؛ كانوا ائتلافاً كقوس قُزَحٍ مصغّر، متألق بألوانه المتنوعة". وفي أيار (مايو) من عام ١٩٩٩، أعيد انتخاب عَلَم لولاية ثانية، في المجلس المدرسي في دائرة انتخابية ذات أكثرية أفريقية ـ أميركية. وحصل على ثاني أكبر عدد من الأصوات بين تسعة عشر مرشحاً. وانتخبه المجلس الجديد نائباً للرئيس.

ويحظى عَلَم باهتمام كبير في وسائل الإعلام. ففي٢٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٩، كان موضوع مقالة الصفحة الأولى في صحيفة نيويورك تايمز. وقد عرض المراسل جيمس داو في هذه المقالة، لطموح عَلَم وصعوده السريع في المعترك السياسي، وقال: "في سن المراهقة، كان مرشد عَلَم يراوغ متفادياً جنود العدوّ لإيصال الطعام إلى المقاتلين من أجل استقلال بنغلادش. وعندما كان طالباً في جامعة داكا في السبعينات، تحمل ضرب رجال الشرطة، كي ينظم التظاهرات المؤيدة للديموقراطية، ضد النظام العسكري، الذي كان قد نشأ حديثاً في البلاد." وكتب داو أن اقتحام عَلَم للمعترك السياسي الأميركي لم يكن مفاجئاً، في ضوء انطلاقته تلك، المثيرة للإعجاب. ثم هاجر عَلَم إلى جمايكا ومنها الى نيويورك عام ١٩٨٥. وبعد أحد عشر عاماً، أصبح عضواً في مجلس إدارة المدرسة.

نشرت صحيفة نيويورك تايمز، في الصفحة رقم ب-١١ من العدد نفسه، صورة مكبَّرة لعَلَم، وهو يتحدث في اجتماع لمنظمة من تأسيسه تحمل اسم النادي الأميركي الديموقراطي الجديد. وصفت الصحيفة النادي بأنه صورة مصغرة عن المدينة: فقد كان من بين الحاضرين مهاجرون من كوريا وتايوان والهند والباكستان وكولومبيا وبنغلادش، إضافة إلى أفريقيين ـ أميركيين من

بروكلين. واستشهدت الصحيفة، في زاوية "اقتباس اليوم"، بقول عَلَم "إن السياسة هي نفسها في كل مكان من العالم. ولا أحد مستعد للتخلي عن السلطة. لكن الزمن يتغير اليوم".

في العام ١٩٩٧، منحه الحاكم الجمهوري لمدينة نيويورك جورج باتاكي جائزة تقديراً للخدمات التي قدمها للمجتمع. وفي آذار (مارس) ٢٠٠٠، فاز عَلَم بتنويه رئاسي استثنائي. كان عَلَم من أصل جنوب آسيوي؛ وكان، بهذه الصفة، الوحيد الذي انضم إلى الرئيس كلينتون، في طائرة الرئاسة ليشارك الرئيس في جولته في الهند والباكستان وبنغلادش.

يعتقد عَلَم بأن سكان مدينة نيويورك الأجانب المولد يشكلون حوالى ٦٠٪ من مجمل سكان المدينة، وهو يحثّهم على تسجيل أنفسهم، والمشاركة في الانتخابات. وهو يوزع دليلاً حول الميول السياسية لعامة الناس، مؤلّفاً من خمس صفحات، استخلص فيه: "أن الطريق إلى المشاركة السياسية الهادفة لا تتطلب منا التخلي عن هُوِيّتنا أو قيمنا. بل بإمكاننا أن نفيد أنفسنا ونفيد المجتمع الأميركي إن سبحنا مع التيار السائد، بدلاً من أن نقف جانباً، ونراقب الآخرين في مسيرتهم نحو التقدم."

وقد تبين أن التحيّز الديني والعرقي لم يكن مشكلة لمرشح مسلم في جزء آخر من كوينز. ففي العام ١٩٩٦، انتخب جمهور من الناخبين غالبيته من المسيحيين البيض الجمهوري الإفريقي ـ الأميركي البالغ من العمر ٤٧ عاماً، ناتانييل حام، لعضوية مجلس مدرسي، قريب من ذلك الذي انتخب فيه عَلَم في كوينز في العام نفسه.

وكان مجمل عدد الأصوات، التي أدت إلى فوز حام بالمقعد، يفوق، بثمانية وخمسين صوتاً، عدد الأصوات التي فاز بها رئيس المجلس الذي كان يخوض حملة لإعادة انتخابه. ويستذكر حام قائلاً: "حاول بعض الناشطين لمصلحة خصمي جعْل الدين نقطة خلاف. وكانوا على علم بأنني اخترت اسما إسلاميًّا، وهو نجيب حميد، عندما اعتنقت الإسلام منذ عشر سنوات، وكانوا

يوحون إلى الناس، بين الحين والآخر، باسمي الحقيقي". ولكن أحداً لم يفعل شيئاً. ويعتقد حام أن ذلك التكتيك أعطى عكس النتائج المرجوة.

يشغل حام منصب مُناظر فرع ساوث شور لسكة حديد لونغ آيلند، ويسكن في حي هاف هولو هيلز في نيويورك. وبعد أن نشأ في كارولينا الجنوبية معمدانيّ المذهب، أصبح مسلماً "نتيجة نزهات وأحاديث طويلة" مع جاره المسلم. قال: إن شمولية الدين الإسلامي وتسامحه مع باقي الأديان ميزتان استهوتاه. وقال: "علمني الإسلام احترام الآخرين وتجنب الانتقاد الشخصي". إن زوجة حام كاثوليكية، وأبناءه يميلون، في اعتقاده، إلى الإسلام. وكعضو جديد في صفوف الحزب الجمهوري، استمتع حام بخوض الحملة الانتخابية غير الحزبية للمجلس المدرسي. هل يطمح لانتخابه عضواً في الكونغرس؟ "تبدو هذه الإمكانية بعيدة جدّاً، لكني أحب أن أخدم هناك. سوف يكون ذلك فرصة رائعة".

مع أن جيم بايتس من سان دييغو، ويعيش حاليّاً في إيداهو، فقد اعتنق الإسلام، بعد أن خدم لولايتين اثنتين، كعضو في مجلس النواب الأميركي. إن أي مسلم لم ينتخب لعضوية الكونغرس؛ وقد سعى بعض المسلمين للوصول إلى الكونغرس، لكنهم، جميعاً، أخفقوا. ومع ذلك، تابع معظمهم هذا المسعى بحماس، وهم واثقون بأن الترشح للانتخابات تجربة قيِّمة، بالربح انتهى أم بالخسارة.

في العام ١٩٩٨، فشل مسعى الديموقراطية إيلين أنصاري لترشيحها في منطقة لوس أنجلس. وكان سيد جليل أحمد، وهو مسلم من ولاية إيلينوي، قد فشل قبلها بسنتين في الحصول على ترشيح الحزب الجمهوري لعضوية مجلس الشيوخ، وكان فشله لصالح بيتر ج. فيتزجيرالد الذي فاز بالمنصب في انتخابات تشرين الثاني (نوفمبر). وفي العام ١٩٩٢، كان دور نزار حي، المولود في بومباي ونائب رئيس جمعية المسلمين المتحدين في أميركا، الذي فشل في الحصول على ترشيح الحزب الجمهوري لعضوية الكونغرس، في انتخابات المنطقة ٣١ في كاليفورنيا.

في انتخابات العام ٢٠٠٠ الأولية، حقق بيل قريشي امتيازاً، بكونه واحداً من المسلمين الأوائل في كاليفورنيا الذين يرشّحهم حزب سياسي رئيسي في انتخابات مجلس النواب الأميركي؛ لقد فاز بيل بترشيح الحزب الجمهوري في منطقة كاليفورنيا الرابعة عشرة، ولكنه خسر في انتخابات تشرين الثاني (نوفمبر).

وفي عمليات تصويت أخرى جرت ذلك اليوم، وفي مقاطعة أورانج، فشل محام شاب وقائد ديموقراطي، هاجر من إيران في سن الرابعة عشرة، فشل في مسعاه للحصول على ترشيح الحزب الديموقراطي لمقعد في الكونغرس عن المقاطعة ٤٧، كما فشل خالد جعفري في الحصول على ترشيح الجمهوريين لمقعد عن المقاطعة ٤٣. أما المحامي إيريك فيكرز، وهو إفريقي أميركي، وصَوتٌ صاعد في العمل السياسي في سانت لويس، فقد خاضَ حملة فاشلة للفوز بترشيح الحزب الديموقراطي في منطقة ميسوري.

وسعى المهاجر المسلم إلياس زنكيش، الجمهوري، المولود في البوسنة، الذي أصبح صاحب مصنع ناجح في إحدى مناطق شيكاغو، للترشّح في انتخابات مجلس النواب الأميركي مرتين: مرةً في العام ١٩٩٢، ومرة في العام ١٩٩٤، ففشل في الحلول محل الديموقراطي دان روستنكوسكي، الرئيس النافذ للجنة الطرائق والموارد المالية في مجلس النواب. وهو يقول: "يسرني أنني ترشّحت، وقد كنت في كلتا المرتين أقرب إلى الفوز مما كنت أتوقع. في هذه البلاد، يستطيع الجميع المشاركة في الحياة السياسية، ومن المهم اغتنام الفرص للعمل ضمن النظام. إنني أشارك في الحملة الانتخابية الرئاسية هذا العام، وأحاول أن أساعد الجماعات العرقية في شيكاغو." وفي نيسان (إبريل) سنة ٢٠٠٠، أصبح زنكيش أمين صندوق الفرع الإقليمي للحلف الأميركي الإسلامي الذي أُسس حديثاً في شيكاغو.

ولما وصل زنكيش، البالغ من العمر الآن الخامسة والستين، إلى شيكاغو قادماً من البوسنة، وكان آنذاك في سن العشرين، كان وحيداً مفلساً، لا يتكلم إلاّ الألمانية، ولم يكن لديه أي من المعارف. وكان دليله إلى وظيفته الأولى، أي العمل في محل لبيع الآلات، موظفاً يتكلم الألمانية في محل لبيع الأجبان

واللحوم. تعلّم زنكيش الإنكليزية أثناء عمله هناك، ثم حاز شهادة في الهندسة من طريق الالتحاق بمدرسة مسائية. وفي سن الثلاثين، أسس شركة زينيكس، وهي شركة تصنع التجهيزات ولوازم المستشفيات التي تُطرح بعد الاستعمال. وعلى غرار مرشد عَلَم، خرج زنكيش ظافراً من محاولته الأولى خوض المعترك السياسي، بفوزه في انتخابات المجلس المدرسي لإحدى المناطق.

ويُعرب زنكيش عن أسفه لأن المسلمين يتجنّبون خوض المعترك السياسي. ويقول: "هناك زهاء ٣٥٠٠٠٠ مسلم في منطقة شيكاغو، ٢٥٠٠٠ منهم تقريباً من البوسنيين. ويُفترض فيهم أن يشاركوا جميعاً، لكنهم لا يفعلون. هذه بلادهم، وهي بلاد رائعة. ولكن، لسوء الحظ، يحضر معظم المهاجرين من بلادهم القديمة الكثير من الأمتعة. ويضيف زنكيش بابتسامة خافتة: "يجب أن يكفّوا عن جلب الأفكار القديمة، وأشياء أخرى لا يستطيعون حملها في حقيبة اليد. هذا يكفي. يجب أن يحصلوا على أمتعة جديدة هنا. وبمعنًى آخر، يجب أن يصبحوا ناشطين في الحياة السياسية الأميركية. معظمهم تعوّد العيش تحت سلطة دكتاتور، ويجدون صعوبة، على ما يبدو، في التأقلم مع الفرص السياسية المتاحة في أميركا. هم يعلمون أن الأمور هنا مختلفة، لكنهم يتحفظون. وإن أقدموا وعملوا في المعترك السياسي، فباستطاعتهم إحداث فرق". ويشعر زنكيش بالتفاؤل حيال مستقبل المسلمين الأميركيين، لكنه قلق من لامبالاة الشباب بالسياسة. "إن حاجة الشباب إلى السياسة تعادل حاجة السياسة إلى الشباب. فالسياسة مهنة شريفة، لكن لسوء الحظ أسيء استخدامها في السنوات الأخيرة. ويمكننا القول إنها باتت مكرّسة لأغراض فاسدة وحقيرة، مما دفع العديد من الشبان إلى الابتعاد عنها. لكن يجب أن يؤدوا دورهم لتقويم الأمور. وإن دخلوا المعترك السياسي سيجدونه تجربة عظيمة. وأنا أتوقع نشوء نهضة إسلامية في هذه البلاد، نهضة ستكون لصالح الجميع"[١].

هناك رجل هاجر من إيران في سن الشباب، وانتظر عامه السابع والستين

(١) Interview, 2-18-2000.

حتى يخوض غمار السياسة. علي علمي، من تيمونيوم في ولاية ماريلاند، حاز شهادة الدكتوراه، وعمل في مجال التعليم العالي قبل الانتقال للعمل الحزبي. وفي العام ١٩٩٤، شن حملة للحصول على ترشيح الحزب الجمهوري، لمقعد في مجلس الولاية، مدركاً أن الأمر سيكون تجربة تعليمية بشكل أساسي. خسر علي عَلَمِي الترشيح، ولكنه فاز بأصدقاء جدد. قال: "لقد طرقت ٩٤٠ باباً وحصدت ٧٣٥ صوتاً. كان لديّ مبلغ ٦٠٠٠ دولار لإنفاقه على الحملة، وبعدها بقي لديّ ٦٠٠ دولار من أجل حملتي القادمة، في حين أن خصمي نال ١٣٠٠٠ صوت وانتهى بدين يبلغ ٦٠٠٠٠ دولار.

لعلمي ابنة اسمها ليلى، هي حاليا طالبة في كلية الطب، عملت مديرة لحملته. وكان أكثرَ ما أثّر في حملته منشور بسيط نقل، دون تعديل، تصميماً لإميلي مورفي التي تبلغ السابعة من العمر، وقد كتبت بخط يدها، على جانبي صورة علمي، عبارة "إنه رابط الجأش".

لقد وجد الحملات ممتعة، حتى في ساعات متأخرة من الليل، ومع رداءة الطقس. "كان الناس يفاجأون، بشدة، عندما يجدونني أنتقل من باب لآخر تحت الأمطار الغزيرة. قال بعضهم: إنهم كانوا يتمنون لو كنت ديموقراطيًّا كي يصوّتوا لي. وكنت أطمئنهم أنني بحاجة للأصوات الديموقراطية. كان الكثيرون منهم في غاية الحفاوة، وأرادوا أن يستضيفوني لأشرب الشاي وأتحدث إليهم. والعديد منهم قالوا إنني كنت أول مرشح يتصل بهم في بيوتهم، منذ عشرين عاماً أو أكثر. وبعضهم طلب إليّ أن أتصل بهم هاتفياً، فيما بعد. ووعدتهم بذلك وفعلت".

تلقى علمي، تغطية لا تُذكر، من وسائل الإعلام، وولّدت خلفيته الإيرانية بعض المشاكل. وعند انتهاء الانتخابات الأوّليّة، علم أن العديد من الناس قد وجّهوا له الانتقادات عَبر البرامج السياسية الإذاعية. "لقد ذكروا أنني إيراني، كما ذكّروا المستمعين أن الإيرانيين قاموا باحتجاز دبلوماسيين أميركيين، لأكثر من عام، في عهد الرئيس جيمي كارتر. وادّعوا أيضاً أن إيران ارتكبت أشياء

فظيعة بحق اليهود. وطبعا لم يكن لي علاقة بأي من هذه الأمور، لكن الاتصالات، بلا شكّ، أضرّت بي كثيراً في عملية الاقتراع".

وفي آذار (مارس) ١٩٩٩، انتخب علمي، دون منافس، لمقعد في مجلس الولاية المشرف على معاشات التقاعد، وذلك لولاية تدوم أربع سنوات. عندما سئل عن ترشيحه في المستقبل، قال: "آمل أن أخوض انتخابات مجلس الولاية من جديد في العام ٢٠٠٢. إنها الطريقة التي أتّبعها لردّ الجميل، مقابل الامتيازات التي حصلت عليها في أميركا". ثم يضيف عبارة أكثر تحديداً، تُظهر أنه تعلّم درسا مهمًّا في السياسة، يقول فيها: "سأترشّح للانتخابات بشرط موافقة زوجتي". فإذا حصل علمي على الموافقة العائلية المطلوبة وترشّح ثانياً، سيجد مؤيّدين متحمّسين، سيكونون، في رأيي، من بين هؤلاء الذين حرص على زيارتهم، وخاصة أولئك الذين اتّصل بهم هاتفيّاً، بعد أن وعدهم أنه سيفعل.

وتكبر لائحة المسلمين الذين بدأوا يتعلّمون أساليب الحملات الانتخابية، ويسعون لانتخابهم لمناصب عامة محلية، أو على مستوى الولاية.

ففي ولاية كارولينا الشمالية، خدم أحد المسلمين في الحقل العام لمدة ثمانية عشر عاماً. إنه ناصيف رشاد مجيد، الطيّار السابق في سلاح الجو الأميركي، ذو الخبرة القتالية في فيتنام، الذي فاز بمقعد في المجلس البلدي في شارلوت، واحتفظ به لأربع ولايات متتالية، مدة الواحدة سنتان. وكان قد شغل في السنوات العشر السابقة مناصب بلدية عدة، من بينها منصب عضو في مجلس الإسكان لمدة خمس سنوات. وهو يعمل حاليًّا في التجارة العالمية.

وفي كاليفورنيا، فاز السيد محمود بترشيح الجمهوريين له في المنطقة الثامنة عشرة، ولكنه خسر في الانتخابات العامة. وشن آخرون حملات للحصول على الترشيح الحزبي، ولكن دون نتيجة. فخسر الجمهوري رفعت محمود في انتخابات المنطقة الثالثة عشرة في كاليفورنيا. أما في ولاية أطلنطا، فخسر مسّاح الأراضي المحترف ونائب رئيس لجنة المواطنين المناصرين للعدالة، كريم شهيد، ترشيح الحزب الديموقراطي لمقعد في مجلس الولاية.

أما المحامية الديموقراطية لطيفة محمد، أول مسلمة تعمل كعضو في المجلس البلدي في توسكيجي، في ولاية ألاباما لمدة أربع سنوات، فقد فشلت في محاولتها الوصول إلى منصب محافظ في تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٠. وفي مدينة بروسبكت بارك بولاية نيوجرسي، فاز رجل الأعمال المسلم الديموقراطي، حسن فهمي، الحائز ميدالية الجدارة عن الإنجازات المدنية من الرئيس رونالد ريغان، بمقعد في المجلس البلدي.

في العام ١٩٩٩، ولإثبات أن الترشيح تجربة تكسب الخبرة، خسر الجمهوري شيرالي خواجة في كاليفورنيا، عندما سعى للفوز بمنصب أمين صندوق مدينة مونتيبيلو بفارق مئتي صوت: "إنني ألوم نفسي على هذه الخسارة. لقد أغفلت السعي وراء أصوات المتغيبين التي كان من الممكن، باعتقادي، أن تحدث فرقاً. لكنني تعلمت الكثير أثناء الحملة الانتخابية، وأبليت بلاءً حسناً في المناظرات العامة مع شخصين آخرين كانا يسعيان للفوز بالمنصب". وينوي خواجة، وهو قائد في نادي الروتاري ونشاطات مَدَنيَّة أخرى، أن يشارك في انتخابات المجلس البلدي في مدينة مونتيبيلو للعام ٢٠٠١.

ويجري انتخاب أعداد لا بأس بها من المسلمين، كموفدين الى مؤتمرات سياسية على الصعيدين المحلي والوطني. شارك ثلاثون مسلماً كموفدين إلى المؤتمر الديموقراطي الوطني للترشيحات الرئاسية في آب (أغسطس) ٢٠٠٠.

ويشارك بعض المسلمين في حملات انتخابية للوائح كاملة من المرشحين، في حين أن آخرين يركّزون طاقاتهم في دعم الأفراد، وآخرون يضعون القضايا فوق الانتماء الحزبي.

فالطبيبة طلعت خان من لوس أنجلس عضو في الحزب الجمهوري والدائرة الداخلية لأعضاء مجلس الشيوخ الجمهوريين في مبنى الكابيتول، حيث ترمز العضوية لهبات سخيّة، ولكنها مؤيدة لحزبين في حملاتها الانتخابية. إنها تعمل بإخلاص للحزب الجمهوري وإلى حدّ معين، لكنها تتخطى الحدود لتدعم علناً، باندفاع وسخاء، مرشحي الحزب الديموقراطي الذين يدعمون قضايا تلتزمها هي شخصيًّا.

وطلعت امرأة ناشطة. تبلغ من العمر التاسعة والأربعين، وهي من التابعية الهندية: متزوجة وأم لثلاثة أولاد يذهبون إلى المدرسة، حائزة رتبة نقيبة في احتياطي سلاح الجو الأميركي، تمارس، بنشاط، مهنتها كطبيبة أطفال وطبيبة نسائية في ألطا لوما، إلى جانب انخراطها النشيط في المنظمات المهنية والمدنية الخيرية الإسلامية. إنها مؤسسة العيادة الإسلامية المجّانية المفتوحة أمام جميع المواطنين مجّاناً. تشن الحملات ضد إساءة معاملة النساء، مع الانتباه إلى الطالبات اللواتي يصادفن تحدّيات استثنائية، إن كن مسلمات. تقول: "يجري استفرادهنّ لأنهنّ يرتدين غطاء الرأس، ولا يستطعن المشاركة ببعض النشاطات التربوية البدنية، كالسباحة، لأن هذه النشاطات تضطرهن لكشف أجسادهن، وبالتالي يخرقن قواعد الاحتشام الإسلامية"[1].

قامت طلعت، في السنوات الأخيرة، بقيادة الحملات الانتخابية لتسعة عشر مرشحاً منفرداً، الديموقراطيون بينهم أكثر قليلاً من الجمهوريين. لقد عملت في جمع التبرعات، وفي الحملات الانتخابية الخاصّة بالجمهوري روب غزمان في محاولتيه الانتخابيتين الفاشلتين لعضوية مجلس النواب الأميركي. لكنها عملت، علناً، لدعم الديموقراطي بيل كلينتون في كل من حملتيه للرئاسة. ودعمت المرشحة الديموقراطية باربارا بوكسر من كاليفورنيا في سباقها للوصول إلى مجلس الشيوخ الاميركي، والديموقراطيِّين جورج براون من كاليفورنيا ودايفيد بونيور من متشيغان في محاولتيهما الاحتفاظ بمقعديهما في مجلس النواب الأميركي، إلى جانب دعمها للديمقراطية ريما نشاشيبي، في حملتها في انتخابات مجلس الولاية بكاليفورنيا.

إن التعقيد الظاهر في ولاء طلعت السياسي قد يربك المبتدئين في السياسة، لكنه تعقيد عادي: "أنا جمهورية على مدى الحياة، وعضو مسجّل، لكنني ساهمت ماديًّا في حملات انتخابية للديموقراطيين، وصوّتت من أجلهم في حالات استثنائية".

(١) Interview, 10-24-1999.

إن الولاء يحفّز قائداً سياسيّاً مسلماً، في ولاية كالفورنيا، للتركيز على مرشح جمهوري معيّن، في حين أن مسلماً يدعم ماديّاً قائمة المرشحين من الحزب الديموقراطي؛ كلا هذين المسلمين شكّل قدوة لكل المسلمين الذين دخلوا عالم السياسة.

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٩، بدأ سهيل أ. خان، ذو الخامسة والثلاثين، عمله كسكرتير صحفي وكناطق باسم حملة توماس كامبل، من بلدة كامبل ـ كاليفورنيا، عندما أعلن خوض المعركة لنيل ترشيح الحزب الجمهوري، لمقعد في مجلس الشيوخ الأميركي. واستمر خان في عمله هذا، بعد اختيار الجمهوريين لكامبل كمنافس لإعادة انتخاب السيناتور الديموقراطي ديان فينستين. وكان خان، قبل توليه هذا العمل، قد عمل مساعداً لكامبل في الشؤون التشريعية بواشنطن. وقد استمعت إليه في العام ١٩٩٧، وهو يتحدث إلى جمهور مسلم عريض في مدينة شيكاغو، حيث جذب اهتمام المستمعين، وهو يتكلم بثقة وجدية عن مسؤوليات طاقمه. قد لفتت تلك الحملة انتباه الأمة الأميركية إلى كامبل، وإلى هذا المسلم المتحدث باسمه.

وليس خان أول مسلم يشغل منصباً بارزاً في صفوف الطواقم العاملة في مبنى الكابيتول. هذا الامتياز يعود، أيضاً، إلى خليل منير الذي شغل لعدة سنوات منصب السكرتير الصحفي للنائب الديموقراطي ادولفوس تاونز من بروكلين. والآن نجد أكثر من اثني عشر مسلماً يعملون لأعضاء الكونغرس في مبنى الكابيتول.

أصبح كامبل السيناتور المفضّل في وسط المسلمين، عندما رعى مشروع قانون إبطال الأدلّة السّريّة، وهو قانون لمنع السريّة عن جلسات الاستماع إلى الشهود في قضايا الترحيل. وأعلن كامبل أن هذه السّريّة هي خرق للحقوق الدستورية المعمول بها. وحين قدّم كامبل مشروع القانون هذا، كان خمسة وعشرون مهاجراً، بينهم عشرون من المسلمين أو العرب، موقوفين بانتظار احتمال ترحيلهم، بناءً على شهادات سّريّة. وبنهاية العام، وصل مشروع القانون الى اللجنة القضائية، وكان قد حصل في هذا الوقت على أكثر من مئة مؤيد.

أما المعارضة الوحيدة لمشروع القانون هذا، فقد جاءت من عصبة مناهضة الافتراء واللجنة الأميركية-اليهودية. وبمساعدة راي لحود الجمهوري من ولاية إيلينوي، وممثلَيْن من الكونغرس هما: دايفد بونيور، الديموقراطي عن ولاية متشيغان، ومارك سانفورد، الجمهوري عن ولاية كارولينا الجنوبية، استطاع كامبل الفوز بمناوشة تشريعية لمصلحة المهاجرين في حزيران (يونيو) ٢٠٠٠، عندما حظي تعديله، القاضي بمنع تمويل قضايا الشهادات السرية، والذي طُرح في مجلس النواب، على أكثرية ٢٣٩ صوتاً من الحزبين، مقابل ١٧٣ صوتا[1]. وكانت هذه واحدة من المرات القليلة في التاريخ الأميركي التي ترفض فيها الأكثرية في المجلس، توصية من منظمات يهودية رئيسية. وقد أعربت اللجنة الأميركية اليهودية عن "عميق خيبتها".

واعتبر المسلمون هذا القرار نصراً لهم. وفي حزيران (يونيو) ٢٠٠٠، أظهر استفتاء شمل ٧٥٠ مسلماً أن ٨٧٪ منهم اعتبروا أن المجتمع الإسلامي يشكّل هدفاً رئيسيّاً لدائرة الهجرة والتجنيس، بسلطتها المثيرة للجدل التي تخوّلها استخدام الأدلة السّريّة في إجراءاتها ضد أشخاص متّهمين بالهجرة غير القانونية. وكانت شركة زغبني انترناشونال قد أجرت هذا الاستفتاء لمصلحة المجلس الإسلامي الأميركي، وهو من أوائل وأقوى المعترضين على قانون سرّية الدلائل. ووفقاً لهذا القانون، تُكتم مثل هذه الأدلة عن المتّهمين، ولكنها يمكن أن تستخدم كأساس لإجراء الترحيل. وكان كامبل، أيضاً، معارضاً لاستمرار العقوبات الاقتصادية ضد العراق، بحجة أنها تتسبب بمصاعب جمة للناس الأبرياء[2].

ويمدح سلام المراياطي كامبل قائلاً: "إنه مستعد دوماً لسماع شؤون المسلمين وشجونهم، وإن من السهل الوصول إليه، وهذا مهمّ جدّاً".

وفي يوم الانتخابات، حصلت فينستين على نسبة ٥٦٪ من الأصوات، في

---

(١) CAIR Alert, 256.

(٢) AMC news release, 8-28-2000.

حين أن كامبل حصل على ٣٦٪. وفي مراجعة للمنافسات الانتخابية، أجرتها صحيفة جيروزالم بوست، اعتُبرت المواجهة بين فينسين وكامبل الوحيدة التي أثارت قلق اللوبي الإسرائيلي واللجان الناشطة سياسيًّا، المؤيدة لإسرائيل. فقد ذكرت الصحيفة أن القوى المساندة لإسرائيل اتّحدت لمناصرة فينستين لأن "... كامبل... كان صريحاً في دفاعه عن قضايا المجتمع العربي- الأميركي، ويعتبر بذلك معادياً لإسرائيل".

وتمثّل المواطنة ريما نشاشيبي من كاليفورنيا نموذجاً للدور السياسي الذي يمكن أن تضطلع به المرأة المسلمة. إنها فلسطينية من مواليد القدس، تلقّت علومها في الجامعة الأميركية في بيروت، وتعيش في أورانج كاونتي. وطالما كانت من الشخصيات البارزة في الحزب الديموقراطي في كالفورنيا. تقول مبتسمة، " إنني أقوم بوظيفتين ذَوَاتَيْ دوام كامل: الأولى في شركة تأمين لأعيل نفسي، والثانية كمتطوّعة في النشاط السياسي للحزب الديموقراطي". إن التزامها وحماستها دفعاها للوصول إلى مناصب عليا في الحزب، ولكنها تؤدّي، أيضاً، دوراً قيادياً في مشاريع تراثية لاحزبية. فقد أنشأت صندوقاً للمنح، يكافئ الأفراد الذين يسجلون أسماء العرب الأميركيين للانتخاب، وتنظّم المشاريع التي تهدف إلى الحفاظ على الفنون والأزياء الفلسطينية.

ولريما نشاشيبي، وهي في سنتها الخامسة والأربعين، سجلّ لافت، فقد اختطّت خطة جديدة في العمل الحزبي. كانت أول مسلمة تنتخب لتولي رئاسة مجلس المنطقة السابعة والستين للحزب الديموقراطي ونيابة رئاسة الحزب الديموقراطي في مقاطعة أورانج. وكانت الأولى، أيضاً، التي جرى اختيارها لعدة مهمات حزبية على صعيد الولاية. ففي العام ١٩٩٨، سعت للحصول على ترشيح الحزب الديموقراطي لانتخابات مجلس الولاية، واحتلت المرتبة الثانية بفارق صغير في عدد الأصوات. إذ حصلت على ٤١ ٪ من مجموع الأصوات. كانت سعيدة لأنها خاضت المعركة الانتخابية، وتقول: "كانت أفضل تجربة في حياتي". وهي تتطلع إلى الفرصة التالية. تقول نشاشيبي إن الدين لم يظهر في الحملة كموضوع نقاش، على الأقل علنيّاً. "على حد علمي، لم يذكر الموضوع

قطّ، لكن معظم الناشطين في المنطقة يعلمون أنني مسلمة، لأننا قد عملنا سويّاً، عن قرب، في نشاطات الحزب الديموقراطي السياسية لسنوات عديدة. إنني فخورة بكوني مسلمة، ولم أحاول قط إخفاء ذلك."

كيف يمكن للمسلمين الانطلاق في العمل السياسي؟ تجيب نشاشيبي: "الطريقة نفسها التي ينطلق فيها المواطنون الآخرون: تَوجَّهْ إلى المركز الرئيسي للحزب السياسي الذي تختاره واعرضْ مساعدتك. أو، إن كانت الحملة قائمة، توجَّهْ إلى المركز الرئيسي للمرشح الذي تفضّله. أو اقصدْ مسؤولاً منتخباً، واعرضْ عليه أن تعمل كمتدرّب أو متطوّع. إن قادة الحزب المحلّيين يمكنهم توجيهك في الاتّجاه الصحيح."

هل سيشعر المسلمون بالارتياح كمتطوّعين؟ "بالطبع، سيستمتعون بتنوّع الناس والظروف. إن بعض الناشطين الحزبيين نبلاء ومهذّبون. وبعضهم الآخر قد يكونون فظّين وخشنين أحياناً. وقد تجد الأدعياء والصاخبين، الذين ينبغي ألا يُحملوا على محمل الجدّ، لكن معظمهم أناس عمليون ولطفاء. إنهم عيّنة جيدة من الشعب الأميركي. والمتطوعون يَحظَوْن بفرصة لقاء المرشحين للمناصب العامة، والتعرف إليهم كبشر، وليس كمجرد صور نراها في الملصقات أو الإعلانات التلفزيونية".

هل يتوجب على المسلمين ذكر ديانتهم حين يتطوّعون؟

"ليس هناك أيّ داعٍ لذلك. هل يعلن المسيحي، أو اليهودي، أو البوذي، دياناتهم حين يتطوّعون؟ كلاّ لم أذكر شيئا عن الدّين حين تطوّعت. يجب على المسلمين أن يتطوّعوا كمواطنين أميركيين، وليس كمسلمين. حين تصل إلى مكتب الحزب، اكْتَفِ بتوضيح أنك لا تملك تجربة في العمل السياسي، وأنك متلهّف لتتعلم كي تستطيع المساعدة على انتخاب المرشحين الجيّدين."

إذا ذكرت مسألة الدين، فما الذي ينبغي للمسلم أن يقوله؟ "قبل كل شيء، لا تكن دفاعياً. كن واقعياً في التحدّث عن ديانتك. عادة، يكفي أن تقول إن الإسلام يشبه المسيحية واليهودية بنواحٍ عديدة. إنها تفاصيل كافية بالنسبة

للكثيرين. ولكن، إذا استمرّ النقاش، ستحظى بفرصة لتوضيح بعض الأفكار النمطية المغلوطة. كما يمكنك أن تذكر أن لديك الكثير من المعارف في المجتمع الإسلامي، وأنك قد تتمكن من حمل بعضهم على التصويت يوم الانتخابات، وربما التطوع في الحملة الانتخابية".

هل مشاركة النساء المسلمات في العمل السياسي الحزبي تلقى ترحيباً؟ "ذلك أمر طبيعي، وكلما كان العدد أكثر كان ذلك أفضل. أنا امرأة مسلمة. وفي بعض البلدان الإسلامية، تميل النساء إلى البقاء في الساحة الخلفية، ولكن ليس في أميركا. إن جميع المسؤولين الرسميين المنتخبين في ولاية أريزونا هم من النساء. إن النساء يكتسبن الشهرة في جميع المهن، وليس فقط في العمل السياسي. سمعت، مؤخّراً، أن عدد النساء في كليات الحقوق الآن يفوق عدد الرجال، وأن أميركا لم تَعُد عالماً للرجال فحسب".

هل سيرحّب بالنساء المسلمات اللواتي يرتدين الحجاب التقليدي والملابس الطويلة الفضفاضة، وهل سيشعر هؤلاء النساء بالارتياح؟ "سيرحب بهنّ تماماً كالنساء المسلمات مثلي، اللواتي يرتدين الملابس الغربية. في البدء قد يُرمَقْن بنظرة عَجْلَى أو نظرتين، ولكن حالما يتعرَّف بعضهم إلى بعض، فلن يشكّل لباسهنّ أيّ فرق."

تضيف نشاشيبي، قائلة: إن "الأشخاص الذين يتألّف منهم الحزب الديموقراطي متنوّعون في دوافعهم واهتماماتهم، بقدر تنوع شخصياتهم وسلوكهم. وأعتقد أن الأمر نفسه ينطبق على الحزب الجمهوري. بعضهم يرى أنها مسألة مبدأ. وفي نظر من أصفهم بمدمني العمل السياسي، هي مسألة إثارة بمدّها وجزرها، ترافق سنوات الانتخاب. وسنة تلو الأخرى، يسخّرون أوقاتهم وطاقاتهم وأموالهم لخدمة الحزب. إنها كالمراهنة على حصان أو مناصرة فريق بايسبول. ما إن يصبحون ملتزمين، حتّى يبقى الكثيرون منهم على نهجهم، مهما يحصل خلال أيام الانتخاب، أو بين انتخابات وأخرى. إن خسر "حصانهم"، فقد يفقد بعض العاملين في الحملة الاهتمام وينسحبون، ولكن معظمهم لا

يفعلون ذلك، بل يظلون أوفياء في اللحظات العصيبة. والذين ينظرون الى الأمور بهذه الطريقة هم الذين يشكّلون الأساس الوطيد للحزب.

إن الأمر، "بالنسبة للكثيرين منهم، أشبه بالانتماء الديني. فمعظم المسلمين اتّبعوا ديانة آبائهم. وغالباً ما ينطبق الأمر نفسه في السياسة. فالعديد من الديموقراطيين اتّبعوا خطى آبائهم في الخيار السياسي، وكذلك الأمر بالنسبة للجمهوريين. وقد يأمل البعض أن يؤدّي الانتماء الى حزب سياسي، والعمل الناشط لمصلحته، الى تحصيل وظيفة جيدة في الحكومة. وهذا ما يحدث أحياناً. كما أن أيّ متطوع في الحزب الديموقراطي لديه الفرصة لتعيينه في منصبٍ مّا. ويصبح البعض من العاملين النشيطين لأجل المشاركة في الحياة الاجتماعية للحزب. فهناك المناسبات التي ينبغي حضورها، وبعضها يقتصر على أعضاء الحزب.

"أعتقد أن معظم الديموقراطيين الناشطين يريدون حكماً جيّداً، ويوافقون على ما يمثّله المرشحون الديموقراطيون والمسؤولون الرسميون المنتخبون. أنا، مع ذلك، لا أستخفّ بالإثارة التي ترافق النشاط السياسي. فالجانب الأكثر إثارة، والأجلب للرّضا، في العمل الحزبي، هو مراقبة العائدات التي حصدها الحزب، ككل، والمرشحون الذين يساندونه، وهي تصل تباعاً مساء يوم الانتخاب. إنها كمشاهدة ألعاب البطولة الأميركية في كرة القدم والبايسبول. إن العديد من الانتخابات تُحسم ببضعة أصوات فقط، عندما يفوز مرشحو الحزب. هذا عظيم! أما عندما يخسرون، فإن الذين كانوا يكدحون، يبقى باستطاعتهم العودة إلى منازلهم بشيء من الرضا، ولا يشعرون بالندم بسبب ما بذلوا من أجل قضية صالحة، ولكنها خاسرة. وإلى جانب ذلك، هناك دائماً غدٍ آتٍ. وهناك دائماً دورة انتخابات أخرى على الأبواب.

إن العدد الكبير للمسلمين الأميركيين، الذين تولّوا المسؤوليات في الساحة السياسية للعام ٢٠٠٠، أمرٌ مشجع. ويعود أحد أسباب ذلك إلى خلوّ الساحة، تقريباً، من أسماء المسلمين قبل أربع سنوات. ويلقّب المسلمون أحيانا بـ"العملاق النائم"، لأنّ معظمهم، تقريباً، يحتفظون بأرصدة ضخمة معطّلة،

ماليّة وغير ماليّة، يمكن تحويلها إلى نفوذ سياسي. إن قانون الاستمرارية قوة هائلة معروفة جيّداً في العلوم الطبيعية، وهذه القوّة ذاتها موجودة في داخل من يطمحون لأن يصبحوا سياسيين.

ذات يوم بعد الظهر، وخلال محادثة في حجرة إيداع المعاطف، خارج قاعة مجلس النواب الأميركي، استمعت إلى تيم لي كارتر، الطبيب الذي توقف عن ممارسة الطب في ولاية كينتاكي ليصبح عضواً في الكونغرس، استمعت إليه يتحدّث عن حكمة، أدركها بعد أربعين عاما من العمل السياسي، مفادها: " أن أصعب مراحل الانتخاب، للظفر بمقعد في الكونغرس، هي اتخاذ القرار بالترشّح". لم أفكّر في الأمر بهذه الطريقة إطلاقاً، لكنه كان محقًّا. فالخطوة الأولى تلك، هي الخطوة الأعظم.

إن معظم الأميركيين وليس المسلمين وحدهم، يتجنبون العمل السياسي، والترشح، بسبب تلك الخطوة الأولى، بما تنطوي عليه من تحدٍّ. والواقع أنهم نادراً ما يقترعون. فزهاء نصف الناخبين المؤهلين يتخلّفون عن التوجه إلى مراكز الاقتراع، حتى في الانتخابات الرئاسية. ويبلغ الإقبال على الاقتراع، في بعض الانتخابات المحلّية، ما نسبته ٥٪ أو أقل من عدد الناخبين المؤهلين. وغالباً ما تحسم الانتخابات حفنة من الأصوات. والذين يتخلّفون عن الاقتراع عليهم أن يخجلوا من أنفسهم. إنهم، بتخلّفهم عن القيام بواجب المواطنية الأساسي، يلحقون العار بإرث عظيم، ويبدّدون حقّاً ثميناً. إن مصدر السلطة كلها، ومصدر السياسة كلها، هو الناخب. ومن خلال السياسة، يمكن للمواطن أن يساعد على توجيه عمل الحكومة في المجالات كافّة. على مر السنين، كنت أسمع الكثيرين يقولون، "إنني أتجنب السياسة. إن الانخراط فيها لا يستحقّ الجهد". وبعضهم كان أكثر تحديداً: "إن الانخراط في العمل السياسي قد يؤذي مهنتي، ويَحُول دون حصولي على وظيفة أفضل". "إنها تسيء إلى الأعمال التجارية بالتأكيد". "أفضّل خدمة القضايا النبيلة الأقل جدلية". إن نهاد عوض، المدير الوطني لمجلس العلاقات الأميركية الإسلامية، الذي لا يشارك، يلخص أعذاراً لعدم المشاركة غالبا ما يسمعها من المسلمين، بالقول: "ليس هناك جدوى من

المحاولة". "إنها مضيعة للجهد". "إنّ شخصاً واحداً لا يستطيع إنجاز أي شيء". "إنّ النظام فاسد ولا أخلاقيّ. ويجدر بنا عدم تلطيخ أنفسنا بالمشاركة". "نخشى، في حال انخراطنا في العمل السياسي، أن تبدأ المباحث الفيدرالية بمضايقتنا. لهذا السبب، لن أوقّع حتى على عريضة".

نستطيع فهم المهاجرين الآتين من بلدان يكون النشاط السياسي فيها محظوراً أو غير محبذ، نستطيع فهمهم عندما يترددون في القيام بنشاط عامّ في العملية الانتخابية في أميركا. ولكنهم يحتاجون إلى من يذكّرهم بأن النضال السياسي هو أسمى واجبات المواطن. فالذين يكافحون من أجل وصول حكم صالح يخدمون أحبّاءهم، بالإضافة إلى كافة المواطنين الآخرين.

في الصفوف المدرسية المخصصة للمواطنين الجدد، يتعلم المهاجرون أن حق الاقتراع أهم الحقوق على الإطلاق، لأن المواطن الفرد في أميركا، يملك فرصة المساعدة على ممارسة السلطة العليا في البلاد. إن كل ناخب، في كل دائرة انتخابية، مهما يكن فقيراً، ومهما يكن مستواه، فإنه يتساوى مع أي مواطن آخر عند تعداد الأصوات.

والمسلمون، كسائر المواطنين، غالباً ما يستخفّون بإمكانياتهم. فمعظم الناس يفترضون، خطأً، أن حساباً مصرفيّاً ضخماً، وأصدقاءَ نافذين سياسيّاً، أمران أساسيّان للنجاح في السياسة، في حين أن التاريخ يثبت غير ذلك. أُمثِّل على ذلك ببول سايمون. إنه من ولاية إيلينوي، رجل ديمقراطي أعرفه وأحترمه منذ خمسين عاماً. لقد دخل الساحة السياسية دون أية روابط حزبية. دخلها وفي جيبه حفنة من الدولارات. وتعتبر حياة هذا الرجل اللوثري إحدى قصص النجاح العظيم في السياسة الأميركية. وهو يتميز بنزاهته وبما حققه من إنجازات شخصية في السياسة العامة. وقد حاز تنويهاً من المجلس التشريعي في إيلينوي، ومن الكونغرس؛ وكان موضع ثناء شديد كمرشح للرئاسة، قبل أن يتولّى منصباً أكاديمياً في جامعة إيلينوي الجنوبية[1].

(١) See Appendix B, “The Committee-of-One”.

ويبدو أن السياسيين المماثلين لسايمون رجال قلائل. وذلك لأسباب عدة، منها: سمعة العمل السياسي المشبوهة؛ كون النشاط السياسي، مَثَلُه كَمَثَلِ سائر المساعي البشرية، أبعد ما يكون عن النقاء. إذ من الممكن أن ينطوي على الفحش والفساد والارتزاق والانتهازية وانعدام الفائدة. كما أن بعضهم يخرجون من العمل السياسي ملطّخي السمعة. حتى الرؤساء الأميركيون ينحرفون أحياناً عن جادَّة الصواب، ويسقطون من عليائهم سقوطاً مدوياً. فالسفير الراحل أدلاي إي. ستيفنسون الثاني، الذي شغل في سبرينغفيلد، لولايتين اثنتين، منصب حاكم ولاية إيلينوي، لاحظ، ذات مرة، "أن الصدق بمستوى التقوى؛ وفي سبرينغفيلد هو بمستوى المستحيل". ولعلَّ ستيفنسون، الذي اختير مرتين كمرشح للحزب الديموقراطي لمنافسة الجمهوري دوايت د. آيزنهاور على الرئاسة، لعلّه لم يقصد المزاح حين أدلى بهذا القول.

في ذلك الوقت، وبالرغم من مساعي سايمون، بقي الفساد متفشّياً في أروقة مجلس ولاية إيلينوي في سبرينغفيلد. وقد كشف أحد أعضاء مجلس الشيوخ في الولاية، ذات يوم، أنه خرج للتوّ من اجتماع خاصّ رأى فيه مبلغ /٤٠٠٠٠/ دولار نقداً لشراء أصوات تكون لصالح مشروع قانون قيد الدرس. والسلوك السياسي السيّئ يحصل من الجانبين السياسيين. فلمّا توفي الديموقراطي بول باول، وكان وزيراً للخارجية ذا شعبية عارمة، وجد المحقّقون، في خزانة بجناحه في الفندق، علب أحذية مليئة بالنقود. قال أصدقاؤه المقرّبون إن المال قد تراكم، لأن باول كان يتّبع عادة شخصية مربحة خلال سيرته السياسية الطويلة. فقد تعود أن يحتفظ، لاستخدامات شخصية، بنصف التبرّعات السياسية التي يتلقّاها. فلما توفي، سخر أحد معاصريه قائلاً: "لقد أصيب بنوبة قلبية حين فتح إحدى علب الأحذية، ووَجَد بداخلها حذاءً."

في هذه الأيام، توزّع أموال الحملة الانتخابية بكميات أكبر، ولكن بدهاء أكبر، في واشنطن أو سبرينغفيلد. وأنا لم أعتقد أن هناك عدداً قليلاً من أعضاء الكونغرس، يضعون، في حساباتهم المصرفية الشخصية، أموالاً مخصّصة للإنفاق على الحملات الانتخابية، ولكن معظمهم يرحّبون بالتبرّعات الضخمة،

كي يتوافر، لهذه النفقات، ازدياد متواصل. سألت ذات يوم النائب تينيسون غاير، زميلي من ولاية أوهايو، وكان يُعرف بحسّ الفكاهة المرهف، كيف كان ينوي التصويت على مشروع قانون قيد الدرس. فرفع ناظريه، وهو جالس في مقعده بقاعة المجلس، ثم ابتسم ابتسامةً عريضة شيطانية، وقال: "لم أتلقّ نصائح مالية حتى الآن".

إن بيع النفوذ عمل تجاري مربح في واشنطن، يؤمّن الوظيفة بدوام كامل، لأكثر من عشرة آلاف شخص. وتمارس جماعات الضغط هذه، مزوَّدةً بالأموال المخصّصة للحملات الانتخابية، نفوذاً على المشرّعين أكبر من نفوذ الناخبين في الدوائر الانتخابية.

لكن هذه الحقائق الكئيبة عن الساحة السياسية لا ينبغي لها أن تحبط عزيمة مَنْ هم خارجها وتمنعهم من دخولها. إنها، على العكس، إنما تشكّل حافزاً قويّاً للصالحين كي يشاركوا. فجماعات الضغط قادرة على دفع المصالح الخاصة إلى الأمام، بسبب إهمال المواطنين الأفراد لمسؤولياتهم. ولكن الأشخاص الذين يزاولون عملهم بشرف، ويلتزمون المبادئ، يجب ألا يخافوا من أن تؤدّي المشاركة السياسية إلى تلطيخ سمعتهم، أو التسبب بإحراج شخصي.

لقد لاحظ نهاد عوض تحسّناً مطّرداً وأساسيّاً في موقف المسلمين من العمل السياسي، فقال: "إننا نشهد تحوّلاً رئيسيّاً. فالعديد من المسلمين يغيّرون مواقفهم، والذين كانوا يتبرّعون في السابق للمساجد، فقط، يقدّمون المساهمات الآن بسخاء إلى المرشحين للمناصب الرسمية. فحالات النجاح والنتائج الملموسة للجهود المحلّيّة التي يبذلها المسلمون، الذين يشقّون الطريق الى العمل السياسي، أصبحت حافزاً لهم. "إن الأشخاص الذين كانت لديهم مخاوف بدأوا يعيدون النظر. وبعض الذين كانوا بالأمس على ارتياب، هم الآن ناشطون في العمل السياسي ويستمتعون بالتجربة. إنهم يدركون مدى الانفتاح الفعلي للنظام السياسي الأميركي، وباتوا يدركون، أيضاً، أنهم إذا لم يرفعوا الصوت عالياً، ويحاولوا أن يكونوا مؤثّرين، فعليهم ألا يتوقّعوا من الآخرين رفع الصوت نيابةً عنهم".

إن ٩٦٪، من السبعمئة وخمسة وخمسين مسلماً، الذين جرى استفتاؤهم في شهر حزيران (يونيو) من العام ٢٠٠٠، يعتقدون أن على المسلمين الانخراط في العمل السياسي المحلي والوطني[(١)].

وتنصح ريما نشاشيبي المواطنين بتجنب الظهور بمظهر المدافع عن ديانتهم، عندما ينخرطون في أيّ نشاط سياسي. فالمسلم، عندما يتحدث بواقعية عن الإسلام، وعن النقاط المشتركة التي تربط بينه وبين المسيحية واليهودية، سيزيل إرباك معارفه الجدد، ويعزّز الثقة المتبادلة والصداقة.

ولكنْ هناك أوقاتاً يكون فيها الهجوم المباشر على الصور النمطية الدينية موقفاً يمليه الحزم، مثلما كانت الحال في العام ١٩٦٠. فقد شهد ذلك العام انتصاراً تاريخيّاً حققته شخصية سياسية، على ظاهرة قولبة الصور النمطية الدينية.

وهناك لوحة في منزلنا تحيي ذكرى ذلك الانتصار، رسمها جارنا الفنان أولي نول. إنها تُظهر الصفحة الأولى من صحيفة "ذي بايك كاونتي ريبابليكان" (الأسبوعية التي كنت أملكها آنذاك) في عددها الصادر في ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٠. كان العنوان الرئيسي فيها يعلن أن أصوات المقترعين في اليوم السابق قد انتخبت جون ف. كينيدي للرئاسة، وانتخبتني عضواً في مجلس النواب الأميركي.

لقد عبّر ذلك الحدث، أيضاً، عن تقدّم مهم بوجه التعصّب الأعمى. ففي حملة العام ١٩٦٠، سخّر كينيدي العمل السياسي والفطنة ليمحو صورة دينية بشعة متشبثة بالأذهان، ابتليت بها الأمة برمّتها.

فقد شكل انتماؤه لطائفة الروم الكاثوليك، في بداية حملته الانتخابية، نقطة خلافية رئيسيّة ومربكة. وراحت تظهر، تكراراً، التكهنات القاتمة بأن كينيدي، كرئيس، سيكون خاضعاً لسطوة الفاتيكان، بإشارة إلى أن البابا يوحنا سوف يمارس نفوذه على كينيدي من أجل محاباة الكاثوليك، في تعييناته لمناصب

(١) CAIR poll, 7-7-2000.

السياسة العامة. كانت تلك الشائعات صدًى لتلك الشائعات التي انتشرت قبل اثنين وثلاثين عاماً، حين أصبحت هذه الذهنية ذاتها العامل الرئيسي في فشل محاولة الكاثوليكي آل سميث، الوصول الى البيت الأبيض في العام ١٩٢٨.

وكان كينيدي، في أوائل حياته السياسية، قد استخدم الدعابة البشوشة للتخفيف من التحيّز الديني. وقد روى لي زميل سابق، يدعى جون كايل من آيوا، تفاصيل مناسبة من هذا النوع، نقلاً عن كينيدي قبل أن يغادر مجلس الشيوخ إلى البيت الأبيض. قال كينيدي إن السيناتور جيمس إيستلاند، من ولاية ميسيسيبي، قَبِلَ، يوماً، دعوته لإلقاء كلمة في بوسطن، في عشاء يقيمه الحزب الديموقراطي. كان كينيدي يدرك أن السكان الكاثوليك في ميسيسيبي عددهم صغير، إذا قورن بعددهم الكبير في ماساشوسيتس، فأخذ إيستلاند جانباً، قبل الدخول إلى قاعة الطعام، وأخبره أن الكاثوليك الإيرلنديين والبولنديين سيكونون بارزين في جمهور المدعوّين وأنذره ألا يقول شيئاً قد يغضبهم.

أجابه إيستلاند بلكنته الجنوبية قائلاً، "لا عليك، يا بنيّ، أنا أعرف كيف أتعامل مع هذا الحشد". وبدأ كلمته بإعلان حبه للكاثوليك الإيرلنديين والبولنديين، ثم أضاف." إن الذين لا أطيقهم هم أولئك الروم الكاثوليك الملعونون". فما كان من المدعوين، ومعظمهم من الروم الكاثوليك، إلا أن ضجّوا بالضحك على زلة لسان إيستلاند.

في حملته الانتخابية، تخلى كينيدي عن أسلوبه اللطيف، وراح يتعامل بشكل جدّيّ ومباشر، مع موضوع الدين، ونجح في استمالة المعادين للكاثوليك، إلى صفّه. وظلّ خلال جولاته الانتخابية يذكّر الجماهير، وكان محقّاً، بأن الدستور الأميركي لا يقول بإجراء اختبار دينيّ لمن يتولّى منصب الرئاسة، كما ظلّ يؤكّد أن الدين يجب ألا يصبح نقطة خلاف في الحملة. ولكنّ كينيدي، بتشديده المتكرّر هذا، جعل من الدين نقطة خلاف رئيسية متواصلة خلال الحملة، ولكنّ معالجته البارعة لها أكسبته استحسان الناخبين، من أوساط الأديان المختلفة، وأصواتهم.

وسرعان ما اختفت الصور النمطية المناهضة للكاثوليك، عندما أصبح كينيدي رئيساً، وأعتقد أنها اختفت إلى غير رجعة. وهذا التقدم الذي تحقق على صعيد التسامح الديني يعتبر الإنجاز الأهم لجون كينيدي. ويمكن أن يكون استخدامه العمل السياسي، لاجتثاث ظاهرة قولبة الكاثوليك في صور نمطية، مصدر إلهام لأولئك الذين يريدون تصحيح الأفكار الخاطئة عن الإسلام.

هناك رئيس ديموقراطي آخر، هو بيل كلينتون، رفع مقام المسلمين إلى مستويات جديدة في المجال السياسي. فخلال ولايته الثانية، عين م. عثمان صدّيق، وهو رجل أعمال من العاصمة واشنطن، سفيراً في فيجي، فكان أول مسلم يتولّى منصب سفير للولايات المتحدة. كما عين الدكتور إسلام أ. صدّيقي وكيلاً لوزير الزراعة، فكان أول مسلم يشغل المنصب الثاني، مباشرة بعد منصب الوزير، في مجلس الوزراء. وقد ارتقى صدّيقي في وزارة الزراعة الأميركية، بعد أن عمل، لفترة طويلة، كعالم في دائرة الزراعة بولاية كاليفورنيا.

الفصل الثاني عشر

تصويت الكتلة الانتخابية الإسلامية

لقد صنع المسلمون تاريخاً سياسيّاً خلال الحملة الانتخابية الرئاسية للعام ألفين. وقد كنت، بفضلٍ من علاقات صداقة طويلة الأمد، وبحكم الواقع، شاهداً على ما كان يُتّخذ من خطوات رئيسية في اتّجاه النضوج السياسي للطائفة.

وقد برز ستة زعماء، التقيتهم قبل سنين طويلة، كمهندسين لهذا النجاح.

كان آغا سعيد، عندما التقينا للمرة الأولى سنة ١٩٨٥، قد بدأ بالفعل يرسم في ذهنه صورة التنظيم السياسي الإسلامي، "اتّحاد الأميركيين المسلمين" (AMA) الذي أسسه فيما بعد.

وفي السنة نفسها، تسنى لي لقاء خاطف، مع سلام المراياطي، الذي أصبح فيما بعد مديراً لمجلس الشؤون العامة الإسلامية (MPAC).

وبعد تسع سنوات، وفي واشنطن العاصمة، تعرّفت إلى نهاد عواد وإبراهيم هوبر، بعد بضعة أشهر، فقط، من إنشائهما مجلس العلاقات الأميركية الإسلامية .(CAIR) والتقيت عمر أحمد، رئيس مجلس الإدارة الوطني للمجلس، للمرة الأولى، في تموز (يوليو) ١٩٩٧، عندما شاركت في مؤتمر نظّمه آغا سعيد، في سانت لويس. أما معرفتي بيحيا م. باشا رئيس مجلس الأميركيين المسلمين (AMC)، فلم تبدأ إلا في العام ألفين؛ إلا أنني كنت على معرفة بعمل مجلس الأميركيين المسلمين، الطليعي في الجهاد السياسي منذ عام

١٩٩٠؛ تلك المساعي التي قام بها مديره التنفيذي الأول عبد الرحمن العمودي، والتي تابعها، منذ عام ١٩٩٨، خليفته علي ر. أبو زقزوق.

لقد شكّل هؤلاء الرجال فريقاً مهيباً. فعواد، والمراياطي، وأبو زقزوق، وهوبر، والعمودي، يعملون للقضيّة بدوام كامل. أما الآخرون فيكرسون لها ساعات كثيرة، لكنّهم يكسبون رزقهم من المهن التي يحترفونها: سعيد من التعليم، وباشا وماهر حتحوت، المنتمي إلى مجلس الشؤون العامة الإسلامية، من الطب، وأحمد من التكنولوجيا.

وعندما أفكر بسعيد والعمودي وعوّاد وهوبر، ترد إلى ذهني كلمة "اندفاع"؛ فهم يبدون في حركة دائمة، لا يستكينون. ومنذ أول نقاش أجريته مع سعيد، في شقّته الطالبية الصغيرة، في بيركلي، لم أجده يوماً منقطعاً عن هدفه الداعي إلى انخراط المسلمين في العمل السياسي. وقد وجدت العزم نفسه في عواد. ففي لحظة من لحظاته النادرة المسترخية التأملية، قال لي: "لقد قررت تكريس نفسي لهذه القضية". وربّما كان أحمد وأبو زقزوق وهوبر قد عبّروا عن الشيء عينه لأنفسهم، إذا لم يكونوا قد عبّروا للآخرين. وهوبر كاتب جدّي وماهر، منصرف كلّيا إلى مهمة التواصل. أما المراياطي، فيعمل بطريقة أكثر استرخاءً ولا يقتصر عمله على الوسط الإسلامي، بل يتجاوزه إلى مجال العلاقات بين الأديان. أما مجلس الأميركيين المسلمين الذي يرأسه باشا، فقد عمل لمدة طويلة في مجال العمل الحزبي، جاعلاً الإدارة والكونغرس يشعران بوجود المسلمين.

وفي حملة العام ألفين، تشابكت مواهبهم تشابكاً تامّاً، فأنشأوا اتّحاداً بدعم من أفراد في منظماتهم، وأصبحوا يشكّلون قوة سياسية مؤثرة. وإليهم تُعزى، إلى حد بعيد، كتابة أهم الفصول في التاريخ السياسي الحديث.

ومع بدء حملة الانتخابات الرئاسية، كان مسلمو الولايات المتحدة مستعدين للزعامة السياسية. وقد دخلوا الساحة الحزبية، وهم جادّون بما يُقْدمون عليه، نظراً للقلق الذي كان يساورهم نتيجةً لتحديات حقوقهم المدنية في الداخل، ولا سيما مسألة استخدام الأدلّة السرّية في جلسات الاستماع إلى الشهادات في

قضايا الترحيل وفتح الملفات الشخصية في المطارات، ونتيجةً لتهديدات مصالح المسلمين في الشرق الأوسط.

وكان للقلق العميق على مستقبل الأراضي المقدسة، ولا سيما القدس، تأثيره الشديد. فبعد الاتّجاه الأوّلي لدعم ترشيح نائب الرئيس آل غور، تحوّلوا بقوة صوب الحاكم جورج و. بوش. وأعتقد أنّهم تخلّوا عن غور أساساً بسبب ارتباطه الشديد بإسرائيل، ولا سيما بسبب قبوله القدس غير المقسّمة عاصمة لها وحدها، ودعمه المتحفّظ، لكن الواضح، لنقل مقرّ السفارة الأميركية من تل أبيب إلى القدس.

وبالرغم من تأييد المسلمين لعدد من السياسات الداخلية التي ينادي بها غور، فقد كان لديهم أولويات أسمى. وقد علّقوا آمالهم، وإن كانت واهية، على جورج بوش، لانتهاج سياسات أميركية في الشرق الأوسط، منصفة للعرب وللإسرائيليين أيضاً.

لقد استاؤوا من فشل إدارة كلينتون ـ غور، وسابقاتها من الإدارات الديموقراطية والجمهورية على السواء، في إبداء معارضة حازمة لمطالبة إسرائيل بكامل القدس. إنَّ نقل السفارة الأميركية سيعني في نظر المسلمين موافقة واشنطن الرسمية على مطالبة إسرائيل بالمدينة المقدسة، وهي مطالبة تشكّل انتهاكاً لقرار الأمم المتحدة الذي يمنع اكتساب الأراضي بالقوّة؛ وتشكل سابقة لدول أخرى، لا يُؤمن جانبها، تستغلّها لاكتساب الأرض بالقوة من جاراتها الأضعف[١].

وقد أكّد غور تعلّقه بإسرائيل، عندما سئل: ماذا سيفعل كرئيس إذا أعلن الفلسطينيون دولتهم من خارج عملية السلام، فأجاب: "سأتشاور مع حكومة إسرائيل لأرى ما هو الردّ الذي سيكون أكثر إفادة لإسرائيل"[٢].

وغالباً ما أعرب المسلمون، في أحاديثهم في السنوات الأخيرة، عن

(١) Interview with Agha Saeed, 12-10-2000.

(٢) *Washington Report on Middle East Affairs*, June 2000, p. 22-24.

استيائهم الشديد من الإذعان الذي اتّسم به موقف الإدارة الأميركية، حيال سلسلة تطورات يعتبرونها مؤذية، ومن أهمها:

- ضم إسرائيل للقدس الشرقية التي بها الحرم الشريف، ثالث المقدسات الإسلامية؛
- معاملتها الخشنة للفلسطينيين الذين يعيشون في الأراضي المحتلة؛
- سياساتها المنحازة التي أدت إلى زيادة مطّردة في عدد اليهود المقيمين في القدس الشرقية، وفي المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية وقطاع غزة؛
- استمرار الغارات الجوية الأميركية والعقوبات الاقتصادية ضد العراق.

بدأت هذه الغارات في العام ١٩٩١، عندما انضم عدد من الدول العربية إلى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، في الهجمات العسكرية التي أجبرت العراق على إنهاء احتلاله العسكري للكويت.

بعد إخراج القوات العراقية من الكويت، واصلت الولايات المتحدة وبريطانيا غاراتهما الجوية، متذرّعين بأنها الوسيلة الناجعة للحدّ من العمليات الجوية العراقية وتطبيق العقوبات. وهذه الغارات لم يجزها لا الكونغرس الأميركي، ولا الأمم المتحدة. وهي تشكّل، برأيي، انتهاكاً واضحاً لنصوص قرار سلطات الحرب التي شاركت في وضعها. وإذا نَحَّينا مسألة شرعية هذه الغارات، نراها ذات مردود عكسي. فهي توقع الإصابات في صفوف المدنيين العراقيين الأبرياء، وتتسبّب بتدمير ممتلكاتهم، لكنّها لا تؤذي ديكتاتور العراق صدام حسين. إنها في الواقع تساعده على الاحتفاظ بسلطته السياسية بل وتمتينها، وتجعله يحظى بعطف لا يستحقه.

ويشرح سام الحسيني، مدير الاتصالات في مؤسسة Public Accuracy، سبب استياء الفلسطينيين بالقول: "فيما كانت الحكومة الإسرائيلية تتحدث عن السلام طوال الأعوام الستة الماضية، شاهد الفلسطينيون خمسين ألف مستوطن يهودي إضافي، يوطَّنون بشكل غير شرعي، في الضفة الغربية وغزة. لقد دمّرت إسرائيل ما يقارب ألف منزل فلسطيني؛ وزادت البطالة الفلسطينية ثلاثة

أضعاف؛ واعتقل الإسرائيليون ١٣ ألف فلسطيني، وقيّدوا حرية تحرك الفلسطينيين وأبقوهم في رقع صغيرة من الضفة الغربية، أشبه برقع الجبنة السويسرية"(١).

ان التبجيل الذي يكنّه المسلمون للقدس ينبع، بصفة خاصة، من ارتباط المدينة الوثيق بالإسلام، ومن إسراء النبي محمد ﷺ ليلاً إلى القدس كما أشار القرآن الكريم: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء/ ١]. ويعتبر المسلمون القدس الموطن الروحي لأنبياء الله كلهم ورُسُله. وكانت، أُولى القبلتين للمسلمين.

وفي إحصاء وطني أجراه، في شباط (فبراير) عام ٢٠٠٠، "مجلس الأميركيين المسلمين"، وشمل ألفاً من الأميركيين المسلمين، كان لِـ"مكانة القدس" المرتبة الثانية بين أهم عشر قضايا تضّمنتها لائحة الإحصاء(٢). وفي إحصاء وطني آخر أجري في تموز (يوليو) عام ٢٠٠٠، وشمل ٧٥٥ أميركيا مسلماً، أكَّد المجيبون أن القدس أهمّ مكانة من أي شأن سياسي آخر(٣).

ويرى المسلمون في سيطرة إسرائيل على الجزء الشرقي من القدس، الذي طالما عُرف بالقدس الشرقية العربية، يرون تهديداً مستمراً لمسجدي الحرم الشريف. إن أحد هذين المسجدين هو المسجد الأقصى، حيث صلى النبي محمد ﷺ بعد إسرائه من مكة، والآخر هو مسجد قبة الصخرة الذي يعتقد المسلمون أن النبي صعد منه إلى السماء. وهذان المسجدان لا يفوقهما، في الأهمية الإسلامية، إلا مسجد الحرم المكي والحرم المدني، في مكة والمدينة بالمملكة العربية السعودية. والمسلمون، في شتى أنحاء العالم، يتجهون صوب مكة [حيث الكعبة الشريفة] أثناء تأدية صلواتهم اليومية، لكنهم، في أول أيام الإسلام، كانوا يتجهون جميعاً صوب القدس.

---

(١) *USA Today*, 10-10-2000.

(٢) AMC release, 2-29-2000.

(٣) CAIR release, 7-6-2000.

في تشرين الأول (أكتوبر) من العام ألفين، كتبت صحيفة هآرتس، وهي من طلائع الصحف الإسرائيلية، افتتاحية عن مأزق الفلسطينيين المتفاقم في القدس والأراضي المحتلة. وأشارت إلى أن إسرائيل، بعد سبعة أعوام على توقيع اتفاقات أوسلو، تخلت عن الأمن في ١٢ ٪، فقط، من الضفة الغربية. لكنّها، عملياً، جمّدت، النمو الاقتصادي الفلسطيني. وقضى أحد الإجراءات الإسرائيلية الأكثر تطرّفاً باقتطاع إضافي من حصة الفلسطينيين من المياه العذبة في الأراضي المحتلة، وهي حصة لم تكن تشكّل، في الأساس، سوى جزء من الكمية المخصصة لليهود.

وشككت الصحيفة في صدق سياسات الحكومة حيال الفلسطينيين، خلال تلك السنوات: "هل تتخلى إسرائيل حقيقةً عن موقفها، موقف التفوق والهيمنة الذي بنته بهدف إبقاء الشعب الفلسطيني تحت سيطرتها؟ لقد مر أكثر من سبع سنوات، ولا تزال إسرائيل تحتفظ بالسيطرة الأمنية والإدارية على ٦١،٢ ٪ من الضفة الغربية، ونحو ٢٠ ٪ من قطاع غزة، بالإضافة إلى السيطرة الأمنية على ٢٦،٨٪ أخرى من الضفة الغربية"[(١)].

قبل شهر من الانتخابات الرئاسية، كان المسلمون الأميركيون قلقين، بسبب زيارة الحرم الشريف، الذائعة الصيت التي قام بها أرييل شارون الذي أصبح رئيساً للحكومة، والذي كان موضع تعنيف الحكومة الإسرائيلية، لدوره في مذبحة مخيمي اللاجئين في صبرا وشاتيلا، ببيروت في العام ١٩٨٢؛ تلك المذبحة التي راح ضحيتها زهاء ألفي فلسطيني. فتلك الزيارة للحرم القدسي الإسلامي التي قام بها شارون، اعتُبرت استفزازاً مقصوداً. ومع أعمال العنف المتزايدة التي أعقبت الزيارة، أصبح من الواضح للمسلمين الأميركيين أن مصير أماكنهم المقدسة في مدينة القدس مرتبطٌ ارتباطاً لا ينفصم بمستقبل الفلسطينيين الذين يعيشون هناك.

وأثار العنف تعليقات قاسية معادية للعرب وللمسلمين في الولايات المتحدة.

---

(١) *Haaretz*, 10-18-2000.

وبدا هناك شبه إجماع في الصحف على لوم الفلسطينيين. ونقلت صحيفة "فيرجينيان بايلوت" في عددها الصادر في ١٣ تشرين الأول (أكتوبر) عن وزير التربية السابق، وليم بينيت، المعروف بآرائه الرصينة، قوله: "ليست هناك مساواة أخلاقية بين الفلسطينيين وإسرائيل. فالفلسطينيون أمة عنف وإرهاب، وإسرائيل أمة ديموقراطية وسلام."

وفي اليوم نفسه، نقلت وكالة أسوشيتدبرس عن فرانكلين غراهام، نائب رئيس جمعية بيلي غراهام الإنجيلية، وابن الإنجيلي الذائع الصيت بيلي غراهام، قوله: "لن يسعد العرب إلا بموت جميع اليهود... فهم كلهم يكرهون اليهود. الله أعطى اليهود هذه الأرض، والعرب لن يقبلوا ذلك أبداً. لماذا لا يمكنهم العيش بسلام؟".

أما المعلّق النقابي في صحيفة لوس أنجلس تايمز، كال توماس، فقد انحطّ إلى درك أدنى عندما وصف الإسلام بـ"القاتل"، ورأى أنه يشكل "تهديداً في الحاضر والمستقبل القريب". وكتب المعلق في صحيفة نيويورك بوست رود دريهر يقول: "إننا مدينون بولائنا لإسرائيل، بوصفها المخفر الأمامي للغرب في تلك الصحراء المتوحّشة والحمقاء... فالإسرائيليون، مهما تكن عيوبهم، يقاتلون عنّا وعن حضارتنا." وفي اليوم نفسه، وصف دون أيموس من MSNBC ياسر عرفات بـ"الرأس الأشبه بفوطة الصحون"(١).

وفي استثناء نادر لهذا الشتم، نرى تشارلي ريس، أحد المعلقين الأميركيين القلائل الذين يكتبون بنزاهة عن التواطؤ الأميركي في الإساءة الإسرائيلية للفلسطينيين، نراه يعنّف واشنطن الرسمية فيقول: "يمكن للسياسيين الأميركيين أن يخدموا أميركا بصورة أفضل، لو أنهم، بكل بساطة، كانوا يعتمدون الصدق. فكل ما عليهم قوله هو: "انظروا، إن عدد الناخبين المسلمين قليل في دائرتي الانتخابية، ولهذا، ولأسبابي الأنانية أدعم إسرائيل، أخطأت أو أصابت". وهذا أفضل بكثير من وضع اللوم على الضحيّة، وجعل الولايات المتحدة تبدو سخيفة

(١) MPAC bulletin, 11-7-2000; and CAIR bulletin, 10-18-2000.

ومنافقة في نظر العالم. فشعوب العالم كله تعرف حسابات السياسة الأميركية، لكن الغضب يتملّكهم عندما يحاول السياسيون الأميركيون تغطية متاجرتهم بالأصوات الانتخابية بوضع اللوم على أناس أبرياء"[(١)].

في خلال تجمع جماهيري سابق للانتخابات، أقيم، من أجل القدس، في بارك لافاييت قبالة البيت الأبيض، استمع أكثر من عشرة آلاف مسلم إلى سلسلة من الخطباء يناقشون مأزق الفلسطينيين وتهديدات المصالح الإسلامية الأخرى في الأراضي المقدسة. وكان التجمع برعاية فريق العمل الوطني للأزمة في القدس، وبدعم من ١٧ مجموعة وطنية إسلامية وعربية-أميركية في البلاد.

ومن اللحظات المشرقة المتميزة بالشجاعة في برنامج ذاك الاجتماع الحاشد كانت تلك اللحظة التي تقدمت فيها مجموعة من الحاخامات اليهود من بروكلين، وسط تصفيق حماسي، إلى منصة الخطباء، لإظهار دعمهم لحقوق الإنسان الفلسطيني. ولأنهم يحترمون يوم السبت اليهودي، فقد منعتهم نذورهم من مخاطبة الجماهير، ذلك اليوم، لكنهم وقفوا بصمت على المنصة، بينما راح سيف عبد الرحمن يقرأ بيان التضامن والتعاطف الذي أعدّوه سلفا، وجاء فيه: "إننا ندين أعمال (إسرائيل) في هذه الأسابيع الماضية. فالحق، في الوضع الراهن، هو كلّيّاً إلى جانب الشعب الفلسطيني. لقد طردوا من ديارهم والسيطرة السياسية على الأرض تعود لهم".

وقد وزّع الخطباء اهتمامهم بين القلق على الفلسطينيين والخوف على مستقبل القدس. وكان مهدي براي، رئيس المجلس التنسيقي للمنظمات الإسلامية، وهو مجموعة تعنى بجماعات الطائفة في منطقة واشنطن، قد تقاسم إدارة البرنامج مع ممثلين عن المنظمات الراعية. وأعلن أبو زقزوق، من مجلس المسلمين الأميركيين: "أن القدس هي في قلب كل مسلم. وعلى إدارتنا أن تظهر الإنصاف لا التحيّز في الوساطة لإرساء السلام العادل"[(٢)].

---

(١) *Orlando Sentinel*, 10-19-2000.

(٢) AMC release, 10-3-2000.

ولقد شردت عن الموضوع اللاحزبي في مساهمتي في البرنامج بتركيزي على الانتخابات الرئاسية المقبلة. أشرت بيدي إلى البيت الأبيض الواقع على مسافة قريبة من الاجتماع الحاشد، وسألت: هل يريد المسلمون أن يكون رجل ملتزم التزاماً قويّاً بإسرائيل رئيساً تنفيذيّاً وقائدا أعلى للقوات المسلحة، خلال السنوات الأربع المقبلة، وهي فترة يمكن أن تُتخذ فيها قرارات أساسية تتعلق بمستقبل القدس، بل يمكن أن يجد الشرق الأوسط نفسه فيها متورّطاً في الحرب.

وقلت لهم إنني طأطأت رأسي خجلاً، منذ ثلاثة أيام، لمّا علمت أن زملائي السابقين في مجلس النواب الأميركي وافقوا بـ٣٦٥ صوتا مقابل ٣٠، على قرار يدين ضحايا العنف الذي غمر إسرائيل والأراضي المحتلة في الشهر السابق، ولا يدين الجناة. فقد شجب القرار الفلسطينيين المحاصرين، والمسلّحين، في الأكثر، بالحجارة، وتعاطف مع إسرائيل التي كانت قوّاتها المزوّدة بأحدث التكنولوجيا قد قتلت، حتى ذلك الوقت، ١٥٤ فلسطينيًّا، وجرحت أكثر من سبعة آلاف آخرين، في حين أن مجموع القتلى الإسرائيليين لم يجاوز الثمانية. وقد ردّد القرار التحيّز الذي عبّرت عنه الرسالة التي رفعها ٩٤ عضواً من مجلس الشيوخ الأميركي الى الرئيس كلينتون بتاريخ ١٢ تشرين الأول (أكتوبر)، وحثّوه فيها على "إدانة حملة العنف الفلسطينية" و"التعبير عن التضامن الأميركي مع إسرائيل." وقد أثنت الرسالة على إسرائيل "لردّها المتّسم بضبط النفس،" وحثّت كلينتون على ممارسة الضغط على زعيم منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات لوقف النزاع الأهلي. وخلال النقاش في مجلس النواب، تحدّث أربعة أعضاء شجعان معارضين للقرار، وهم الديموقراطيون جون دينغل عن متشيغان، وجيم موران عن فرجينيا، ونيك رحّال عن فرجينيا الغربية، والجمهورية دانا روهراباتشر عن كاليفورنيا. قال دينغل لزملائه: "إن على إسرائيل أن تدرك أن للفلسطينيين حقّاً مشروعاً في دولة مستقلة، وفي العودة إلى ديارهم، بالضبط، كما ينبغي للفلسطينيين أن يدركوا أن لإسرائيل الحق في الوجود، وأنّها تطلب السلامة والأمن... وأنا أتساءل لماذا فشل هذا

التشريع، الذي يُنْحي باللوم فقط على الفلسطينيين، في شرح سبب غضب الفلسطينيين."

وفي خلال التجمع من أجل القدس، أثار أحد المتكلمين، عن غير قصد، جدلاً في شأن الصور النمطية الإرهابية، الشائعة عن الإسلام. فقد قوبل عبد الرحمن العمودي، الذي يتزعّم، منذ أمد بعيد، مجلس الأميركيين المسلمين، بصيحات الدعم من الحضور، عندما سألهم عن شعورهم حيال حزب الله وحماس. وأساء المراسلون الصحافيون، الذين كانوا يغطّون التجمّع، فهم ما جرى معتبرين إيّاه تعبيراً عن دعم إسلامي للإرهاب.

وعندما عرف العمودي بتفسيرهم، احتجّ قائلاً: "لقد كان ذلك تعبيراً عن الدعم للجهود التي بذلتها المنظمتان ضد انتهاكات إسرائيل لحقوق الإنسان الفلسطيني والعربي. إن إسرائيل هي التي استخدمت الإرهاب ضد العرب، وليس العكس. أضف إلى ذلك أن الإرهاب والاستعباد انتهاك للإسلام".

ودفع الجدل بمجلس الشؤون العامة الإسلامية (MPAC) إلى إصدار بيان يكرّر فيه "وقوفه ضد الإرهاب استناداً إلى قاعدة رفض الإسلام المطلق للعنف ضد المدنيين." وأكدت لجنته التنفيذية دعمها "للوسائل المشروعة والسياسية" لوضع حد للمعيار المزدوج الذي يستخدمه المسؤولون الأميركيون، في الرد على الأعمال الإرهابية؛ إذ قالت: "إن هذا المعيار المزدوج يغفل عن أعمال الإرهاب الإسرائيلية، حتى عندما تتورط القوات الإسرائيلية في انتهاكات فاضحة لحقوق الإنسان". واستنكر مجلس الشؤون العامة الإسلامية "محاولات اللوبي الموالي لإسرائيل تهميش دور المسلمين في السياسة الأميركية." وأضاف: "لقد أدّى هذا المجهود إلى حملات يائسة لقولبة صور نمطية، عن الجماعات الإسلامية، الممثلة للاتجاه السائد، وجعلها كبش محرقة".

لكن رد الفعل الوطني كان، من الحدّة، بحيث أصدر العمودي بياناً اعتذر فيه عن "العبارات الانفعالية" التي "تم تأويلها على أنها دعم للإرهاب." وشعوراً منه بأن تغطية هذه الحادثة العرضية قد تجعل الصور النمطية عن

الإسلام أكثر سوءاً، فقد طرح استقالته من منصبه، كمسؤول كبير في مجلس المسلمين الأميركيين، المنظمة التي ساهم في قيادتها طوال فترة وجودها؛ لكن قيادة المجلس رفضت الاستقالة[1]. وكانت الضجة الوطنية حول حزب الله وحماس قد أثارتها تقارير إخبارية أذيعت أو نشرت بعد انتهاء البرنامج. وكان التجمّع واحداً من أكبر التجمعات التي نظّمها المسلمون، وأشدّها حماسة.

في خلال حملة الانتخابات الرئاسية، تجاوب المسلمون، بالدرجة الأولى، مع القضايا، وليس مع الحزب أو الشخصية السياسية.

وكان رالف نادر، بطل المسلمين بلا منازع، من بين الطامحين للرئاسة. فقد أعجبوا، كما أعجبت أنا، بما قدّمه، منذ زمن مديد، من خدمات بنّاءة كمدافع عن المستهلك، كما أُعجبوا وأُعجِبتُ، بوعيه للقضايا العامة، وببلاغته، وباستقامته المثبّتة. فلقد أشدت مراراً، خلال سنواتي في الكونغرس، بالتزامه أهدافاً قيّمة، كما احترمت جيش "مغاوير نادر" الذي عمل في مختلف قضاياه. لقد تمكّنت دائماً من جلب الابتسامة إلى وجه نادر، عندما كنت أسأله متى ينوي ترشيح نفسه للرئاسة عن الحزب الجمهوري.

لقد شعر المسلمون، المتحدّرون من أصل عربي، بأواصر القربى تشدُّهم إلى نادر، وهو أول أميركي من هذه الأصول يرشّح نفسه لأعلى منصب في البلاد. أضف إلى ذلك أن المسلمين كانوا مسرورين في الأسابيع الأخيرة من الحملة، لمّا جَهَر باستنكار العنف القاتل الذي ينزله الإسرائيليون بالفلسطينيين، وطالب برفع العقوبات عن العراق. ولاحظوا باستحسان أن حزب الخضر، الذي يحمل نادر لواءه، أوصى بتعليق المساعدات الأميركية لإسرائيل.

أما القرار الإسلامي بالتصويت لبوش، فكان من باب ما يسميه المستفتون بالحادث العرضي المحدّد. فالكثيرون من الأميركيين، وليس المسلمون وحدهم، كانوا يفضلون نادر على المرشحين البارزين الآخرين للرئاسة، لكنهم أقرّوا بأنه ليس بالمنافس الجادّ. فقد كان يحاول، من خلال موقعه كمرشح لحزب

---

(١) Interview with Abdurahman Alamoudi, 11-20-2000.

الخضر، أن يجعل من الحزب مؤسسة تبلغ من الحجم ما يكفي، للتأثير في السياسة العامة في المستقبل. وأقرّ مؤيدوه، وهم بالآلاف، أن نادر لا يملك حظًّا بالفوز في انتخابات الرئاسة لعام ٢٠٠٠، فأدلوا بأصواتهم في النهاية، لمرشحين آخرين.

في أوائل الألفين، أظهرت استطلاعات الرأي أن الحزب الديموقراطي هو أكثر شعبية بين المسلمين من الحزب الجمهوري. ففي أواخر العام ١٩٩٩، أظهر أحد هذه الاستطلاعات، الذي أجراه مجلس المسلمين الأميركيين، وشمل٨٤٤ شخصاً، أن الثلثين لا ينتمون إلى أي حزب سياسي. وكان الآخرون موزّعين، بشكل متقارب جدّاً، بين المرشحَين الجمهوري والديموقراطي. وأظهر استطلاع آخر، أجرته مؤسسة "زغبي إنترناشونال" أن ٤٦ ٪ من مسلمي متشيغان يميلون إلى الحزب الديموقراطي، و٢٦ ٪ يحتفظون بموقف مستقل، و١٨ ٪ فقط يؤيدون الحزب الجمهوري[١]. وفي مسح وطني للمسلمين في حزيران (يونيو)، عام ٢٠٠٠، أجاب ٣١ ٪ أن الحزب الديموقراطي أفضل من يمثّل مصالحهم، في حين أنّ ١٧ ٪، فقط، فضّلوا الحزب الجمهوري. وقال ٤٣ ٪ إنهم إما متردّدون، أو أنهم يعتقدون أن أيًّا من الحزبين لا يولي مصالح المسلمين الأساسية اهتماماً. وساند ٦٤ ٪ مواقف الحزب الجمهوري من المسائل الخلافية الأخلاقية، مثل الإجهاض وزواج مَثِيلَي الجنس. وحصل الحزب الديموقراطي على تأييد ٥٦ ٪ لمواقفه من المسائل الاجتماعية، و٤١ ٪ لمواقفه من قضايا الاقتصاد. وقد شمل المسح مسلمين في ٣٧ ولاية، يحمل ٥٦ ٪ منهم شهادة تخرّج، و٢٥ ٪ أفاد كلٌّ منهم أن مدخول أسرته يفوق المِائة ألف دولار.

وقال الدكتور محمد نمر، مدير الأبحاث في مجلس العلاقات الأميركية الإسلامية: "إن هذا المسح يُظهر أن المسلمين ناخبون مستقلّون، وأنهم

(١) *Christian Science Monitor*, 11-2-2000.

يدعمون المرشّحين المعنيين باهتماماتهم."[١] وقد سُمع صوت مخالف وحيد في ديربورن، متشيغان، هو صوت داني عجمي الذي احتجّ، لدى سماعه أستاذه إمام حسن القزويني يحثّ الطلاب في جامعة متشيغان على التصويت، معلناً: "أن الله يمنع أي مسلم من المشاركة في انتخابات دولة غير مسلمة." فأجابه القزويني: "علينا أن نناضل من أجل حقوقنا في المجتمع الذي نختار العيش فيه. فإذا أقصيت نفسي فلن أتمكن من التأثير في أحد." وبعد انتهاء الدرس، قام عجمي بتوزيع مناشير تعتبر التصويت "خيانة للإسلام".[٢] ويعتقد آغا سعيد أن المسلمين الذين يشاطرون عجمي آراءه يشكّلون قلّة صغيرة آخذة في التضاؤل. وأظهر مسح شمل زعماء المساجد أن ٨٩ ٪ منهم حثّوا المسلمين علناً على التصويت.[٣]

وقد دُعي المسلمون الى التصويت، ككتلة، في انتخابات الرئاسة، وإلى الاتفاق، أيضاً، على مسألة القدس. ففي مقال افتتاحي، لعدد حزيران (يونيو) عام ٢٠٠٠، أعيدت طباعته على نطاق واسع، يقول ريتشارد ت. كورتيس المحرر التنفيذي لشؤون الشرق الأوسط في "واشنطن ريبروت"، المجلة النصف شهرية: "يمكن للمسلمين من كل الخلفيات الإثنية، ومن كل الطبقات الاجتماعية الاتّفاق حول القدس." وقد ربط مصير الفلسطينيين في الأراضي المقدسة بمأزق المسلمين الأميركيين بقوله: "سيكون من الصعب أكثر فأكثر أن يكون المرء مسلماً في الولايات المتحدة إلى أن تُحَلّ القضية الفلسطينية. فاللوبي الإسرائيلي، بسبب نفوذه غير المعقول في وسائل الإعلام، سيواصل تصوير كل العرب وكل المسلمين "كإرهابيين" يجب تقييدهم واعتراضهم، والسخرية منهم، وحتى ترحيلهم من أجل "أمن" المجتمع غير الإسلامي".

لكن كورتيس عثر على شعاع من الأمل، في السماء القاتمة، حيث قال: "إن حل القضية الفلسطينية... قد يأتي بفوائد فورية لكل من يريد تربية أولاده

(١) CAIR release, 7-6-2000.

(٢) *Christian Science Monitor*, 11-2-2000.

(٣) Interview with Agha Saeed, 12-2-2000.

كمسلمين في الولايات المتحدة. فإسرائيل هي المسألة التي جعلت من الطائفة اليهودية الأميركية ذات الاتجاهات المتباينة طائفة موحّدة، وساهمت في تنمية قوّتها. ويمكن لسرقة وطن (وطن الفلسطينيين) وأماكن مقدسة إسلامية ومسيحية أن تكون بدورها ذلك العامل المؤثر على نحو مماثل، في المسلمين والعرب الأميركيين"[1].

وحث كورتيس المسلمين على التوحُّد وراء مرشّح واحد، عندما يصوتون، فقال: "إذا أظهر الناخبون المسلمون انضباطاً هذه السنة، في مثل هذه الانتخابات المتقاربة، وجعلوا طائفتهم تُقبل على الانتخاب، ثمّ صوتوا، ككتلة واحدة، وأعلنوا عن تصويتهم، فإن الولايات المتحدة لن تكون أبداً هي نفسها التي نعرفها اليوم. فسياساتها الشرق أوسطية ستصبح منصفة، للمرة الأولى، منذ إنشاء إسرائيل. وقد تتحرر السياسة الأميركية في جنوب آسيا من التأثير الحالي للتحالف الإسرائيلي ـ الهندي".

وأعرب عن تفضيله الشخصي لبوش، لكنه قال: إن عملية التصويت، ككتلة واحدة، أهم من هُوِيَّة المرشح الذي سيختار المسلمون دعمه.

ولاحظ أن المسلمين، في حملة انتخابات العام ١٩٩٦، قد فشلوا في إقامة كتلة انتخابية واحدة، دعماً لأحد المرشحين الرئاسيين، لكنهم نجحوا في سباقين لمجلس الشيوخ. فقد أثبت التصويت الإسلامي أنه حاسم في انتخاب ديموقراطيين لمجلس الشيوخ الأميركي هما: روبرت توريتشيللي من نيوجيرسي وتيم جونسون من داكوتا الشمالية. ففي بداية الحملة، لملء كرسي شاغر في نيوجيرسي، دعم المسلمون المرشح الجمهوري ريتشارد زيمر. لكن حين أعلن زيمر، القَلِقَ من ردة الفعل اليهودية، أنه لم يطلب هذا الدعم، فقد دفع بأعضاء من مجلس المسلمين الأميركيين، فيما وصفه كورتيس بأنه "تحفة في التنظيم"، إلى تحويل دعمهم إلى توريتشيللي. وهذا الانتقال لأصوات المقترعين أمَّن لتوريتشيللي انتصاراً بهامش ضيق. وفي مناسبات عدة لاحقة، عزا، علناً، إلى المسلمين، الفضل بمنحه هامش الفوز.

---

(١) *Washington Report on Middle East Affairs*, June 2000, pp. 22-24.

وفي السنة نفسها، ولمّا أيّد لاري برسلر السيناتور الجمهوري عن ولاية داكوتا الشمالية، تشريعاً يقضي بوقف المساعدة الأميركية لباكستان، البلد المسلم، أثار موقفه غضب المسلمين خارج الولاية. وبالرغم من كون المسلمين المستائين لا يستطيعون التصويت للديموقراطي تيم جونسون، فإنّهم زوّدوا حملته الانتخابية بأموال، ثبت أنها كانت عنصراً أساسيّاً في فوزه بفارق ضئيل على برسلر.

ولاحظ كورتيس أن المسلمين موجودون، في موقع فريد، لممارسة نفوذ سياسي، على الصعيد الوطني: "قد يكون الحظ، أو العناية الإلهية، وذلك بحسب وجهة نظركم، هو الذي جعل معظم المسلمين ونسبة عالية من المسيحيين العرب الأميركيين يتجمّعون في مراكز المدن الرئيسية في ولايات قليلة جدّاً. إنها منطقة الولايات الثلاث حول مدينة نيويورك، بالإضافة إلى أوهايو، ومتشيغان، وإيلينوي، وكاليفورنيا. فالصوت المسلم، في حالة انتخابات متقاربة جدّاً، سوف يحدد، على الأرجح، المرشّح الذي سيفوز في هذه الولايات، إذا صوّت الناخبون المسلمون ككتلة واحدة".

وكتب كورتيس يقول: إن حقيقة أن المسلمين يشكّلون ٣ ٪، فقط، من عدد السكان الأميركيين، يجب ألا تكون رادعاً لهم. ولاحظ، في هذا السياق، أن اللوبي الموالي لإسرائيل، الذي يمثل، على الأكثر، ٢ ٪ فقط من عدد السكان، يُصنّف عموماً، ثاني أكبر مجموعة ضغط في الولايات المتحدة؛ وهو أقوى من جماعات الضغط، التي تمثّل مؤيدي حيازة الأسلحة، ومصالح صناعة التبغ ومصالح المعلّمين، أو أي جماعات ضغط أخرى. والرابطة الأميركية للمتقاعدين، التي تدّعي تمثيل ٢٥ ٪ من السكان، هي مجموعة الضغط الوحيدة التي تُصنّف أقوى من اللوبي الموالي لإسرائيل. وفي المؤتمر الوطني لاتّحاد المسلمين الأميركيين الذي عُقد في لوس انجلس في ٣٠ أيلول (سبتمبر)، استمعت الى ابنته ديليندا هانلي، تقرأ على المؤتمرين، وسط تصفيق شديد، دعوته إلى التصويت ككتلة واحدة في الانتخابات. كانت تلك المناسبة هي الأولى التي أركّز فيها على رسالته. ودأبت، خلال الأسابيع التي كانت تفصلنا

عن موعد الانتخابات، على الاستشهاد بكلماته، في كل مرة كنت أخاطب فيها جمعاً من الناس، بما في ذلك المؤتمر الوطني لمجلس العلاقات الأميركية الإسلامية في العاصمة واشنطن، في ٧ تشرين الأول (أكتوبر).

إن العامل الأهم من غيره بكثير، الذي دفع بالمسلمين للتصويت، كُتلةً واحدة، لبوش، هو وحدة ومثابرة زعماء منظمات السياسة العامة الإسلامية الرئيسية الأربع: اتحاد المسلمين الأميركيين (AMA)، ومجلس العلاقات الأميركية الإسلامية (CAIR)، ومجلس الأميركيين المسلمين (AMC)، ومجلس الشؤون العامة الإسلامية .(MPAC).

وكان القائد الرائد لمجلس الأميركيين المسلمين عبد الرحمن العمودي، قد دعا المسلمين، في كانون الثاني (ديسمبر) ١٩٩٨، إلى الوحدة، عندما كتب مقالة، جاء فيها : "أن الوقت قد حان لإنشاء مجلس تنسيقي للمنظمات الأميركية الإسلامية." وقد أسهب، في تلك المقالة، بشرح أفكار كان قد قدّمها إلى مؤتمر اتّحاد المسلمين الأميركيين عام ١٩٩٧ [١].

وفي أيار (مايو) ١٩٩٨، أي قبل سنتين من حملة الانتخابات الرئاسية، أنشأت التنظيمات الأربعة مجلس التنسيق السياسي للمسلمين الأميركيين (AMPCC)، وشغل فيه الدكتور آغا سعيد، مؤسس وزعيم اتحاد المسلمين الأميركيين، منصب المنسّق الأول.

وفي وقت لاحق من العام ١٩٩٨، تابع أبو زقزوق، من مجلس الأميركيين المسلمين، هذا الإنجاز، فحثّ المنظمات الوطنية الإسلامية على دعوة المرشحين للمناصب العامة إلى اجتماعاتهم، وأدار عملية توزيع التعليمات الخاصة، بتسجيل الناخبين، على صعيد البلاد، وهي الحملة التي حظيت بالتغطية من صحيفة واشنطن بوست، ومن الراديو الوطني العام، وغير ذلك من وسائل الإعلام.

---

(١) *Washington Report on Middle East Affairs*, January-February, p. 50.

وفي شباط (فبراير) ١٩٩٩، وبعد الاتّفاق على العمل بموجب برنامج عمل مشترك، تعدّت المجموعة حدود المجتمع الإسلامي لتجتمع مع مجلس رؤساء المنظمات العربية الأميركية. وقد حضر، بالإضافة إلى مندوبي المنظمات الإسلامية الأربعة، الممثّلين بمجلس التنسيق السياسي للمسلمين للأميركيين، زعماء اللجنة الأميركية العربية المناهضة للتمييز (ADC)، والمؤسسة العربية الأميركية (AAI)، والاتّحاد الوطني للعرب الأميركيين (NAAA)، واتّحاد خرّيجي الجامعات العرب .(AAUG) وانتهى الاجتماع إلى اتفاق كامل على أربع قضايا أساسية: القدس، وتشريع إبطال الأدلّة السرية في قضايا الترحيل، وفتح الملفات، وتحديد أيلول (سبتمبر) ١٩٩٩ "كشهر تسجيل الناخب وتثقيفه". كما أدى ذلك إلى تعاون طويل الأمد في مجالات التسجيل، والتربية المدنية، والتدريب على القيادة [١].

بدأ المسلمون في تنظيم نشاطات الحملات الانتخابية في أوائل عام ١٩٩٩. ولعدة أسابيع قبل الانتخابات الأولية، عملت شبكة اتحاد المسلمين الأميركيين، بواسطة فروعها البالغ عددها ثلاثة وتسعين فرعاً في إحدى وثلاثين ولاية، على إرشاد المسلمين الذين يُجْمَعون في المدارس والمساجد، على عملية الاقتراع، وتعريفهم بدور الأحزاب السياسية، وبمحتويات ورقة الاقتراع. وأُصدرت توصيات انتخابية أولية في كل الولايات الرئيسية. وفي كاليفورنيا، أظهر تحليل أجري بعد الانتخابات، نجاح ٨٢ ٪ من المرشحين واقتراحات الاقتراع التي أوصى بها الاتّحاد. وفي نيسان (إبريل) حثّ زعماء الاتحاد المسلمين على التطوع للمساعدة في مؤتمرات تسمية مرشحي الرئاسة.

وفي تموز (يوليو) ١٩٩٩ نظّم باشا، رئيس مجلس المسلمين الأميركيين، اجتماعاً في ديترويت، التقى فيه ممثلون عن سبعة تنظيمات إسلامية وطنية حاكم متشيغان، جون إنغلر، وهو من أوائل قادة حملة جورج بوش للانتخابات الرئاسية. وقد عرضوا لإنغلر هموم المسلمين، في نقاش كان الاتصال الأول بين

(١) AMC release, 8-16-1999.

المنظمات الإسلامية في الولايات المتحدة ومنظّم رئيسي من منظمي عملية ترشيح بوش للرئاسة[١].

وفي أواخر ربيع عام ٢٠٠٠، وطوال فترة الصيف، رعت المنظمات الإسلامية السياسية الأربع ورش عمل في المدن الرئيسية للمرشحين، ولمتطوّعي الحملات الانتخابية، وللناخبين المحتملين.

وقد أصدر مجلس المسلمين الأميركيين، في مؤتمره السنوي الذي عقد بين ٢٢ و٢٥ حزيران (يونيو) في العاصمة واشنطن، تعليمات إلى مندوبيه، تتعلق بمسائل الحملات والإجراءات وتسجيل الناخبين. كما وزع التعليمات على متطوعي الحملة، وطوّر لاحقاً قاعدة للناخبين المسلمين، ونشر المواقف التي يتبنّاها كل مرشح من المرشحين، ووضع هذه الوثائق كلّها في موقع المجلس على شبكة الإنترنت.

وبلغت أنشطة تسجيل الناخبين ذروتها يوم ١٥ أيلول (سبتمبر)، الذي اختير لِيكون يوم هاشم رضا لتسجيل الناخبين، إقراراً بالعمل الريادي لمدير مجلس الشؤون العامة الإسلامية، الذي كان قد تُوفّي قبل بضعة أشهر. وكان رضا قد ترأس، سابقاً، أول فرع لمجلس المسلمين الأميركيين في البلاد. وقد وُضعت لوائح تسجيل في المساجد، والمراكز الإسلامية، والمدارس في أنحاء البلاد[٢].

وكانت الخطوة الأكثر إثارة في اتجاه الوحدة الإسلامية، على مستوى الأمة، قد اتُخذت في المؤتمر السنوي للجمعية الإسلامية لأميركا الشمالية (ISNA) الذي عقد في مناسبة عيد العمل على مقربة من مطار أوهير في شيكاغو. فقد أعلن آغا سعيد، في نهاية مداخلته أمام جمهور يضم أكثر من عشرة آلاف مسلم، أن مجلس التنسيق السياسي للمسلمين الأميركيين قرر أن

---

(١) AMC release, 7-28-1999.

(٢) Interview with Agha Saeed, 12-2-2000.

يضع جانباً كل مسائل الحملة الانتخابية، وأن يوصي بأن يصوت المسلمون، ككتلة واحدة، في الانتخابات الرئاسية. وقال إن المجلس، وبعد مقابلة المرشحين الرئيسيين، سيعلن توصياته في شأن الرئاسة، قبل أسبوعين من الانتخابات.

واختتم سعيد مداخلته بأن دعا، إلى منصّة الخطابة، عمر أحمد ونهاد عوض من مجلس العلاقات الأميركية الإسلامية، وباشا وعلي أبو زقزوق من مجلس المسلمين الأميركيين. وبعد أن أشار سعيد إلى أن مجلس الشؤون العامة الإسلامية قد تعهّد بدعم الخطوة، أقام الجمهور من مقاعده بإعلانه: "إننا لا نتقاتل. إننا متّحدون. وقبل أسبوعين من الانتخابات سنقرر جماعيّاً، ونصدر توصية بالمرشح الرئاسي".

وسط صيحات الاستحسان من الجمهور، شبك الزعماء المسلمون أيديهم، ورفعوها عالياً، وهم يصيحون "سنحدث فرقاً!" وقد ردّدوا هذا التعهّد وسط موجة بعد موجة من تجاوب الجمهور[1].

وفي مؤتمر صحافي، عُقد في الثالث والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر)، بواشنطن العاصمة، أعلن مسؤولو مجلس التنسيق السياسي للمسلمين الأميركيين قرارهم دعم المرشح الجمهوري جورج بوش للرئاسة. وقد جاء ذلك بعد ١٨ يوماً من مقابلة مثمرة في ديترويت مع حاكم تكساس. وفي المؤتمر الصحافي، شرح سعيد أن "الحاكم بوش اتخذ مبادرة الاجتماع بالممثلين المحليين والوطنيين للطائفة الإسلامية. وقد وعد، أيضاً، بالتعاطي مع هموم الطائفة الإسلامية في قضايا السياسة الداخلية والخارجية". وأثنى باشا على بوش لوقوفه ضد "الأدلة السرّية وفتح الملفات في المطار."[2] وقال مدير الاتصالات في مجلس العلاقات الأميركية الإسلامية إبراهيم هوبر، وقد علم بأن غور ألغى

(١) AMC release, 10-5-2000.

(٢) *St. Petersburg Times*, 10-24-2000; *Los Angeles Times*, 10-23-2000; AMA news release 10-23-2000.

موعداً مع قادة مجلس التنسيق السياسي للمسلمين الأميركيين: "إن العامل الأساسي كان قدرة وصول الزعماء المسلمين الى الحاكم." وأضاف: "إنه أفضل رهان لنا لننتهي من قضية الأدلة السرية [في جلسات الاستماع الخاصة بقضية الترحيل]".

والآخرون الذين تحدّثوا، خلال المؤتمر الصحافي، هم عمر أحمد ونهاد عوض من مجلس العلاقات الأميركية الإسلامية، وأبو زقزوق من مجلس الأميركيين المسلمين، وسلام المرايطي من مجلس الشؤون العامة الإسلامية، وإريك فيكرز من اتّحاد المسلمين الأميركيين. وقد حضر ممثلون عن الجمعية الإسلامية لأميركا الشمالية (ISNA)، والحلقة الإسلامية لأميركا الشمالية (ICNA) كمراقبين[١].

ولم يكن المتحدثون باسم بوش أكثر دقة في الإفصاح عن مواقفه، لأن بوش نفسه لم يكن أكثر تحديداً بشأنها. وكان جانب كبير من تأييدهم له رفضاً لغور الذي بدا أنه غير متجاوب مع المصالح الإسلامية. وقد نقلت وسائل الإعلام الوطنية، على نطاق واسع، هذا التأييد، الذي وزّع أيضاً على المسلمين بالبريد الإلكتروني، وبواسطة إشعارات في المساجد والمراكز الإسلامية، وفي الخطب التي ألقاها الأئمّة في صلوات الجمعة التي سبقت الانتخابات. وقد تحوّل اثنان من المسؤولين الأوائل عن ولائهما المعروف للحزب الديموقراطي، حين دعما هذا القرار، وهما سعيد من اتحاد الأميركيين المسلمين، والمرايطي من مجلس الشؤون العامة الإسلامية.

وبعد ثلاثة أيام من إعلان التأييد، عمد بوش الى التوسع بآرائه في فتح الملفات، وذلك في شريط فيديو زُوّد باشا به. وقال فيه بوش "إن المسافرين بالطائرة قد تعرّضوا للمضايقة والتأخير لمجرد انتمائهم الإثني. مثل هذا الاستخدام العشوائي لملفات الركاب عمل خاطئ، ويجب أن يتوقف. وبالطبع،

---

(١) AMC release, 10-26-2000.

فإن الأولوية المطلقة يجب أن تكون لأمن بلدنا وشعبنا، إلا أن هذا لا يبرّر أي تجاهل للعدالة والكرامة والحقوق المدنية"[١].

ما إن أعلن زعماء المسلمين تأييدهم لبوش، حتى أقدمت هيلاري رودهام كلينتون، زوجة الرئيس كلينتون، على إهانة المسلمين، بإعادتها ألف دولار إلى عبد الرحمن العمودي من مجلس المسلمين الأميركيين، وخمسين ألف دولار كان أعضاء في اتحاد المسلمين الأميركيين قد تبرّعوا بها لحملتها الانتخابية قبل ثلاثة أشهر. وقد أعلنت كلينتون عن إعادة المبلغين في ٢٦ تشرين الأول (أكتوبر)، بعد ثلاثة أيام على إعلان مجلس التنسيق السياسي للمسلمين الأميركيين دعمه لبوش.

ومن الواضح أن كلينتون كانت تخشى ردة فعل معاكسة، من العدد الكبير من سكان نيويورك اليهود، والمؤيدين لإسرائيل، ولهذا أعلنت تقول: " إنني أعارض بقوة مواقف هذه الجماعة [اتّحاد الأميركيين المسلمين]. إنّ كل قرش من [الخمسين ألف دولار سيُعاد]. واتّهمت المتبرّعين المسلمين أنهم أدلوا بتصريحات "معادية ومشينة". وقالت إن رئيس الاتحاد، آغا سعيد، يؤيد لجوء الفلسطينيين الى "المقاومة المسلحة" ضد إسرائيل. وقد تلقّت تصفيقاً فوريّاً من المنظمات اليهودية، لقرارها إعادة التبرّعات، لكن سعيد احتج: "أنا موال للفلسطينيين، لكنّني مستعد في نفس الوقت للتوصل إلى تسوية معقولة مع الإسرائيليين. وقد قلت أيضا إنني أدعم العملية السلمية، وبأن الصراع [في الشرق الأوسط] سياسي وليس لاهوتيّاً. لكنّ أحداً لا يشير الى هذه الأمور."

وقال سلام المراياطي إن "شعوراً بغيضاً ساوره" لمّا قرأ عن قرار كلينتون. وأضاف: "إن الأمر يتكرر. لقد نجح آغا سعيد في توحيد أصوات المسملين، وفي تشكيل كتلة انتخابية للمرة الأولى. ولا عجب في أنه أصبح الآن مستهدفاً. إن هذا يحصل لأيّ واحد منا ينجح في إيجاد منفذ للمسلمين".

وكتب دين مورفي في النيويورك تايمز، يقول: "في وقت بدأ فيه مساعدو

(١) *New York Times*, 10-27-2000.

حملة السيدة كلينتون يعيدون نحو مِائة شكّ تلقّتها من أعضاء اتّحاد المسلمين الأميركيين، تذكّر المسلمون في أنحاء البلاد مدى الصعوبة التي لا تزال تواجههم، في سعيهم لشق طريقهم إلى المعترك السياسي الأميركي. وكيف يمكن لملاحظات خلافية، في شأن أجزاء أخرى من العالم، أن تخرج عملية القبول بالمسلمين الأميركيين، هنا، عن خطّها. وهم يؤكّدون، أيضا، أنّ وجهات النظر المتطرفة للمسلمين تحمل في طياتها، من الانعكاسات السلبيّة، على المسلمين الأميركيين، أكثر بكثير ممّا تحمل الملاحظات المتطرّفة المساندة لإسرائيل، من انعكاسات سلبية على اليهود الأميركيين"[١].

في النهاية، وفي تطوّر مفاجئ طرأ على الحملة الانتخابية، أيّد مسلمو نيويورك ترشيح كلينتون. فقد وجدوا في تكتيكات منافسها، النائب الجمهوري ريك لازيو، ما هو أكثر إهانةً من قرار كلينتون إعادة التبرعات [٢].

ففي إحدى المراحل، لجأ مؤيدو لازيو إلى حملة هاتفية مركّزة على اتهام كلينتون منظمات إسلامية أميركية أنها ترتبط بمجموعات تقف وراء تفجير المدمّرة الأميركية "كول" في اليمن، وهو الانفجار الذي أدى إلى مقتل ١٧ بحّاراً أميركيّاً. ووصف مراسل للواشنطن بوست الاتصالات الهاتفية بـ"الإباحية السياسية". وبعد انتظار دام أسبوعاً، نفى لازيو مسؤوليته عن الاتهامات، لكنّه وصف التبرّعات التي أعادتها كلينتون بأنها "أموال ملطّخة بالدماء". واتّهمها باستضافة مسلمين في المناسبات العامّة أو الاجتماعية في البيت الأبيض، وكأن في مثل هذه الضيافة شيئاً من الخطيئة [٣]. وبالرغم من قرار كلينتون إعادة الأموال، فإن المسلمين ساعدوها في إحراز فوز سهل بفارق ١٢ ٪، في يوم الانتخاب. وكان هذا السباق حملة العام الانتخابية غير الرئاسية، والتي جرت متابعتها، عن كثب، أكثر من أي حملة أخرى في الأمة.

---

(١) *USA Today*, 10-26-2000.

(٢) *Washington Post*, 10-30-2000.

(٣) CAIR release, 12-7-2000.

وقد أشار مدير مركز الحوار الإسلامي- المسيحي في جامعة جورجتاون، الدكتور جون اسبوسيتو، الى هذا الجدل، فقال إن "الأميركيين نشأوا في بلد يهودي - مسيحي ، في غالبيته. وتجربتهم مع الإسلام شبه معدومة، وبالتالي فإنهم يتصرّفون استناداً إلى الأنماط المقولبة".

وأعلن بيان صحافي لمجلس المسلمين الأميركيين "أن الانقلاب على المجموعات الإسلامية والعربية، واستخدامها كبش محرقة في زمن الانتخاب، أمر مناف للمبادئ الأميركية." وأضاف أنه من الظلم الإنكار على الأفراد المسلمين الأميركيين حقوقهم بالحماية، التي يكفلها البند الأول من الدستور، "بسبب وجهات نظر قد يعربون عنها كمواطنين في مجتمع حر".

ودانت منظمة يُطلق عليها اسم اليهود من أجل عدالة عرقية واقتصادية، الانحياز ضد المسلمين، في المنافسة الانتخابية في نيويورك، وفي إحدى الحملات الانتخابية في جورجيا. وفي إحدى مقاطعات الكونغرس، بمنطقة أتلانتا، حذا المرشح الجمهوري ساني وورن حذو لازيو، واتّهم منافسته النائبة الديموقراطية سينتيا ماكيني، بالحصول على "أموال ملطّخة بالدماء"، لمّا قبلت التبرعات من المسلمين. وقد ردّت ماكيني قائلةً بأن "التلميحات العرقية والاتّجار بالأحقاد لا مكان لهما في الحملات الانتخابية أو في أي محادثة محترمة". وبعدها، نجحت ماكيني في إعادة انتخابها، وفازت على وارن بفارق ٢٠ ٪ من الأصوات.

واستنتج مجلس العلاقات الأميركية الإسلامية "أن جميع المرشحين الذين انشغلوا بمهاجمة المسلمين، بعنف، في حملاتهم الانتخابية، مُنُوا بالهزيمة"[(١)].

ويستحق مسلمو فلوريدا الاعتراف بفضلهم في تمهيد الطريق إلى البيت الأبيض، أمام جورج و. بوش، بالرغم من عدم اعتراف وسائل الإعلام الرئيسية بالأمر. فقد كان هامشه، في الإحصاء الرسمي للأصوات على مستوى البلاد، هامشاً بلغ من الضيق أنه كان من الممكن إيراد أيّ قوة من القوى، وأيّ عامل

(١) CAIR Research, "American Muslims and the 2000 Elections", 12-18-2000.

من العوامل، كعناصر مهمة، إن لم تكن حاسمة، في فوزه. لكن تأثير تصويت المسلمين، ككتلة، كان، في تقديري، يتفوّق على ما عداه.

بدأ حاكم تكساس من نقطة متدنية، في ارتقائه الذي استغرق أحد عشر شهراً، حتى ظفر بالأغلبية المسلمة الساحقة. وقد أرّخت ارتقاءه سلسلة من الدراسات الاستطلاعية.

في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٩، عشيّة الانتخابات الأولية للعام ألفين، أظهر استطلاع للرأي، بتكليف من الدكتور محمد نمر، مدير الأبحاث في مجلس العلاقات الأميركية الإسلامية، شمل ٧٣٤ ناخباً مسلماً، أن ٢٥ ٪ منهم، فقط، يؤيّدون بوش. وأيد ١٥ ٪ الديموقراطي بيل برادلي، و١٥ ٪ وقفوا الى جانب نائب الرئيس آل غور. أما الباقون، فكانوا متردّدين[١].

ولمّا انسحب برادلي، كمرشح، بعد أربعة أشهر، تحوّل معظم التأييد الإسلامي إلى غور. وفي حزيران (يونيو) أظهر استطلاع، بتكليف من اتحاد المسلمين الأميركيين، شمل ٧٥٥ مسلماً، ان ٣٣ ٪ يؤيّدون غور، فيما سُجّل ارتفاع ضئيل في نسبة مؤيدي بوش، الذي حاز على ٢٨ ٪. وكان ربع من شملهم المسح، تقريباً، مترددين. وأعلن ٦٤ ٪ أنهم صوّتوا في الانتخابات العامة للعام ١٩٩٨، وقال ٩٠ ٪ إنهم ينوون التصويت في السابع من تشرين الثاني (نوفمبر)[٢]. وأظهر استطلاع أجرته، في نيسان (إبريل) عام ٢٠٠٠، مؤسسة "زغبي أنترناشيونال بول"، بتكليف من مجلس المسلمين الأميركيين، تنوّعاً سياسيّاً في وسط المجموعة الإسلامية، إذ إن ٤٦٪ منهم كانوا يميلون إلى الحزب الديموقراطي، و١٦ ٪ الى الحزب الجمهوري. وأظهر، أيضا، أن ٢٥٪ يعتبرون أنفسهم ليبراليين، و٢٩ ٪ محافظين. ومع حلول أواسط أيلول (سبتمبر) أظهر مسح آخر شمل ١٠٢٢ شخصاً يحق لهم التصويت، زيادة حادّة لمصلحة بوش، إذ أيد ٤٠ ٪ بوش، و٢٥ ٪ نادر، و٢٤ ٪ غور[٣]. ومع حلول تشرين الأول (أكتوبر) كانت التوجهات قد تغيرت.

---

(١) CAIR news release, 7-6-2000.

(٢) AMC release, 20-8-2000, *Washington Times*, 20-9-2000.

(٣) CAIR news release, 11-2-2000.

ففي الأسابيع الثمانية الأخيرة من الحملة، تضاعف، تقريباً، الدعم الإسلامي لبوش. وفي استطلاع أجراه مجلس العلاقات الأميركية الإسلامية، يوم الانتخاب، شمل ١٧٧٤ مسلماً أدلوا بأصواتهم، وهم عينة كبيرة تكفي لضمان الدقة المعقولة في التوقعات، كشف ٧٢ ٪ منهم أنهم صوتوا لبوش، و١٩ ٪ لنادر، وثمانية ٪ لغور. وقال ٣٨ ٪ إنهم يصوّتون للمرة الأولى، وهي نسبة متقاربة مع نسبة الـ ٤٢ ٪ التي ظهرت في نتائج استطلاع الناخبين الذي أجراه اتحاد المسلمين الأميركيين. وقد جاءت أجوبة الاستطلاع، الذي أجراه مجلس العلاقات الأميركية الإسلامية، من كل ولاية تقريباً: ٢٢ ٪ من كاليفورنيا و١٠٪ من فيرجينيا، و٨ ٪ من كل من إيلينوي وميريلاند، ونيويورك، و٧ ٪ من تكساس، و٦ ٪ من نيوجرسي. وكان ٦٩ ٪ من الذين شملهم الاستطلاع من الذكور، في حين أن ٦٨ ٪ منهم كانوا في سن التاسعة والثلاثين، وما دون[١].

ويؤكِّد أهمية الكتلة الانتخابية الإسلامية حجمُ هذه الكتلة ونقطة تركيزها. وإذا وافقنا على أن عدد السكان المسلمين كان يبلغ سبعة ملايين نسمة في يوم الانتخاب، وأن نسبة الذين يحق لهم الاقتراع ٧٠٪، ونسبة الذين يقترعون ٦٥٪، يكون العدد الإجمالي للمسلمين الذين أقبلوا على الاقتراع في يوم الانتخابات ٣٢ ملايين نسمة. ويكون مجمل عدد المسلمين الذين صوّتوا لبوش، ونسبتهم ٧٢٪، ٢,٣ مليون نسمة، وعدد الذين دعموا غور، ونسبتهم ٨٪، ٢٦٥ ألفاً. وقد مارس ٩٠٠ ألف مسلم حق الاقتراع للمرة الأولى، أي ما يزيد على ثلاثة أضعاف عدد المقترعين لنائب الرئيس. وقد أظهر استطلاع أجراه اتّحاد الأميركيين أن ٨٠٪، من المسلمين الذين اقترعوا، صوّتوا لبوش. أمّا الاستطلاع الذي أجراه مجلس المسلمين الأميركيين، وشمل ٧٣٢ ناخباً مسلماً، فأظهر أن ٦٨٪ منهم صوّتوا لبوش، وعشرة ٪ لغور، و١٨٪ لنادر.

وجاءت النسبة المئوية، المؤيّدة لبوش، في فلوريدا، موطن الكثيرين من زعماء اتحاد الأميركيين المسلمين ومجلس المسلمين الأميركيين، والولاية التي

(١) CAIR news release, 11-14-2000.

أثبتت أنها كانت محورية في النزاع الطويل حول مَن من المرشحين هو الفائز بالرئاسة. وليلة الانتخابات، أجرى الدكتور سامي العريان، أحد زعماء مجلس الأميركيين المسلمين، مسحاً بواسطة الهاتف شمل ٣٥٠ مقترعاً مسلماً من فلوريدا، فتبين أن بوش حصل على ٩١٪ من الأصوات، ونادر على ثمانية ٪ وغور على واحد ٪. وحتى بعد أن نُدخل في حسابنا النطاق المحدود لهذا المسح، فإنّ نتائجه تبقى دليلاً لافتاً، على تيّار إسلامي قوي مؤيّد لبوش.

إذا اعتمدنا الفرضيات المستخدمة في التحليل، على المستوى الوطني، ووافقنا على أن عدد السكان المسلمين في الولاية هو مئتا ألف نسمة، نجد أن ١٤٠ ألفاً من مسلمي فلوريدا يحق لهم التصويت، وأن ٩١ ألفا منهم صوّتوا بالفعل. فإذا صوّت لبوش ثمانون ٪ منهم، وهذه نسبة حذرة، فهذا يعني أنه سيحصل على ٧٢ ألف صوت مسلم. وإذا صوّت لغور ثمانية ٪، وهذه نسبة سخيّة، فإن مجموع الأصوات التي سينالها يصل إلى سبعة آلاف و٢٣٨ صوتاً. وبالاستناد إلى تقرير مجلس العلاقات الأميركية الإسلامية بأن ٣٨ ٪ من الناخبين المسلمين صوّتوا للمرة الأولى، فإن بوش يكون قد حصل على ٢٦ ألفا و٦٠٠ صوتاً من الناخبين المسلمين الذين يقترعون للمرة الأولى. وقد لاحظ العريان أن "الخبراء السياسيين كانوا بطيئين في الاعتراف بالدور المهم، بل الحاسم، لأصوات المسلمين في فلوريدا"[١].

كان المسلمون، عموماً، خلال حملة الانتخابات الرئاسية، موضع تجاهل من المرشح الديموقراطي، نائب الرئيس آل غور وحلفائه. وبالرغم من إقبالهم شبه الإجماعي على الاقتراع لمصلحة بوش، فقد تلقّوا اهتماماً ضئيلاً نسبيّاً، خلال مسعى حاكم تكساس لالتماس أصوات الناخبين.

فقد أدلى بوش بتصريح تلفزيوني واحد أثار المسلمين، لكن أصداءه ترددت في أنحاء المجتمع الإسلامي. ففي خلال مناظرة رئاسية مع غور، قبل ثلاثة أسابيع من الانتخابات، انتقد بوش الحكومة بحدة لاستخدامها الأدلة السرّية في

(١) CAIR news release, 11-17-2000.

جلسات الاستماع الخاصة بترحيل المهاجرين. وندّد بالأدلة السرية باعتبارها مخالفة لـ"النهج الأميركي"، وأعلن أنه "علينا أن نفعل شيئاً حيالها". وينظر المسلمون إلى الأدلة السرية المثيرة للجدل، بوصفها مسألة رئيسية، واعتبروا تصريح بوش بمثابة وعد بإجراءات تصحيحية إذا انتخب رئيساً. ويعتقد معظم المسلمين بأنهم الهدف الرئيسي للأدلة السرية[١].

لعلّ تعليق بوش كان كافيا لحث مسلمي فلوريدا على التوجه إلى صناديق الاقتراع، للمرة الأولى، والإدلاء بأصواتهم لحاكم تكساس. وذكر رئيس مجلس الأميركيين المسلمين يحيى باشا تصريح بوش على أنه "أحد التصريحات الأشدّ إشراقا في هذه الانتخابات وهذه الحملة". وقال للأسوشيتدبرس: "من الواضح أن بوش لاحظ" ضغط الجماعات الإسلامية العربية-الأميركية في هذه المسألة. وأضاف أن "إدارة كلينتون تكلمت في الموضوع لكنها لم تفعل شيئاً على الإطلاق"[٢].

ولعلّ الجدل حول الأدلة السرية يفسّر أن التأييد، الذي حصل عليه بوش في صفوف مسلمي فلوريدا، قد جاوز المعدل الوطني. وقد كان هذا الجدل مشتعلاً، ويحظى باهتمام كبير في وسط المسلمين في أنحاء البلاد، وذلك قبل وقت طويل من موعد الانتخابات. ولكن ليس بالحدة نفسها التي كان مطروحاً بها في ولاية فلوريدا. وكان السبب في هذا التركيز مأزق الدكتور مازن النجار، وهو فلسطيني مسلم من الهيئة التعليمية لجامعة فلوريدا الجنوبية، اعتقل لثلاث سنوات ونصف السنة في سجن برادنتون. وقد اتهم بحيازة تأشيرة طالبية منتهية، واحتجز من دون كفالة، فيما كان يقاوم عملية ترحيله. وفي جلسات الاستماع أمام إحدى محاكم الهجرة الأميركية، قدِّمت أدلة لم يسمح له بالاطلاع عليها، كافية لإقناع القاضي بأنه مذنب بتهمة دعم منظمات إرهابية في الشرق الأوسط. وقد نفى النجار تلك المزاعم، واحتجّ محاموه بأن اعتماد سياسة السرية تمنعه فعليّاً، من الحصول على محاكمة قانونية.

---

(١) CAIR news release, 11-17-2000.

(٢) *St. Petersburg Times*, 10-24-2000.

وأمّنت وسائل الإعلام في فلوريدا تغطية بارزة للمعارك في المحكمة، والاحتجاجات العامة، بالإضافة إلى مبادرات الإفراج عن النجار، التي اتُخذت في الكونغرس. وثابر ائتلاف خليج تامبا للعدالة والسلام، وهو مجموعة نظّمها ويرأسها العريان، على إصدار سيل من الدعايات في فلوريدا تضمّن أكثر من مئة مقالة خاصة، وأكثر من خمسين افتتاحية وتعليقاً، كانت كلها تستنكر استخدام الأدلة السرية. وأعلنت صحيفة سانت بيترسبرغ تايمز أن "الأدلة السرية هي في الأساس غير عادلة". رحذّرت من أن "قضية النجار تقول لنا الكثير عن التزام أمتنا مبادئ العدالة، وما تقوله لا يدعو إلى الافتخار"(١). وفي تشرين الأول (أكتوبر)، قام القاضي، الذي أمر بسجن النجار، بإعادة النظر في قراره.

وقد أطلق سراح النجار بكفالة بلغت ثمانية آلاف دولار في السادس عشر من كانون الأول (ديسمبر)، بعد اعتقال دام ١٣٠٦ أيام. وأثنت مجموعة العريان على اتحاد الأميركيين المسلمين، والبروفسور ديفيد كول، والاتحاد الأميركي للحريات المدنية، والنائبين الجمهوري توم كامبل عن ولاية كاليفورنيا، والديموقراطي ديفيد بونيور عن ولاية متشيغان، لدعمهم مساعيها. وحيّت المجموعة بونيور على أنه "ضمير أميركا عن حق" (٢). وقبل ثلاثة أيام، كان مجلس الأميركيين المسلمين، الذي أدّى دوراً بارزاً في تأمين إطلاق النجار، يحتفل بإطلاق سراح الدكتور أنور هدّام، وهو مسلم سجن أربع سنوات من دون توجيه اتهامات له، في مركز الاعتقال في ستافورد فيرجينيا، على أساس الأدلة السرية. ونسب المدير التنفيذي لمجلس الأميركيين المسلمين علي أبو زقزوق الفضل في إطلاق هدام إلى "الجهود المؤازرة لقواعد جماعتنا"(٣).

كان المسلمون العامل السياسي الرئيسي الجديد في فلوريدا، التي حسمت أصواتها الانتخابية الخمسة والعشرين في النهاية، نتيجةً واحدة كانت من أطول

---

(١) *St. Petersburg Times editiorial*, 11-21-2000.

(٢) AMA news release, 12-12-2000.

(٣) AMC release, 12-13-2000.

السباقات الرئاسية في التاريخ. وفي التصديق النهائي، فاز حاكم تكساس بفلوريدا، ففاز بالرئاسة، بأقل من ألف صوت. فقد استفاد بوش بإحرازه هذا الهامش الضيق، استفادة كبيرة من تصويت المسلمين ككتلة انتخابية. فمسلمو فلوريدا أمّنوا له هامشاً صافياً فاق الستين ألف صوت، أي ما يساوي هامش فوزه ستين ضعفاً.

ولو لم يصوت المسلمون، ككتلة واحدة، لبوش، لما كان هناك طعن بنتائج ولاية فلوريدا. وفي ضوء الميل الإسلامي الطبيعي إلى المرشحين الديموقراطيين، فإن غور، في نظري، كان سيحقق فوزاً واضحاً على عدد من أصوات المسلمين يساوي تقريباً ما حصل عليه بوش، وكان سيحقق فوزاً واضحا بعد إقفال صناديق الاقتراع بقليل. لو لم يصوِّت المسلمون لبوش، لما كان هناك جدال حول القوانين والإجراءات الانتخابية في فلوريدا، وجلسات الاستماع والأحكام في محاكم الولايات والمحاكم الفيدرالية، ومشاهد إعادة إحصاء الأصوات. ولكانت كلمة تشاد (أي ذات الغمّازة، الحبلى وخلافهما) كلمة تشير إلى اسم بلد صغير، لا يعرف عنه إلا قلة من الناس.

لم يكن نجاح تصويت المسلمين، ككتلة، مصادفة مفاجئة. لقد نتج هذا النجاح عن العمل المضني لعدة تنظيمات وأفراد ساهموا، على مر السنين، في المناقشات حول أهمية الاقتراع الإسلامي، بالإضافة إلى أولئك الذين اشتركوا في تعبئة الناخبين خلال حملة انتخابات عام الألفين. فمنذ تأسيسه في العام ١٩٩٠، جعل مجلس المسلمين الأميركيين من تسجيل الناخبين ومشاركة المسلمين في السياسة هدفه الأوحد. وقد عمد خلال حملة انتخابات العام ١٩٩٦ الى نشر دليل خاص للناخبين المسلمين. ولكن لائحة الأشخاص والمنظمات المذكورة في هذا الفصل لم تكن شاملة. فأنا متأكد من أن هناك الآلاف من الأفراد المسلمين الذين لم نأت على ذكرهم من قبل، وعشرات المنظمات التي كانت مساهماتها بأهمية مساهمات من أتينا على ذكرهم.

إن البروفسور سليمان س. نيانغ، الخبير في السلوك السياسي الإسلامي، يعتبر الانتخاب، ككتلةٍ واحدة، "نتيجةً عملية طويلة لرفع مستوى الوعي بين

المسلمين." ويضيف هذا البروفسور قائلاً: "للحصول على مثل هذا العدد من الناخبين في فلوريدا وغيرها، كان على كل المنظمات الوطنية الرئيسية أن تستثير كثيراً من الناخبين المترددين لدفعهم الى التحرك. وهؤلاء أفراد من جماعتنا غير مسيّسين، لأسباب مختلفة. فالبعض منهم يواصل تقليداً، من اللامبالاة وعدم الاكتراث السياسي، حمله من مجتمعات شرق أوسطية، حيث الاستبداد العسكري، أو المدني، أو الملكي جعله ينفر من السياسة. أما البعض الآخر، فلا يزال عالقاً في شباك "أسطورة العودة". فهؤلاء المسلمون، المنشغلون بفكرة أن يصبحوا أغنياء، مصمّمون على العودة إلى الديار محمّلين بالذهب، ينظرون إلى أميركا على أنها الأرض الخصبة للإثراء الذاتي. والنشاط السياسي، في رأيهم، مجرد أمر مزعج".

وفي العام ٢٠٠٠، لم يرفض الأفارقة ـ الأميركيون العملية الانتخابية، بوصفها أمراً مزعجاً، فقد صوتوا بالنسبة نفسها التي صوت بها الأميركيون الآخرون، لكن معظم المسلمين، كأفارقة ـ أميركيين آخرين، قد صوتوا لنائب الرئيس اتّباعاً لتقليد طويل الأمد، بمنح دعم قوي للمرشحين الديموقراطيين للرئاسة، وهو تقليد بدأ مع انتخاب فرانكلين روزفلت في ١٩٣٢. و قد فعلوا ذلك بالرغم من الدعم الذي حصل عليه بوش من الأفارقة ـ الأميركيين خلال سنواته، كحاكم لتكساس، وبالرغم من شبه اليقين بأنه سيعين كولن باول، الإفريقي - الأميركي، وزيراً للخارجية، وغيره من الأفارقة ـ الأميركيين في مناصب عليا في إدارته، وبالرغم من بروز الإفريقي - الأميركي إريك فيكرز، عضو المجلس الوطني في اتحاد الأميركيين المسلمين، وهو محام في الحقوق المدنية، في حملة المسلمين لصالح بوش.

ونلاحظ، في الوقت نفسه، أن المسلمين الأفارقة ـ الأميركيين الذين اختاروا دعم غور، تحاشوا إحداث شرخ علني في علاقاتهم بالقوى الموالية لبوش. فقبل أسبوعين من الانتخابات الرئاسية، انضم علي خان، زعيم المجلس من أجل حكم صالح [CGG] إلى زميلة له، هي عائشة مصطفى، في تقديم النصيحة التالية إلى الأفارقة ـ الأميركيين المسلمين. قال: "في الوقت الذي

تشجع فيه الجمعية المسلمة الأميركية، و"المجلس من أجل حكم صالح "الجميع للخروج والتصويت يوم الثلاثاء السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٠، بوصفه حقكم وواجبكم، فإن المقارنة بين المرشحين لاختيار الأفضل تعود لكم، في وقت تتكشّف فيه الأحداث المحلية والدولية المتلاحقة بلا انقطاع"[١]. وترتبط منظمة خان ارتباطاً وثيقاً بالجمعية المسلمة الأميركية، وهي منظمة إفريقية - أميركية ذات مقام رفيع، يتزعمها الإمام و. دين محمد.

وتجدر الإشارة إلى أن ذلك التصريح شجّع الأفارقة ـ الأميركيين على اعتماد اجتهادهم الخاص. ولم يوجّه خان نداء للتصويت، ككتلة واحدة، لغور، بالرغم من أنه أعلن مداورةً دعمه لنائب الرئيس. وكما لاحظ سعيد، فيما بعد، "فإنه ترك الباب مفتوحاً أمام المسلمين الأفارقة ـ الأميركيين للتعبير عن اهتمامهم وحساسيتهم حيال فلسطين، وغيرها من القضايا الدولية ذات الصلة بهذا الموضوع، وذلك من خلال التصويت لبوش." ويجب أن نفهم لهجة خان المتحفظة بأنها بادرة مودة لافتة، تجاه مجلس التنسيق السياسي للمسلمين الأميركيين.

كان إقبال المسلمين الأفارقة ـ الأميركيين على الاقتراع يوم الانتخابات، إقبالاً كبيراً. فعددهم الإجمالي يبلغ ١٧٥٠٠٠٠ نسمة؛ منهم ١٢٢٠٠٠٠ نسمة في سن الاقتراع. وتشير التحليلات إلى أن ٥٠ ٪ منهم، أو ٦١٢٥٠٠ نسمة، صوتوا بالفعل. ويعتقد المراقبون أن نحو ١٥ ٪، أي ما مجموعه ٩١٨٠٠ نسمة، صوّتوا لبوش، أي ما يقارب ضعف نسبة الثمانية ٪ التي حصل عليها بوش من الأفارقة ـ الأميركيين عموماً. ومن المحتمل أن يكون بعض المسلمين الأفارقة ـ الأميركيين قد اختاروا الامتناع عن التصويت، وفضلوه على شق الصفوف مع مجلس التنسيق السياسي للمسلمين الأميركيين، أو مع السود الآخرين.

ويعتقد نيانغ أن المسلمين الأفارقة ـ الأميركيين الذين صوتوا لبوش كانوا

---

(١) Muslim Journal, 26,no. 5 (11-10-2000)

في الغالب "أولئك الذين اندمجوا بنجاح داخل الجماعات المهاجرة، أو من المستفيدين من تلك الميول في المبادئ الأخلاقية المتزمّتة لـ"أمة الإسلام" وللإسلامية الوطنية للإمام و. دين محمد، التي تثمّن القيم البورجوازية"[١].

ويعكف، الآن، قادة مجلس التنسيق السياسي للمسلمين الأميركيين، بعد أن أدركوا الأهميّة السياسية للمسلمين الأفارقة ـ الأميركيين، على وضع الترتيبات، للتشاور والتنسيق المستمر مع المجلس من أجل حكم صالح. وهم يخططون للعمل مع المسلمين الأفارقة ـ الأميركيين عند القيام بأي مساع سياسية وحزبية في المستقبل[٢].

في السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ٢٠٠٠، أدى تصويت الأميركيين المسلمين، كتلةً واحدة، إلى إحداث تعديل رئيسي في المشهد السياسي الأميركي. وإذ يقوم الزعماء السياسيون بدراسة نتائج يوم الانتخابات، سيكون لهم إدراك جديد للجماعة المسلمة الأميركية، وسيجرون، بموجبه، تغييرات مهمة في تكتيكاتهم في الحملات الانتخابية المقبلة، لشغل معظم المناصب العامة، وليس فقط منصب الرئاسة.

وفي خلال تلك السنة، ترشّح أكثر من سبعمائة مسلم، جمهوريين وديموقراطيين، لمناصب تراوح بين مندوبي مؤتمرات وأعضاء في لجان الدوائر الانتخابية إلى عضوية الهيئات التشريعية في الولايات والكونغرس. وقد فاز منهم ١٥٢ مرشحاً[٣].

وقد يكون المد الإسلامي أكبر في الحملات الانتخابية المقبلة إذا راعينا نسبة المواليد عند المسلمين التي تفوق المعدّل، والحماسة التي ستنشأ عن

---

(١) Interviews with Agha Saeed, Sulayman Nyang, and Eric Vickers, 12-26-2000.

(٢) Interview with Agha Saeed, 12-26-2000.

(٣) Interview with Agha Saeed, 12-1-2000.

حالات النجاح التي حققوها في العام ألفين، واحتمال أن يكون الأفارقة ـ الأميركيون ذَوِي شأن أكبر.

كتب عنايت لالاني: "في الماضي عندما كان المسلمون يسألون عن الساعة، كان الديموقراطيون يتهرَّبون من الجواب بمجرد أن يعلموا انتماءنا الديني. أما الجمهوريون فكانوا يتوقّفون ويقولون لنا كم الساعة، ثم يهربون. وبالنتيجة، وبالرغم من أن غرائزنا الطبيعية، كمهاجرين محرومين، تفضّل الديموقراطيين، فإنّنا كنّا نشمخ بأنوفنا، ونصوّت في الغالب للجمهوريين. وأعتقد أنه، على أثر نجاح تصويت المسلمين، ككتلة، ستتبدل الأمور بسرعة"[(١)].

ومن المستبعد، في الحملات السياسية الرئيسية المُقبلة، أن يكون المسلمون وأموالهم موضع رفض، أو أن تكون ترشيحات المسلمين موضع استخفاف. وسيعمد معظم زعماء الأحزاب، في تحوّل دراماتيكي عن الماضي القريب، الى التنافس بشراسة على "الصوت الإسلامي". وسيسعى كل متنافس جدّي على منصب رئيسي لا لإلغاء مقابلة مع زعماء مسلمين، بل لإجرائها والفوز بها. ومن المحتمل أن يتصدّر اللائحة، التي يضعها ألبرت غور عن أخطاء حملته الرئاسية، إغفاله تحديد موعد آخر، يستعيض به عن موعده المُلغى مع زعماء مجلس التنسيق السياسي للأميركيين المسلمين.

وفي الحملة الانتخابية الرئاسية، واجه المسلمون كل الامتحانات التي حددها ريتشارد كورتيس، لمّا أطلق نداءه من أجل التصويت، ككتلة واحدة؛ فقد توجّهوا إلى الصناديق وصوّتوا، وأعلنوا لمن صوّتوا. ولعل هذه الإنجازات لن تثمر، فورا، في السياسة الأميركية الجديدة المتوازنة في الشرق الأوسط وجنوب آسيا التي توقّعها كورتيس، لكنّها بالتأكيد خطوة كبرى في هذا الاتجاه.

ولقد أعلن آغا سعيد، بعد تحليل التصويت الإسلامي: "أن المسلمين، في انتخابات هذه السنة، اتّخذوا قراراً سياسيّاً خطيراً لا سبيل إلى التراجع عنه. فقد

(١) E-mail, 12-22-2000.

شكّلوا ائتلافاً وطنياً جديداً للناخبين". وهو على ثقة بأن المسلمين سيحقّقون هدفاً مهمّاً آخر في المستقبل القريب: "إن انتخاب مسلم للكونغرس ستكون له أهمية تاريخية، ليس للإسلام، فحسب، بل لكل أميركا. لأن ذلك سيساعد، فوراً، على محو الصور النمطية المقولبة، في وسط جميع أعضاء الكونغرس، وخارج الكونغرس، وسيصبح الشخص المنتخب مثالاً يحتذي به جميع الشبان المسلمين الذين يفكّرون باحتراف السياسة"[1].

واستناداً إلى تجربتي في الكونغرس، فأنا أوافق سعيد على تقويمه وتوقّعاته. فلا شيء يحسّن الأفكار والمواقف الراسخة في الكونغرس أفضل من الزمالة والمعرفة الشخصية المباشرة. ووصول مسلم أو اثنين إلى داخل دائرة الكونغرس سيؤدي، بشكل أساسي ودائم، إلى اضمحلال الصور النمطية المقولبة، التي هي الآن من واقع الحياة في مبنى الكابيتول.

لقد قاد سعيد، وزملاؤه، المسلمين إلى إنجازات مهمة. فالدعاية الناتجة عن التصويت، ككتلة واحدة، وعن الأنشطة السياسية الأخرى ذات الصلة، ستحسّن وعي العامة لحجم الجماعة الإسلامية وخلقها الطيّب.

وسيدهش معظم الأميركيين عندما يعلمون بوجود كتلة انتخابية جديدة من ٣.٢ مليون مسلم، وسيتملّكهم الإعجاب عندما يعلمون أن جميع الزعماء الأساسيين للمجموعات الإسلامية الأربع الذين نظموا انتخابات الكتلة هم مواطنون من أصل أجنبي، وحائزون ويحوزون شهادات جامعية. وقد باشروا العمل جميعاً بكرامة ورويّة واحتراف، وباشروه كذلك بتصميم نشيط. ويحمل أربعة منهم، سعيد من اتحاد المسلمين الأميركيين، وحتحوت من مجلس الشؤون العامة الإسلامية، وباشا من مجلس الأميركيين المسلمين، ومحمد نمر من مجلس العلاقات الأميركية الإسلامية، شهادات دكتوراه، ولا يبدو أن أحداً منهم يميل إلى النوم على أمجاده السابقة.

---

(١) AMA news release, 11-17-2000.

وفي ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر)، أي بعد أسبوعين على حسم السباق الرئاسي، دعا آغا سعيد المسلمين إلى التجمع في نيوارك، كاليفورنيا لمراجعة الحملة التي انتهت لتوّها، ووضع الخطط لتلك التي ستحصل في عامي ٢٠٠٢ و٢٠٠٤. وجاء في دعوته: "انضمّوا إلينا إذا كنتم تريدون المساعدة على إيصال مسلم إلى الكونغرس في الانتخابات المقبلة." وقد حضر ٣٤ زعيماً من زعماء الجماعات الإسلامية، وشكّلوا اللجان، ووضعوا جدول الأعمال للدورة الانتخابية التالية.



الفصل الثالث عشر

المضّي في التحدي

في الوقتِ الذي يطبعُ فيه الأميركيون في الأذهانِ تصوّراتٍ خاطئةٍ عن الإسلام، لا بدّ لنا من الإقرار بأن تاريخَ معتنقي الديانات التوحيديّة الثلاث تاريخٌ مَعِيب بشوائب انعدام التسامح الديني. والواقع أنه ما من امرئ تخلو ثيابه من العيوب، ولعل ثياب المسلم، بحسب المؤرخين، أقل الثياب لُطخاً وعيوباً.

وبالكلام على زعماءِ الدياناتِ الثلاث، القائلةِ بوحدانية الله، نلاحظ أن معاملتهم لغير المؤمنين، على مرِّ العصورِ، قد جاءت بالغةَ الوحشية، وكانت انتهاكاً فاضحاً لمعتقداتِهم ومبادئهم الدينية. فما نشَرهُ الزعماءُ المسيحيون من أفكار منمّطةٍ، على سبيل المثال، أدى إلى تعرُّض المسلمين إلى مذابحَ في القدسِ أيامَ الحروب الصليبية، فضلاً عما قاساهُ العديد من المسلمين واليهود من عملياتِ إعدامٍ وحشيةٍ، في عهد محاكم التفتيش في إسبانيا و فرنسا.

أما أميركا، فسجلّها متنوع: في إحدى الصفحات نجد تلك المثالية المندرجة في وثائق أمتنا الأساسية، والتي قالَ بها العديدُ من قادةِ الولايات المتحدة على مر السنين؛ وفي صفحةٍ أخرى نجد سجل أمتنا الرائع ملاذاً للشعوب الهاربة من الحروب الدينية؛ في حين يُلطّخُ التعصبُ الديني بعض الصفحات الأخرى.

فمنذ سنوات طويلة، كان الهنود الأصليون موضعَ ازدراء كوثنيين وينبغي ذبحهم لدرء خطرهم. وقد ذُبحوا بالفعل ولكن على أيدي المسيحيين خاصةً. وما تتّصف به أميركا اليوم هو الوصمةُ التي تحملُها باعتبارها واحدة من البلدان

القليلة الواقعة في نصف الكرة الغربي، التي أقدم مستوطنوها القادمون من الخارج، على الإبادة المتعمدة لسكان البلاد الأصليين.

وعلى مدى ما يقاربُ القرون الثلاثة، كان سكان الولايات المتحدة، وغالبيتهم من المسيحيين، يقتنون الأفارقة الأميركيين، والكثيرون منهم من المسلمين، كملكيّةٍ خاصة ويعاملونهم معاملةً دنيئة، ويدأبون على حرمانهم من فرصة ممارسة ديانتهم. ولكن ما حصل منذ أكثرِ من قرنٍ، أن تعديلاً أُجري على الدستور أُنهيت بموجبه العبودية. وعلى الرغم من ذلك، ظلّ الأفارقةُ الأميركيون، على مدى العقود اللاحقة يتعرّضون للإرهاب و القتل على أيدي عصابات من الرعاع. وبلغ مجموع ضحايا الإعدام من دون محاكمة زهاء ١٠٠ ٠٠٠. وطوال عدة أجيال، كان أدعياء المسيحية، ومنهم المنخرطون في أعمالِ القتل والنهب تحت لواء جمعية "كو كلاوكس كلان" ، كانوا يعزلون سلالة العبيد عن باقي المواطنين، وينكرون عليهم حقوقهم بالتصويت والإسكان والتوظيف والتعليم والخدمات العامة.

وفي بداية حياتي العملية في الكونغرس، استمعت إلى النائب الديموقراطي وليام داوسون، وهو أول إفريقي أميركي يتولى رئاسةَ لجنةٍ في مجلس النواب، يُعربُ لزميل أبيض عما يُقاسيه شعبه، قائلاً: " إن كنتَ تعتقدُ بأن لديك مشاكل، فيكفي أن تتصوّر ما ستكونُ عليه حياتُك لو كنت أسود"[١].

حتى في يومنا هذا ، لا تزالُ غالبيةُ مجتمع البيض ترفض الإقرار الكامل بالأفارقة الأميركيين، كأناس متساوين معهم أمام الله وأمام القانون. كما لا يزال بعضُ النمطيّين يعزلون السود عنصريّاً، ويُنكرون حقّهم بالفرص والكرامة، على الرغم من المساعي الشجاعة لـروزا باركس ومالكوم إكس ومارتين لوثر كينغ جونيور وغيرهم.

إلى جانب الأفارقة الأميركيين، عانى الصُّوَرَ المضلّلة كثير من المجموعات الإثنية والدينية أيضاً. ففي النصف الأول من القرن التاسع عشر، فرّ أفراد طائفة

(١) U.S. Rep. John Kyl conversation, 6-10-1962.

المورمون إلى ولاية يوتاه، هرباً من عصابات الرعاع التي أثارت غضبها الجامح الأفكارُ الدينيةُ المنمّطة. كذلك عانى الإيرلنديّون الكاثوليك، ولسنوات طويلة، التمييزَ في التوظيف. ففي القرن التاسع عشر، مثلاً، كان حزب "الجهل التام" يرمز إلى المشاعر المعادية للكاثوليكية.

ثم ظلّت اتفاقيات "الجنتلمان" تحول دون حصولِ اليهود والأفارقة الأميركيين على حق الإسكان والفرص الاجتماعية، حتى ألغى التشريع الفيدرالي هذا التمييز خلال الستينات. ولم يكتمل، حتى الآن، اجتثاث الأفكار المنمّطة عن المتحدّرين من أصل إسباني. وظل الأمر كذلك حتى بعد مرور زمن طويل على حملة سيزار شافيز دفاعاً عن حقوق العمال الزراعيين في الولايات المتحدة، وحقوق العمال المهاجرين المكسيكيين إليها.

أما خلال الحرب العالمية الثانية، وانسجاماً مع التقليد المتّبع زمن الحرب، فقد جعلنا من أعدائنا نماذج منمّطة في صور كاريكاتورية شيطانية. وكان بعضهم شيطانياً بالفعل: ففي أحد أسوأ فصول التاريخ البشري استخدم قادةُ ألمانيا النازية المعادين للمسيحية الأفكار العنصرية والدينية المنمّطة لتبرير قتلهم اليهود بالجملة، وبلا تمييز.

وطَوَال اندلاع الصراع العربي الإسرائيلي، الدموي والعنيف، الذي بدأ مع قيام إسرائيل في العام ١٩٤٨، نجد المتنازعين يقولب بعضهم لبعض الصور المنمّطة. فاليهود موضع شجب كعنصريين، لقسوة التمييز الذي يمارسونه ضد الفلسطينيين المسلمين بغالبيّتهم. والفلسطينيون، من جهة أخرى، موضع شجب كإرهابيين لا يستحقّون أن يكونوا مواطنين من الدرجة الأولى. ونرى اليوم بعض اليهود الذين اضُطهدوا في ظل النازية، يؤدون دور المضطهِدين في الصراع العربي الإسرائيلي. وعلى امتداد خمسين عاماً، وبمساعدات ضخمة من حكومة الولايات المتحدة، ظلّ اليهود، العلمانيون والمتديّنون، وما زالوا، يخضعون الشعب الفلسطيني بمسلميه ومسيحيّيه لسلطتهم، ويجردونه من ممتلكاته، ويعاملونه بوحشيّة، ويقولبونه في أشكال منمّطة، مستخدمينَ قوتهم العسكرية الجبّارة لهذه الغاية. والدعم الذي تقدمه الولايات المتحدة،

والمكرّس، في هذه الحالة، للتسامح الديني كما يزعمون، كان، في الحقيقة، دعماً لهذه السياسات المتعصّبة.

وخلال السنين المنصرمة ، مارس الحكّامُ المسلمون، في بعض الأزمنة، التنميط الديني القاسي على نطاق واسع. في هذا الصدد، يكتب عنايت لالاني، يقول: "لقد تعرّضت الأقليّات الدينية لموجات من التعصّب الديني في ظل الحكم الإسلامي في أكثر البلدان وأكثر العصور. وكذلك كانت الحال حتى مع الأكثريات المغلوبة. ومن المؤسف: أن كثيراً من المسلمين سيحاولون إنكار هذا السلوك بشدّة، أو تبريره بطريقةٍ مّا. والواقع، أن العديد من الحكّام المسلمين قد عاملوا رعاياهم أو خصومهم من غير المسلمين بوحشية قصوى.

"ويتبادر إلى الذهن، في هذا السياق، الخليفة المنصور في بلاد الأندلس في القرن الحادي عشر، والإمبراطور المغولي أورانغزيب في الهند في القرن السابع عشر. ويضاهيهما كذلك تيمورلنك في نهبِه مدينة دلهي وتدميرها في العام ١٣٩٨، وقتله مِائة ألف من سكانها معظمهم من الهندوس، بحجّة أن حكامَ سلطنة دلهي المسلمين كانوا يعاملون الهندوس الوثنيين برِفقٍ وليونة أكثر مما ينبغي، مع أن معاملتَهم لم تكن كثيرة الليونة! حتى اننا لا نجد في سلوك سليمان القانوني أثناء انسحابه نحو اسطنبول، بعد فشل حصاره لفيينّا، ما يثير الإعجاب؛ فقد استعبدَ مِائة ألف فتى خلال الانسحاب. وينقبضُ قلبُ المرء اشمئزازاً عند قراءة ما كُتب في أعمال قتل الأخ لأخيه التي اتّسمت بها الصراعات على الخلافة، في الهند المغوليّة، وفي تركيا العثمانيّة.

"وفي الوقت عينه، أشار المؤرّخون، في سياق كتاباتهم، بملاحظات اعتراضيّة، مثيرة للإعجاب، إلى أنّ الحكام المسلمين كانوا، في معرض المقارنة، أكثر تنوراً في سلوكهم، إذْ منحوا رعاياهم من غير المسلمين حماية من التمييز والاضطهاد كانت أكبر من الحماية التي منحها الفاتحون المسيحيون حتى بداية عصر التنوير.

"فالحكام المسلمون لم يمارسوا، من الاضطهاد الديني، في أي وقت من

الأوقات، ما يقارب المعاناة المريعة لسكرة الموت، التي قاساها غير المؤمنين، حرقاً على الخازوق، أو سلقاً في قدور من الزيت، في عهد محاكم التفتيش المسيحية؛ ولا ارتكب الحكام المسلمون ما يشبه المجازر الجماعية التي ارتكبها الصليبيون المسيحيون بحق المسلمين. ولم تشهد عهود الإسلام أيّ سلطة إسلامية دينية تنظرُ في إيمان المرء وتُمحِّصُ في التفاصيل التافهة، كما تجرأت على فعله محاكم التفتيش المسيحية . ولم يُصدر الحكّام المسلمون أي أوامر تحريم ديني أو نفي أو حرق على الخازوق جزاءً على الضلالِ عن العقيدة المقررة. وسببُ مثل هذا التحفّظ يكمن في الموقف المنفتح نسبياً، الذي يتخذه علماء الإسلام من مسألة الانشقاق عن الدين.

"ومع أن القرآن لا يدين العبودية في نصٍ واضحٍ وصريح ، لكن شروطها في ظل الإسلام كانت أقل قسوة مما كانت عليه، مثلاً، في جنوب الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية. فالتنازل عن العبيد غالباً ما يَلقى استحساناً صريحاً وتشجيعاً كبيراً في القرآن .

"وأخلصُ أخيراً إلى استنتاجٍ متواضعٍ بأن التعصّبَ الديني وحبّ الانتقام هما من سِماتِ المجتمعات المهزومة أو السائرة إلى زوال. ذلك أن المنتصرينَ يصبحون كرماء متسامحين، حتى إنهم يحتفون بالتعدُّدية عندما يقمعون كل ما يهدّد هيمنتهم. وفي حال كهذه، نتصرف جميعاً، من دون استثناء، بطريقة معروفة سلفاً، سواءٌ أكنّا من المسلمين، أم من اليهود، أم من المسيحيين، أم من الهندوس".

وقد طلبتُ، ذات مرة، من لالاني الذي يعُدّ نفسه مسلماً عصريّاً، تقديرَ نسبة معارفه من المسلمين الذين يوافِقونَهُ على نظرته للإسلام الحديث، فأجاب: "لعلّ عشرة ٪ فقط مستعدون للتكلم مجاهرة، مثلما أفعل، لكنني أعتقد أن الكثيرين يشاطرونني الرأي في مجالسهم الخاصة"[1].

وقد تُبشّر الألفية الثالثة بمرحلة جديدة واعدةٍ من العلاقات المُتبادلة بين

(١) Inayat Lalani letter, 1-20-2000.

الأديان في الولايات المتحدة. وفي ما عدا المتشبثين بالأفكار المنمّطة والتعصّب الذي يبديه الأصوليون المسيحيون أحياناً، أجد أن ترحيب الشعب الأميركي الآن بالتعدُّدية الدينية أكبر من ترحيبه فيما مضى. وذلك قد يعني، إذا استرسلنا في منطق لالاني، أن حكومة الولايات المتحدة قد حَيَّدت كل تهديد لهيمنتها، فهي تستطيع أن تتحمل تبعات كَرَمِها وتسامحها. لكني، بكلام أفضل، آمُـلُ أن يكون هذا الأمر، بعد طول انتظار، صورة صادقة لعزم الشعب الأميركي على جعل التسامح الديني حقيقة قائمة، أساسها أن هذا التسامح هو الهدف الأسمى، الذي تعبّر عنه بجلاء، الوثائق التأسيسية لأمتنا.

ولكن بلوغ هذا الهدف يتطلب المثابرة من قيادة معنية بالأمر، تمثل مختلف الأديان، وتعمل بلا كلل، وهي مواصفات لمعيار من البشر يبدو لنا اليوم أنه أمر نادر. والمسلمون اليوم، هم الهدف الأول للتعصب الديني، مع الإشارة إلى أن الصور النمطية للمسلمين، وإلى حد مثير للخجل، إنما تُصنع في أميركا بالذات.

منذ سنتين، ولمّا قررتُ اختبار تصورِ عائلتي نفسها عن الإسلام ، جاءني الجواب واقعياً رصيناً . ولمّا علمتُ بأن حماتي كاثرين، وهي كاثوليكية تتتبّعُ الأخبار المحلية والعالمية عن كثبٍ ولها من العمر ١٠٦ أعوام، قد قرأت مسوّدة مقدّمة هذا الكتاب والفصول الثلاثة الأولى منه، سألتُها تواً عن رأيها في ما كَتبتُ ، فأجابتني قائلة: "إنني على الأرجح كالملايين من الأميركيين: فطالما اعتقدتُ بأن المسلمين أناس غريبو الأطوار، ولا يمتّون إلينا بصلة. لقد تكوَّن لي هذا الانطباع من الأخبار التلفزيونية وعناوين الصحف. وقد أصبحت الآن على معرفة أفضل بهم، ولكنني أخشى من أن غالبية الشعب الأميركي ليسوا كذلك".

الواقع أننا، في أميركا وحدها وفي أذهان عامة الناس، نجد هذا الربط الوثيق والمغلوط بين الإسلام والإرهاب. ورغم أن هذه الأفكار المنمّطة تتخطى عمليًّا حدود بلادنا، لكنها، في السنوات الأخيرة، لم تزدهر في أي مكان آخر بمثل هذه الكثافة وهذا الإصرار.

ان هذه التصورات الأميركية الخاطئة عن الإسلام هي، في ناحية من النواحي، نتاج الصراع العربي - الإسرائيلي. لقد أخبرني الكاتب والمعلق اليهودي الموقّر الراحل أ. ف. "إيزّي" ستون ذات مرّة أنه "عندما يكون شعب من الشعوب في حالة حرب، فمن الطبيعي أن تعاني الحريات المدنية الأمَرّين". وأوضح لي أن اليهود الأميركيين، القلقين على مستقبلهم، يشعرون بأن "عليهم أن يقاتلوا ويستمروا في القتال" ضد أعداء إسرائيل ما دامت إسرائيل نفسها في حالة حرب[١].

ونجد مشاعر مماثلة تساور العديد من المسيحيين الأصوليين في أميركا، البالغ عـددهم خمسين مليون نسمة؛ فهم يعتقدون أن بقاء إسرائيل قوية جزء أساسي من مخطط الله ويعتبرون المسلمين تهديداً لهذا المخطط . ولهذا يرى هؤلاء المسيحيون، كما يرى العديد من اليهود، أن عليهم مواصلة معاداةَ المسلمين لأن إسرائيل لا تزال في حالة تأهب عسكري، لمواجهة الدول المجاورة الإسلامية في غالبيتها . ولا يمكن أن يخمُدَ الهوسُ لتنميط المسلمين في الولايات المتحدة إلا عندما يضع سلامٌ عادلٌ حدّاً لوضع إسرائيل العسكري الحالي.

ولا يُمكن اعتبارُ كلّ اليهود معادين للمسلمين. فمنذ عدة سنوات، عندما نُهِب المركـز الإسلامي في فورت كولينز بكولورادو وتعرّض للضرر، كان الحاخام جاك غابريال أول من حمل مطرقة، وتوجه للمساعدة على الإصلاح. وحين شبّ حريق بمسجد في سبرينغفيلد في إيلينوي، وصل الحاخام باري أي ماركس في الصباح التالي يعرض مساعدته.

إن سبباً رئيسياً من أسباب بقاء الأنماط المعادية للإسلام، هو واقع المسلمين الأميركيين الذين ما زالوا غير منظمين إلى حد بعيد، رغم وجودهم في أميركا منذ أمد طويل. وعلى الرغم من تعاظُمِ عددهم، فإن قيادتهم الوطنية لم تتبلور إلا مؤخراً.

(١) Paul Findley, *They Dare to Speak Out*, p.284.

والحاجة إلى تأثير إسلامي بنّاء ومتواصل تظهر بصورة خاصة، في عملِ أجهزة جمعِ الأخبار في أميركا ونشرها. فنرى المواقف الأميركية من الإرهاب وبعض التصورات الخاطئة الأخرى حول الإسلام تتأثر، وبشكل كبير، بالدقائق القليلة المخصّصة للأخبار المسائية التي تبثّها شاشات التلفزة والتي تتضمن تقارير عن أحداث عنيفة ومروّعة، تُنقل مباشرة من مكان حصولها، ونادراً ما تقدّم عنها أكثر من بضع عبارات لاهثة لا ينتبه فيها المشاهدون الأميركيون إلى لفظتي "مسلم" و"إسلام"، إلا عند ورودهما في سياق العنف أو الأحداث القاسية وغير السارة.

يضاف إلى ذلك أن المسلمين الأميركيين ليس لهم تأثير يُذكر في قرارات تغطية الأخبار بأي وسيلة من وسائل الإعلام؛ ومَرَدّ ذلك جزئيّاً إلى انخراط عدد قليل فقط منهم في ميدان الصحافة وامتهانها. فمعظم الأخبار، التي تُنشَر وتُبَث في أميركا، يكتبها صحافيون لا يملكون معلومات وافية عن الإسلام، أو يملكون معلومات مضلّلة. وفي غياب الاعتراضات، لا يرى محرّرو الأخبار سبباً يدعوهم إلى التيقّظ أمام ما يُصدرون من تقاريرَ مغلوطةٍ عن المسلمين والإسلام، على حدٍ سواء. فلا وجود للمسلمين في غرف الأخبار التي تُكتب فيها التقارير وعناوين الصحف الأساسية الموجّهة لجماهير المستمعين. ولو قُدِّر للمسلمين أن يعملوا في مثل هذه المراكز، لكان لهم تأثيرٌ مُجْدٍ. فجو الزمالة الذي يسيطر عادةً على غـرف الأخبار، معزَّزاً بآداب السلوك، من شأنه أن يدفعَ بفريق العمل إلى تفادي الأفكارِ المنمّطةِ في ما يكتبون وما يُحرَّرون عن الإسلام.

فالحاجة إلى أصحاب الاختصاص من المسلمين لا تنحصر في توظيفهم المباشر في غُرف الأخبار واستديوهات التلفزيون، بل تشمل تزويدهم لوسائل الإعلام بوجهات نظر إسلامية مميزة، ومعارف تتيح فهم الإسلام على حقيقته. وإذا كان هؤلاء الاختصاصيون لا يشغلون أي وظيفة في وسائل الإعلام، فإن المنطق يفرض أن يكونوا جزءاً من الوجود التنظيمي الإسلامي القائم في مدن الأمة الرئيسية، كواشنطن و نيويورك على سبيل المثال، وكلها معروفة بأنها أكبر مراكز نشر الأخبار في البلاد. وإضافة إلى امتلاكهم القدرة والخبرة، للعمل في

مجال الأخبار، عليهم امتلاك القدرة على إقامة علاقات ودّية والمحافظة عليها، مع الشخصيات التي تتصدّرُ الأخبار، بحيثُ تجري استشارتهم مع تطوّر الأحداث الإخبارية. وعليهم أن يتمكّنوا، أيضاً، من عرض تقديمات مقنعةٍ في برامج المناقشات والأحاديث والمقابلات التلفزيونية والإذاعية. وعلاوة على ذلك، هناك حاجة إلى مثل هؤلاء الاختصاصيين لدعم المسلمين الذين يُقدّمون خدمات مماثلة لمراكز الأخبار على الصعيد المحلي، في كل الولايات الأميركية. ذلك أن المجتمع الإسلامي يتمتع بمواهب صحافية متنوّعة، فضلاً عمّا فيه من العلماء وغيرهم من المحترفين الذين يَظهَرون بين الحين والآخر، على قنوات التلفزة والمحطات الإذاعيّة. لكن لا بد من تغذية هذا الخزّان من المواهب وتوسيعه.

وحالياً، لا يتعرّف مشاهدو التلفزيون إلا إلى شخصيّة واحدة هي زعيم "أمّة الإسلام"، لويس فاراخان، المعروف على الصعيد الوطني، كزعيم مسلم؛ مع أن أكثرية المسلمين لا تعتبره كذلك. هذه الحقيقة وحدها يجب أن تستدعي المسلمين الأميركيين إلى اختيار أشخاص من وسطهم، وتدريبهم ليصبحوا ناطقين باسم المسلمين، محترمين ومعترف بهم على الصعيد الوطني. ومع الوقت، قد يتكلم فاراخان بشكل مقنع باسم التيار الإسلامي السائد، ولكن ذكريات خطاباته البلاغية الماضية ستبقى، رغم إعلانه مؤخّراً عن تحوله إلى تعاليم الإسلام المعترف بها.

ولا تُعتبر قِلّةُ الناطقين باسم الإسلام على الصعيد الوطني موطنَ الضعف الوحيد حالياً. فنادراً ما يَشغلُ المسلمونَ مناصبَ رفيعةَ الشأن في الحكومة الفيدرالية، بالانتخاب كانت هذه المناصب، أم بالتعيين. وقلة هم المسلمون الذين يشغلون مراكز على مستوى الولاية . وهذه الفجوات في القيادة هي مصدر إعاقة للمواطنين كافة، وليس للمسلمين وحدهم. ذلك أن معتنقي الديانة الإسلامية جزء مهم متعاظم النموِ في أميركا، وسوف يستفيد جميع المواطنين عندما يتولى المسلمون أدواراً تتيح لهم المساهمة بالمشورة الحكيمة في صنع السياسة العامة، وتحقيق التوازن فيها.

وتكمن معالجة مواطن الضعف هذه في خوض معتركِ العمل السياسي على مختلف المستويات، وبشتى الطرق. فالوقت لا يسمح بانتهاج سياسةِ الانتظارِ؛ ذلك أن الأفكار المنمّطة تولِّد، عن الإسلام، صورة مؤذية، سريعة التفشي إلى حد يستدعي انضمام المسلمين إلى غير المسلمين في أن يتخذوا علناً خطوات حازمة وفعّالة وتصحيحية، ربما كان التفكير فيها، في الماضي، ضرباً من المستحيل. لهذا، يجدر بكل المواطنين الاستجابة إلى نداء السعي السياسي. لكن على المسلمين تقبّل مسؤوليتهم الخاصة، وألاّ يتركوا سواهم يواجهون التحدي وحدهم. وإن تلكأ المسلمون في التحرك، وهو أمر ممكن فعلاً، فمن غير المعقول أن يتوقعوا من الآخرين سدّ الثغرات في القيادة. ولن ينفع التقاعس في رفع عبء الأفكار النمطية عن كاهلهم. على المسلمين أن يُقدِموا، إذن، على اتخاذ خطوات لها أهمية حيوية، وحدَهم قادرون على إنجازها. وبمجرّد أن أوصي بهذه الخطوات، أرى نفسي أُغامر في ولوج نواحٍ حساسة تتعلّق بسلوك الفرد وبالتقاليد، لكني ارتأيتُ المخاطرة نظراً لأهمية محو الأفكار المنمّطة في أقصر وقت ممكن.

إليكم ما أوصي به من خطوات:

أولاً، على المسلمين الإعلان جَهْراً عن هويتهم الإسلامية. والبحث عن وسائل تمكّنهم من عرض حقيقة دينهم على غير المسلمين. فالرد على الأفكار المنمّطة، عبر تدابير تصحيحية متفاعلة مع الغير، هو أمرٌ أساسي؛ ولكن اتخاذ خطوات تتحكم بالوضع ولا تنتظر وقوع الواقعة للرد عليها، على القدر ذاته من أهمية الأمر الأول.

منذ سنين غابرة، كانت لازمة إحدى الأغنيات الشعبية تقول "شدّد على ما هو إيجابي". وهي خيُر نصيحةٍ أُسديها اليوم للمسلمين، الذين لا يجدر بهم انتظار حصول أزمة كي يُعلموا الآخرين بحقيقة دينهم.

وفي خطوة أولى، لا بُدّ لهم من أن يجاهروا بإسلامهم مجاهرةً يكون سلوكهم الحسن معها، وإنجازاتهم المُجدية، سبيلاً للتعرّف إلى الإسلام. فالعامة

من الناس لا تتعرف إلى السلوك المثالي على أنه سلوك إسلامي، إلاّ إذا عرّف صاحب السلوك نفسه بأنه إنسان مسلم. وذات يوم، التقيت رشا يو، وهي من المسلمين القلائل في مدينتنا، فسألتها ما الذي تقوم به لتتمكن من محو التصوّرات الخاطئة عن الإسلام من أذهان الآخرين. فقالت: "أتعامل معهم انطلاقاً من مثل شخصي. فأنا أحاول أن أعيش حياتي وفقاً لمعايير السلوك السامية التي يفرضها عليَّ ديني". وتشكّل سياستُها هذه التزاماً جوهرياً أثار إعجابي بشدّة، لكن سلوكها الشخصي الممتاز لا يعرّف دوماً بالإسلام. فهي، كغالبية المسلمين، لا ترتدي عادةً ما يحدّدُ ماهيةَ دينها، فلا تضع دبوساً أو خاتماً، ولا ترتدي زياً مميزاً خاصاً بدينها. وعندما عَلِمَ أحد معارفي المحليين أن والدة رشا يو من أصل يوناني، افترض افتراضاً خاطئاً بأن رشا مسيحية، وتنتمي إلى طائفة الروم الأرثوذوكس تحديداً، وفوجئ لمّا صحّحتُ له افتراضه. صحيح أن رشا لم تُخْفِ إيمانها بالإسلام، لكنها لم تجد ما يستدعي الجهر بهويتها الإسلامية، وهي بذلك كغالبية المواطنين الآخرين. فعلى المسلمين، إذن، التخلي عن مثل هذا التردد. وقد يُشير الزي، في بعض الحالات، إلى الهُوِيّة الدينية. كأن تضع المرأة حجاباً، أو يرتدي الرجـل عباءة. ولكن أكثرية النساء المسلمات الأميركيات لا يرتدين الحجاب إلا وقت الصلاة، أو عند دخول المساجد. ونادراً ما يرتدي الرجال العباءة. ويُمكن للمسلمين أن يُظهروا انتماءهم الديني بشكل متواضع، لكنه فعّال. ويكون ذلك بشكّ دبوس في، السترة، أو يكون بعقد، أو خاتم يحمل كلمة "الله"؛ أو يكون حتى بالنجمة والهلال، أو بعض العلامات الأخرى التي تربطهم بالإسلام.

كانت إحدى النادلات بمطعم في ناشفيل، تسجل ما تطلبه زينب البرّي للفطور، فإذا بها تقول: "لقد لاحظتُ خاتمك. لن أقدم لكِ لحم الخنزير". وابتسمت لها زينب ابتسامة تقدير واعتبار. والواقع أن خاتمها كان يحمل رسم النجمة والهلال، وهما من العلامات الدّالة على الإسلام الذي يحرّم تناول لحم الخنزير. كما أن مالكوم إيكس، كان يضع خاتماً في إصبعه يحمل رسم النجمة والهلال. فلمّا اغتيل، بعد اعتناقه الإسلام، نزعوا الخاتم من إصبعه.

وكتبت ابريل زوشيت، من عمان في الأردن، تقول: "في أميركا، يُبدي الكثيرون رأيهم في حلية أرتديها تحمل كلمة "الله". وكانت ردود الفعل تُراوح بين قولهم: "كم هي ظريفة!" وقولهم: "يا لغرابتها!". وتُشير ابريل إلى أن بعضهم لم يتعرّف إلى الحلية، كرمز إلى الإسلام، لكنها أكّدت أن ردود الأفعال التي أثارتها، وإن دلّت على جهل، لكنها، كانت تؤدي إلى فتح باب النقاش، حتى مع الغرباء، وهذا أمرٌ يُساعد على محو الأفكار المنمّطة من الأذهان. والواقع أن المسيحيين يضعون الصليب، كما يضع اليهود نجمة داوود، وذلك لإظهار انتمائهم الديني. ومع أن الرجال المسلمين لا يضعون الحُليَّ، عادةً، فمن شأن دبوس بسيط، أو خاتم بسيط، التعريف بهوية الرجال أو النساء الدينية. إن افتقار لباس المسلم إلى ما يعرّف عن هويته الإسلامية يكوِّن مشكلة شخصية عميقة. فمن خلال تجربتي، أستنتج أن بعض المسلمين، باستثناء رشا يو، يرون أن الأفكار المنمّطة الأميركية، المُعادية للإسلام هي من ثِقلها عليهم، وإحراجها لهم، أنها تدعوهم إلى الإبقاء على انتمائهم الديني، مسألة شخصية. وقد يبلغُ ذلك ببعضهم درجة إخفاء دينهم: لاعتقادهم بأنهم، هم وعائلاتهم، يفضلون التظاهر بعدم اعتناق أي دين، على تعريفهم بديانة تُعتبر متطرفةٍ، ومصدر تهديد في نظر العديد من الأميركيين. لكن هذه السياسة غير مُجدية ومؤذية لأنها تفضي إلى عدم اجتثاث الصور المزيّفة من الأذهان. ففضلاً عن وضع الدبابيس أو الخواتم أو العقود، يمُكن للمسلمين اتخاذ مبادرات مهمة أخرى، كأن يوزّعوا على جيرانهم ومعارفهم كتيّبات صغيرة، تتضمّن معلومات عن الإسلام، أو يعرضوا التحدّث عن ديانتهم في النوادي أمام جماعات المؤمنين من مسيحيين ويهود، وأيّ تجمعات أخرى. كما يمكنهم أن يَرْعوا ويُموّلوا، في وسائل الإعلام المحلية، إعلانات ذات طابع معلوماتي. فالإعلان الذي ينشر في الصحفِ المحلية، ويُبَثّ في المحطات الإذاعية بكلفة زهيدة، إنما يؤدي، في زمن قصير، إلى نتائج مثمرة، واسعة النطاق، تمتد في منطقة واسعة. وينبغي لهذه الرسائل أن تُعَدّ، سواءٌ أكانت من أجل التوزيع الشخصي، أم لنشرها إعلاناً في وسائل الإعلام، وأن يكون إعدادها بعناية فائقة، لتكون مادّة جذّابة لغير المسلمين. وعلى المسلمين الدفاع عن إيمانهم علناً، وبقوة

وعزم، ضد المفاهيم الخاطئة، وضد الحقائق المحرَّفة، ولا سيما تلك التي تصدر عن مسلمين أدعياء. فعندما يسلك أشخاص معروفون بهويتهم الإسلامية، سلوكاً سيّئاً، أو يقدّمون تفسيرات مضلّلة ومغلوطة عن الإسلام، يكون على المسلمين الآخرين أن يكسروا صمتهم المعتاد، ويستنكروا هذا السلوك المغاير للإسلام. وليكون ذلك فعالاً، يجب أن تكون الإدانة فورية واضحة وعلنية.

في أوائل كانون الثاني (يناير) من العام ٢٠٠٠، نقلت نشرات الأخبار وعناوين الصحف الرئيسية تقارير عن أعمال شغب وتخريب قام بها المسلمون ضد المسيحيين، في عدة جزر من إندونيسيا. وقد بدت هذه الأعمال انتهاكات فظّة لِمَا يوصي به الإسلام من تسامح بين الأديان. فلم يقم مسلم واحد، عبر وسائل الإعلام، بالتنديد بهذا الظلم، فكان ذلك أمراً فاجأني وأصابني بخيبة كبيرة. وفي ظل غياب أي احتجاج علني من جهة المسلمين، يبقى غير المسلمين في وضع يجعلهم يقبلون هذه التقارير دليلاً على تعصّب المسلمين وتطرّفهم، سواءٌ أكانت هذه التقارير دقيقة، أم لا. لقد كان من المفترض في المسلمين الأميركيين، يومَ ورود التقارير عن أعمال الشغب والتخريب، أن يستهجنوا التعصب الديني المُعلن، كما تناقلته وسائل الإعلام، ويعلنوا أنه يشكّل انتهاكاً لشرائع الإسلام الأساسية، ويطالبوا وسائل الإعلام بنشر تنديداتهم.

وقد يكون العنف المعادي للمسيحيين في أندونيسيا، نتيجةً لتحريض قائد عسكري متمرّد وتنظيمه. وقد تكون دوافعه سياسيّة لا دينية. لكن مصدر هذا العنف، والدقة في نقل الحَدَث، مسألتان جانبيّتان. فعلى المسلمين الأميركيين أن يردّوا، بسرعة وعلناً، كلما نُسِبَ إليهم، ظلماً، أيّ سلوك سيِّئ. لقد كان من المفترض، على سبيل المثال، أن يستنكروا دعوة أسامة بن لادن، باسم الإسلام، إلى قتل الأميركيين من دون تمييز، وأن يشجبوا معاملة حركة "طالبان" غير الإسلامية لنساء أفغانستان. وكان من المفترض، أيضاً، أن يُدينوا أدعياء الإسلام في الفيليبين، الذين احتَجزوا رهائن بريئة في نيسان (إبريل) ٢٠٠٠، وقطعوا رؤوس اثنين منهم، وهدّدوا بمواصلة قتل الرهائن إذا لم يُفرج عن مصريّين يقضيان عقوبة السَجن، لتورُّطهما في عملية تفجير مركز التجارة

العالمية في نيويورك عام ١٩٩٣. كما كان على مسلمي الولايات المتحدة التنديد بهؤلاء المواطنين الفيليبينيّين لإساءة معاملة الأبرياء، وتشويه سمعة الإسلام بالتعريف عن أنفسهم كمجموعة إسلامية؛ ولم أعلم، حتى الآن، أن أي جماعة من المسلمين قد أقدمت على هذا التنديد والشجب بالطريقة الملائمة والوقت المناسب. وبعد مرور أربعة أشهر على هذه الهمجية، خطا مجلس العلاقات الإسلامية الأميركية خطوة مهمة وفي المنحى الصحيح، لمّا دعا وسائل الإعلام إلى "توخي الحذر في نقل وقائع النزاع [في الفيليبين] بحيث لا تكون ديانة الجناة محل اتهام".

وأوضح المجلس أن مجموعة "أبو سيّاف"، المُنشقّة عن جيش التحرير الوطني في مورو، مجموعة انفصالية تسعى لإقامة كيانٍ إسلامي في أغلبيته، منفصلٍ عن الفيليبين [وليس دولةً إسلامية]، لأن الحكمَ في الدولة الإسلامية هو حكم الشريعة الدينية، ويختلفُ تماماً عن حكمِ دولةٍ تديرها حكومة مركزية إسلامية... إن العمليات التي تنفّذها المجموعات المحاربة يجب ألا تجرّ المحترفين في وسائل الإعلام إلى تصوير المسلمين كلهم بطابع واحدٍ، من خلال عناوينٍ غيرَ مسؤولةٍ، ووصف غير دقيق. فأعمال الإرهاب، التي كانت ترتكبها مجموعات متطرفة في الجيش الجمهوري الإيرلندي، لم توصف يوماً بـ "الإرهاب الكاثوليكي؛ ولم تُطلق يوماً على مسيحيي صربيا الأرثوذوكس، الذين ارتكبوا المجازر بحق مسلمي كوسوفو والبوسنة صفة "القتلة المسيحيين". أما المستوطنون من المتطرفين الدينيين في الضفة الغربية، الذين يقتلون ويشوّهون الفلسطينيين بشكل عشوائي، فلا نكاد نسمع أحداً يُطلق عليهم صفة "الإرهابيين اليهود". فعلى وسائل الإعلام أن تطبق، في هذا السياق، المعيار ذاته في نقلها الوقائع المتعلقة بالمسلمين(١).

فما هو سبب صمت المسلمين السائد؟

هاكم التفسير الذي قدّمته ابريل زوشيت. قالت: " أتصوّر أن معظم

(١) CAIR release, 8-29-2000.

المسلمين، مثلي أنا، يشعرون بأسًى لا ينفك ينغّص قلوبهم عندما يواجهون تلك الحقيقة في واقعهم، حقيقةِ أن الكثيرين في العالم الغربي يُشبِّهونهم بالشياطين. ويسود إحساس بالارتباك إزاء هذا الأمر. الواضح أن غالبية المسلمين يَعُون ما ترتكبه بعض المجموعات المتطرّفة من جرائم مروّعة باسم الإسلام، لكنهم يشعرون، في الوقت نفسه، بأنْ لا صلة لهم بهذه المجموعات، ولا يفهمون، بالتالي، لماذا يستمرّ العالم الغربي بتشبيههم بالشياطين، وكيف يستمر؟. ويجدر بي أن أضيف، فأقول: إن الإسلام يرفض قطعاً توجيه الانتقادات إلى الآخرين. ذلك أن في الإسلام قولاً مفادُه: أنه، حين يوجّه أي مسلم كلاماً غير صحيح، يحطّ من قدر مسلم آخر، فإن هذه النقيصة المزعومة ستظهر في سلوك المُتهم بالذات، قبل مماته. وبكلام آخر نقول: إن أنا نعتُّ أحدهم بالكاذب، وتبيّن أنه ليس كذلك، أكون أنا الكاذبة. كما نؤمن بأن الأمور ليست دائماً كما تبدو في الظاهر، فمن العسير، لذلك، أن تجعل مسلماً ملتزماً يُقْدِم على انتقاد مسلم آخر. فالإسلام يُبْرز وجوب تغليب جانب البراءة في حالة الشك. وتقضي تعاليمه، أيضاً، بالتستّر على مَواطن ضعف الآخرين وخطاياهم؛ فعلى المرء ألا يُفْشي مثل هذه المعلومات إلا للأشخاص المعنيين مباشرة، أو لمن يمتلك، من المعرفة والقدرة، ما يمكّنه من المساعدة على تصحيح الوضع. لكن، صدقوني عندما أقول لكم إن المسلمين الذين ينتقدون غيرهم ليسوا قلّة. فأنا أسمع انتقاداتهم طَوَال النهار!".

لكن توصية الإسلام التي أوردتها زوشيت، بوجوب التحفظ في توجيه الانتقادات الشخصية، ينبغي ألاّ تمنع المسلمين من الدفاع، بقوة، عن إيمانهم. أما أنا، فإنني أوجه التحية الى الذين يمتنعون عن توجيه اتهامات شخصية إلى الغير، لكنني أشعر بالقلق عندما يقصّر الزعماء المسلمون في الدحض العلني والفوري للتصورات الخاطئة عن الإسلام. ذلك أن في وسع المسلمين إدانة كل الانتهاكات التي تنال من الإسلام والمفاهيم الخاطئة عنه، من دون أن يدينوا المسؤولين عنها بصورة شخصية. ومنذ سنين، حدد القسّ الإنجيلي المعروف بيلي سانداي المعيار الصحيح، لمّا تمسك بوجوب "إدانة الخطيئة لا الخاطئ".

ويقدّم أندرو باترسون تفسيراً آخر لهذا الصمت، فيقول "إنه الشك الذي يساور كثيراً من المسلمين ويتناول دقة وسائل الإعلام الغربية، عندما تنقل الأخبار من البلدان الإسلامية". وهناك شخصية مسلمة أميركية مرموقة شاءت عدم ذكر اسمها، تؤيّد موقف باترسون، فتقول: "نادراً ما يلجأ المسلمون الأميركيون إلى الانتقاد، لأنهم لا يثقون بما تنقله الأخبار من البلدان الإسلامية. فتجارب الماضي تظهر أن الذين يكتبون، عادة، مثل هذه التقارير هم إما مراسلون تنقصهم المعرفة، وإمّا أشخاص لهم نيّات سياسية. ومن الممكن أيضاً أن تكون هذه التقارير نتاج أشخاص متحيّزين، معادين للإسلام. والمسلمون الأميركيون لا يريدون أن يكونوا لعبة في أيدي الإعلاميين الذين يختارون ما يريدونه عندما ينقلون الأخبار المتعلّقة بالمسلمين. فإن كان المسلمون مدعوّين للظهور، بهدف وحيد هو أن يدين بعضهم بعضاً، فمن الأجدر بهم ألا يظهروا أبداً. ولو كانت التغطية الإعلامية تغطيةً متوازنة، تقدّم نظرة واقعية عن المجتمعات الإسلامية بتقارير تنقل الأخبار الجيدة، كما تنقل الأخبار السيئة، لما تردّد الزعماء المسلمون الأميركيون عن الإعراب، علناً، عن آرائهم في القضايا الاجتماعية. لكن نظراً لأن المجتمع الإسلامي نادراً ما يوصف بصورته العادية، بل يُعرض دائماً كمجتمع مريض، فإن الزعماء المسلمين لا يشعرون برغبة في إضافة شيء إلى هذه الصورة!".

ومن شأن هذه الإجابات أن تنوّر الأذهان، لكنها غير كافية. إنها تساعد على توضيح عدم رغبة المسلمين عموماً، في الرَّد على الأفكار المنمّطة، ولكنها لا تبرّر صمتهم. إنها لا تُحِلُّ المسلمين من واجب الإدانة العلنية للمظالم التي ارتُكبت باسم الإسلام، بحسب ما نَقَلت تقارير الأخبار.

إني أتضامن مع أولئك الذين يعانون بصمت. وطبيعيٌّ أنني لن أتمكّن من وضع نفسي موضع الزعماء المسلمين غير الراغبين في الكلام؛ لكنني أتفهم، إلى حدٍّ مّا، إحباطاً يشعرون به. ذلك أنني خَبرتُ مواجهات دائمة مع وسائل الإعلام، منذ أن بدأت حياتي العملية في الكونغرس قبل ٤٠ عاماً، وكان يغضبني، بين الحين والآخر، ما كنت أعتبره معاملة غير مُنصفة. وكنت أحاول،

في معظم تلك الحالات، إخفاء استيائي والمحافظة على علاقة ودية وتعاونية مع المحررين والمراسلين المزعجين؛ وكنت بذلك أتّبع نصيحةَ صديقي المحامي القروي الحكيم بول غروت الذي يقول : "لا تستطيع أن تهزم الصحافة ولا الحكومة المحلية، فلا تحاول ذلك أبداً".

ونصيحة غروت اليوم هي الامتناع عن المحاولة مع مراسلي التلفزيون والإذاعة أيضاً. ولكن ما يؤسفني: أنني لم أتّبع نصيحة "غروت" على الدوام. وإذا عدت بالذاكرة إلى حياتي العملية في الكونغرس، فإن أول ما يؤسفني هو امتناعي، بعد فرز الأصوات، عن المسارعة الى الاتّصال هاتفياً بريشارد دوربين لأهنّئه على فوزه عليّ في انتخابات العام ١٩٨٢. إنني، عوضاً عن ذلك، انطلقت بالسيارة بعد بضع ساعات، برفقة زوجتي لوسيل وابنتنا دايان، إلى مقر دوربين لتهنئته شخصياً، فلم أجد هناك سوى عمال التنظيف، فتركت له رسالةَ تهنئة موجزة، لكنني لم أحاول الاتصال به هاتفياً. وكنت أرفض الإجابة عن أسئلة الإعلام لعدة أيام بعد هزيمتي، لاستيائي من التغطية الإعلامية غير المُنصفة التي تَلَتها. وبَدوتُ، بسلوكي هذا، محدودَ التفكير. والأسوأ من ذلك: أنه ضَيّعَ عليّ فرصة شكر المواطنين الذين منحوني تأييدهم، خلال تلك السنوات كلها، وإظهار التحلّي بالكرامة والنُبل في تقبّل الهزيمة. فأنا، لهذا، قادر على تفهّم مشاعر الألم والغضب التي تنتابُ المسلمين عندما تُعاملهم وسائل الإعلام بطريقةٍ مُنحازة وعديمةِ الإحساس، لكنهم سيُلحقون الأذى بقضيتهم إذا امتنعوا عن استغلال كل فرصة تسنح للكلام علناً عن الإسلام في كل مقابلة إعلامية تُتيح لهم فرصةَ وضع ديانتهم في المرأى الصحيح الإيجابي. إنهم، بإضاعة مثل هذه الفُرص، إنما يُخْلون الساحة للمراسلين الذين يملكون معلومات خاطئة، ومنهم أولئك المصمّمون على وصف المسلمين بـ "المرضى". وإذا كان ميل وسائل الإعلام إلى تشويه الحقائق عن الإسلام والمسلمين ناشئاً، بالدرجة الأولى، عن الجهل، كما أعتقد، فإنّ أسوأ رد فعل ممكن هو أن يلزم المسلمون الصمت. فإذا لم تُواجِه المفاهيم الخاطئة والأفكار المنمّطة والأكاذيب ما يعترضها، فإن من المحتّم أنها ستواصل مسارها المُدَمِّر.

وعلى الرغم من أن المسؤولية، عن أي سلوك سيِّئ يرتكبه بعض المسلمين، لا ينبغي أن تُلْقى على عاتق المسلمين الأميركيين، فإن من واجبهم جميعاً المجاهرة برأيهم، عندما تنقل التقارير أنباء أعمال مسيئة لصورة الإسلام، أقدم عليها أناس من أدعياء الإسلام، أينما كانوا؛ وربما عاد سبب التزامهم الصمت إلى امتناع المسيحيين الأميركيين، عموماً، عن إدانة سلوك لا يمت إلى المسيحية بصلة، سلوكٍ أقدم عليه مسيحيّون آخرون، كحمّام الدم الذي ارتكب بحق مسلمين أبرياء في البوسنة، وفي إقليم كوسوفو خلال الفترة الممتدة بين عامي ١٩٩٥ و١٩٩٩، والذي قام به صربيون مسيحيون. ولكنه تمايز ينطوي على مُفارقة كبيرة. فالأكثرية الساحقة من الأميركيين، ومعظمهم من المسيحيين، تعلم أن مذابح البلقان تشكِّل انتهاكاً لمبادئ المسيحية، ولكن العديد من هؤلاء الأميركيين أنفسهم، إن لم نقل معظمهم، لا يدركون أن كافة أشكال العنف ضد الأبرياء محرّمة في الشرائع والعقائد الإسلامية.

إن أناساً من غير المسلمين، يفتقرون إلى المعرفة الوافية، يحمّلون المسلمين المسؤولية عن سلوك آخرين من أدعياء الإسلام، بالغاً ما بلغ هذا السلوك من السوء. وكل من ينتمي إلى أقليّة من الأقليات، دينيةً كانت أم عرقية، يدرك معنى أن يُحكم عليه بهذا المعيار. لقد خبروا جميعاً تجربة الحكم عليهم من خلال أنماطٍ من الناس لا تمثّلهم.

لقد خَبِرَ الأفارقة الأميركيون كل تلك الأمور، لقد عانوا الأمَرّين خلال فترة العبودية، وما تزال الأفكار المنمّطة تولّد فيهم الأسى إلى اليوم. وعمد ليونار بيتس أحد المعلقين المفضلين لدي، إلى الكتابة، بصفته إفريقيّاً ـ أميركيّاً، فقال:

"لو كنا [نحن السود] أحراراً، لما كان سلوكي أتى على أسودٍ آخر بالمفخرة أو الخزي، [لكن] بصفتي إفريقيّاً أميركيّاً، لا أخطو خطوة، ولا أستطيع، بمفردي، أن أخطو خطوة على هواي. إن كل واحد منّا يؤثّر علينا جميعاً. وعليه، بالتالي، واجب أن يراعينا جميعاً"[١].

(١) *Journal-Courier*, Jacksonville, IL 8-26-2000, p.8

والنساء، اللواتي يفوق عددهن عددَ الرجال، عانين أيضاً، عبر التاريخ، أفكاراً نمطية شوفينية. ولعلَ الفترةَ الأكثر إيلاماً كانت في أوائل الألفية الأولى، فقد عومل بعضهنّ معاملةً جائرة. عوملن كما لو كنّ متخلفات عقليّاً، وحاقدات، وقذرات، وخطيرات[1]. واليوم، وبعد مرور ثمانين سنة على حصولهنّ على حق التصويت، لا تزال المرأة الأميركية تُكافح في سبيل مساواتها بالرجل في ميدان العمل.

وعندما يُهمل أحدُ المسلمين واجبه، كمواطن، أو يسلكُ سلوكاً سيئاً، فإنّه يجلب المعاناة للمسلمين كافة. وعدم الطعن في كل صورة تشوّه الإسلام، بل عدم الطعن في أي تقرير عن أحداث مسيئة إلى الإسلام، تقع في أماكن بعيدة، مثل أندونيسيا والفيليبين وأفغانستان، يحمّل المسلمين الأميركيين عبئاً إضافياً. فمهما يكن مصدر الإساءة، فإنه ينبغي لكلّ مسلم أن يشعرَ بواجب الدفاع عن ديانته إزاء تشويه حقائقها.

وللوهلة الأولى، قد تبدو التوصيات التي قدّمتُها غريبةً نوعاً ما، مربكة أو مبالغاً فيها في نظر الذين تعوّدوا الصمت وعدم الفعل. فأنا أُدرك أنني أصدر أمراً عسيراً عندما أدعو المسلمين الأميركيين الى اتخاذ مثل هذه المبادرات. فإن معظمهم لم يتعوّدوا أن يعملوا في الساحة العامة، حتى ولو كان عملهم يهدف إلى تصحيح المفاهيم الخاطئة عن دينهم. فالتعبير عن الرأي عمل سياسيٌ، ووضع علامة النجمة والهلال أو دبوس يحمل كلمة " الله " هو تصريح سياسي، لا ديني فقط.

ليس من السهل التخلص من العادات القديمة. لكن الخروج عن الصمت حول الإسلام حاجة ملحة.

أخيراً نرى: أنّ على كل المواطنين، وليس على المسلمين فقط أن ينخرطوا بعزم في السياسات الحزبية.

---

(١) Alvin Schmidt, Veiled and Silenced.

فالصور المزيفة عن الإسلام تطرح تحدّياً هائلاً، وتتطلب تدابير تصحيحيّة متشدّدة. لقد واجه أبراهام لينكولن تحدّياً كبيراً بإطلاق دعوة تنطبق على واقع الحال اليوم، إذ قال: "إن الظرف محفوف بالصعاب، وعلينا النهوض بالعبء... وبما أن حالُنا جديدة، فعلينا أن نفكّر مـن جديد، وأن نعمل من جديد. علينا أن نعتق أنفسنا"[1].

وعلى كل المواطنين، وليس المسلمين فقط، الإقرار بأن الأفكار المنمّطة عن الإسلام تفرض عبئاً ثقيلاً على المجتمع الأميركي. إنها آفة على صعيد الوطن ككل.

فهي تولّد، في أنحاء أميركا، انفعالات بشعة، دنيئة، تُضعف الولاء العام للمبادئ الأميركية العزيزة، كمبدأ التسامح الديني، ومبدأ السعي من أجل كرامة كافة الشعوب وحقها بالعيش الكريم.

لقد دُفِعَ قادتنا في واشنطن إلى أن يرتكبوا، في السياسة الخارجية، أخطاءً فادحة تؤذي المصالح الوطنية الحيوية. وقد أدت هذه الأخطاء إلى سنّ تشريع محلي أخرق، كان حافزه الذعر. مثال ذلك: قانون مكافحة الإرهاب الذي أُقِرَّ بعد تفجير أوكلاهوما، والذي يسمح للحكومة بإلقاء القبض على المهاجرين وترحيلهم، استنادا إلى أدلّة سريّة، والذي يشكل خرقاً واضحاً للحقوق الدستورية المرعية الإجراء. وبموجب هذا القانون، سُجِنَ عدد من المسلمين حتى الآن. إن الأفكار المنمّطة المزيّفة تدفع بالمسؤولين إلى التركيز حصراً على ملاحقة الإرهابيين، عوضاً عن أن يهتموا أيضاً اهتماماً جدِّياً، بالمظالم التي تدفع أحياناً، بالناس اليائسين إلى ارتكاب أعمال عنف رهيبة.

إن "الظرف" اليوم مُثقل بالتصورات الخاطئة التي تعوق الملايين من الأميركيين، وتشوّش لمعظم الآخرين رؤيتهم، وتعرّض رفاهنا الوطني للخطر. ومع أن سليمان نيانغ يتحدّث عن إحراز درجة من التقدّم ، فإنه يشير إلى مهمة بانتظارنا، مثبطة للعزائم. يقول: "يتقبّلُ القادةُ السياسيون مَنْ هم، مِنَ المسلمين

(١) President Abraham Lincoln's message to Congress, January 1862.

اليوم، كجزءٍ من الواقع الأميركي؛ لكن الأحكام المسبقة كثيرة على صعيد العامة"[1].

أما عنايت لالاني، فيكتب، قائلاً: "إن الأفكار المنمّطة والتصوّرات السلبيّة عن الإسلام موجودة حقّاً، وهي ليست نسجاً من خيال أحدهم"[2].

علينا أن نفكّر من جديد، وأن نعملَ من جديد، وأن نُعتق أنفسنا من العادات والمعوّقات النفسية القديمة كي نواجه هذا التحدّي. وواجب الجميع، على اختلاف أديانهم، أن يسعوا إلى تفهّم بعضهم بعضهم دين البعض الآخر بشكل سليم؛ والعمل معاً، من ثَمَّ، على بلوغ الأهداف المشتركة لإحلال العدالة والهدوء؛ سواءٌ أكان ذلك في المنزل، أم في البيئة المحيطة، أم في أنحاء البلاد، وما يتخطّى حدودها. وعلى كل الأميركيين وليس على المسلمين فقط، أن يقبلوا، بمسؤولية، المشاركة في السياسة بهدف تحقيق هذه الغاية.

فالولايات المتحدة من أقدم الديموقراطيات في العالم ، ولكنها ستعتمد دوماً على مبادرةِ مواطنيها والتزامهم الذي لا يكلّ. وذات يوم، ألقى " لينكولن " خطاباً في غيتيسبورغ أعلن فيه أن ديموقراطيةَ أميركا الدستورية، التي تبلورت في إطار الحرية، كُرّست من أجل المساواة بين الجميع. وظلت هذه التجربة على مدى "سبعة وثمانين عاماً" بعد ولادتها. وهي اليوم ما زالت تجربة.

وهؤلاء العاملون، في حقل السياسة، لتعزيز التفاهم والتعاون بين الأديان، يساعدون في الإبقاء على متانة هذه التجربة الديموقراطية ونبلها.

---

(١) *Washington Times Weekly*, 7-(17-23)-2000, p.23

(٢) Letter, 5-2-1999.



الملحق أ

«رسالة ودّية من جارك المسلم...»

يملك المسلمون والمسيحيون واليهود كثيراً من النقاط المشتركة. فهم جميعاً يعبدون الإله الواحد خالق الكون، الله. ويَعتبر المسلمون والمسيحيون واليهود أنفسهم أبناء إبراهيم الروحيين. وهم يتعهدّون، كالمسيحيين واليهود، بالصلاة والسلم والعدل والتآلف والتعاون والرحمة والإحسان والمسؤوليّة العائليّة والتسامح تجاه معتنقي الأديان الأخرى، كما يحترمون البيئة.

انتشرت هذه الأديان الثلاثة في أنحاء العالم. وبسبب من الانتشار الجغرافي نشأت طوائف متعددة في الدين الواحد. كل طائفة منها على شيء من الاختلاف مع سواها في تفسيرها الخاص للسياسة والعائلة والملبس والحياة الاجتماعية.

نحن المسلمين نريدكم أن تعلموا:

أن الإسلام والديموقراطيّة متوافقان ومتكاملان . فكلاهما يقومُ على المحاسبة والمشورة والنقاشات المفتوحة والتفويض والإجماع. فمقدمة إعلان استقلال الولايات المتحدة الأميركية تعبّر عن مشاعر إسلامية عميقة.

ويُجِلُّ المسلمون الأنبياء المذكورين في التوراة ويُخصّون يسوع المسيح وأمه مريم العذراء بكل تقدير. ويعترفون بقُدسيّة الأقوال التي أوحيَ بها إلى موسى والمسيح، أي التوراة والإنجيل.

إن المسلمين موحّدون في الإسلام، الذي يعني الطاعة والسلام. والخضوع لمشيئة الله وعمل الخير يحددان التقوى والإحسان. والقرآن آخر وحي إلهي أُنزل، وهو بمنزلة مرشدٍ متكامل لسلوك الإنسان. وقد أوحيَ بنصّه إلى النبي

محمّد ﷺ ما بين العام ٦١٠ و٦٣٢ للميلاد. ومع أن المسلمين يبجلّون محمداً ﷺ بكونه خاتم الأنبياء، فإنهم لا يعبدونه.

وللمرأة في الإسلام مثلُ ما للرجل: لها الحق في تحصيل العلم وامتلاك الممتلكات ومزاولة العمل التجاري وغيره من المهن، وخوض معترك الحياة العامة . واحتراماً للأخلاق العامة، يرتدي المسلمون والمسلمات ثياباً محتشمة. وإن مارست بعض المجتمعات القمع والتمييز ضد المرأة، فإن ذلك يكون مخالفةً للإسلام، وليس عملاً به.

ويتولى الزوج المسلم المسؤولية الأولى لتأمين عيش العائلة، فيما تتولى الزوجة شؤون المنزل والأولاد. والطلاق في الإسلام غير محبَّذ؛ وقد تختلف إجراءاته بين بلد وآخر، ولكن يمكن للزوج أو الزوجة التماس الطلاق. أما تعدّد الزوجات الذي كان يمارس على نطاق واسع في العهود التوراتية، فإنه موضع قيود محددة بأحكام في القرآن، وقلما يمارَس اليوم، بل ونادراً ما يمارس إذا شكّل انتهاكاً للقانون العام، كما هي الحال في أميركا .

ويتولّى المسلمون الاهتمام شخصيّاً بأقاربهم أو بالمعوزين. والنساء في الإسلام، أو المسنون، ليسوا ملزمين أبداً على العيش وحدهم.

ويلتزم المسلمون القواعد المفروضة عليهم. ولكن ما يؤسف أن بعضهم، ممّن يدّعون الإسلام، ينتهكون هذه القواعد وينتهكون حقوق الآخرين انتهاكاً فاضحاً، شبيهين، في ذلك، ببعض أدعياء المسيحية واليهودية. ومن الخطأ تسميتُهم بالمسلمين الأصوليين. فهذه تسمية لا يعرفها الإسلام، وتستخدم، في معظم الحالات لبلورة الأفكار المنمَّطة المزيّفة.

أما الجهاد، فله معنيان: الأول أنه كفاح غيرَ عنيف بين المرء ونفسه من أجل حياة فاضلة؛ والثاني يعني القتال من أجل العدالة، وهو من أسمى التعاليم الإسلامية. ويمتدح الإسلام الاعتدال، ويَنْهَى عن التطرّف والإرهاب والتعصّب والقمع والإخضاع.

ويفتخر المسلمون بأنهم أميركيون، ويأملون أن يكونوا مواطنين وجيراناً

صالحين، بممارسة التزامهم السماح والإحسان والعمل والتعاون والنشاطات المعززة للتفاهم بين الأديان، من أجل مجتمع أفضل.

[ملاحظة: إن النّصّ الوارد أعلاه، الذي أعدّه بول فندلي، ليس محفوظ الحقوق: فيمكن أن يُنسخ ويوزّع مع ذكر المصدر، أو من دونه].



الملحق ب

لجنة الشخص الواحد

يرى المسلمون أن العمل عبر لجنة الشخص الواحد غالباً ما تكون أكثر الطُرق فعاليةً، للتصدي للمحرّرين والمعلّقين ومديري محطات البثّ، وذلك بهدف تفادي الصور المزيّفة عن الإسلام، التي تظهر بانتظام في وسائل الإعلام. وقد تكون أحياناً أفضل الوسائل لمَحو الانحياز المعادي للإسلام، عندما تُصنع القرارات الخاصة بالسياسة العامة في الكونغرس الأميركي.

ويمتاز العمل عبر لجنة الشخص الواحد بأن له فاعلية ممتازة. فالمرء، عندما يعمل وحده، يجد، عادة، أن فرصه لإحراز انتصارات مُجدية ومُرْضية تكون في متناوله.

ويمكن للجنة الشخص الواحد أن تحدّد أهدافها وتضع مخطّطها من طريق العمل بشكل أساسي من المنزل؛ لكن على هذا الشخص أن يفهم الأمور التي تتيح إحراز النجاح.

فالمحررون والمراسلون ومديرو محطات البثّ لا يستسيغون تحمّل مسؤولية الأقوال الخاطئة والمضلّلة. ويكرهون أكثر منها الاضطرار إلى تصحيح أخطائهم علناً. والأمر يكون صحيحاً، سواءٌ أكانت الأخطاء ارتُكبت عن نية صافية أم عن مَكْر.

ونجد لدى بعض الإعلاميين، وبعض أعضاء الكونغرس، مشاعر انحياز مستحكمة، دينية وعرقية وسياسية. ولكنني اكتشفتُ أنه: حتى أولئك المنحازون الذين يغتبطون بوضع الإسلام في مرأى سيِّئ، يودّون أن يعتبرهم العامة من

الناس منصفين. وهم يدَّعون الترحيب بأي فرصة تسنح لهم لتصحيح الأخطاء. وعندما يواجَه المحررون أو المراسلون أو مديرو محطات البثّ، أو أعضاء الكونغرس أيضاً، بأدلة واضحة تثبت الخطأ، فإنهم، جميعاً تقريباً، سيوافقون على شكل من أشكال تصحيحه العلني.

وحتى لو رفَضَ مرتكب الخطأ تصحيح خطأه، بشكل قاطع، فإن التحدي يستحقُّ عناء الجهد. وأكاد أجزم أن مرتكب الخطأ سيتفادى الأقوال المضللة والخاطئة في المستقبل لعلمه بأن القرّاء أو المستمعين المطّلعين، قد يبقون على يقظتهم. وباختصار نقول: عندما يقوم شخص واحد بالعمل وحده، فمن المؤكد، تقريباً، أن يحقق الانتصارات الإعلامية والسياسية. وقد تكون هذه الانتصارات بدايةً لسلسلة من ردود الفعل تُلهم الآخرين تشكيل لجان الشخص الواحد التي تخصهم.

إن معظم الناشطين ضد الأفكار المنمطة لا يحصرون أنفسهم في محاولات أحادية الجانب. ففيما هم يسيرون على درب النجاح ، يصبحون على معرفة بعمل المنظمات القائمة، ويضاعفون فاعليتهم، عادة، من طريق انخراطهم في عُضويةٍ منظمة واحدة، على الأقل، من هذه المنظمات التي ترحّب جميعها بمتطوّعين جدد.

لكن أي درب هي الأفضل؟ لجنة الشخص الواحد، أم لجان المجموعات؟ قد يوحي إلينا هذا السؤال الجواب نفسه الذي أدلى به لاعب البيسبول في السنين الخوالي، والوجه الكوميدي الأسطوري، يوغي بيرا، لمّا قال: "إذا وصلتَ إلى مفترق يفضي إلى طريق بعينه، فلا تتردد في سلوكه". لكن الذين يتصدَّون للانحياز لا يحتاجون إلى تقييد أنفسهم بسلوك الدرب الواحد الذي أوصى به بيرا. إن في وسعهم سلوك الطريقين، ولا حاجة بهم إلى الاختيار بينهما. إنني، من خلال تجربتي، أرى أن معظم الناس يواصلون العمل وحدهم على درب لجنة الشخص الواحد. لكنّهم، في الوقت نفسه، ينخرطون في لجان تقليدية، لأنهم يعرفون أن في وسعهم إنجاز بعض الأهداف، إذا تضافروا مع الآخرين.

لقد اكتسبت خبرة طويلة في إطلاق الشكاوى وتلقّيها. وكان ذلك من خلال عملي كمراسل ومحرر للشؤون الرياضية في صحيفة يومية، ثم كمساعد محرر في مجلة شهرية، ومحرر جريدة ريفية أسبوعية، ثم كعضو في الكونغرس، وأخيراً كمؤلف لأربعة كتب، وكاتبٍ لعدد لا حصر له من مقالات الرأي. وأنا، كمحرر صحفي، ثم كمشترع، قد عالجتُ موضوعات كانت كلها مثيرة للجدل، وعبّرت عن مطالبي الخاصة أيضاً؛ فتلقيتُ احتجاجات عنيفة من أشخاص أرادوا تغيير السياسات العامة. ولأن الخبرة خير المعلمين، فقد دمجتُ الدروس التي تعلّمتها شخصياً بالدروس التي تعلّمها آخرون، وغالبيتهم يحقّقون انتصارات يومية في معارك يخوضونها في وسائل الإعلام، ضد التصوّرات الخاطئة عن الإسلام. وكانت الحصيلة خريطة تتضمّن التوجيهات التي تساعد لجنة الشخص الواحد على بلوغ النجاح. وفي ما يلي عِبرٌ أخرى، استُخْلِصَت بمعظمها من تجارب آخرين في الكونغرس، وقد تعنيك هذه العبر إذا كنت قارئاً سيحمل المشاكل ذات الصلة بالإسلام، مباشرة، إلى من يُمثّله في الكونغرس.

كيف نؤثر على وسائل الإعلام؟

لم أبتدع القوانين التالية في كيفية التعامل مع وسائل الإعلام، غير أنني أتبنّاها. إنها حصيلة الآراء السديدة المستقاة من نقاشات جَرَت مع المحنّكين في السياسة، ومع الذين كانت لهم، في الآونة الأخيرة، تجربة خوض غمار التنافس الحاد في الشأن السياسي العام، بمن فيهم عدد من المسلمين.

أولاً: تأكّد، عندما تتصل بوسائل الإعلام، من امتلاكك المعلومات الصحيحة حول الشخص الذي ستقابله، وعن الفكرة المنمّطة أو الخطأ الذي ستطعن فيه. احتفظ دوماً بدفتر تدوين ملاحظات، وقلم قريب من الكرسي، في المكان الذي تكون فيه، عندما تقرأ، أو تشاهد التلفزيون أو تسمع الراديو. وعندما تلفُت انتباهَك صورة سيئة عن الإسلام، دوّن الملاحظة فوراً، واكتب ما قيل أو نشر. كن دقيقاً وحدّد متى قيل الكلام أو نُشر، وأين، ومن قاله أو نشره. وكلّما كنت دقيقاً في ما دوّنته، ازدادت فرصة نجاحك في وقت مبكر.

فإن كنت تستمع إلى الراديو والتلفزيون، دَوِّن الكلمات نفسها تقريباً، والسياق الذي وردت فيه. وإذا كنت تعترض على كلام منشور حول الإسلام، دوِّن اسم المطبوعة وتاريخ صدورها ورقم الصفحة واسم الكاتب، أو الشخص الذي اقتُبس عنه هذا الكلام.

ثانياً: ليكن ردّك سريعاً من خلال استخدام الهاتف. ولا تؤجل اعتراضك إلى الغد. ستجد العديد من الجداول المفيدة في الصفحات الصفراء من دليل الهاتف. دَوِّن الأرقام الأساسية على غلاف دفتر ملاحظاتك، فإنها، بذلك، تكون في متناولك كل مرة تحتاج فيها إلى الاعتراض على شيء. وعندما تُجري اتصالك، اطلب التكلّم إلى المسؤول، محرّر المطبوعة، أو محرر أخبار التلفزيون أو الراديو. ثم عَرِّف عن نفسك، واذكر ما أنت في صدده. واطلب، بشكل لائق، لكن حازم، أن تقوم الإدارة ببث تصحيح للخطأ بنشره، أو أن تمنحك الفرصة لتصحيحه بنفسك. وإن لم يحوِّلوكَ مباشرة إلى الشخص المسؤول، فاطلب، أن يُبادر، هو، إلى الاتصال بك في أقرب وقت ممكن.

أما إذا كانت الفكرة المنمّطة المعادية للإسلام قد وردت في برنامج إذاعي أو تلفزيوني، فقد تستطيع أن تضمن إجراء تصحيح الخطأ والاعتذار الفوري من مقدّم البرنامج. وقد درجت العادة أن يُزوِّد المشاهدون أو المستمعون، تكراراً، بأرقام الاتصال بمقدمي البرامج. وإذا تمكّنت من الاتصال حين يكون مقدم البرنامج على البث المباشر، فقد يصل التصحيح، الذي يجريه، إلى غالبية المستمعين الذين سمعوا القول الذي أردت الاعتراض عليه.

ثالثاً: عندما تسجّل اعتراضك، افعل ذلك بهدوء ولباقة وَتَرَوٍّ. اذكر الحقائق فحسب. ولا تكن قاسياً أبداً، أو متطلّباً، أو اتهاميّاً، عندما تُجري الاتصال الهاتفي، أو تكتب الشكاوى. ابذل ما بوسعك لتسجيل اعتراضك بطريقة يُرحِّب بها من يتلقّاه. وقد ترتفع نسبة الأدرينالين في دمك وقد تنفعل، إذا استخدمت عبارات عنيفة. إلا أنك لن تحصل على التعاون المرجو. كن دوماً هادئاً ولائقاً مهما تكن حدّة الغضب الذي يتملّكك.

هناك نصيحة قدمها لي، منذ سنوات، كلارنس كايلور، وهو رجل أعمال من بيتسفيلد في إيلينوي، تقاعد من مهنته الناجحة، كمدير إداري لشركة "جويل تي". قال: "كل رسالة مؤذية هي هدر للوقت، وتسبِّب الأذى أكثر مما تجلب النفع. فاحرص على كتابة كل رسالة بأسلوب يولّد مشاعر طيّبة". وبعد سنوات، عندما قدِمتُ إلى واشنطن، تلقّيت اقتراحاً مماثلاً من مارفين ماكلاين، أحد الناشطين في لوبي اتحاد مكتب المزارعين الأميركيين. قال: "إن رغبت في كتابة رسالة غضب، قم بذلك ولكن لا ترسلها". وعندما مررتُ ذات يوم بمكتب صحيفة جورنال كوريير في إيلينوي، أوصتني المراسلة الصحافية والمفكّرة سسيل تينديك باتّباع قواعد النجاح التالية: "لا تهدّد أبداً، ولا تتوسّل أبداً، ولا تدّعي معرفتك بكل شيء".

تذكّر دوماً أن الذين يتلقّون شكواك أناس منهمكون بأعمالهم، ويُثقلهم الضغط الكبير، وغالباً ما يكونون على عجلة من أمرهم. ومهما يكن ما قالوه، فهم لا يرغبون في تلقي الشكاوى ويميلون إلى اتّخاذ موقع الدفاع.

إبدأ بالإطراء ان استطعت. وليكن موضوع ثنائك عملاً بنّاءً قامت به الصحيفة أو المحطة الإذاعية مؤخّراً. وأكد ثقتك برغبة العاملين في الصحيفة أو محطة الراديو في أن يكونوا دوماً منصفين، وعلى حق. فمن شأن مثل هذه المقدّمة أن تخفّف من وطأة أي نزعة دفاعية لدى الشخص الذي تودّ التعاون معه. ولكن عليك أن توضح بأن ما تريده هو تصحيح الخطأ. اطلب بحزم أن يجري التصحيح على الفور، وأنك، لذلك، تريد أن يطلع عليه الشخص المذكور. وفي حال تطلّب الأمر اعتذاراً علنيّاً، اشرح السبب بوضوح وحزم.

رابعاً: زوّد المنظمات التي تنشط في مجال التصدّي للأفكار المنمّطة، على الصعيد الوطني بكل جديد عن نشاطك.

ومن أبرز هذه المنظمات نذكر: مجلس العلاقات الأميركية الإسلامية (CAIR)، المجلس الأميركي الإسلامي (AMC)، اللجنة الأميركية العربية المناهضة للتمييز (ADC).

ويمكنك تزويدها بالمعلومات على العناوين التالية:

CAIR, 453 New Jersey Avenue, SE, Washington, D.C. 20003; telephone: 202-488-8787; Fax: 202 659-2254; e-mail: cairl@ix.netcom.com or URL:http//www.cair-net.org; ADC, 4201 Connecticut Ave., NW, Suite 300, Washington, D.C. 20008; telephone: 202 244-2990; Fax: 202 244-3196; email: adc@adc.org or http//www.adc.org; 1212 New York Ave. NW, Washington, D.C. 20005; telephone 202 789-2262; Fax: 202 789-2550; e-mail: amc@amconline.org.

أرسل معلوماتكَ بالفاكس أو بالبريد الإلكتروني. لكن اعْمَدْ دائماً إلى إرسال نسخة بالبريد العادي. فكل المنظمات ترحّب بالاتّصالات الهاتفية، ولكنها تستحسن الحصول على نسخ بالبريد، حرصاً على الدقة.

خامساً: ثابر على مسعاك، ولا تترك خطوتك الأولى تكون الأخيرة؛ فإن حافظتَ على ممارسة الضغط بكياسة، فمن المؤكّد أن تحصل على اعتذار عن الخطأ وتصحيح له. أرسل بياناً عبر البريد تذكُر فيه تفاصيل الشكوى إلى المسؤول، سواءٌ أكنت تكلّمت مباشرة إليه، أم لا. فإن الرسالة ستؤكّد تصميمك على إجراء التصحيح.

وإن لم تلقَ جواباً مرضيّاً خلال بضعة أيام، قم بزيارة الشخص المعني في مكتبه، وأحضر معك نسخة موجزة عن شكواك، واصطحب بعض معارفك ممّن يشاطرونك الرأي إن أمكن. ففي العدد قوة. أما أنا، فكنت، كلما جاءتني جماعة لتزورني في مكتبي في الكونغرس، أجد أن من واجبي قضاء بعض الدقائق معها، مهما أكن منهمكاً في العمل. وكنتُ أفعل ذلك، ولو كانت الجماعة من خارج المنطقة التي أمثّلها.

الدليل المرشد إلى النجاح في التأثير على المشترعين

إذا كنت تودّ بلوغ أقصى درجات التأثير في الكونغرس، لزِمك أن تفهم الحقائق السياسية. فالكونغرس مركز حيوي لصنع السياسة، وأحد أهم المراكز في العالم. وقد اكتسبت معرفتي من تجربتي الطويلة كنائب، وأيضاً من الدروس التي تعلّمها الآخرون وشاطروني إيّاها. لقد قضيت ٢٢ سنة في الجهة التي تتلقى

الضغوط، بصفتي عضواً في الكونغرس، كما أنفقت سنتين بعدها في تأليف كتاب حول نشاطات اللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة. ثم قضيت عشر سنوات مسؤولاً في مجلس المصالح القومية، فازدادت معرفتي وثقافتي غنى. وقد يكون من المجدي إلقاء لمحة خاطفة على الحياة الحافلة بالعمل التي يحياها عضو الكونغرس.

إذا كنت أنا منشئ العبارات التالية، فإن الأفكار التي شكّلتها نابعة من مصادر متعددة، هي: زملاء قُدامى من كلا الحزبين، الجمهوري والديموقراطي؛ أعضاء من طواقم عمل اللجان والموظفين الشخصيين في الكونغرس؛ ناشطون متمرسون في جماعات الضغط ممن يمتلكون معرفة عميقة فريدة بطبيعة الحياة في كواليس الكونغرس، كما يملكون معرفة مباشرة بالأساليب التي تُسفر، عادة، عن نتائج مثمرة، والأساليب التي لا تُجدي نفعاً؛ قدامى العاملين في السياسة على مستوى الدوائر الانتخابية والبلدات؛ المسلمون الذين اكتسبوا خبرة في أروِقة الكونغرس. كل هؤلاء مقتنعون بأن في مقدور كل مواطن أن يؤثّر، بصبره والتزامه، تأثيراً كبيراً على صانعي السياسة في واشنطن، سواءٌ أَعَمل منفرداً، أم عمل كجزء من وفدٍ منتدب، أو جزءٍ من منظمة أكبر.

إن الحياة التي يحياها عضو الكونغرس حياةٌ مشوّقة، وأحياناً تكون ممتعة، تواجه المرءَ، في بعض حالاتها، تحديات لا تحصى، وتسنح له فرص كبيرة للعمل البنّاء. لكنها، كذلك، حياة شاقة، حافلة بالضغوط كل ساعة، وكل يوم، تقريباً. ويضطر أعضاء الكونغرس، على الدوام، إلى التعامل، وفي وقت واحد، مع مطالب متنافسة مختلفة المصادر. منها زيارات يستقبل بها عضو الكونغرس، من الدائرة التي يمثلها، أشخاصاً، بعضهم يحمل مطالب تشريعية؛ بالإضافة إلى جماعات الضغط التي يمدّ أعضاؤها يد المساعدة خلال الحملات الانتخابية، ويتحدثون باسم ناخبين من ذوي النفوذ؛ فضلاً عن الزائرين الذين يأتون لمجرد الدردشة الودّية، والتقاط الصور التذكارية. كل هذه الزيارات تشكّل جزءاً بسيطاً من التحدّيات اليومية.

ولا يمكن لأعضاء الكونغرس إهمال العمل التشريعي. فهم، في معظمهم،

يعملون في لجنتين رئيستين، وأربع لجان فرعية. ويواجهون، على الدوام، جداول مواعيد متشابكة، تجبرهم، عندما تتعارض، إلى اتخاذ قرارات، غالباً ما تكون صعبة، لاختيار أيَّ اجتماعات يحضرون. ويبدأ عمل اللجنة، الممتد من الإثنين إلى الخميس أو الجمعة، عند التاسعة والنصف، أو العاشرة صباحاً، ويليه فوراً، أي عند الظهيرة، جدول أعمال تشريعي مستعجل، ينعقد، في قاعة مجلس النواب في مبنى الكابيتول، وغالباً ما تستمر هذه الجلسات حتى المساء. ولا ينتهي عمل أعضاء الكونغرس عند هذا الحد، إذ تكون بانتظارهم أعمال مكدسة في مكاتبهم، فضلاً عن واجبات الرد على الاتصالات الهاتفية، وقراءة البريد، والإجابة عنه، وتوجيه أعمال موظّفيهم؛ فأفراد طاقم العمل يساعدون عضو الكونغرس، ولكن مهمّة الإشراف والتوجيه تبقى ملقاة على عاتقه.

السباق المُضني في حياة عضو الكونغرس

إليكم أسبوعاً نموذجياً من حياة عضو في الكونغرس:

يشكّل التصويت على مشاريع القوانين، لعضو الكونغرس، أولى أولويات العمل. ونادراً ما يُدرج في جدول أعمال في مجلس النواب أيام الاثنين أو الجمعة. وقد نشأت هذه العادة بتأثير من "نادي أيام الثلاثاء والأربعاء والخميس"، وهي التسمية التي ألصقت بأعضاء الكونغرس الذين يقطنون في مناطقهم الانتخابية، على مسافة ساعة بالطائرة من واشنطن. وقد استطاعوا، بفضل عددهم، التأثير في تحديد مواعيد جدول الأعمال التشريعية؛ فعائلاتهم تعيش في دوائرهم الانتخابية؛ وهم بالتالي يفضلون العمل مساء الاثنين والثلاثاء والأربعاء في واشنطن. فإذا حدد موعد البتّ في مشاريع قوانين مثيرة للجدل أيام الثلاثاء والأربعاء والخميس فقط، استطاعوا قضاء الأيام الأربعة الباقية في منازلهم إلى جانب عائلاتهم، والعمل على حل الخلافات السياسية في المنطقة، من دون إغفال المسؤوليات المهمة الملقاة على عاتقهم في واشنطن.

وما إن يصل عضو الكونغرس إلى منطقته مساء الخميس، حتى يكون أحد مساعديه في انتظاره مع بطاقات مواعيد، تحدد جدول أعمال حافل، للأيام

الثلاثة والنصف المقبلة، أي من الجمعة حتى بعد ظهر الاثنين. ويتضمّن جدول الأعمال والمواعيد، في العادة، مقابلات مع وسائل الإعلام، واجتماعات مع ناخبين من فعاليات المدينة، وإلقاء خطب بدعوة من منظمات محلية، وعقد اجتماعات مع قيادات سياسية ومدنية، ومواعيد مع مجموعات وأفراد من ذوي المصالح، فضلاً عن المهام التي تنتظرهم في مكاتبهم النيابية هناك. وتنتهي هذه الأعمال المنهكة مساء الإثنين أو صباح الثلاثاء، عندما يعود الأعضاء إلى مطار "رونالد ريغان" الوطني في واشنطن. ولدى عودتهم، تكون في انتظارهم مجموعة بطاقات حافلة بالواجبات الموزّعة على أيام العمل الأسبوعي، من الثلاثاء حتى مساء الخميس التالي، بما فيها مواعيد تشبه برنامج عمل عضو الكونغرس في منطقته، فضلاً عن جداول أعمال اللجنة واللجان الفرعية، ودعوات الفطور والغداء والاستقبالات وحفلات العشاء.

ويسافر بعض الأعضاء من "نادي أيام الثلاثاء والأربعاء والخميس" كل ليلة عائدين إلى مناطقهم. وقد أخبرني النائب ويليام أ. باريت، يوماً، أنه تعود أن تقلّه الطائرة ليعود إلى منطقته كل مساء، بعد رفع جلسة المجلس، ليتمكّن من الاجتماع بالناخبين بمكتبه في فيلاديلفيا قبل الذهاب إلى منزله. وفي المقابل، قام، مؤخَّراً، بنجامين روزنثال بخرْق التقليد، لمّا انتقل مع عائلته إلى واشنطن، وهو أول عضو في الكونغرس عن ولاية نيويورك يتخذ خطوة كهذه.

ويضطر بعض الأعضاء، الذين يسكنون على بعد ساعة أو ساعتين بالطائرة، إلى قضاء يوم إضافي في واشنطن. ولكن جدول أعمالهم يبقى مماثلاً تقريباً لجدول أعمال أعضاء "نادي أيام الثلاثاء والأربعاء والخميس"، في واشنطن كان ذلك أم في مناطقهم.

أما الأعضاء الذين يمثّلون دوائر انتخابية أبعد من الساحل الشرقي، فإنهم يقنعون عائلاتهم بالانتقال للعيش في ضواحي واشنطن.

وعلى جميع أعضاء مجلس النواب، تقريباً، أن يبقوا متيّقظين إزاء الانتخابات التالية، لأنّ قلة منهم ينعمون بتمثيل مقاطعات تُعتبر مأمونة سياسيّاً

لمن يمثلها. أما نمط العيش الخاص بأعضاء مجلس الشيوخ، فلا يختلف عن ذلك إلا قليلاً. وعلى الرغم من أن مدّة ولايتهم ست سنوات، مقابل سنتين فقط للنواب، فإن معظمهم أيضاً يعيشون حياة محمومة حافلة بالعمل.

لم تكن إيلينوي مقاطعة مأمونة الجانب سياسيّاً. وأنا، طوال اثنين وعشرين عاماً، كنت أسافر عائداً إليها، مرّتين في الشهر على الأقل، وذلك في عطلة نهاية الأسبوع، وأحياناً كنت أقصدها ثلاث مرّات بل أربعاً. وبعد التقسيم الانتخابي الأخير، اتسعت دائرتي الانتخابية إلى حَوالى ٢٠٠ ميل من الشرق إلى الغرب، و٤٠ ميلاً من الشمال إلى الجنوب؛ ممّا يعني أنني أنفقت، من وقتي، رَدَحاً كنت أتنقّل فيه، عبر البلاد، من موعد الى آخر. وقد مررت بلحظات كنت أُحسد فيها أعضاء الكونغرس الذين يمثّلون دوائر لا تتألّف سوى من بضع مبانٍ مرتفعة.

كان كلُّ يوم حافلاً وشاقّاً. وكانت حماسة أفراد طاقم العمل، لتلبية طلبات الناخبين، تدفعهم إلى ملء كل ساعة فراغ بالمواعيد، في واشنطن كانت المواعيد، أم في منطقتي. وكنت أوبّخهم وأسألهم أن يتركوا لي مواعيد أذهب فيها إلى الحمام، إلى جانب نشاطاتي الأخرى.

هذه اللمحة السريعة قد تساعد القارئ على أن يضع نفسه موضع ممثّله في الكونغرس، قبل أن يضرب معه موعداً لمقابلة شخصية. كان لي صديقٌ وزميلٌ من داكوتا الجنوبية من أم هندية تنتمي إلى قبيلة السيو، قد علّق على حائط مكتبه رسالة موجهة إلى الجميع، ولا سيما من يحاولون التأثير في ممثلهم بالكونغرس، جاء فيها: "لا تنتقد بتاتاً محارباً هنديّاً شجاعاً إلا بعد أن تبتعد عنه مسافة ميلين منتعلاً حذاءه".

كيف تحصل على الدعم في الكونغرس

إذا كنت ترغب في زيارة عضو بالكونغرس، لالتماس دعمه لقضية معينة، فهاك بعض الاقتراحات:

أوّلاً: كن لبقاً في التعبيرعن طلبك للموعد. ابدأ بذكر أمر جدير بالثناء قام به مـؤخّراً. ثم حدّد، بإيجاز، هدف اتصالك. وعبِّر، في النهاية، عن معرفتك بوتيرة العمل المحمومة في الكونغرس واعداً إيّاه بأنّك لن تهدر من وقته إلاّ عشر دقائق.

ثانياً: جهِّز مسبقاً، وبعناية، كل ما يلزم لزيارتك: كأن تبحث، مثلاً، عمّا قاله عضو الكونغرس، أو فعله، بشأن المسألة التي تشكل موضوع اهتمامك. في هذه المناسبة، ما زلت أذكرُ جيّداً زيارة قامت بها إحدى مجموعات الضغط إلى مكتبي، حيث طلب مني الناطق باسمها دعم إجراءات ثلاثة كنت، قبل مجيئه إلى مكتبي، قد اتخذت الخطوات التي جاء من أجلها. ولكنه لم يكلّف نفسه عناء مراجعة السجلّ العام؛ ولو فعل ذلك، لعرفَ ما فعلت، ووفر عليَّ، وعليه، وقتاً ضيعناه.

ثالثاً: أحضر معك، يوم الموعد، نسختين عن موجز مطبوع لا يتعدى الصفحة الواحدة، موضحاً فيه هدف الزيارة، مع اسمك وعنوانك ورقم الهاتف. حتى إذا حال شيءٌ مّا دون إجراء المقابلة، تدع الورقة مع أحد الموظفين.

رابعاً: احضر في الوقت المحدد. فإن لم يكن عضو الكونغرس موجوداً لاستقبالك، فلا تُظهر أنك فوجئتَ أو انزعجت، فربما كان هذا العضو قد استدعي، فجأةً، إلى المجلس لتثبيت حضوره، أو اضطر للمشاركة في مناقشة مهمة، حالت دون تقيده بالمواعيد المسجلة. في هذه الحالة، أقترح عليك انتظاره في مكتبه، أو التوجّه نحو مبنى الكابيتول. فقد يقوم العضو بقطع اجتماعه لمناقشتك في الموضوع بإيجاز. أو عُد في وقت لاحق من النهار. تقبّلْ ما قد يحصل بلباقة ورَوية. وإن استحال إجراء مقابلة مباشرة، فتعامل مع الأمر بلباقةٍ أيضاً؛ فقد يحاول المساعد أن يصلك بعضو الكونغرس من طريق هاتف طابق آخر.

خامساً: بعد بدء المناقشة، وبعد أن تكون مدحت العضو على عمل محدّد

قام به، ادخل مباشرة في صلب الموضوع الذي جئت من أجله. وإن كنت وعدته أن يستغرق الأمر عشر دقائق، فأوفِ بوعدك، لكن اترك بحوزة العضو موجزاً مكتوباً للغرض من زيارتك.

سادساً: أكتب كلمة شكر وتقدير، عندما تصل إلى منزلك مهما تكن نتيجة الموعد، ثم ضع رسالتك في مغلّف وعَنونِها بـ"حضرة المحترم"، ولو لم يكن يستحقّها. وبقدْر ما تكون هادئاً، ولبقاً، مراعياً شعور الآخرين، تحصل على احترام عضو الكونغرس، ورئيس طاقم العمل وتقديرهما؛ فقد يكون الرجلان مهمين لنجاحك في المستقبل.

مفاتيح النجاح للجنة الأميركية الإسرائيلية للشؤون العامة (AIPAC)

على مدى سنوات طوال، ظلت اللجنة الأميركية الإسرائيلية للشؤون العامة، إيباك، وهي اللوبي الأميركي الرئيسي لإسرائيل، لوبي السياسة الخارجية الأكثر نجاحاً في تاريخ الولايات المتحدة. لكنَّ ما يُؤسِف: أن فريق إيباك، الجدير بالاحترام، الذي يحترف فنون الضغط والتأثير، غالباً ما يلجأ، أيضاً، إلى أساليب التهديد والعنف التي تمارسها عناصر أخرى من جهاز اللوبي المؤيّد لإسرائيل. وتكون النتيجة الحدّ من قدرة عمل المؤسسات الديموقراطية العزيزة على قلوب الأميركيين، وسقوط ضحيتين هما: المناقشة الصريحة للقضايا ذات الصلة بمصالح إسرائيل، وحرية التعبير. ويمكنني أن أَشْهَد، من خلال رصدي الشخصي، بأن الكونغرس لم يشهد، منذ قرابة الخمسين عاماً، نقاشاً للسياسة في الشرق الأوسط يتّسم بالتوازن. ولكن الإساءات لا تعني، أبداً، بطلان الإجراءات الأساسية لعمل إيباك. فطرق عمل المنظمة يمكن أن تكون مُرشداً مفيداً لمجموعات أخرى تناصر قضايا أخرى. وقد وصف أ.ل.كينان، مؤسس إيباك في العام ١٩٥١، هذه المنظمة، وصفاً دقيقاً، لمّا قال إنها خط الدفاع الإسرائيلي الأول، بسبب دورها الأساسي في كسب المعارك السياسية في واشنطن. فقد انتصرت إيباك على مدى السنوات العشرين الماضية في كل

الصراعات التشريعية في الكونغرس، ولم تخسر إلا مرتين خلال السنوات الأربعين الماضية، عندما فشلت في منع بيع طائرات حربية إلى المملكة العربية السعودية، وإن كانت قد نجحت في ذلك الحين في ضمان إجراء تعديلات في الصفقة حَدّتْ من نطاق استخدام تلك الطائرات، وفاعليته.

وقد استطاعت إيباك بلوغ هذا الحد من الانتصارات، باعتمادها مستويات عالية من الاحتراف في عملها، والتصرف بحذر في نطاق القانون العام؛ وعبارة "اعرف عضو الكونغرس الذي يمثّلك" تشكل أكثر من شعار. فمعظم جماعات الضغط لا تتابع إلا أصوات المقترعين الأساسيين، في مجلس النواب أو في مجلس الشيوخ. وما هذه، لِلُّوبي الإسرائيلي، سوى نقطة انطلاق. وتحتفظ إيباك بسجلات مفصّلة تتضمن كيفية رد أعضاء الكونغرس على سلسلة كبيرة من القضايا، وكيفية تصويتهم، وماذا يقولون في جلسات اللجان، بالإضافة إلى مشاريع القوانين التي يطرحونها، أو يشتركون في توقيعها، والرسائل العامة التي تحمل توقيعاتهم، واهتماماتهم الخاصة التي تتجاوز سياسة الشرق الأوسط.

ويضطلع كل عضو في فريق عمل إيباك المحترف بمسؤولية الاهتمام بأعضاء محددين في الكونغرس، ويتضمن ذلك الاهتمام الاحتفاظ بملفات شخصية وتحديثها؛ والأهم منها بناء علاقة ودية مع كل عضو ومساعده الرئيسي والحفاظ عليها. وأثناء وجودي في الكونغرس، كنت واحداً من أربعين عضواً في مجلس النواب كُلّف العضو العامل في إيباك، رالف نورنبرغر، أن يكون مسؤولاً عنهم. وقد نَعَتَني رئيسه بـ"عدوّ إسرائيل رقم واحد"، بسبب انتقادي لسياسات إسرائيل؛ ومع ذلك، قامت بيني وبين نورنبرغر صداقة أساسها الاحترام المتبادل، ولا تزال حتى اليوم. وأنا على ثقة أنه أجاب عن كل سؤال طرحته عليه بكل صدق، ولم يعمد إلى تضليلي قط. وقد حافظ زملاؤه في إيباك على المعايير نفسها. ونتيجة لذلك، كانوا يستطيعون الاتصال بأعضاء الكونغرس بسهولة. وقد أوضح لي مساعد عضو في الكونغرس هذا السلوك، بقوله: "ان الاحتراف هو أحد الأسباب. فهم يعرفون ماذا يفعلون: الدخول في صلب الموضوع، ثم المغادرة. وهم، في الأغلب، مصدر مفيد للمعلومات؛ وهم

ودّيون وموضع ثقة. والأهم من ذلك أن المشترعين يعتبرونهم صلة وصل مباشرة بين ناخبين مهمّين في الدوائر الانتخابية[١].

هذا الاحتراف يمكّن إيباك من إعداد الأشخاص والوفود المؤيّدة لإسرائيل إعداداً شاملاً قبل أن يقوموا بزيارة أعضاء الكونغرس والرسميين في السلطة التنفيذية، فيتوجهون لإجراء المقابلة المقرّرة، وهم على معرفة دقيقة بما كان المسؤول يفعله أو يقوله. وشخص واحد، فقط، يتولّى الكلام باسم المجموعة فيدخل، بسرعة وكفاية، في صلب موضوع الزيارة.

ويقدّم مسؤول سابق رفيع، في وزارة الخارجية الأميركية، تقييماً لانضباطية الوفود المكلفة إجراء الاتصالات لمصلحة إسرائيل، فيقول: "عندما تضطر إلى تقديم تفسير لمواقفك، يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع، إلى المجموعات اليهودية الأميركية، من مدينة كنساس مثلاً، إلى شيكاغو وشرق أوفرشو، تدرك ما أنت بصدده. إنهم أناس من مناطق مختلفة في البلاد، لكنهم يجيئون ولديهم المعلومات ذاتها، والأسئلة ذاتها، والانتقاد ذاته". ويضيف أن الوفود الأخرى تفتقر للانضباط، فيقول: "عندما يأتي وفد يقلقه انحياز الولايات المتحدة لإسرائيل، يبدأ أفراده بالجدال في ما بينهم، عندئذٍ لا أجدُ سبيلاً سوى الجلوس في الخلف والاستماع لجدالهم. فهم لم يعملوا مسبقاً على تحضير ما يريدون قوله"[٢]. لكنني أشعر اليوم بأن المجموعات المؤيدة للمسلمين باتت تتبع نموذج إيباك.

ولدى اللوبي الأميركي، المؤيد لإسرائيل، جهاز لافت للاهتمام، تتعدى مهامه مراقبة أعضاء الكونغرس وتدريب الوفود التي تزور واشنطن. إنه يضمّ شبكة من المواطنين الأميركيين تشكل الأداة الأكثر فعالية والأقل شهرة في اللوبي. وأنا أدعو هؤلاء المواطنين بالموالين، فقد بنى كلٌّ منهم علاقة بسيناتور أميركي من ولايته، أو بالنائب الذي يمثّل دائرتهم الانتخابية. وقد أرْسَوْا هذه

(١) Paul Findley, *They Dare to Speak Out*, p.37.
(٢) Ibid., pp.163-4.

العلاقات لهدفٍ أوحد، هو تعزيز مصالح إسرائيل في السلطة التشريعية وحماية هذه المصالح. ولا يرغب هؤلاء الموالون في الشهرة؛ فهم يتفادون المقابلات الصحفية، ويحاولون البقاء بعيداً من الأضواء.

ويعود سبب نجاح إسرائيل في اكتساب نفوذ قوي، في الكونغرس والهيئة التنفيذية، ونجاحها في الحفاظ عليه، إلى التأثير الذي يمارسه هؤلاء الموالون. فهم يقدِّمون الدعم لأعضاء الكونغرس الذين يقيمون صلات بهم. وهذا الدعم غير مشروط وغير قابل للانتقاد، لأنهم يريدون أن يكون دعم هؤلاء الأعضاء لإسرائيل في الكونغرس، غير مشروط وغير قابل للانتقاد. ولا تُعتبر إيباك اللوبي الوحيد الذي يملك شبكة من المؤيدين في أنحاء البلاد. فهناك مجموعات ضغط أخرى منها: الجمعية الوطنية للرماية، الجمعية الأميركية للمتقاعدين، الجمعية الطبية الأميركية، اللجنة الوطنية للدفاع عن الحق في الحياة. لكن نجاح إيباك في السيطرة على ميدانها السياسي لا يوازيه نجاح ممثل. صحيح أن المجموعات الإسلامية تحقق تحسّناً مطّرداً في جهاز اللوبي الإسلامي، لكنها لم تتوصل، حتى الآن، إلى تطوير شبكة موازية من الموالين الملتزمين المتجاوبين والمحترفين، كالشبكة التي تعمل لصالح إسرائيل. ويدعم الموالون في إيباك باستمرار أعضاء الكونغرس المرتبطين بهم، فيقدمون لهم مساهمات مالية كبيرة خلال الحملات الانتخابية لتغطية تكاليف الترشيح الدائمة الارتفاع، وهو تحدٍّ لا يدركه جميع الأميركيين.

وقد أشار ميرفين م ديماللي، وهو زميل سابق لي من كاليفورنيا، إلى أن الأميركيين العرب يفتقرون إلى "حس الإحسان السياسي" على ما يبدو[1]. وأعتقد أن العديد من المسلمين غير العرب يعانون العلة ذاتها، فهم يشعرون بالارتياح في الإسهام بسخاء لبناء مسجد أو مدرسة. لكنهم لم يدركوا إلى الآن أن هناك حاجة أيضاً إلى الاستثمارات الكبيرة في الحملات السياسية، من أجل تعزيز رفاه المسلمين.

(١) Paul Findley, *They Dare to Speak Out*, p.324.

وأخبرني السيناتور السابق بول سايمون، ذات يوم، ومن خلال ما خَبِره شخصيّاً، بأن للمكالمات الهاتفية التي يجريها مانحون مهمون أولوية على مكالمات أشخاص آخرين. بمعنًى آخر، أقول: على المسلمين أن يدركوا أن الإسهام السخيّ في الحملات الانتخابية من شأنه أن يؤتي ثماراً مهمة للمسلمين. إن الموالين الذين توجّههم إيباك تتملّكهم حماسة المساعدة. فهم مستعدون، على الدوام، للترحيب الحارّ بأي عضو في الكونغرس يزور بلدتهم لأي غرض كان، ويبعثون برسائل التهنئة والدعم، ولا يتذمرون أبداً مهما قال عضو الكونغرس في خطبته، وبغض النظر عن كيفية تصويته في أي موضوع كان. وإن قام عضو الكونغرس بعمل، أو أدلى بقول، يعتبرونه غير مفيد، فإن الموالين يطلبون التوضيح، ولكن بطريقة لا تنمّ عن التذمّر. فالصفوة من الأصدقاء هم أولئك الذين لا يتذمرون أبداً، ويعرضون المساعدة على الدوام. وقد كان لي، خلال حياتي العملية في الكونغرس، عدد من المؤيّدين من أمثال هؤلاء. إن الموالين في إيباك يوفّرون لإسرائيل شبكة دعم متينة، يمكن الاعتماد عليها في الكونغرس؛ ويمكن تشغيلها بشكل فوري فعّال، على الصعيدين، الوطني والإقليمي، بل يمكن تشغيلها حتى وَسْطَ جماعات قد يتوقع المرء أن لا مؤيّدين فيها لإسرائيل.

شبكة إيباك الفعّالة

في يوم من أيام عام ١٩٧٨، اكتشفت مدى فعالية هذه الشبكة، عندما كانت لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب، تنظر في مشروع قانون يؤمّن المساعدة لإسرائيل. كنت عَكِر المزاج يومذاك، فهمستُ في أذن زميل يجلس إلى جانبي بأنني قد أقدّم تعديلاً على المشـروع، لتخفيض المساعدة المقترحة. لم أكن قد ذكرت مسألة التعديل لأحد من قبل، حتى إنني لم أدوّن شيئاً على الورق. كانت فكرة عابرة. كنت أدرك أن اقتراح خفض المساعدة لإسرائيل لن يحصل سوى على صوتٍ مؤيد واحد، هو صوتي. ولو قدّمت اقتراحي لما كان

الأمر أكثر من تصريح أحدّد فيه موقفاً سياسياً. نزعت تلك الفكرة من رأسي على الفور، تقريباً، ورُحتُ أنظر في قضايا أخرى من دون أن أقول المزيد لزميلي عن فكرة التعديل.

ولننتقل الآن إلى التتمة المشوّقة للقصة. ففي غضون ٣٠ دقيقة، رأيت عضوين آخرين من اللجنة يتقدّمان مني، وعلامات القلق على أوجههما، فقالا لي إنهما تلقّيا اتصالات هاتفية من أشخاص، من مناطقهما، سمعوا بالتعديل الذي أنوي اقتراحه، فأقلقهم ما سمعوا. في تلك اللحظة، كانت ملاحظتي، شبه المازحة التي أبديتها لزميلي عن اقتراح التعديل، قد غابت بشكل كلّي عن تفكيري، وتملكتني الحيرة من تعابير القلق المرتسمة على وجوه زملائي في اللجنة. ثم أدركت أن الكلمات التي همست بها إلى زميلي انتقلت، خلال دقائق معدودة، من غرفة اللجنة في الكونغرس، إلى دوائر انتخابية بعيدة، لتعود من ثَمَّ إلى غرفة اللجنة. وعلمتُ في وقت لاحق، ماهية الحلقات التي شكّلت سلسلة الحوادث التي تلت:

أوّلاً: أخبر زميلي، الجالس إلى جانبي، زملاء آخرين ما كنت أنوي فعله. ثانياً: وصلت هذه المعلومة إلى أحد أفراد طاقم إيباك الذي كان يحضر الجلسة. ثالثاً: سارع هذا الشخص للاتصال بمقر الإيباك لينقل الشائعة، ومعها أسماء أعضاء اللجنة المجتمعين. رابعاً: قام الموظفون في إيباك بالاتصال بالموالين في مناطق النوّاب أعضاء اللجنة. خامساً: استجاب الموالون على الفور، فاتصلوا بممثليهم من النواب مُعربين عن قلقهم. سادساً: قام عضو اللجنة بإبلاغي مباشرة قلق هؤلاء النواب.

وتجدر الإشارة إلى أن مقر إيباك الرئيسي لم يُرسِل إليّ مباشرة، أو إلى أعضاء اللجنة الآخرين، أحداً من أفراد هيئته العاملة للاستفسار عن الشائعة. ذلك أن المنظمة أعلمت الموالين في مناطق هؤلاء النواب بالخبر، لعلمها بأنهم سيُعربون عن قلقهم، بلباقة وبسرعة وبفاعلية، لأعضاء الكونغرس الذين

يمثلونهم. وقد خدمت هذه المقاربة غير المباشرة مصالح إيباك بطرق عديدة: تمكنت إيباك من قياس المدة التي تستغرقها ردة الفعل، فكلّفت الموالين القيام بعمل محدّد ومهمّ؛ وولّدت انطباعاً إيجابياً لدى الجميع عن فاعليتها. وقد تساءلتُ أيضاً: هل كانت إيباك تحتفظ بساعة توقيت لتسجيل الوقت الذي تستغرقه كل خطوة في العملية. وعندما سألت رالف نورنبرغر عن ردة الفعل السريعة، أجابني: "هؤلاء الأشخاص في غاية المهارة. هم يعلمون بالضبط ماذا يقولون".

ويرفع الموالون في شبكة إيباك المطالب لأعضاء الكونغرس، فقط عندما تكون القضايا، التي تنتظر البتّ، ذات صلة مباشرة بمصالح إسرائيل، كشائعة اقتراح التعديل الذي أردت تقديمه لخفض المساعدة. ويقوم الموالون، في مثل هذه الأوقات، بإجراء الاتصالات بممثليهم من النواب أو الشيوخ، الذين يسارعون إلى الرد مباشرة على الاتصال، بسبب ما يعرفونه عن الموالين من ثبات دعمهم السياسي وسخائه. فهم، عندما يرفعون المطالب، فإنما يكون ذلك بأسلوب لائق هادئ، بلا تهديد أو ضغوط. وبذلك ينجح مخططهم الذي يضمن تعاون أعضاء الكونغرس شبه المؤكد، وهكذا يحصل الموالون لإسرائيل على ما يودّون متى طلبوه، على افتراض غياب أي ضغط معاكس يمارسه ناخبون آخرون، من الذين يعترضون على المساعدة غير المشروطة لإسرائيل.

وهذا الأسلوب الفعّال في التأثير والضغط يجب أن يكون نموذجاً تحتذيه بحكمة المجموعات ذات المصالح التي تسعى ليكون لها نفوذ في واشنطن. إن بناء شبكة إيباك لم يكتمل بين ليلة وضُحاها، بل استغرق خمسين عاماً تقريباً. وبناء شبكة فعّالة للتأثير في صنع القرارات في واشنطن ذات الصلة بالأفكار المنمطة حول الإسلام، هدف ينطوي على التحدي، ويتطلب جهداً يتّسم بالمثابرة والصبر.

ويُمكن للصبر أن يكون بأهمية المال. فإذا شرع المسلم، مثلاً، بالعمل

كمُوَالٍ مخلص ومُؤثِّر، فإن عضو الكونغرس لن يقوم على الفور، أو بعد وقت قصير، بتغيير عاداته في التصويت؛ لكن الحكمة تقضي بأن يتحلى الموالي بالصبر واللباقة ومواصلة موقفه الداعم. وفي نهاية المطاف، يأتي اليوم الذي تُؤتي فيه هذه الصفات ثمارها. وهذا الهدف يمكن بلوغه ويستحق عناء الجهد والصبر. فما أحرزه المسلمون من تقدم يُعدّ بداية تَعِد بالكثير. وقد استنتجتُ من خلال أسفاري عبر أميركا أنّ لجان الشخص الواحد لدى المسلمين قد خَطتْ خطوتها الأولى لمواجهة التحدي.

الذروة في الموالاة

إن الخطوط الحزبية الفاصلة ليست صارمة على الدوام. وبحكم انتسابي، طَوال حياتي، إلى الحزب الجمهوري، أؤمن بالانتماء الحزبي إيماناً شديداً. وأنا، مع ذلك، غالباً ما كنت أتخطى الحدود الحزبية، وأعمل بصورة وثيقة مع الديموقراطيين. وكثير من الديموقراطيين من أعز أصدقائي اليوم، كالنائب الديموقراطي توماس فولي، الذي تولى، في وقت من الأوقات، رئاسة مجلس النواب، ثم أصبح سفيراً للولايات المتحدة في اليابان. لقد روى لي، منذ عدة سنوات، مثلاً فريداً عن الموالاة السياسية. ذات ليلة، كنا معاً في الطائرة، مسافرين في رحلة طويلة، فقال لي: "لقد تلقّيت اليوم اتّصالاً من أحد المؤيّدين القدامى لي يُعرب فيه عن قلقه حيال الانتخابات المُقبلة. وقال لي ألاّ أقلق بدوري، لأنّ خصمي، كما أخبرني، رجل فظيع لا يحبّه أحد. وأضاف، بنبرة فيها نوع من الإدانة، أن خصمي، وأكرر ما قال حرفياً، "ليس إلا محامياً إيرلنديّاً كاثوليكيّاً من بلدة سبوكان". وختم كلامه قائلاً: "لا تقلق يا توم، نحن جميعاً إلى جانبك. أنت مفخرة لنا، وسنؤيّدك حتى النهاية". وأضاف فولي بضحكة خافتة: "لقد نسي صديقي الوفي أنني أنا أيضاً لست إلا محامياً إيرلنديّاً كاثوليكيّاً من سبوكان".

لقد ساعدني كثير من الديموقراطيين خلال حملاتي الانتخابية. ولي جار

صديق، ديموقراطي الانتماء، متقدم في السن يدعى أوتيس هيسلي. تولى مرةً وظيفة سياسية في محكمة المقاطعة، ولم تطاوعه نفسه طلب ورقة الاقتراع الخاصة بالحزب الجمهوري يوم الانتخابات، مع أنه كان على عَلِمَ بأني أواجه منافسة شديدة في محاولتي نيل ترشيح الحزب لمقعد في الكونغرس. مع ذلك، عمل ساعات طوالاً خلال حملتي في الانتخابات الأولية، كمتطوع في مركز الحملة. ثم "حجب" صوته المعتاد الموالي للديموقراطيين وصوَّت لي أنا، في الانتخابات العامة التي تلت، في تشرين الثاني/نوفمبر.

وكان واحداً من أكثر قادة حملاتي الانتخابية ولاءً وفاعلية، وتخطى، بذلك، الجدد المبتدئين في حقل السياسة. إن بيل كارل، مثلاً، وهو رجل أعمال من جاكسونفيل في إيلينوي، وغير متمرّس في المجال السياسي، أثبت جدارته كمدير لحملاتي الانتخابية طوال حياتي السياسية. فقد كان خبيراً في تجنيد المتطوعين وإبقاء الحماسة في نفوسهم. لقد كان، بالشراكة مع شقيقه تيد، يملك مصبغة ثياب في وسط منطقتي. وقد أخذ على عاتقه تحدّياً عسيراً في الدفاع اليومي عن سجلي في الكونغرس طوال ٢٢ سنة متواصلة. إنه لم يتوانَ، وهو ابن مهاجرٍ يوناني، عن دعمه لي حتى حين أثرتُ غيظ اللوبي اليوناني، بدفاعي عن مساعدة الولايات المتحدة لتركيا، التي كانت على خلاف مع اليونان حول جزيرة قبرص في ذلك الحين.

إن الذكريات الحميمة التي رويتها في الفصل العاشر عن محاولاتي الفاشلة كمرشح في الانتخابات، تذكّرني بحملتي الأولى لتولّي منصب عام، والتي فشلتُ فيها أيضاً. ففي العام ١٩٥٢، أعلنت عن خوضي معركة الفوز بترشيح الحزب الجمهوري لي، لمقعد في مجلس الشيوخ في ولايتي، وكنت لا أزال شاباً ريفياً أعمل محرراً صحافياً، وأعلم أن فرص نجاحي قليلة. وقبل البدء بحملتي، طلبت نصيحة من الديموقراطي الموقّر، القاضي كلاي ويليامز. ولم أنسَ كلماته تلك قط، قال لي: "باشر حملتك بحيث تَكْسِب الأصدقاء، ولو لم تكسب المنصب". وحاولت اتّباع نصيحته، ولم أفز بترشيح الحزب. لكن، بعد

مرور ثماني سنوات، ساعدني على الفوز في الانتخابات، ودخول الكونغرس، أناس التقيتهم خلال الحملة الانتخابية الأولى تلك للفوز بمقعد في مجلس شيوخ الولاية، بمن فيهم المحامية ليليان شلاغينهوف التي هزمتني آنذاك.

وخلال حملاتي الانتخابية كلها، حذوتُ حذوَ مُرْشد عَلمْ، وعلي عَلَمي، في السنوات الأخيرة، وطرقت الأبواب على الرغم من رداءة الطقس، لكنني لم أكن أسأل مَن التقيتهم عن انتماءاتهم الحزبية. وبقيت على اتصال بأغلب الأشخاص الذين التقيتهم بواسطة أسمائهم وعناوينهم التي دونتها على بطاقات خاصة، ودأبت على الاتصال بهم كما لو كانوا أعضاء في ما أسميته لجنتي الاستشارية. وكانت هذه اللائحة من الأسماء تكْبَر باستمرار، وقد فُزت منها بعدد من المؤيدين المخلصين في حملاتي الانتخابية المتعاقبة، وقد أدخل مرشد عَلَم تحسينات كبيرة على هذا الأسلوب الذي اتبعته.

بإمكان شخص واحد أن يُحْدث فرقاً

دخل بول سايمون، منذ سنوات طويلة، معترك العمل السياسي، من طريق لجنة الشخص الواحد في مدينة صغيرة جنوب إيلينوي. وأثبتت محاولاته بأن في وسع شخص واحد، يتمتّع بالعزم والتصميم، أن ينجح في المجال السياسي من دون إنفاق أموال طائلة، أو التخلي عما يؤمن به خدمة لمصالح خاصة. فمنذ خمسين سنة، وعندما بدأتُ أولى نشاطاتي في الشؤون العامة، كان سايمون قد أعاد إصدار صحيفة أسبوعية متوقفة وحوّلها إلى صوت جمهوري حرّ، وشرع يبني سمعة شخصية في الساحة السياسية، يُحسد عليها، وذلك على الرغم من ضائقته المالية وافتقاره إلى الدعم السياسي.

ولمّا كان سايمون في التاسعة عشرة من عمره، أي قبل سنتين من بلوغه سن الاقتراع، تسنّت له فرصة العمل في الصحافة فترك الجامعة. ومن طريق قرض متواضع من المصرف، تمكّن من إحياء أسبوعية "تروي تريبيون" التي كانت قد توقّفت عن الصدور في بلدة تروي في إيلينوي. وعلى الرغم من أنه

كان فقيراً إلى حدٍّ أنه كان يُسْكت جوعه أحياناً بأكل الفشار، باشر فوراً بحملة في الصحيفة ضد المسؤولين المحليين لتقاعسهم في تطبيق القوانين التي تحرّم الدعارة والميسر، ثم وسّع هجومه ونجح في إجبار عنصر من عناصر الجريمة المنظمة على التراجع.

وفي الخامسة والعشرين من عمره، فاز بانتخابات مجلس ممثلي ولاية إيلينوي بدعم من مواطنين معجبين بنزاهته وحماسته. ثمَّ خاض منفرداً أولى معاركه الطويلة، ضد الفساد على صعيد الولاية. ووصل به الأمر، إلى استهداف قوة رئيسية في الحزب الديموقراطي الذي تنتمي إليه، هي الماكينة السياسية التي كانت تتحكم بمدينة شيكاغو. وكنت في ذلك الوقت محرّراً في صحيفة أسبوعية ببلدةٍ صغيرة تجاور منطقة سايمون، وتعرّفت إليه في مؤتمر جمعية صحافيي إيلينوي. وقد أثارت حملة سايمون على الفساد الشعور بالازدراء والاستياء حياله من كلا الحزبين الجمهوري والديموقراطي. وقد عمل جاهداً للمحافظة على سمعته. وكنت أتلقّى طوال سنوات، وكباقي المحرّرين في المنطقة، نسخاً عن تقارير سنوية كان سايمون يضمّنها تفاصيل دقيقة عن دخل العائلة ونفقاتها. وقد ورد يوماً، في أحد التقارير، أنه تلقى ١٢ دولاراً حصل عليها من بيع قطعة منزلية. وأدى عمله كمشترع إلى إجراء إصلاحات تشريعية واكتسابه صفة "السيد نزيه". وبعد أن عمل لمدة ولاية كاملة، كمساعد حاكم، ولمدة سنتين في مهنة التعليم الجامعي، بدأ حياة عملية طويلة ومميزة في واشنطن، وذلك عندما انتُخب عضواً في المجلس النيابي، ومن بعدها عضواً في مجلس الشيوخ.

تقاعد سايمون من مجلس الشيوخ في العام ١٩٩٧، لكنّه لم يتنحَّ عن الساحة السياسية. فقد خاض حملة انتخابية في السنة التالية ليكون مرشح الحزب الديموقراطي في انتخابات الرئاسة. وقد تفوّق على غيره من الديموقراطيين في مؤتمر الحزب في ولاية ايوا. لكنه أوقف حملته بعد أن أسفرت الانتخابات الأولية عن نتائج مخيّبة. وفي السنة نفسها، أصبح مدير معهد السياسة العامة في جامعة إيلينوي الجنوبية، حيث يقف في طليعة العاملين من أجل القضايا العادلة، ويؤلف الكتب، ويمتهن التعليم.

وكلما سمعتُ الإصرار الساخر على المزاعم القائلة ان شخصاً واحداً لا يستطيع أن يُحْدث فرقاً في السياسة الأميركية، يَحضُر بول سايمون إلى ذهني على الفور، فأتذكر حياته المهنية المميزة. إنه، من طريق العمل بعزم وعن قناعة، ووحيداً في أغلب الأحيان، حدّد معياراً سامياً لسلوك الفرد هو المثالية والعلم والقيادة. ولا شك في أن بعض الذين يقرأون هذه الكلمات، لديهم، من النزاهة والذكاء والالتزام، ما يجعلهم قادرين على أن يصبحوا، مثل سايمون، نجوماً تتألق في سماء السياسة.



المنظمات والمؤسسات الإسلامية والعربية الواردة في الكتاب

اتحاد المسلمين الأميركيين	AMA: American Muslim Alliance
مجلس الشؤون العامة الإسلامية	MPAC: Muslim Public Affairs Council
المجلس الإسلامي الأميركي	AMC: American Muslim Council
مجلس العلاقات الإسلامية ـ الأميركية	CAIR: Council for American Islamic Relations
مجلس الشؤون الإسلامية، لوس أنجلس	MAC: Muslim Affairs Council, Los Angeles
المركز الإسلامي لكاليفورنيا الجنوبية، لوس أنجلس	ICSC: Muslim Center of Southern California, Los Angeles
رابطة المرأة الإسلامية لأميركا، كاليفورنيا	MWL: Muslim Women's League of America, California
مركز المعلومات الإسلامي لأميركا، شيكاغو	IICA: Islamic Information Center of America, Chicago
المركز الإسلامي للأبحاث والمعلومات، نيويورك	CAMRI: Center for American Muslim Research and Information, New York
الجمعية الإسلامية لأميركا الشمالية	ISNA: Islamic Society of North America
اللجنة العربية ـ الأميركية المناهضة للتمييز	ADC: American Arab Anti-Discrimination Committee
مجلس كولورادو الإسلامي، دنفر	CIC: Colorado Islamic Center in Denver
اتحاد الطلاب المسلمين، الولايات المتحدة وكندا	MSA: Muslim Student Association of the United States and Canada
مؤسسة جامع السلام، شيكاغو	ASMF: Al Salam Mosque Foundation, Chicago
مجلس المنظمات الإسلامية لشيكاغو الكبرى	CIOGC: Council of Ismalic Organizations of Greater Chicago

MEC: Muslim Education Center	المركز التربوي الإسلامي
MACRLD: Muslim Americans for Civil Rights and Legal Defence	المسلمون الأميركيون من أجل الحقوق المدنية والدفاع القانوني
AAI: Arab-American Institute	المؤسسة العربية الأميركية
ICNA: Islamic Circle of North America	الحلقة الإسلامية لأميركا الشمالية
AMCF: American Muslim Council Foundation, Washington	مؤسسة المجلس الإسلامي الأميركي في واشنطن
IIC: Islamic Information Center, Des Plaines, Illinois	مركز المعلومات الإسلامي في دي بلاين، إيلينوي
ILCNA: Islamic Law Council of North America	مجلس الشريعة الإسلامية لأميركا الشمالية
MFA: Muslim Foundation of America	المؤسسة الإسلامية لأميركا
CAMP: Christians and Muslims for Peace	منظمة المسيحيين والمسلمين من أجل السلام
IIIT: The International Institute of Islamic Thought, Herndon, Virginia	المؤسسة الدولية للفكر الإسلامي في هيرندون، فرجينيا
UASR: The United Association for Studies and Research, Anandale, Virginia	الرابطة المتحدة للدراسات والأبحاث في اananديل، فرجينيا
MAS: Muslim American Society	الجمعية الإسلامية الأميركية
CSID: Center for the Study of Islam and Democracy, Burtonsville, Maryland	مركز دراسات الإسلام والديمقراطية في بورتونسفيل، ميريلاند
NIPF: National Islamic Prison Foundation	المؤسسة الإسلامية الوطنية للسجون
CAIRSC: Council of American Islamic Relations for Southern California	مجلس العلاقات الإسلامية الأميركية لكاليفورنيا الجنوبية
TAMC: Texas American Muslim Caucus	المؤتمر الحزبي الإسلامي الأميركي في تكساس
AMU: American Muslim Union	الاتحاد الإسلامي الأميركي
AAUG: Association of Arab-American University Graduates	جمعية المتخرجين الجامعيين العرب ـ الأميركيين
FMAO: Federation of Muslim American Organizations	اتحاد المنظمات الإسلامية الأميركية

مجلس التنسيق للمنظمات الإسلامية	CCMO: Coordinating Council of Muslim Organizations
مجلس التنسيق السياسي الإسلامي الأميركي	AMPCC: American Muslim Political Coordination Council
الرابطة الوطنية للعرب الأميركيين	NAAA: National Association of Arab Americans
مجلس رؤساء المنظمات العربية الأميركية	CPAAO: Council of Presidents of Arab American Organization
مجلس الحكم الصالح	CGG: Council for Good Government
مؤسسة المجلس الإسلامي الأميركي	AMCF: American Muslim Council Foundation



صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

سلسلة السياسة

مجموعــات

مجموعة الصحفي روبرت فيسك

- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة – (في كتاب واحد)
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة – الجزء الأول الحرب الخاطفة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة – الجزء الثاني الإبادة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة – الجزء الثالث إلى البرية
- ويلات وطن

مجموعة د. عصام نعمان

- هل يتغيّر العرب؟
- العرب على مفترق
- أميركا والإسلام والسلاح النووي
- حقيقة العصر – عصام نعمان وغالب أبو مصلح
- على مفترق التحوّلات الكبرى... ما العمل؟

مؤلفات د. محمد حسنين هيكل

- الحل والحرب!
- آفاق الثمانينات
- قصة السويس
- عند مفترق الطرق
- لمصر لا لعبد الناصر
- زيارة جديدة للتاريخ
- حديث المبادرة
- خريف الغضب
- السلام المستحيل والديموقراطية الغائبة
- وقائع تحقيق سياسي أمام المدعي الاشتراكي
- بين الصحافة والسياسة

مجموعة د. سليم الحص

- صوت بلا صدى
- تعالوا إلى كلمة سواء
- سلاح الموقف
- في زمن الشدائد لبنانياً وعربياً
- للحقيقة والتاريخ
- نحن والطائفية
- عصارة العمر
- محطات وطنية وقومية
- ما قَلَّ ودَلّ
- ومضات في رحاب الأمة

مجموعة د. وليد رضوان

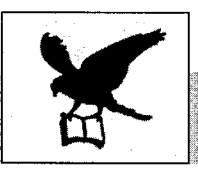
- مشكلة المياه بين سوريا وتركيا
- العلاقات العربية التركية
- تركيا بين العلمانية والإسلام

مجموعة جوزيف أبو خليل

- مبادئ المعارضة اللبنانية
- رؤية للمستقبل
- لبنان وسوريا مشقة الأخوة
- قصة الموارنة في الحرب
- لبنان... لماذا؟

مجموعة بول فندلي

- من يجرؤ على الكلام
- الخداع
- لا سكوت بعد اليوم

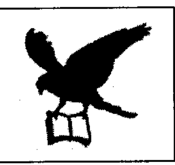


مجموعة كريم بقرادوني

- لعنة وطن
- السلام المفقود
- صدمة وصمود



- تقي الدين الصلح سيرة حياة وكفاح - (جزآن) - عمر زين
- مبادئ المعارضة اللبنانية - حسين الحسيني
- رؤية للمستقبل - الرئيس أمين الجميل
- الضوء الأصفر - عبدالله بو حبيب
- مذكرات قبل أوانها - شكري نصرالله
- السنوات الطيبة - شكري نصرالله
- ستّ الستّات - علياء رياض الصلح - شكري نصرالله
- الخلوي أشهر فضائح العصر - ألين حلاق
- أصوات قلبت العالم - كيري كندي
- الخيارات الصعبة - د. إيلي سالم
- أسرار مكشوفة - اسرائيل شاحاك
- الولايات المتحدة الصقور الكاسرة في وجه العدالة والديموقراطية - تحرير برند هام
- مزارع شبعا حقائق ووثائق - منيف الخطيب
- الأشياء بأسمائها - العقيد عاكف حيدر
- اللوبي - إدوار تيفنن
- أرض لا تهدأ - د. معين حداد
- الوجه الآخر لإسرائيل - سوزان نايثن
- مساومات مع الشيطان - ستيفن غرين
- بالسيف أميركا وإسرائيل في الشرق الأوسط - ستيفن غرين
- الأسد - باتريك سيل
- الفرص الضائعة - أمين هويدي
- طريق أوسلو - محمود عباس
- الأمة العربية إلى أين؟ - د. محمد فاضل الجمالي
- النفط - د. هاني حبيب
- الصهيونية الشرق أوسطية - إنعام رعد
- حربا بريطانيا والعراق - رغيد الصلح
- نحو دولة حديثة بعيداً عن ٨ و١٤ آذار - الشيخ محمد علي الحاج العاملي
- الحصاد - جون كوولي
- عاصفة الصحراء - اريك لوران
- حرب تحرير الكويت - د. حبيب الرحمن
- حرب الخليج - بيار سالينجر وإريك لوران
- المفكرة المخفية لحرب الخليج - بيار سالينجر وإريك لوران
- الماسونية - دولة في الدولة - هنري كوستون
- النفط والحرب والمدينة - د. فيصل حميد
- رحلة العمر من بيت الشعر إلى سدّة الحكم - د. عبد السلام المجالي
- الدولة الديموقراطية - د. منذر الشاوي
- التحدي الإسلامي في الجزائر - مايكل ويليس
- السكرتير السابع والأخير - ميشيل هيلير
- التشكيلات الناصرية في لبنان - شوكت اشتي
- كوفي أنان رجل سلام في عالم من الحروب - ستانلي ميسلر
- عزيزي الرئيس بوش - سيندي شيهان
- الولايات غير المتحدة اللبنانية - شادي خليل أبو عيسى
- رؤساء الجمهورية اللبنانية - شادي خليل أبو عيسى
- أوزبكستان على عتبة القرن الواحد والعشرين - إسلام كريموف
- أوزبكستان على تعميق الإصلاحات الاقتصادية - إسلام كريموف
- العرب والإسلام في أوزبكستان - بوريبوي أحمدوف وزاهدالله مندوروف



- □ إسرائيل والصراع المستمر - ربيع داغر
- □ أبي لافرنتي بيريا - سيرغو بيريا
- □ الفهم الثوري للدين والماركسية - زاهر الخطيب
- □ الديبلوماسية على نهر الأردن - د. منذر حدادين
- □ المال إن حكم - هنري إده
- □ قراصنة أميركا الجنوبية - أبطال يتحدّون الهيمنة الأميركية - طارق علي
- □ اللوبي الإسرائيلي وسياسة أميركا الخارجية - جون ج. ميرشايمر وستيفن م. والت
- □ على خط النار - مذكرات الرئيس الباكستاني بروزي مشرف
- □ قرارات مصيرية: حياتي في دهاليز السياسة - غيرهارد شرودر
- □ امرأة في السلطة - كارل برنستين
- □ الطبقة الضاربة - دايفد روثكوبف
- □ ابنة القدر - بنازير بوتو
- □ إرث من الرماد - تيم واينر
- □ حكاية وطن - ا.د. سري نسيبه
- □ بلاكووتر - أخطر منظمة سرية في العالم - جيريمي سكاهيل
- □ حروب الأشباح - ستيف كول
- □ سنوات بلير - ألستير كامبل وريتشارد سكوت
- □ الأيادي السود - نجاح واكيم
- □ ستالين الشاب - سيمون سيباغ مونتيفيوري
- □ تعتيم - بقلم آمي وديفيد جودمان
- □ دارفور تاريخ حرب وإبادة - جولي فلنت وألكس دي فال
- □ بالعطاء لكلٍّ منّا أن يغيّر العالم - بيل كلينتون
- □ رئيس مجلس الوزراء في لبنان بعد الطائف ١٩٨٩ - ١٩٩٨ - محمود عثمان
- □ تواطؤ ضد بابل - جون كولي
- □ العلاقات اللبنانية - السورية - د. غسان عيسى
- □ سوكلين وأخواتها - غادة عيد
- □ . . .؟! أساس الملك - غادة عيد
- □ الخلوي أكبر الصفقات - غادة عيد
- □ ما وراء البيت الأبيض - جيمي كارتر
- □ السلام ممكن في الأراضي المقدسة - جيمي كارتر
- □ المصالحة - الإسلام والديموقراطية والغرب - بنازير بوتو
- □ قضيّة سامة - يوست ر. هيلترمان
- □ لبنان بين ردَّة وريادة - ألبير منصور
- □ الأمن الوطني الداخلي لدولة الإمارات العربية المتحدة - عائشة محمد المحياس
- □ سجن غوانتانامو - شهادات حيّة بألسنة المعتقلين - مايفيتش رخسانا خان
- □ في قلب المملكة - حياتي في السعودية - كارمن بن لادن
- □ هكذا. . وقع التوطين- ناديا شريم الحاج
- □ إرث من الرماد - تاريخ «السي.آي.أيه.» - تيم واينر
- □ لبنان: أزمات الداخل وتدخّلات الخارج - مركز عصام فارس للشؤون اللبنانية
- □ أميركا من الداخل - د. سمير التنير
- □ سوريا ومفاوضات السلام في الشرق الأوسط - جمال واكيم



الجية، طلعة زاروط،
مبنى **International Press**، لبنان
هاتف: ٣٠٠/٩٩٦٢٠٠ ٧ ٩٦١+
البريد الإلكتروني: **Interpress@int-press.com**
الموقع الإلكتروني: **www.int-press.com**